المركز القومى للترجمة

صورة لمصر

رحلة فى عالم الجماعات الإسلامية المتشددة
صورة جديدة لـ "أسامة بن لادن"

تأليف: مارى آن ويفر
ترجمة: نشأت باخوم

مراجعة: نسيم مجلى
تقديم: محمد عفيفى

المشروع القومى للترجمة

2054

بينما كان السادات يغادر القاهرة على متن طائرة الخطوط الجوية المصرية رقم واحد، كانت انتخابات اتحاد الطلبة في جامعة الإسكندرية تجرى، تلك الانتخابات التي أثبتت أنها نقطة تحول؛ حين اكتسحت الجماعات الإسلامية كل التيارات الأخرى، وسيطرت على اتحادات كليات القمة كالطب والصيدلة والهندسة والحقوق، حيث بدأت الجماعات وبسرعة في فرض إرادتها، وكانت حملتهم تتم تحت قيادة رجل دين أعمى يدعى الشيخ عمر عبد الرحمن، كان يمتلك القليل من الشهرة فى تلك الفترة خارج صعيد مصر.

لم يكن الهدف من وراء هذا الكتاب أن يكون بحثا أكاديميا أو حسابا دقيقا. إنه ببساطة شديدة رحلة امرأة عبر عالم الميليشيات الإسلامية المتطرفة.

تصميم الغلاف: سيف جمال

صورة لمصر

رحلة فى عالم الجماعات الإسلامية المتشددة

صورة جديدة لـ«أسامة بن لادن»

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف : فيصل يونس

- العدد : 2054
- صورة لمصر : رحلة فى عالم الجماعات الإسلامية المتشددة - صورة جديدة لـ«أسامة بن لادن»
- مارى آن ويفر
- نشأت باخوم
- نسيم مجلى
- محمد عفيفى
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب :

A Portrait of Egypt

By: Mary Anne Weaver

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El- Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

E-mail: egptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 Fax : 27354554

صورة لمصر

رحلة فى عالم الجماعات الإسلامية المتشددة

صورة جديدة لـ«أسامة بن لادن»

تأليف : مارى آن ويفر

ترجمة : نشأت باخوم

مراجعة : نسيم مجلى

تقديم : محمد عفيفى

2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ويفر مارى آن.
صورة لمصر. رحلة فى عالم الجماعات الإسلامية المتشددة / تأليف:
مارى آن ويفر، ترجمة: نشأت باخوم، مراجعة: نسيم مجلى، تقديم:
محمد عفيفى
ط١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣
٣٥٦ ص ، ٢٤ سم
١ – مصر – الأحوال السياسية
٢ – الجماعات التخريبية
٣ – مصر – تاريخ – الثورات
(أ) باخوم، نشأت (مترجم)
(ب) مجلى، نسيم (مراجع)
(جـ) عفيفى، محمد (مقدم)
(د) العنوان
٣٢٠،٩٦٢

رقم الإيداع ٢٠٥٣٢ / ٢٠١١
الترقيم الدولى I.S.B.N -978- 977 -704 - 868- 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم

يسعدنى أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب المهم، وفى البداية لا بُد أن أُوضِّح قصتى معه؛ إذ طلب منى الأصدقاء فى المركز القومى للترجمة النظر فى هذا الكتاب وإعداد مقدمة شارحة له نظرًا لما يتضمنه من آراء وأفكار، وأيضًا لطبيعة وحساسية الموضوع الذى يعالجه. ومع بداية تصفحى للكتاب انتابنى شعور بالملل نظرًا للبداية التقليدية لهذا الكتاب، واستمر معى هذا الشعور ربما عبر صفحات كثيرة فى البداية، وتسربت إلى نفسى فكرة سريعة أن مؤلفة الكتاب «مارى آن ويفر» ليست إلا صورة جديدة من صور الاستشراق القديم الذى عرفناه سابقًا منذ القرن التاسع عشر وربما قبل ذلك.

ووجدت تشابهًا شديدًا بين أسلوب ونمط تفكير الكاتبة، وبين العديد من كتابات الرحالة الأجانب والمستشرقين والدبلوماسيين ممن كتبوا عن مصر والشرق بنفس الأسلوب الاستشراقي. فسيلاحظ القارئ مدى الخلط فى الصفحات بين أوضاع مصر الحديثة ومقارنتها بمصر القديمة، أى مصر الفرعونية، وستلجأ الكاتبة إلى عرض ذلك بأسلوب أدبى رفيع يُرجعنا إلى نفس النمط التقليدى للكتابات الاستشراقية فى القرنين السابقين. المقارنة الظالمة بين أوضاع الحياة ونمطها فى مصر المعاصرة وبين الماضى العظيم لمصر الفرعونية، وهى ظالمة لأنها مقارنة تتجاوز التاريخ لكنها مقارنة مقصودة من المؤلفة لمداعبة العقل الجمعى الغربى المولع بصور مصر الفرعونية، وهى نفس المشكلة التى قمت بدراستها فى دراسات سابقة عن بعض أنماط هذه الكتابات.

وسيرًا على هذا الدرب تقدم الكاتبة صورة تقليدية استشراقية، وكأن هذا العالم الافتراضى الذى تُسميه بـ «الشرق» هو عالم واحد، بصرف النظر عن الأعراق واللغات المختلفة لهذه الشعوب. كما تقدم صورة نمطية للإرهابى الصغير الجهادى تتوافق مع

فكرة بعض أنصار هذا التيار فى تقديم صورة نمطية تتوافق مع العقل الجمعى الغربي، من هنا نلاحظ أن الكتاب فى الأساس موجه لقارئ تقليدى غربي، ويرسخ لديه الصورة النمطية عن الشرق.

كما تصدمنا على سبيل المثال بعض المقولات العامة التى تطرحها المؤلفة وكأنها حقائق تاريخية؛ إذ تروِّج الكاتبة لأسطورة قديمة طالما شاعت فى كتابات الاستشراق القديم، أن مصر هى أقدم مستعمرة فى التاريخ. وربما يرجع ذلك إلى تقليدية ثقافة المؤلفة وطبيعة دراستها حول الشرق الأوسط حيث كان مدخلها فى الأساس هو مدخل استشراقى (دراسات الشرق الأوسط)، هذا النمط الذى ينظر لشعوب الشرق الأوسط، وليس فقط الشعوب العربية، على أنها نمط شبه موحد. لذلك تردد الكاتبة الأسطورة السابقة بحماسٍ شديد، أن مصر منذ فقدت استقلالها على أيدى الفراعنة أصبحت أقدم مستعمرة فى التاريخ، وهى لا تعلم المعنى الحقيقى لمفهوم المصرية، وأن مصر هى فى الأساس ثقافة ووطن يستطيع صبغ كل القادمين إليه. وربما يتضح للقارئ مدى شطط مفهوم الكاتبة فى هذا الاتجاه إذا قلنا إنه وفقًا لهذه المقولة يجب، على سبيل المثال، حذف كليوباترا من التاريخ المصرى لأنها يونانية وليست مصرية، مع أن جميع الدراسات تُثبت مدى مصرية كليوباترا حتى النخاع ودفاعها المستميت إلى آخر لحظة عن مصر، فضلاً عن الثقافة المصرية التى صبغت حياة الملوك البطالمة فى مصر.

كما ترجع خطورة هذه الأسطورة «أقدم مستعمرة فى التاريخ» أن السير فيها لمسافة أطول قد تؤدى بنا إلى وصف الفتح العربى بأنه (الغزو العربي)، وأن العرب غزاة على مصر، وبالتالى فإن مصر كانت مستعمرة عربية.

وربما تتضح لنا الصورة أكثر وأكثر للمعنى الحقيقى للهوية المصرية ولطبيعة مصـــر التـى تُضفى طابعها على كل القاطنين بها. إن أشهر مؤرخى مصر الحديثة مثل عبد الرحمن الجبرتى ترجع أصوله إلى إقليم جبرت فى شرق أفريقيا؛ كما أن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى، صاحب تاريخ الحركة القومية فى مصر، أصوله شامية. وهل بهذا المنطق الاستشراقى العقيم ننظر إلى محمد على مؤسس الدولة الحديثة فى مصر على أنه أجنبى اغتصب حكم مصر؟

إن مفهوم القومية الذى تحدثت به المؤلفة هو مفهوم شديد المعاصرة، ولا يتفق حتى مع تاريخ أوربا الحديث، حيث كانت معظم الأسرات الحاكمة فى الكثير من الممالك الأوربية من أصول غير محلية. إن هذه الأسطورة «مصر أقدم مستعمرة فى التاريخ» تحتاج إلى العديد والعديد من الدراسات، لكن هدفنا هنا هو مجرد إحاطة القارئ الكريم بمدى وهن تلك الأسطورة التى ذكرتها المؤلفة.

وربما يغفر للمؤلفة طبيعة دراستها وطبيعة مهنتها، فهى قد عملت مراسلة للعديد من دور الصحف الأجنبية فى مصر فى العقود الأخيرة. من هنا فإن أهم ما فى كتابها فى الحقيقة ليس هو التاريخ أو التحليل السياسي، وإنما بعض اللقاءات الصحفية المهمة التى أجرتها سواء مع بعض الساسة المصريين أو الدبلوماسيين الأجانب.

ومن أهم الأمثلة على ذلك؛ الحديث الذى أجرته المؤلفة مع «مبارك»، والذى يضفى المزيد من الغموض حول مسألة اغتيال أنور السادات والشكوك التى طرحها البعض حول مبارك فى هذا الشأن؛ إذ تذكر المؤلفة أن أحد أصدقاء الرئيس السادات قد قال لها: إن مبارك حاول أن يُثنى السادات عن حضور العرض العسكري، وأنه قد وصلته معلومات من المخابرات العسكرية عن مؤامرة اغتيال يتم التخطيط لها تستهدف حياة السادات، وقد نصح السادات أن يتخذ إجراءات صارمة ضد خصومه، وخاصةً الجماعات الإسلامية المتشددة السرية. لكن المؤلفة تُفضى إلينا بسرٍ غاية فى الأهمية، أنها عندما التقت مبارك وبدأت فى الحديث معه عن حادثة الاغتيال، رفض مبارك بشدة الحديث عن هذه الواقعة وأى تفاصيل خاصة بها. مما يثير العديد من التساؤلات حول رفض مبارك الحديث عن هذا الشأن، وأيضًا حول مدى مصداقية المؤلفة نفسها، إذ إننا سنلاحظ طيلة الكتاب عبارات مثل: (سمعت من أحد المقربين) أو (وقال لى أحد الأصدقاء) أو (أفضى إليّ دبلوماسي غربي)، وبالتالى ندخل هنا إلى دائرة طبيعة المصدر التاريخى ومدى مصداقية مثل هذه الأحاديث من عدمه. ولذلك علينا أن نتقبل مثل هذه الأحاديث الصحفية بشىء من الحذر، ولكن أيضًا بشىء من الأهمية نظرًا لما تقدمه أحيانًا من معلومات غاية فى الأهمية والخطورة؛ إذ تقدم الكاتبة وصفًا رائعًا لمحدودية عقل مبارك وإمكانياته، مقارنةً بالدور

التاريخى للسادات وعبد الناصر، كما ترصد التحولات الخطيرة التى طرأت على شخصية مبارك ودفعته إلى نهايته المحتومة:

«كان مبارك هو الوريث بالصدفة وعن غير رضا لهذا النظام عام ١٩٨١، بعد اغتيال الرئيس السادات. ورغم أن هذه الولاية كانت عبئًا لم يسع قط إليه، فقد نما وكبر عبر سبعة عشر عامًا ليحتضنها ويطوقها ويتشبث بها بعناد، فها هو الآن أطول رئيس حكم مصر فى تاريخها. ومبارك بوصفه ممثلاً للجيل الثالث للثورة فهو يفتقر لحب الجماهير الجارف الذى كان يتمتع به عبد الناصر وأيضًا السادات، والكثير من القاهريين يرونه إلى حدٍ ما أشبه بموظفى محفوظ البيروقراطيين؛ رمادى ذو بُعدٍ واحد وأصغر تقريبًا من الحياة. وعندما تولى مبارك الرئاسة عام ١٩٨١، تحدث عن فترات رئاسة محددة وعن انفتاح مصر على الديموقراطية، وعن حاجته للمساعدة والنصيحة الخارجية، وعن حتمية إصلاح الاقتصاد المصري. ولكن طبقًا لناقديه فقد تنامت سلطة مبارك وقوته وأصبح محصنًا بصورة متزايدة، وقد أحاط نفسه بالمنافقين والأصدقاء العسكريين القدامى، وأصدر قرارات أكثر سلطوية حتى أكثر ممن سبقوه بنفس الطريقة التى أهلكت أنور السادات والملكية المصرية. نبرته، مبارك، الإمبراطورية المتزايدة أذهلت الكثير ممن عرفوه باعتباره قائدًا بعيدًا عن الادعاء، عندما كان قائدًا للقوات الجوية ونائبًا لرئيس الجمهورية».

كما تقدم لنا المؤلفة بشارة مهمة حدثت بالفعل مع أحداث ثورة ٢٥ يناير؛ إذ تعرض تصوراتها لسيناريوهات التغيير فى مصر وتقف بشدة عند أحد السيناريوهات التى طرحتها وهو قيام ثورة شعبية وعصيان مدنى فى مصر. ترى المؤلفة أنه فى هذه الحالة لن تنفع الشرطة فى الوقوف أمام هذه الثورة والعصيان المدني، وأن مبارك سيلجأ إلى طلب التدخل من الجيش. ولكن المؤلفة، وتحتفظ هى بمصادرها، ترى أن الجيش فى هذه الحالة سينحاز فى النهاية للشعب، ولن يستمع إلى الأوامر بإطلاق النار على المتظاهرين، وهو تقريبًا نفس السيناريو الذى حدث فى أثناء الثورة.

من هنا تأتى أهمية مثل هذه الكتابات الصحفية التى يقدمها المراسلون الأجانب فى مصر، فعلى الرغم من محدودية الطابع الأكاديمى بها، ووجود بعض المغالطات التاريخية،

لكن أهميتها تأتى من الوصول إلى مصادر للمعلومات والأخبار ربما لا يستطيع نظراؤها المحليون الوصول إليها. من هنا تأتى أهمية هذا الكتاب المهم فى مضمونه والذى نختلف معه فى الكثير من التفاصيل.

محمد عفيفى

شكر وتقدير

هذا الكتاب هو ثمرة رحلة امتدت لأكثر من عقد من الزمان وخلالها أصبحتُ مدينة بشدة وبعمق للعديد من الأصدقاء. الذين أستطيع الآن فقط أن أبدأ فى الاعتراف بحقهم هنا. فما كان يمكن أن يكتب هذا الكتاب أو حتى يمكن تصوره، دون الدعم القوى لكثير من المصريين، شاركنى بعضهم رحلتى منذ أيام دراستى، وبعضهم التقيت به حديثا جدا. الكثير منهم وردت أسماؤهم فى تلك الصفحات، وإنى لأتوجه بالشكر إلى أشخاصهم وأنوِّه إلى أن أية أخطاء فى الحقيقة أو الحكم عليها هو فى الواقع هو خطئى أنا وليس خطأهم. فهناك الكثير من المصريين الذين يمتلكون نفس الأهمية فى موضوع الكتاب، هؤلاء الذين أدلوا بآرائهم وأخفوا هويَّاتهم يمثلون جزءا مهمًّا من هذا الكتاب. وإنى لأقدر، وأتفهم رفضهم عدم الإفصاح عن هويتهم أو التعبير بحرية عن آرائهم والسماح لى بالاقتباس من أقوالهم .

وأشير إلى أن بعضا من المادة المتضمنة فى هذا الكتاب ظهرت فى شكل مختلف، فى مجلات (the New Yorker) و(The Atlantic) وللمحررين هناك أمثال جون بينيت (John Bennet) وكلارا جلونويسكا (Klara Glowczewska) وجاك بيتى (Jack Beaty)وأرسل لهم جميعا تحياتى .

أود أيضا أن أتوجه بتحية خاصة لأحمد عبد الستار، مترجمى الصبور غير المتردد، ومساعد الشيخ عمر عبد الرحمن، لقد كان مستعدا دائما ومتأهبا من أجلى، كما كانت زوجته ليزا لديها نفس الحماس، فعندما كنت فى نيويورك تفصلنى مسافات طويلة عن مصر بدرجة قد تحول بينى وبين فهم الأحداث وظلالها الضئيلة الكامنة فيما بين السطور. كما أحمل فى عنقى دينا ثقيلا لفيرجينيا شيرى (Virginia Sherry) المدير المساعد لمراقبة حقوق

الإنسان فى الشرق الأوسط. لقد التقينا لأول مرة بمكتب محامٍ إسلامى فى القاهرة، عام ١٩٩٣، ومنذ ذلك الحين شاركتنى الكثير من محطات هذه الرحلة. كنت آمل أن أتلقى منحة لكتابة هذا الكتاب إلا أن سوء الحظ حال دون الحصول عليها . كما أود أن أشير إلى أن هذا العمل كان من المستحيل أن يرى النور دون المساعدة الثمينة لعدد من الأصدقاء فى مجلة (The New Yorker) الذين حملوا على عاتقهم عبء الإنتاج : وأخص منهم ليزا جودوين (Liza Goodwin) وهارولد أمبلر (Harold Ambler) وجوستين كوك (Justine Cook) فلهم جميعا عظيم الشكر. وأنا أيضا مدينة بدين خاص لفريق تقصى الحقائق الجسور فى المجلة – ناندى رودريجو (Nandi Rodrigo) وآن سترينجفيلد (Anne Stringfield) ووجون دورفمان (John Dorfman) – الذين أنقذونى من كثير من الحرج والارتباك. وأى تقصير يعود على شخصى المتواضع ولا يمسهم فى قليل أو كثير.

كما أخص بالذكر صديقى المحرر، جون إى جلوسمان، بمجلة فارار وشتراوس وجيروكس، وقد كان جون جلوسمان بالغ المودة والكرم من البداية حتى النهاية، وظل يشجعنى حتى عبر الخطوط الحمراء وفى أدق المواقف صعوبة وحسما. وكان يحاول دائما تيسير التراكيب التى كانت تستعصى على فهمى طالت أم قصرت .

إنى أهدى هذا الكتاب لذكرى والدى كلاى آن ويفر، ووالدتى باربارا ولزوجى دين برييليس، وأنا مدينة بالكثير لهذا الثلاثى. فبدون تعهدهم الدائم لهذا الكتاب، ما كان ليتم إنجازه، ولا حتى مباشرة الكتابة فيه.

تمهيد

وصلتُ القاهرة أول مرة منذ أكثر من عشرين سنة، كان فضولى فى ذلك الوقت هو رفيقى الوحيد ومرشدى أيضا. كنت وقتها أعمل كمراسلة صغيرة لوكالة الصحافة الدولية المتحدة ال (U P I) وخبيرة للواشنطون بوست، كنت أزمع الالتحاق بالدراسات العليا فى الشئون العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة . ولم أكن أحمل آية معرفة فى جعبتى أو نسب أو قرابة ولا أ فكار مسبقة ولا حتى بعض الإلهام .

كان ذلك في يونيه عام ١٩٧٧، فى ليلة شديدة الحرارة، كنت أنا وزوجي، دين بريليس، (Dean Brelis) الذى كان قد تم تعيينه حديثا رئيسا لمكتب مجلة التايم فى الشرق الأوسط، عندما حاولت جاهدة الخروج من الطائرة التابعة لـ إل تى دبليو إى (T W A) لتتلقفنى فى الحال عاصفة صحراوية رملية عمياء أخفت كل المعالم والأشكال وجعلتنى لا أقوى حتى على الإبصار. وقد بدت من بعيد أضواء متلألئة ناطقة متحدثة خلف صالة الوصول فى مطار القاهرة. مشيْنا متثاقلى الخطى نحوها، نشق طريقنا بجهد جهيد بسبب الرمال والغبار. على نقيض الفضاء المشكل للصحراء المحيطة بالمكان، بدت لنا مبانى صالات مطار القاهرة، وكأنها مجموعة من الديناصورات العملاقة. كان الصوت الوحيد الذى نسمعه هو صوت طرقعات الأحذية . عندئذ، سمعت صوت المؤذن داعيا المؤمنين للصلاة (صلاة المغرب) من فوق قمة مسجد. كانت الشمس قد بدأت رحلتها نحو المغيب، وتحول لون السماء إلى اللون القرنفلى الأحمر الداكن، لم يكن من حولنا سوى صحراء ساكنة ممتدة بلا نهاية .

هناك شيء ما بخصوص تلك اللحظة، شيء محير، مفعم بالسحر، ثم بالغضب، ذلك الشعور الذى ما انفك يلازمنى طوال السنوات الثلاث التالية. لأنها كانت لحظة، كما علمت

أخيرًا، لا تختلف عن مصر نفسها: ساحرة بدرجة غريبة، غامضة ومتناقضة ومملوءة التباسا ودهشة.

وعندما أنظر إلى تلك السنوات الأولى، من تلك الحقبة التى استمرت حتى نهاية عام ١٩٧٩، أجد أنه من المستحيل تقريبا القدرة على استدعاء أى شيء — اللهم إلا التفاصيل المحلية المملة، التى كان التنبؤ بها ممكنا. بدأت أتساءل ما إذا كان الخروج عن القاعدة قد أصبح هو القاعدة. لقد قمت بتغطية انتفاضة الخبز (انتفاضة الحرامية كما سمَّاها السادات) كان الثوار يأخذون فيها فترات راحة للغداء والصلاة. تعشيت فى أحد القصور الرائعة ذات المروج الخضراء الواسعة المنبسطة، شيئا متناقضا ومتضاربا كبزوغ شيء ذى ألوان زاهية فى صحراء قاحلة، حيث إن تلك القصور ارتفعت من وسط تلك الأحياء الفقيرة. وجدت المرح والضحك يتصاعدان من مدينة الموتى بين القبور، حيث مئات الآلاف من القاهريين الذين يسكنون المقابر والأضرحة يمارسون شعائر طرقهم الصوفية بنفس الإيقاع المتقن الذى كان الكاهن الفرعونى القديم يؤدى به طقوسه وشعائره. حتى الفقر فى مصر له شيء من الروعة والبهاء .

التقيت برجال بنوك وموظفين حكوميين – كما التقيت بباحث زراعى – جميعهم كانوا حذرين ومحتاطين فيما يقولونه غالبا. كانوا أناسًا مملين: رماديين، أشكال أحادية الأبعاد، أصغر تقريبا من الحياة. عندئذ، فى مساء يوم جمعة، ذهبت إلى أحد المساجد المجاورة القريبة، ولاحظت بعضا من وجوههم بين الجمهور مرتدين الجلباب الأبيض الطويل والطاقية الإسلامية البيضاء المحبوكة، كانوا متحمسين ومتقدين، يخطبون فى الحاضرين عن الثورة القادمة التى لابد من تفجيرها.

كانت تلك من المفارقات غير المتوقعة فى مصر والتى سلبتنى لبى وضللتنى كثيرا.

. كان هناك صراخ وعويل يختلط لان فيهما الحابل بالنابل، كما لو قد صمم، مع جمال المراكب الشراعية السرمدى التى تنساب بلا جهد يذكر لتبحر عبر النيل، وتمتد أشرعتها لتصل إلى عنان السماء كما كانت حالها منذ أيام الملكة كليوباترا، كانت حالات دهشة عارمة وارتباك هائل، صراع، وفوضى، وتغير بينما يتصارع أربعون مليـونا من المصريين مع

العصر الحديث ومع بعضهم البعض فى بلدهم القديم. ماضيهم الاستعمارى والعوالم التى عانقته كانت تتقهقر مهزومة، بينما يتم الحفاظ على آثارهم ومقابرهم الفرعونية القديمة. فى وسط كل هذا كان هناك قلق نتيجة الخلل وعدم التوازن، حيث تعيش مصرفى العصور الوسطى جنبا إلى جنب مع القرن العشرين فى آن وأحد: ففى ذلك الوقت كانت هناك مؤسسات تقوم بعمل أبحاث عن صواريخ الفضاء وأيضا عن عربات الكارو. واحدة من تلك الصور التى لم تفارق خيالى من تلك الأيام هى صورة عربة كارو يجرها حمار تحمل صاروخ سام ٧ لنقله إلى مكان من المزمع أن يقام فيه عرض عسكري.

إن بزوغ فكرة هذا الكتاب ترجع إلى تلك الأيام، وإلى فضولى لاكتشاف كل تلك المتناقضات التى تشكل الحياة المصرية. وقد عزمت فى ذلك الحين – كما عزمت فى الأيام التى تلت ذلك – أن أدخل إلى عمق المصريين وأحاول أن أبصر حقيقتهم – كما يرون أنفسهم – وأن أروى قصصهم وحكاياتهم بنفس أصواتهم ذاتها ومن خلال عيونهم أيضا. بزغت أيضا الفكرة منذ مساء بعيد ليوم جمعة قمت فيه بزيارة أحد المساجد المجاورة لي، وكان ذلك الحدث منذ عشرين عاما وفيها بدأت رحلتى إلى عالم الإسلام المتشدد المتطرف. كان غريبا، إنسانيا دائما، عنيفا ومتوحشا أحيانا، طريقا لم يكن من الممكن التنبؤ به ذلك الذى سلكته لمدة تزيد على العشر سنوات من مصر إلى إسرائيل إلى الضفة الغربية المحتلة وغزة، ومن ثم إلى باكستان وأفغانستان. ولكن إلى مصر كنت دائمًا أعود فى محاولة للقبض على روح المكان التى استولت عليَّ وطاردتنى عندما كنت هناك.

ظللت دائما أعود لألقى النظر بصورة عميقة على السنوات الخمس الأخيرة، كى أفهم ديناميكية الحركة التى انصب عليها اهتمامى وأوْليتها عنايتى خلال دراستي، والتى اتخذت منذ ذلك الحين وجوها وأشكالا مختلفة. كنت دائما أتساءل، هل كان من الممكن لمصر – التى يبلغ سكانها الآن نحو ستين مليون نسمة، ثلث العالم العربى تقريبا– أن تخسر معركتها مع الإسلام المتشدد؟ وفى ظل الأحداث التى حدثت فى أكبر دولة عربية من حيث الكثافة السكانية وأهم دولة فى العالم العربي، ماذا كان سيعنى هذا للمسلمين السُّنة بصفة عامة، وبصفة خاصة للسياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط؟

كنا جميعا على حد سواء – سواء كنا صحفيين أم دبلوماسيين أم موظفين حكوميين أو مصريين أو إسرائيليين أو أمريكان نميل – إلى رسم وتصوير السبعينيات فى مصر والشرق الأوسط على لوحة هائلة الحجم مزخرفة ومطرزة باللون والتصميم الزاهين. كانت هناك ذكريات لمعارك عظيمة تم خوضها وأوهام عظيمة تبعثرت خلال حرب عام ١٩٧٣. كانت هناك مشاريع عظيمة، كالسد العالى فى أسوان، ووصول ما يقرب من ٢٠ ألف سوفيتى لمصر، الذين رحلوا بنفس السرعة التى وصلوا بها . كان هناك ثراء فاحش بسبب الأرباح التى صاحبت قيام الأوبك. ثم كانت هناك أحداث عام ١٩٧٩: حيث وقّعت مصر وإسرائيل على معاهدة سلام، واجتاح الاتحاد السوفيتى أفغانستان، وقامت الثورة الإيرانية، ووثب على خشبة المسرح العالمى الحالمون والاستعراضيون، وجاء الإرهابيون والعدميون والفوضويون والمحتالون والمتصوفون ورحلوا كما جاءوا فى تواؤم مع الفصول، كنزوة طارئة غريبة كالعواصف الرملية التى تهب مع رياح الصحراء. منذ أن أصبح أنور السادات رئيسا لمصر وأصبح مثار حواراتنا وانتباهنا ليلا ونهارا، حيث إن السنوات التى قضيناها فى مصر هى السنوات التى شهدت ولأول مرة سلامًا بين العرب وإسرائيل.

بعد وصولنا بنحو ستة أشهر حدث ما أثار دهشة وشكوك الكثيرين، فقد سافر الرئيس السادات إلى القدس فى رحلته المقدسة ليتحدث بصورة مباشرة للإسرائيليين عن سلام شرق أوسطي. لم يحدث من قبل أن زار زعيم عربى الدولة اليهودية، كانت تلك اللحظة من اللحظات المستحيلة بعيدة الاحتمال فى التاريخ العربى الإسرائيلى الحديث. بعد سنة من ذلك التاريخ توجه السادات إلى كامب دافيد، فى تلال ميريلاند، مع الرئيس الأمريكى جيمى كارتر ورئيس الوزراء الإسرائيلى مناحيم بيجن فى مباحثات سرية كانت مزعجة فى أغلب الأحيان ومغضبة فى بعض الأحيان، والتى كانت لابد أن تحول النيَّات إلى واقع ملموس.

بينما كان السادات يغادر القاهرة على متن طائرة الخطوط الجوية المصرية رقم واحد، كانت انتخابات اتحاد الطلبة فى جامعة الإسكندرية تجرى، تلك الانتخابات التى أثبتت أنها

نقطة تحول: اكتسحت الجماعات الإسلامية كل التيارات الأخرى وسيطرت على اتحادات كليات القمة كالطب والصيدلة والهندسة والحقوق، وبدأت الجماعات وبسرعة فى فرض إرادتها، فقد منعت بالقوة تدريس داروين ومنعت الاحتفالات بالأعياد الوطنية الدنيوية.

(تم النظر إلى عيد الأم على اعتبار أنه عيد وثني). كانت تلك أول مرة تعبر الحركة الإسلامية المصرية عن نفسها بمثل هذه القوة فى الشمال. فقد بدا وكأنها اقتصرت فى السابق على القرى والمدن الصغيرة فى صعيد ووسط مصر، وبصورة خاصة فى جامعة أسيوط والمناطق المجاورة التى شهدت نشاطا متناميا للإخوان المسلمين لعدة سنوات، فقد كسبوا أرضا ذات قيمة بتكثيف نشاطاتهم المعارضة لعملية السلام فى الشرق الأوسط بصفة عامة، وضد حكم السادات الدنيوى العلمانى بصورة خاصة.

كانت حملتهم تتم تحت قيادة رجل دين كفيف، يمتلك القليل من الشهرة فى تلك الفترة خارج صعيد مصر، وكان يدعى الشيخ عمر عبد الرحمن.

ولكن رغم صرخات الإسلاميين المعترضة والمحتجة - هذا الاعتراض الذى بدأ يكتسح العالم الإسلامى كله - ففى مارس عام ١٩٧٩وفى مروج البيت الأبيض، أصبحت معاهدة كامب دافيد بين مصر وإسرائيل حقيقة واقعة.

بحلول هذا الوقت كنت قد فرغت لتوّى من دراستى بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وعدت للتفرغ للعمل الصحفى بالجريدة. قضيت ساعات لا حصر لها أتجول فى تلك المكاتب الحكومية التى كنت أتجنب البقاء فيها مفضلة مكتبات الجامعة الغنية، ومروجها الخضراء المشذبة جيدا والمقاهى المستحبة من جانب الطلبة والمتراصة كالفنارات بطول نهر النيل. كانت حياة أكاديمية خالصة. خلال تلك الفترة كانت اتصالاتى السياسية الوحيدة مع شخصية حكومية سياسية تملك القليل من اللمعان الجماهيرى آنذاك ألا وهو، نائب رئيس الجمهورية، حسنى مبارك، والذى كانت زوجته السيدة سوزان مبارك زميلة لى فى الدراسة، ومع مجموعة من الطلبة الزملاء والذين أصبحوا فيما بعد أصدقاء لي: وهم من سكان القاهرة الأغنياء المثقفين الذين، ولأسباب لم أستطع فهمها بصورة كاملة فى ذلك الحين، كانوا يقضون إجازاتهم الصيفية فى معسكرات بعيدة فى الصحراء للتدريبات العسكرية.

هذا الكتاب عن رحلتنا المشتركة: رحلتهم هم، رحلة الرئيس مبارك، ورحلة الشيخ عمر عبد الرحمن، ورحلتى أنا، ورحلة هؤلاء الناس الذين قابلتهم عبر الطريق، المفكرين وسكان الأحياء الفقيرة: والماركسيين والشيوخ والراقصات والطبالين والأمهات اللائى فقدن أولادهن من كلا الجانبين، فى حرب انتقامية بصورة متصاعدة بين قوات أمن الرئيس مبارك والإسلاميين المسلحين تحت قيادة الشيخ عمر عبد الرحمن. لم أقصد من كتابة هذا الكتاب أن يكون بحثا أكاديميا أو حسابا دقيقا. إنه ببساطة رحلة امرأة عبر عالم الجماعات الإسلامية المتشددة .

البداية

لا يوجد وجه شبه بين شوارع القاهرة وشوارع المدن الكبرى فى العالم كله. فكل ركن وكل شق وكل زقاق فى القاهرة يبدو وكأنه يعج بالسكان. تتسابق فيه جماهير المشاة والسيارات متصارعة لتجد مكانا تمر فيه، والضوضاء والضجيج والصخب فى كل مكان- حيث يساء استخدام أبواق السيارات التى تنطلق بسبب وبدون سبب، و الباعة الجائلون الذين ينادون على سلعهم، مختلطة بأصوات المؤذنين عبر مكبرات الصوت تدعو المؤمنون للصلاة.

أتخيل أن هذه الأصوات كانت تدوى فى وقت ما بالماضى عندما كان يتم سماعها فى شوارع كل مدينة كبيرة، ولكن تلك الأصوات خفتت الآن ولا يمكن سماعها إلا فى مدن كتلك المدينة. فهنا فى القاهرة وتحديدا فى خان الخليلى الموغلة فى القدم وفى دكاكينها وبازاراتها أيضا، لايزال هناك الباعة الجائلون ببضائعهم من الجوز والبندق المحمص والحديد الخردة والسلال والشيلان وزيوت الروائح والحلى والزينات. تلك الأصوات التى خفتت فى تلك المدن لا يزال صداها يدوى هنا فى القاهرة. كان ذلك واحدا من انطباعاتى الحية المشرقة التى صادفتنى فى أول يوم لى بالقاهرة،ففى صباح يوم مشرق من أيام شهر يونيه عام ١٩٧٧ كنت قد غامرت بالسير لأول مرة فى أزقة القاهرة. فى أدوار سفلية مظلمة رأيت أناسا مسنين يقومون بكى ملابس عتيقة. كان هناك أيضا فى الأزقة المظلمة شباب يرتدون الزى الإسلامى ويبيعون شرائط الكاسيت لخطب المساجد الشعبية، تلك الخطب التى تعارض النظام الحاكم وتهاجم الحكومة.

ومع ذلك فإن أهم ما أتذكره من ذلك اليوم هو: ذلك الولد الصغير الخجول، الذى قابلته بالمصادفة فى أحد المقاهى الجانبية، داخل سوق مغطى عند حافة أحد الدكاكين. كان مقهى غريبا، كما أتذكره الآن، معلقا على جدرانه المتسخة صور آية الله الخمينى (الذى كان لم

يزل فى منفاه بالقرب من باريس فى ذلك الوقت) ولرئيس منظمة التحرير الفلسطينية آنذاك ياسر عرفات. كانت الرائحة الغالبة على المكان هى رائحة نفاذة للقهوة المطحونة وللثوم وروث الحيوانات: وكان أعلى الأصوات التى سمعتها هو صوت ترتيل أو تفسير لأحكام الشريعة الإسلامية، آتيا إلينا من إحدى النوافذ المفتوحة – يتم تضخيم هذا الصوت بواسطة مكبر متصل بأحد المساجد القريبة. عندما هممت بمغادرة المكان تعلق هذا الصبى بى، وعرض أن يصطحبنى فى جولة حول المكان. كان يرتدى غطاء صوفيا مستويا للرأس من الطراز المفضل لدى قبائل الباشتون الأفغانية، وكوفية فلسطينية مرقطة بالأسود والأبيض مدلاة من فوق كتفيه الصغيرين: بدا لى وكأنه يريد أن يمزج بين كل الحركات الإسلامية المسلحة فى بوتقة واحدة.

بدأنا فى السير عبر الأزقة الضيقة، فى حركة متثاقلة بمحازاة أكشاك ضيقة ومحلات مظلمة صغيرة. كانت الألوان الغالبة على المكان هى الرمادى والأصفر وألوان التراب والغبار. يستأثر بك ذلك المظهر الذى يميز حارات مصر وأزقتها ومعابدها ومساجدها وأهراماتها بمشاعر الرهبة والدهشة، كما استأثرت من قبل بكل المغامرين من قيصر حتى نابليون وتم تخليدها بواسطة فلوبير (Flaubert) وميلفيل (Melville) وفلورانس نايتنجيل (Florence nightingale) ونجيب محفوظ.

بينما كنا نسير فى الحاضر كان الماضى يتجسد أمامنا معترضا طريقنا: فها هى قنوات الصرف الرومانية ومساجد العصور الوسطى ومقهى الفيشاوى الشهير الذى يرجع تاريخه إلى عهد نابليون. شظايا وبقايا المبانى العتيقة تبرز من بين المبانى الحجرية، ونحن نمعن النظر محدقين فيها: تلك المشربيات الخشبية المتشابكة والنقوش الزخرفية العربية (الأرابيسك) وشوايات كعكة الزنجبيل . إن القاهرة من أكثر العواصم التى عرفتها التصاقا بماضيها.

إنه لمن الصعب أن تتحلى بالموضوعية أو تكون محايدا تجاه القاهرة، على الأقل يمكن القول: إن الأمر كان صعبا جدا علىّ أنا بصفة شخصية. إنها موغلة فى القدم. منغمسة فيه وغارقة فى التاريخ، إنها مدينة التناقضات والتنوع والاختلاف لدرجة جعلتنى وأنا

أعيش هناك أفكر دائما فى أربعة أو خمسة أماكن مختلفة فى نفس الوقت. إنها مدينة عظيمة وخانقة وحانقة ومتداعية واستثنائية أيضا تلك هى القاهرة (مجمع المتناقضات) تقف بمهابة وجلال على النيل. كانت لقرون عديدة مركزا للتعليم والفكر الإسلامي– منارة ثقافية متحضرة ولكن علمانية وأنيقة. وهى أيضا عنيفة ونشيطة وحية. إنها تهاجمك لتقتنصك كل يوم.

يعشق المصريون الحديث عن مصر، ويعترفون بأنهم غالبا ما يجدونها محيرة ومربكة لهم. إنها مكان يحتم على العقل الشرقى والغربى أيضا أن يتكيف معه بصورة مستمرة. فالمفارقات واضحة وصارخة، كالفقر واللامبالاة والقذارة والفساد السياسى والاستعراض المبالغ للثراء: ذلك الانطباع الذى يتسرب إليك عن مدينة ذات حضارة عريقة يمتد تاريخها إلى سبعة آلاف عام ولكنها مبنية بصورة بدائية هلامية الشكل على أنقاض ماضيها. ومع ذلك فهى تمتلك شيئا ثابتا لا يمكن تغييره بل من الصعب اقتناصه والقبض عليه، ذلك هو روح المكان الذى ما انفك يطاردنى ويمتلكنى ويتملكنى عندما كنت هناك. فغالبا ما كنت أسأل أصدقائى المصريين كيف يمكنهم تفسير هذا السحر والإغراء المحيرين المربكين الذى تحتويه أرصفة مظلمة قذرة ومتكسرة وهواء ملوث معبأ بالأتربة وفقر مدقع كذلك الذى تراه فى كلاكتا (Calcutta). إن حضورها معلن بصورة قوية، لكن تعريفها وتحديد ملامحها ثبت أنه مستغلق يحيِّر الأفهام . تلقيت إجابات كثيرة مختلفة عن تساؤلى عبر السنين، ولكن لم أجد إجابة واحدة كافية، عندئذ علمت أن مصر كانت وستظل دائما تثير التساؤلات لا الأجوبة. وهذا جزء من روعتها وفتنتها.

كنت أتساءل دائما: هل استطاع أى شخص أن يفهم تلك الابتسامات المرتسمة على شفاه التماثيل الفرعونية، تلك التماثيل القابعة فى مقابر صعيد مصر، والتى كانت دائما تشعرنى بالتوجس وتوقع الشر. أو الروح المأسورة بصورة أو بأخرى بمنظر المراكب الشراعية التى تنزلق بلا محرك عبر النيل مغازلا إياها كبنت هوى فى أيام كليوباترا؟ كيف يمكن لشخص أن يفسر سحر تلك اللحظات التى تواجهك فى الصحراء، على مقربة من هنا،

حيث يرى لحظات شروق الشمس وغروبها أو فى مئات القرى والمدن الصغيرة المرتدية لغشاء القدم المحمول برياح الصحراء؟

لقد تم بناء القاهرة الحديثة فى بداية القرن العشرين لتتسع لثلاثة ملايين نسمة: ولكن بحلول العام ١٩٧٧ كانت القاهرة قد اكتظت بما يزيد على خمسة ملايين نسمة من القاهريين المرحين. تتسابق فيها عربات جامعى القمامة الكارو زاهية الألوان، وقطعان الأغنام والماعز مع سياراتها الخاصة المائتين وخمسين ألفا. حتى فى ذلك الحين كانت القاهرة – أكبر المدن الإسلامية – ومن أكبر المدن المكتظة فى الشرق الأوسط، وربما فى العالم. لقد تم إخبارى أنها مكان من الصعب – إن لم يكن من المستحيل– العيش فيه. كان هناك فشل متكرر للسلطة: كان هناك نقص حاد فى الطعام. كنت دائما أجد الجبن المستورد والكافيار فى السوق، ولكن لا أجد الدقيق أو الصابون المحلي. كان من المستحيل غالبا أن تجرى مكالمة تليفونية مع من يقطن أسفل شقتك. تنفرد القاهرة حقا كعاصمة يختلط فيها الحابل بالنابل!

ومع ذلك فإنه هنا فى جزيرة الزمالك الراقية حيث عشنا، كان دائما هناك عبق التاريخ وروح العالم الذى أتى قبل ذلك– قصور على طراز الملك إدوارد، معظمها الآن فى حاجة إلى ترميم، مروج واسعة تظللها أشجار السرو والصنوبر الأوكاليتوس: طرق عريضة مشجرة يتم اجتيازها وتتحرك عليها العربات والخيول. ظلت الحياة ساحرة وفاتنة على هذا الجانب من النيل. كانت هناك حفلات وسهرات،مع كئوس الشاى التى يتم شربها بعد الظهر. (شاى الساعة الخامسة). كانت الحوارات والمناقشات تدور دائما حول السياسة وعن فولتير (Voltaire) والفيلسوف كانط (Kant). كان هناك شعور بأن مصر تنجرف– لا أحد يدرى إلى أين.

أتذكر تلك الأمسيات المبكرة، عندما جلسنا فى شرفات مجهزة جيدا مطلة على النيل، وكنا ننظر إلى الجهة الأخرى من النيل حيث حى الفقراء فى إمبابة: مكثنا نتأمل أسلوب حياتها. كان معدل كثافة السكان فى إمبابة يبلغ مائة وخمسين ألف شخص لكل ميلين مربعين، معدل أربعة أشخاص فى كل حجرة تقريبا. فى الجانب الذى كنا نعيش فيه نحن (فى الزمالك) كان معدل الأفراد الذين يعرفون القراءة والكتابة من أعلى المعدلات فى العالم : أما فى

إمبابة فكان معدل دخل الفرد ثلاثين دولارا فى الشهر. هنا (فى الزمالك) كان يتم الحديث خلال حفلة عشاء تقام على أضواء الشموع بأربع لغات بصورة طبيعية. فالحجرات كانت مملوءة بالكتب. أما هناك فهى مخبأة ومختفية فى الأزقة، بصورة أبعد مما نفهمه أو نتخيله، حيث الأغنام والماعز والأطفال يشربون من البالوعات المفتوحة، وبعد الظلام يبقى الجيران تحت رحمة قطعان الكلاب الضالة. أتذكر جيدا وبصورة خاصة، إحدى الأمسيات حين كنت أراقب مع صديق لى وميض أضواء خافتة لمراسم تشييع جنازة وهى تمر عبر إمبابة. فى الصباح التالى قرأنا فى الصحف المحلية أن طفلين قد تم التهامهما أحياء بواسطة الفئران.

ما بدا لى واضحا فى تلك السنين الأولى وما بدأت ألمحه هو أن مصر الحقيقية هى مصران على الأقل . مصرنا نحن فى الزمالك ومصرهم هم فى إمبابة. هناك عالمان، عالمنا فى الزمالك وعالمهم فى إمبابة، لا يفصل بينهما إلا النيل المتموج.كان هناك صعيد مصر ودلتا النيل محتضنة البحر المتوسط. كان هناك الحاضر والماضى أما المستقبل فمازال غامضا ومبهما وقبيح المعالم.

ففى الكثير من دول الشرق الأوسط، تم دفن المستقبل فى الماضي. واليوم مصر ليست إلا أثرا، إذ لاتزال أسيرة لماضيها القديم. فقد قدمت للعالم تاريخ الأسر الفرعونية ونادى الجزيرة الرياضي، والأهرامات وكانت تلك من أهم الآثار روعة وجمالا. ولكن هناك الجانب المظلم، والذى يتقاتل فيه الحاضر مع الماضى حيث يتقاتل فيه العلمانيون مع الإسلاميين. والإسلاميون مع الأقباط المسيحيين.

الفقر المدقع يتحالف بصورة مضطربة مع الغنى الفاحش. إن المصريين — على عكس الغربيين، الذين ينظرون أحيانا نظرة رومانسية لأرضهم القديمة – أما المصريون فإنهم يجلدون أنفسهم وينتقدونها بأعنف الألفاظ، دائمو الشكاية يتذمرون من الكبت والقمع والفساد وسياسة التمييز العنصرى وافتقارهم للديمقراطية وسجونهم المليئة بالرجال المنسيين، والحواجز التى تفصلهم عن أهلهم، تلك الحواجز القاسية التى تشبه حواجز الهندوس فى النظام الهندي.

اعتادت السيدة بينيبيكر (pennypecker) أن تتمشى صباح كل يوم بعد التاسعة بقليل. كانت دائما تبدأ مشيتها ببطء شديد بسبب آلام المفاصل التى كانت تعانى منها فى

قدمها، ولكن عندما تصل إلى النيل تسترد سرعة مشيتها وحيويتها ويظهر عليها الجلال والمهابة، حيث إنها كانت قد نجت، بصورة أقرب للإعجاز، كنت أظن ذلك، فحافلات المدارس والسيارات تقطع الشوارع الضيقة بسرعة، والباعة الجائلون يبيعون الخضر والفاكهة، ورائحة العطور الغريبة، والبقول المسلوقة الساخنة (الفول المدمس وحمص الشام) والجبن والخبز البلدي. بدا واضحا أنها استطابت لعبة السرعة العالية لتحدى الحافلات والسيارات المقبلة، وفى نفس الوقت تقفز متحررة من تجار الصباح، النساء ذوات العيون السوداء والرجال ذوو الجلباب الطويل الفضفاض، الذين يجلسون واضعين ساقا فوق الأخرى على الأرصفة أو يجلسون القرفصاء على قارعة الطريق. كما لو كانوا قد اندمجوا وانصهروا مع حركة المرور على جانبى الطريق.

كانت السيدة بينيبيكر بصورة أو بأخرى مدخلى إلى القاهرة. قبل أن أراها كنت قد سمعت صوتها فى صباح يوم مختلف هادئ وخالٍ من الأحداث. كان ذلك بعد الفجر بقليل. كانت تمتلك صوتا عالى النبرات، كانت تنطق بأشياء ليست كلها مفهومة ولكن ليست كلها مبهمة أيضا، كانت نبراتها تصعد وتهبط ناطقة بكلمات « ليحفظ الله الملك» نهضت متعثرة من فراشى وأسرعت نحو الباب وهناك وجدتها تكوى ملابس كتانية فى الرواق الضيق بدير العذراء مريم. كان هذا ديرا قبطيا صغيرا مقاما فى وسط الزمالك، يقوم بتأجير أربع أو خمس غرف — كان مكانا بسيطا واقتصاديا ولكنه وقور راقى الذوق، له أسقف مرتفعة عالية، وفناء مغطى بألواح حجرية ونوافذ تزين إطاراتها رقائق الأرابيسك. كنا قد مكثنا هناك لمدة أسبوع أو أكثر بعد وصولنا مباشرة فى انتظار أن يتم إعداد الشقة التى نوينا الإقامة فيها:

كانت السيدة بينيبيكر قد قضت فى القاهرة ثلاثة وخمسين عاما من عمرها البالغ خمسة وسبعين، حيث إنها كما قالت خرجت من إنجلترا كمبشرة على متن سفينة شحن فى عام ١٩٢٤ . كانت طويلة ونحيفة وكانت دائما ما تذكرنى بطائر اللقلق. ملامحها منحوتة جيدا وحادة، كان أنفها بارزا يشبه المنقار، ولها سيقان مغزلية طويلة ونحيلة. تحيط وجهها النسرى المعقوف خصلات من الشعر الأشيب المجعد. يرتكز على أنفها زوج من النظارات

بلا إطارات وبصورة غير مستقرة. كانت سيدة جادة وكانت محكومة بقواعد وقوانين بسيطة وقليلة: مشيتها كل صباح لتقوية بنيتها إدراك عام لمواجهة التغييرات غير المستقرة فى حياتها. وفوق كل شيء إخلاصها الشديد للتاج (الملك) . كانت ترى أن بريطانيا تصرفت بصـورة سيـئة عندما غادرت مصر وتركت جزءا آخر من الإمبراطورية خلفها بما فيها هى نفسها.

ولكن السيدة بينيبيكر لم تكن تشعر بالإشفاق الذاتى أو بالانغماس الذاتى فيما يخص مصيرها . لم تكن مس بينيبيكر إلا إنسانة واقعية.

ذات صباح بينما كانت تتبختر مسرعة الخطى بمحاذاة النيل، وكنت ألهث خلفها، سألتها عن أصعب لحظة واجهتها خلال سنوات إقامتها فى القاهرة.

أجابت «ثورة عام ١٩١٩».

- « ولكنك لم تكونى قد أتيت إلى هنا بعد».

عندئذ علمتنى درسا لا يمكن أن أنساه أبدا.

قالت « التخيل مطلوب هنا».

ثم استطردت قائلة: إن الثورة بعد قيامها وانتهائها أو انحسارها فإنها بطريقة أو بأخرى تبقى مستمرة. رغم أن الثورة الأصلية ربما كانت قد تضاءلت واضمحلت وتصدعت بشكل كبير، وانحسرت فيما تبعها بعد ذلك من مظاهرات ومسيرات مناهضة للاحتلال البريطاني، تلك المظاهرات التى أشعل جذوتها الرفض البريطانى للمفاوضات من أجل الاستقلال المصرى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي، تلك المظاهرات التى واكبت عصر الحرية كما يطلق عليه. لذا فكما ترين، قالت باستياء شديد « كانت ثورة، رغم كل شيء».

وأخيرا وبعد أن قضيت عشر سنوات أتناوب القدوم إلى القاهرة أو الرحيل عنها فإنى أتفق تماما مع ما ذهبت إليه بينيبيكر، رغم أننى لم أكن حينذاك مقتنعة بكلامها إطلاقا، وظللت أعاند وأعترض على هذه الفكرة بالقدر الذى تسمح به اللياقة وأدب الحوار .

نظرت إليّ بنظرة ساخطة كتلك النظرة التى نظر إليّ بها مدرس النحو. ذلك الرجل الموهوب الماهر، ثم أردفت قائلة: « لقد كانت ثورة لأنه لأول مرة خلال ألفين وثلاثمائة عام قال المصريون أخيرا « نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا».

انزعجت قليلا، ولكن كانت السيدة بينيبيكر، كما هى دائما، محقة تماما فيما قالته، فلكى أكون دقيقة فلمدة ٢٢٨٤ سنة، منذ قدوم الاسكندر الأكبر ٣٣٢ قبل الميلاد، وحتى تنازل الملك فاروق عن العرش عام ١٩٥٢، كان المصريون يحكمون بلا انقطاع بحكام أجانب رغم إحساسهم الشديد والعميق بالوطنية.

«كيف كان خروج الإنجليز؟» سألت السيدة بينيبيكر بينما كنا نجلس على كرسيين من الخيزران على مقهى مرتفع يطل على النيل. وقبل أن تجيب أخرجت مجموعة من مذكراتها اليومية من حقيبة مصنوعة من القش قديمة كحال مس بيكر.

«كان شيئا مخزيا» هكذا أجابت وخفت صوتها بينما بدا وكأنها تدرس الحياة على النيل. كانت القوارب تطوف فوق المياه: قوارب سريعة، وقوارب تجديف: قوارب محملة بالمحاصيل، تئن تحت حمولتها: قوارب مملوءة بالسياح، بعضهم يرتدى البكيني، وهناك القوارب الشراعية تتهادى خلفها تماما على الجانب الآخر من النيل، وما انفك قلب القاهرة يعلن عن نفسه بوضوح، فى شكل ظلال ضبابية للفنادق ذات الخمس نجوم، والعمارات السكنية العالية، وتبدو للعيان الفيلات خردلية اللون والأشكال الأخرى المنسية التى تنتمى للقرن التاسع عشر: الكبارى والجسور والضباب الكثيف، والقباب العالية والمنارات العالية التى تربو على الاثنتى عشرة.

أخيرا استدارت السيدة بينيبيكر إلىّ قائلة «ولكن قرار الإنجليز بالرحيل جاء متأخرا كثيرا . إلى هذا الحد كنا سذج وأبرياء خارج الحدود، يملؤنا الضجيج ملوحين دائما بعلم الاتحاد. لو كنت مقامرة لراهنت على القول إنه لم يزد عدد من كانوا يتحدثون العربية بين قادتنا العسكريين على عدد أصابع: لم تكن السيدة بينيبيكر فى حاجة للقول «وكانوا يتحدثونها بطريقة صحيحة».

بدا لى أن الحنين هو الذى كان يدفعها لتتصفح مذكراتها، تلك الأوراق الصفراء بفعل الزمن حتى وجدت ورقة دخولها فى يونيه عام ١٩٥٦. فقد كانت قد استقلت القطار من صعيد مصر إلى بور سعيد لتحضر مراسم مغادرة الجنود حاملى الرايات، عندما غادر

آخر ثمانية آلاف جندى من جنود الإمبراطورية الذين كانوا يقومون على حراسة القناة. كانت مرتدية، كما هى مرتدية الآن، قبعة واسعة وعريضة مصنوعة من القش وفستانا قطنيا فضفاضا. كانت أيضا مرتدية صليبها الفضى الذى يتدلى دائما على رقبتها وتحمل فى داخل حقيبتها لمسة رومانسية كما قالت، فبالإضافة إلى زجاجات مياه الشرب والخبز والجبن وكانت قد حزمت معها علما صغيرا للاتحاد (علم بريطانيا العظمي). كانت رحلة شاقة استغرقت يومين كاملين بالقطار: كانت تتصبب عرقا من شدة الحرارة، وكانت رائحة عربة الدرجة الثانية فاسدة وخانقة بفعل دخان السجائر، والرياح تلقى بالرمال والأتربة. ولكنى كنت أرى أن الأمر يستحق كل هذه المعاناة فى النهاية، لذا تحملت السيدة بينيبيكر كل هذا واضعة على رأسها منديلا مبتلا. وأخيرا وصلت بور سعيد فى وقت الغداء تقريبا، استدعت أفكارها، وأسرعت باحثة عن حرس الشرف، فرق مزمار القربة وعازفى الآلات النحاسية. فقد توقعت أن تلك اللحظة ستكون لحظة تاريخية فبعد اثنتين وسبعين سنة يحل العلم المصرى ذو الألوان الثلاثة الأسود والأحمر والأبيض محل علم الاتحاد البريطاني.

تلك كانت اللحظة الأولى التى شعرت فيها أن الإمبراطورية العظمى والتاج البريطانى قد خذلاها. حيث لم أجد هناك شيئا لأشاهده فلا حرس الشرف ولا الجنود حاملى الرايات ولا عازفى القربة ولا عازفى الآلات النحاسية كانوا هناك. فقد كانت الكتيبة الثانية للحرس الخيالة وسرية حماة الحياة قد غادرتا قبل الفجر. لا ورود منثورة ولا حلوى ولا أعلام فلم يتركوا شيئا خلفهم.

صرخت السيدة بينيبيكر وهى واقفة وحيدة على رصيف الميناء «أين الإنجليز؟»اقترب منها رجل عجوز وأجاب قائلا: «لقد رحلوا باكرا» لم يرغبوا أن يودعهم عازفو الآلات النحاسية المصريون» .

أخرجت السيدة بينيبيكر علم الاتحاد البريطانى من حقيبتها وألقته فى البحر. وبينما هى تراقبه وهو يطفو بعيدا أدركت أن هناك الكثير الذى لم تكن تفهمه.

تساءلت عن درجة فهم البريطانيين حينئذ عن مدى فهم الأمريكان الآن، الذين بدأوا في التوافد على القاهرة في مطلع عام ١٩٧٩، العشرات والعشرات منهم، كجيش من النمل. هؤلاء الذين قدموا لدعم الرئيس السادات وحكمه الفاشستي، كمكافأة له على مبادرته الجريئة لإحلال السلام في الشرق الأوسط أو على الأقل السلام بين مصر وإسرائيل. عندما وصلنا إلى مصر كان ينظر إليها على أن لها أهمية إستراتيجية خاصة لمصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، ولكن بحلول وقت رحيلنا في عام ١٩٧٩، تحولت مصر لتصبح محور سياسة واشنطن في الشرق الأوسط . فلدى أمريكا اليد العليا والسند الهائل لحكمها المدعوم بالجيش.

إن أفضل دليل على حضورنا المغالى فيه ربما يتمثل في السفارة الأمريكية في القاهرة، أو « القلعة الأمريكية» كما يطلق عليها الكثير من القاهريين بصورة ساخرة. كنت أنظر إليها على أنها سفينة حربية ذات ألواح حديدية هائلة محلقة في ميدان مركزي: برج محاط بحوائط خرسانية عالية. يبدو من تصميمها المغالى في تحصينه أنه تعبير عن الخوف مما يمكن أن يحدث بعد ذلك في مصر، وهنا، على عكس طهران وبيروت، كانت واشنطن عازمة على أن تكون جاهزة ومعدة ومستعدة. كان يقال إن السفير الأمريكي هيرمان إليتز (Hermann Elits) ضد أن يكون حضورنا كبيرا أو واضحا بصورة مبالغ فيها أيضا: ولكن تلك التصريحات التحذيرية لم تنل إلا القليل من الانتباه. استمرت السفارة الأمريكية في القاهرة في النمو، وعندما كنا في طريقنا لمغادرة القاهرة كانت أكبر بعثة دبلوماسية أمريكية في العالم، بل وأكبرها في تاريخ أمريكا كله بعد فيتنام.

ولكن الأمريكان – فيما عدا حفنة من المستعربين – بدوا لي وكأنهم ليسوا مختلفين عن أتباع السيدة بينيبيكر: جزء من الصفوف الثرثارة، نادرا ما يغامرون بالخروج بعيدا عن جدران قلعتهم، فالسائحون، بكل الضوضاء وتصرفات المراهقة : أبرياء خارج الحدود. كثيرا ما تحيرت عما قرأوه، وتساءلت هل كان هيرودت على قائمة قراءتهم. فقد كتب قبل ألفي وخمسمائة عام أن «مصر هبة النيل» وقد تأكدت أنها لم تزل كذلك عبر تنقلاتي وأسفاري حول مصر.

لو نظرت إلى خريطة مصر، تجد أن مساحتها واسعة : نحو ٣٩٦٩٠٠ ميل مربع، فيما يقدر بمساحة إسبانيا وفرنسا معا. ولكن لو نظرت مرة ثانية ترى صورة مختلفة تماما عندما تفرق بين الصحراء والمساحة المنزرعة من الأرض.

لو نظرت إلى مصر من على متن طائرة تحلق من الشمال إلى الجنوب، فإنك ترى مصر الحقيقية – مصر المكان الذى يمكن للمصريين أن يعيشوا فيه – تراها صغيرة جدا أشبه بزهرة اللوتس. شريطا أخضر ضيقا يبلغ عرضه من ميلين إلى ثمانية عشر ميلا . يتبع ساق هذه الزهرة شمال النيل عند الحدود المصرية السودانية: وعند القرب من القاهرة وعند البحر المتوسط، تأتى دلتا النيل، الزهرة، بينما ينساب النيل متهاديا نحو البحر.على هذا الشريط الضيق الذى لا تتجاوز مساحته ١٣٨٠٠ ميل مربع، ما يعادل مساحة تايوان، يعيش نحو ستين مليونا. خمس وتسعون بالمائة من سكان مصر يعيشون على خمسة بالمائة فقط من مساحتها. باقى مصر عبارة عن صحراء، موحشة لا تتغير، نادرا ما تم لمسها أو محاولة تغييرها منذ العصور الفرعونية.

من السهل أن تدرك لماذا شكل النيل شخصية مصر وجغرافيتها أيضا. كان الناس دائما فى حاجة للتضامن والالتحام معا ليتصدوا لتقلباته فى انحساره وفيضانه: لذا ظهرت الحضارة. عندما احتاجوا وسيلة لمسح وتحديد وقياس قطع الأرض الصغيرة التى يمكن ريُّها وزراعتها: لذا ظهرت الهندسة وظهرت الصحارى بسبب قيامهم ببناء الحواجز والسدود لحماية وادى النيل الأخضر، لقد بنى قدماء المصريين إنشاءات ومبانى ضخمة، كالأهرامات والتماثيل الضخمة فى صعيد مصر– شرانق من أجل خلودهم. وقد استمر الفراعنة فى حكم مصر بحكومة وأسلوب لا مثيل لهما فى التاريخ،فقد حكموا فرعون بعد فرعون وأسرة بعد أسرة بصورة مستمرة دون انقطاع لمدة ثلاثة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح . وهى استمرارية لا مثيل لها فى التاريخ .

لقد ساهم النيل والتاريخ فى تفرد مصر.

كسر الفرس الخط الفرعونى ناهين بذلك الحقبة الفرعونية، ولمدة ٢٣٠٠ سنة لم تكن مصر سوى إقليم تابع لغزاة أجانب: إغريق ورومان وعرب ومماليك وأتراك وفرنسيين

وأخيرا البريطانيين حتى استعادت مصر ماضيها المجيد منذ ست وأربعين سنة. استمر النيل رغم ذلك متدفقا منسابا عبر كل العصور، وارتبطت حياة المصريين ونشاطهم بفيضانه وانحساره أكثر من ارتباطهم بنزوات الحكام الأجانب وأهوائهم.

وصل العرب إلى مصر فى القرن السابع الميلادي، ومعهم القرآن والسيف، وبفتحهم مصر تحول المصريون إلى مسلمين ولكن هل جعلوهم عربا، هذا موضوع جدلى كبير. فلقد استطاعت القبائل العربية الأولى التى قدمت إلى مصر أن تفرض اللغة العربية، التى حلت محل اليونانية واسعة الانتشار واللغة الفرعونية القديمة: ولكن بعد ثلاثة قرون من حكم العرب لمصر سقطت مصر فى أيدى الفاطميين أولا (الذين بنوا القاهرة والأزهر الذى يعتبر أقدم جامعة فى العالم) ثم فى أيدى الأيوبيين والمماليك ثم العثمانيين، كان جل هؤلاء مسلمين لكنهم أبدا لم يكونوا عربا. لذا فالتاريخ مرة أخرى كالنيل أيضا كلاهما صنع تفرد مصر ووهبها خصوصيتها وتفردها.

يسود الأصل والدم الحامى (نسبة إلى حام ابن سيدنا نوح عليه السلام) ويجرى فى دماء أبناء النيل، على العكس، فالعرب سكان الصحراء ينتمون للجنس السامي. والمصريون يختلفون عن العرب فى شكلهم وسحنتهم: أيضا لغتهم أو لهجتهم العربية مختلفة، إذ إنها مطعمة بالكثير من الألفاظ الغريبة على العربية، تلك التى استمدوها من لغتهم الفرعونية القديمة، وبعضا منها استعاروها من الأوربيين الغزاة. عادات المصرى أيضا تختلف عن عادات العرب البدو: مقابره مختلفة، احترامه وتقديسه للأولياء الصالحين، والقديسين ومراسم الدفن المتقنة المحكمة. الشعر المصرى أيضا مختلف، وكذلك الأدب المصري. ورغم أن المصريين يتم تعريفهم وتصنيفهم الآن كعرب فإنهم عاطفيا مازالوا يعتبرون أنفسهم مصريين أولا وينجذبون لمصريتهم ويميلون إليها كثيرا.

لقد حدث ذات مرة أن التقيت رجلا مصريا فى حفل عشاء، كان رجلا نحيفا كالعصفور، أخبرنى هذا الرجل أنه قضى يومين كاملين داخل المجمع (مجمع التحرير) – هذا المبنى الذى يعد مركزا رئيسيا للبيروقراطية المصرية التى تصل إلى حد الكابوس- من أجل الحصول على طابع كان فى أمس الحاجة إليه للصقه على ورقة رسمية. كان الرجل يكره

الازدحام ولديه رعب من الاحتجاز والخوف من الأماكن المغلقة. وشعر بالخوف الشديد داخل المجمع. من الأشياء الأساسية فى مصر أن المصريين لا يصطفون، فما عليك إلا أن تترك نفسك فى وسط الجماهير لترفعك وتتقدم بك. وهذا بالفعل ما حدث لهذا الرجل النحيف. جرفته أمواج الجماهير وابتلعه الزحام ولم يعد لديه أى خيار آخر سوى الاستسلام لأميال من الناس الذين كانوا يتزاحمون ويتدافعون، وارتعش وهو يتذكر هذين اليومين من التدافع العشوائى اللا إيقاعى، وبدأ فى التنقل بحثا عن بغيته من حجرة إلى حجرة. وعند كل توقف يشعر أنه وصل لبغيته لكنه يجد أنهم يقدمون طابعا آخر حتى وصل أخيرا إلى الباب المطلوب إلى الموظف الوحيد الذى يملك هذا الطابع الذى أتى للبحث عنه. كانت صدمته عظيمة عندما أخبروه أن الموظف الذى يملك هذا الطابع قد توفى منذ أسبوعين ولم يخلفه أحد حتى الآن. سأل بلهفة والطابع؟ ربما يكون محفوظا فى أحد الأدراج الخاصة بالمتوفى مع أوراقه الخاصة.

لقد كنت متأثرة جدا ومتعاطفة وأنا أسمع تلك الرواية المشكوك فى صحتها. ولم أكن مستعدة على الإطلاق لسماع تعقيبه الأخير: إن البيروقراطية المصرية هى أقدم بيروقراطية عرفها التاريخ، وإنها سبقت قدوم العرب لمصر بثلاثة آلاف سنة على الأقل.

هذه هى مصر، بكل تناقضاتها وروعتها وجاذبيتها وسحرها. غير المتوقع هناك دائما، قريبا منا عند ناصية أو فى أحد الأزقة، وحتى فى خلال تلك السنوات الأولى، فقد كانت قد بدأت فى الإعلان عن نفسها فى حيِّنا الراقى بسكانه من الطبقة العليا فى الزمالك، حيث، ظلت مخبأة عن أعين العامة، فقد كان هناك تزايد فى أعداد المساجد الأهلية، وقد ألمحتُ إلى ذلك ذات مرة للسيدة بينيبيكر بينما كنا نمر من أمام أحد تلك المساجد أثناء مشيتنا الصباحية. قالت « إنهم لا يؤذون أحدا» « إنهم يعبدون الله بطريقة اخرى فقط: كلنا نعبد الله».

على مر السنين ظللت أتساءل ما إذا كانت السيدة بينيبيكر قد أطال الله فى عمرها لترى بزوغ الإسلام المتشدد المسلح وظهوره على السطح فى أواخر السبعينيات. لقد بدأت الحركات المتطرفة المسلحة فى الإعلان عن نفسها على استحياء فى بادئ الأمر، هذا بخلاف الثورة الإيرانية، ولكن تلك كانت ثورة شيعية (والشيعة هم مذهب طائفة قليلة من

المسلمين)، ولم تحدث حتى عام ١٩٧٩ . مع ذلك كان من السهل أن تراها متجسدة فى أى من الثلاثين ألف مسجد من المساجد الأهلية كما كانوا يطلقون عليها، تلك المساجد التى لم تزد إلا قليلا على حجرة فى عمارة، أو فوق جراج أو خلف محل بقالة. كانت تلك المساجد معروفة ومميزة بشعاراتها المتشددة المكتوبة بجرأة على جدرانها.

قمت بأول زيارة لأحد تلك المساجد، بصحبة زميلة دراسة لى تدعى نادين، لم يكن ليظهر عليها أنها تنتمى إطلاقا للطبقة العليا المألوفة فى القاهرة، كان المسجد فى حارة غير مرصوفة متفرعة من شارع رئيسى من شوارع الزمالك التجارية الراقية ولا يبعد إلا قليلا عنه، كان المسجد فى الطابق الأرضى من عمارة قاتمة اللون، بنوافذ متشابكة وأبواب قهوية اللون، ترفرف على الأبواب أعلام بالية بألوان صفراء وحمراء وخضراء وشعارات جريئة إلى حد ما ولكنها شاحبة وممزقة. بينما كنا واقفين خارج المسجد فى انتظار السماح لنا بالدخول، شاهدت مجموعة من الرجال يهيِّئون ميدانا فسيحا متاخما للمسجد يفرشونه بالحصر والسجاد استعدادا لصلاة العشاء يوم الجمعة. السيدات القلائل اللائى شاهدتهن كن يرتدين جلبابا أسود ويغطين أنفسهن من الرأس إلى أخمص القدمين. أشكالا مبهمة، كن يتحركن إلى داخل أو خارج المحلات التجارية. الأصوات التى كانت تتناهى لأذنى كانت أصوات القرآن تتم تلاوته عبر مكبرات الصوت أو عبر الأثير. أما الرائحة فكانت رائحة بالوعات المجارى المكشوفة غير المغطاة، رائحة الصوف النتن ورائحة الوحل.

ظهرت صديقة لنادين وقادتنا معا إلى المكان المخصص للسيدات فى المسجد. غطيت رأسي، كما كانوا قد أعلمونى أن أفعل، وخلعت حذائي، قبل أن أدخل حجرة رطبة بلا أثاث ومفتوحة بصورة تسمح بوجود تيارات هوائية. فى ركن بعيد - حيث كان من الصعوبة بمكان الرؤية، لأن الجزء المخصص للسيدات فى المسجد معزول عن ركن الرجال وصحن المسجد بحاجز من القماش عبارة عن ستارة كبيرة مثبتة بعشوائية نازلة من دعامات المسجد- كنت قادرة على أن ألمح كرسيا خشبيا له ظهر عال، كان قد تم رفعه وتعليته بواسطة مجموعة كتل خرسانية. كان مصدر الضوء الوحيد هو مصباح كهربى باستثناء

أشعة الضوء الخافتة المتسربة المتسللة عبر النوافذ المتسخة التى بالحجرة، ومن بابها المفتوح بدا لى أن هذا المكان لا يتمشى والصوت الروحانى القوي.

كان هناك هرج ومرج عند دخول الشيخ المعروف فى الزمالك إلى الحجرة، كان مرتديا الزى التقليدى الإسلامى، الذى هو عبارة عن جلباب طويل أبيض وغطاء للرأس أبيض منسوج . كان خطيبا حماسيا وله رؤى ووجهات نظر من العيار الثقيل كما قالت لى نادين. كان هناك صمت مطبق بينما كان الشيخ يصعد للجلوس على كرسيه المرتفع. حملقت جيدا عبر الستارة التى تفصلنا عن الرجال واندهشت جدا لما شاهدت، لأن الشيخ المعروف فى الزمالك كنت أنا أيضا أعرفه وتعرفت إليه فى الحال: كان محاضرا فى الجامعة وكان مهذبا إلى حد الملل – أو هكذا كنت أظن – كان باحثا زراعيا! ومع ذلك عندما بدأ الحديث تبدل وتحول لشخص آخر. راقبته بدهشة شديدة وهو يلوح ويرفرف بذراعيه وسمعت صوته يبدأ فى الارتفاع بينما كان يخطب فى الجماهير لائما ومحذرا وناصحا «الإسلام هو الحل» هنا بدأ فى الصياح.

نظرت حولى فى المكان المخصص للسيدات المختفيات عن الأعين، حيث كل النساء يرتدين الحجاب، وقلة قليلة منهن يرتدين النقاب. بعض منهن كن يمسكن أطفالهن بأيديهن. لا يبدو الفقر على أى من سكان منطقتنا. جميع النسوة كن ينصتن للشيخ وهن واقفات فى صفوف مصفوفة غير منظمة.

بدأ المؤذن فى التلاوة، كان صوته الحزين منطلقا عبر مكبر الصوت ليغمر الجماهير المحتشدة فى الخارج. بدأ المصلون فى المسجد فى التكبير « الله أكبر، الله أكبر» ورددت النساء من خلف الستار. عندما بدأ التلميح فيما يبدو، أصبح الشيخ متحمسا، وارتفع صوته وتحول إلى نبرة عالية.

« الديكتاتوريون مصيرهم جهنم وبئس المصير». « سيخسف الله بهم الأرض» وتحدث بصورة ضمنية عن الفوضى والبلبلة والخيانة. حقا لم يذكر الرئيس السادات بالاسم ولكن الجميع كان يعرف جيدا من هو الشخص المقصود.

ولقد صعقنى هذا الإدراك، بينما كنت أنصت لهذا الصوت الجهورى القوى للشيخ – الذى كنت أعرفه من قبل، ولو بصورة مبهمة إلى حد ما، كأستاذ خجول يرتدى قمصانا تقليدية وأربطة عنق بعيدة كل البعد عن الموضة – أدركت أنه إلى هذا الحد الكبير ترتدى مصر قناعا. وكلما تعمقتُ داخلها فى حواريها وأزقتها، كلما رأيتهم أكثر تعبيرا عن الإسلام.

كانت نادين هى من قالت لى ذلك. وقد التقينا فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة عام ١٩٧٨ . كانت طالبة دراسات عليا فى علم الاجتماع، وكنت أنا فى الشئون العربية وكانت أيضا نادين هى أول من قدمنى إلى عالم العنف الإسلامى السياسى داخل الحرم الجامعي. فقد كنا نحن فى الجامعة الأمريكية بعيدين كل البعد عن هذه الأجواء، حيث إنها كانت مكانا قليل الكثافة، ومعظم طلابها ينتمون للطبقات العليا الأرستقراطية. وبالرغم من كل ذلك وحتى وأنا فى الجامعة الأمريكية كنت أشعر أننى أصبحت لافتة للنظر بصورة متزايدة وأنا أرتدى ملابسى الغربية.

« كيف لا يمكنك رؤية وفهم ما يحدث؟» اعتادت نادين أن تسألنى بلوم وكنت دائما ألمح هذا البريق فى عينيها. كانت نادين من أكثر السيدات الذين قابلتهن فى حياتى نشاطا وحركة وحيوية. طويلة ورشيقة، بعيون سوداء لامعة كحيلة ومكحلة ورقبة طويلة كرقبة الإوزة. كانت فى وقت ما فيما مضى ترتدى الجينز، وتدرس الأدب الإنجليزى وتدهن أظافرها. ولكنها وقفت فى صباح يوم من أواخر أكتوبر من عام ١٩٧٨ بصحبة ثلاث شابات أخريات، أمام كلية الطب بجامعة القاهرة. منقبات برداء أسود على الطراز الإيراني. كانت نادين قد انضمت للأخريات والآخرين، كل طلاب الطب، بمن فيهم أختها، كأعضاء فى مجلس اتحاد طلاب الجامعة الوطني. والذى كان قد تم انتخابه فى ذلك الربيع، فى تلك الانتخابات التى فاز فيها الإسلاميون بأكثر من ستين بالمائة من المقاعد.دعتنى ذات صباح للذهاب معها وقد فعلتُ. شاهدت، بينما كنت واقفة خارج الفصول، مجموعة من أساتذة الجامعة يمرون. كانوا يبدون اندهاشهم بصورة واضحة وهم يراقبون الفتيات من خلال الباب المفتوح. كان صوتهن شجيا وهن يسبحن الله وكان منظرهن بديعا وجميلا فى جلابيبهن الفضفاضة، ومع ذلك كن مفرطات فى طلباتهن : فقد رفضن تشريح جثث الذكور: لكى يتكاملن بصورة

أكاديمية تعليمية مع الرجال: وطالبن أيضا بثنائية جدول المحاضرات وكذلك ثنائية أماكن الصلاة فى الجامعة تأكيدا لفكرة فصل البنات .

كانت نادين حينئذ فى أوائل العشرينيات، ابنة تنتمى لأسرة من الطبقة العليا تقطن الزمالك. وإذا كانت المفارقة أن تكون إحدى بنات العائلات النبيلة من المبشرين بالإسلام السياسي، فقد فشلت إذن فى فهمه فهما دقيقا. كان ذلك مجرد واحدة من انحرافات حياتها. كانت نادين شرقية قدرية بالميلاد، غربية ليبرالية بالتعليم، الأنثى التى ارتدت الجلباب الإسلامى وحافظت دائما على انبهارها الدائم بأحدث تصميمات الموضة.

سألتها عصر ذلك اليوم بينما كنا نفترش حشائش الجامعة الأمريكية – حيث تخلت عن النقاب مراعاة لنظام الجامعة، وارتدت جلبابا طويلا أبيض – سألتها ما إذا كان ارتداؤها للزى الإسلامى هو مجرد تعبير عن الاحتجاج، كما كانت هى الحال بالنسبة للطالبات فى إيران. أجابت « بل تعبير عن الهوية أكثر من كونه احتجاجا» « لو قمت بارتداء ملابس غربية وتصرفت كالغربيات تكونين عندئذ مضطرة لأن تكونى غربية. الإسلام يهبك ذاتك»

نظرت حولى فى حرم الجامعة الأمريكية، وحتى هنا، بدا لى، أن أعدادا متزايدة من النساء بدأن فى تغطية رؤوسهن على الطريقة الإسلامية، وأن أعدادا متزايدة من الشباب أطلقوا لحاهم على الطريقة الإسلامية أيضا.

أتى الطلاب إلى الجامعة وغادروها بينما كنا نحن مستمرين فى نقاشنا وفى التأمل فى الماضي، بدا وكأن حواراتنا دائما هى نفس الحوارات، كأننا نسرد نفس الحكايا فى كل مرة: روايات شاهد عيان عن اشتباك بين الإسلاميين المتشددين والأقباط فى صعيد مصر، معارك طاحنة سرية تحت الأرض. غالبا ما تكون بالسلاح الأبيض، فى كل من جامعات صعيد مصر وجامعات الشمال .أشخاص لم يتم الإفراج عنهم بصورة رسمية، ولكن العشرات أصيبوا. وأناسًا فقدوا حياتهم. كان أيضا أعضاء البرلمان المصرى البالغ عددهم ثلاثمائة وستون عضوا الموافقين على كل شيء روتينيا، قد بدأوا نقاشا حول العودة لتطبيق أحكام الشريعة: مادة استهلاكية تفشى النقاش حولها بصورة واسعة نتيجة لسياسة السلام التى انتهجها السادات، التى خلقت فروقا حادة بين من يملكون ومن لا يملكون فى القاهرة. فمن المؤكد أن

مصر كانت قد أصبحت فى ارتباط متزايد مع واشنطن كنتيجة مباشرة وطبيعية لاتفاقيات كامب دافيد. وأصبحت مصر تقف وحيدة معزولة عن العالم العربى بصورة خطيرة.

غادرت نادين القاهرة فى صيف تلك السنة متوجهة لأحد مراكز التدريب العسكرية، فى أحد المعسكرات التابعة لجماعة الإخوان المسلمين فى منطقة نائية فى الصحراء، كان هذا بمثابة ألم جديد شديد لوالدتها ومبعث دهشة لجميع صديقاتها. عانقتنى عندما كنت أودعها. وبعد ذلك اختفت خلف نقابها، واستقلت القطار متوجهة إلى صعيد مصر، ورحلت نادين.

عندما غادرت محطة القطار وتجولت فى شوارع القاهرة الحديثة الجميلة ومحلاتها الراقية ذات الذوق الرفيع، بدأت أدرك ولأول مرة التوتر المتصاعد بين القيم الغربية والتيارات الإسلامية.

لقد أذهلت حركة الإحياء الإسلامى (الحركة السلفية) التى اندلعت فى جامعات مصر الثلاث عشرة سلطات تلك الجامعات. فمئات الفتيات الأقل التزاما من نادين كن قد ارتدين الحجاب أو « تحجبن» كما كان يطلق عليه: بينما كان هناك أخريات يطالبن بفصول للفتيات مفصولة عن فصول الرجال. وأخريات ما زلن يغطين أنفسهن من الرأس إلى أخمص القدمين، رغم هلع وفزع أمهاتهن اللائى ناضلن كثيرا للتخلص من عصر الحريم ومن أجل الحصول على حريتهن فى أن يكشفن وجوههن ويرتدين الجيب القصير. ما كان أكثر تشويشا وإثارة للبلبلة، مع ذلك، ربما كان يكمن فى حقيقة أن الإسلاميين كانوا قد بدأوا فى التسلل إلى كليات الجامعة وأقاموا خلايا سرية تعمل داخل حرم تلك الجامعات. كانوا يطالبون بإلغاء كل الآثار والتأثيرات الغربية فى المدارس والجامعات، وكانوا قد بدأوا بالفعل فى طبع وتوزيع عدد كبير من المنشورات والكراسات التى تناهض الغرب. كان تمويلهم يعتمد بصورة أساسية على ممالك وشيوخ النفط الأغنياء المحافظين فى الخليج الفارسى (العربي) .وقد تلقوا مبالغ كبيرة خصوصا من المملكة العربية السعودية وبتشجيع من الرئيس السادات شخصيا.

بحصول الإسلاميين على معاقل وحصون قوية فى جامعة الإسكندرية وجامعة أسيوط وكليات الطب والكليات العلمية فى جامعة القاهرة والأكاديمية الفنية العسكرية، فقد كانت

لدى الإسلاميين خلفيات انتقائية مختلفة كلهجاتهم . كان بعضهم من الفقراء، من قرى صعيد مصر، وبعضهم الآخر من أبناء وبنات تجار أو موظفين حكوميين. وهناك أيضا من انضم للجماعة من أبناء الطبقة العليا المتميزة في المجتمع كنادين على سبيل المثال . كان القاسم المشترك بينهم جميعا هو السخط وعدم الرضا. ترابطوا وتمسكوا بغيرتهم الشديدة وإخلاصهم للإسلام وبفكرهم وذكائهم وألمعيتهم. كانوا جميعا وبصفة عامة نابغين في دراستهم وتحصيلهم العلمي، وكانوا جميعا مستقطبين من أرقى الكليات في مصر وأعلاها كالطب والهندسة والعلوم وغيرها. قاوموا الابتذال وواجهوا محلات بيع وطبع شرائط الكاسيت، وقد أيقنت بسرعة، أنه لا يمكن أن تسمى رجعية، فكما أن بعضا منهم كانوا تقدميين في فكرهم: كان آخرون يدعون إلى العودة إلى خلافة القرن السابع وتطبيق الشريعة الإسلامية: ولم يزل هناك من ينادى ويبشر باستخدام العنف كوسيلة لمنع الخطيئة والتطهر منها. كانوا بوتقة لكل الاتجاهات والتيارات المصرية.

كانت نادين قد أخبرتني (كما تأكدت أنا بنفسي فيما بعد) أن عدد النشطاء داخل الجماعة لا يتجاوز عشرين ألفا، ولكن بإمكانهم أن يستقطبوا عطف ودعم مليون من المتعاطفين معهم وربما أكثر من ذلك. وكان مبعث قلق الدبلوماسيين الغربيين هو أن الإخـوان المسلمـين، بعد المؤسسة العسكرية (الجيش)، كانوا من أفضل القوى الاجتماعية تنظيما.

ذهبت ذات صباح باحثة عن الدكتور سعد الدين إبراهيم، أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأمريكية، كان ذلك بعد رحيل نادين بفترة قصيرة. وكان الدكتور سعد الدين من أكثر الذين درسوا وبحثوا في الحركة الإسلامية في ذلك الوقت، وجدته جالسا في مكتبه، وأمامه أكوام من الأوراق، وأكواب من الشاى لم ينته من شربها. أخبرني الدكتور سعد الدين أن عودة الحركة الإسلامية للظهور كان شيئا متوقعا، وذلك من السياق التاريخي للعالم العربي، حيث يذكر التاريخ أن حـركات الإحياء الإسلامية دائما تظهر في إثر أو كنتيجة لما يعتبر فشلا عظيما للأنظمة الحاكمة القائمة. ولقد بدأت الحلقة الحالية في عام ١٩٧٤ و١٩٧٥ . عندما حل التحرر من الوهم محل نشوة انتصار العرب في أكتوبر من العام ١٩٧٣ « نظر الطلاب بحذر وريبة نحو التقارب الواضح مع إسرائيل، ومع الغرب

بصفة عامة. وكرهوا تكريس المجتمع الاستهلاكي، والفساد الذى كانوا يشاهدون مولده وترعرعه. استمر الدكتور فى شرح رؤيته قائلا: «كان هناك أيضا تفسخ المجتمع الاقتصادى والاجتماعى والإحباط والفشل الذى شعر به أبناء الطبقة الوسطى والدنيا. وقد رأينا مثالا صارخا لذلك السخط المتصاعد المتنامى فى أعمال الشغب التى حدثت عام ١٩٧٧».

وأنا أتذكر كيف كان الوضع والموقف وما حدث حينئذ.

فلمدة أربع وعشرين ساعة استمر تدفق وتدافع مئات الآلاف من العمال والطلبة الغاضبين ومن سكان الأحياء الشعبية الفقيرة والموظفين الحكوميين إلى شوارع القاهرة، ثاروا وتمردوا وأحرقوا وحدثت أعمال سلب ونهب عندما تم إلغاء الدعم على المواد التموينية الغذائية – ذلك الدعم الذى كان يستفيد منه كل المصريين –. آلاف المصريين كانوا يشجعونهم من شرفات المنازل. بدا أن شبح الثورة يخيم على سماء مصر خلال هذين اليومين. والأشياء التى هاجمتها وأتلفتها الجماهير الغاضبة كانت ظاهرة كتلك التى لم يتم مهاجمتها وإتلافها. حاولوا حرق المبانى الحكومية (ونجحوا فى بعض الأحيان) أتلفوا الحافلات وعربات الترام وأخرجوا محتوياتها وسلبوا قضبان السكك الحديدية، كاحتجاج واضح وصارخ على نظام المواصلات العامة السيئ والمخيف والكابوسى فى نفس الوقت. ولكنهم صبوا جام غضبهم على مظاهر الثروة والثراء والترف. (لم يهاجموا السفارات الأجنبية، ولم يرفعوا شعارات مناهضة لأمريكا رغم أن ذلك كان موضة سائدة فى تلك الأيام).

رأيت فى اليوم الثانى من أحداث الشغب تلك شيوخا (إسلاميين) يتدفقون عبر الشوارع، رجال ملتحون، فى عمامات واسعة يلوحون بالقرآن. كان يمكن رؤيتهم بصورة متقطعة ذلك لأنهم كانوا مندسين وسط الجماهير المحتشدة الغاضبة التى ابتلعتهم. مع ذلك ففى مساء ذلك اليوم وبينما كنت واقفة أراقب المشهد الغاضب للغاضبين المتظاهرين من شرفة تطل على شارع الهرم – شريطا من الفنادق والبارات الأنيقة أحيانا سيئة السمعة فى معظم الأحيان – بدا لى المشهد وكأنه طوفان من الجلابيب البيضاء وأغطية الرأس البيضاء (ملابس الصلاة التى اعتاد الإخوان ارتداءها) تدخل إلى الفنادق والبارات تخربها وتتلف محتوياتها وتنهبها، رأيت خيزران الفنادق وقضبانها الحديدية وسكاكينها وسواطيرها

تتطاير فى الهواء. على سبيل المثال فقد تم سلب ونهب وحرق فندق فينوس، الفندق الذى اعتاد رجال الأعمال السعوديون ارتياده وكانوا يشربون زجاجة الويسكى فيه مقابل خمسة وعشرين دولارا، تم أيضا فى أحداث الشغب تلك تدمير وحرق السيارات المرسيدس الفارهة والسيارات المستوردة الأخري. كانوا يحرقون وهم فى حالة طرب ونشوة شديدة وهم يهتفون « يا سادات يا سادات أنت بتلبس آخر موضة وإحنا نعيش الدستة فى أوضة» دوّت تلك الصرخات كالرعد بين المتظاهرين ومؤيديهم الذين كانوا يطلون من شرفات وأسطح المنازل الذين تلقفوا هذا الهتاف أيضا ورددوه بنفس القوة والغضب.

ما أذهلنى فى ذلك الوقت هو؛ أن عمق وشدة غضب المتظاهرين وشدة عاطفتهم — وأذهلنى أيضا منظر المائة وعشرين حافلة ومئات المنازل التى كان قد تم حرقها فى القاهرة وحدها - جعل الحكومة تتراجع عن قرارها الذى كانت قد أصدرته بزيادة أسعار سلع مهمة وضرورية كالخبز والأرز والغاز بنسبة تتراوح بين ١٢ :٤٥ فى المائة. تلك الزيادات التى بيَّنت بما لا يدع مجالا للشك عدم إحساس الحكومة بشعبها وانفصالها عنه، ذلك الشعب الذى لا يتجاوز ما يتقاضاه العامل منه شهريا ثلث ثمن زجاجة خمر فرنسية مستوردة.

بحلول مساء ذلك اليوم كان الجيش الساخط هو الذى يقوم بحراسة شوارع القاهرة. فقد استعانت الحكومة بالجيش لعجز الشرطة عن القيام بمهامها. وتولت الدبابات والمدرعات المموَّهة وركابها من الجنود فى زى المعركة حراسة الكبارى والجسور. وأقيمت نقاط التفتيش والحواجز بطول النيل، تلك النقاط والحواجز التى تمت إقامتها على عجل ميلا بعد ميل. كانت ألسنة النيران لم تزل تلعق الأتوبيسات والسيارات التى تحترق، وما كان يمكن سماعه من الأصوات فى قلب ميدان التحرير هو صوت القنابل المسيلة للدموع. استطاع الجيش بثقله وقوته وكثافة وجوده من دفع المتظاهرين وإبعادهم عن الشوارع الرئيسية وتراجعهم إلى الشوارع المظلمة. تم فى تلك الأحداث الدرامية مقتل نحو مائة وستين شخصا وجرح أكثر من ألف، وتم اعتقال ما يربو على الألفين، طبقا لما أعلنته الحكومة، فقد أرجعت الحكومة ما حدث إلى أنه كان « مؤامرة شيوعية» وأعلنت ذلك دون تحفظ وبصورة مدهشة. ولقد أخذ القليل من سكان القاهرة— بمن فيهم البعض من داخل

الحكومة – هذا الادعاء على محمل الجد وصدقوه. ورغم أن أحداث الشغب والمظاهرات تلك كانت تعتبر انفجارا عفويا ناجما عن شدة الغضب، فقد كان هناك بالتأكيد شيء من التنظيم في بعض أجزاء المدينة، حيث كان يمكن مشاهدة أناس يقودون الجماهير ويوجهونهم نحو السبل والطرق التي يجب أن يسلكوها في غمرة غضبهم.

فكرت كثيرا في طوفان الجلابيب البيضاء وأغطية الرأس (والطواقي البيضاء) التي شاهدتها في شارع الأهرام. وتذكرت ما كان قد أخبرني به أحد الأشخاص، أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يمكن تعريفه بحق على أنه سياسة .

ولدت حركة الإحياء الإسلامية المتطرفة والمسلحة في مصر منذ سبعين عاما مضت عندما أسس مدرس يدعى حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين احتجاجا على الحكم الاستعماري البريطاني لمصر بعد الحرب العالمية الأولى. كحركة صوفية إلى حد ما ومناصرة للحركة الصوفية الإسلامية. تأثر حسن البنا بصورة ما بالمصلح والمفكر الإسلامي العصري رشيد رضا الذي ظهر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وانتشرت حركته بسرعة، بدأت بأقل من مائة مناصر عام ١٩٢٩، إلى أكثر من نصف مليون عام ١٩٤٩ . كانت حركة إصلاح إسلامية بمعنى ما.

استند البناء الروحي لتلك الحركة على الركائز الخمس الرئيسية للإسلام، أحدث الديانات وثاني أكبر الديانات انتشارا من حيث عدد المؤمنين بها، إذ يبلغ تعداد المسلمين ما يزيد على بليون مسلم. تلك الركائز الخمس هي « بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامة الصلاة ، خمس مرات في اليوم، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، والاستطاعة تلك تعني القدرة المادية والجسدية على دفع تكاليف الحج والقيام بالمناسك».

أما من الناحية السياسية فقد أثارت عقيدة حسن البنا جدلا واسعا. فهي لم تفصل بين المؤسسة الدينية وبين الدولة، وبالتبعية فإنها رفضت العلمانية، وكذلك التوجه للغرب أو كل ما هو غربي، وتم النظر إلى أي آثار استعمارية على أنها تفاقم للأمراض الاقتصادية والسياسية. وتعالت الصيحات المطالبة بإلغاء القانون المصري الوضعي

النابليونى الفرنسى وتطبيق الشريعة الإسلامية، شريعة الشرف والسمو التى تتناول شئون الحياة كلها. ومع ذلك فإنه فى أية مناقشة لتطبيق الشريعة عليك أن تتساءل: أى مدرسة من مدارس االفقه؟ لأنه وعبر القرون، غرق المسلمون فى جدال ونقاش موسعين وعنيفين فيما يخص تطبيق الشريعة أو عدم تطبيقها .

القرآن نفسه لم يقدم قانونا دستوريا جوهريا، وتضمن فقط ثمانين آية يمكن التفكير فيها على أنها شرائع أو قوانين. لذلك نشأت المدارس أو المذاهب الإسلامية الأربعة الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية بحلول القرن التاسع. ولقد نجم عن تفسيراتهم المختلفة لنصوص القرآن والنصوص المقدسة الإسلامية الأخرى كالحديث والسنة، وهى أقوال وأفعال الرسول محمد، علماء أصول الدين العقلانيون والأيدولوجيات الجامدة.

وقد كنت على مر السنين، أسأل العلماء المسلمين. «هل تعدد الزوجات مباح فى الإسلام؟» « هل يجب أن يتم قطع يد السارق؟» ولقد تلقيت إجابات متعددة كتعدد المذاهب الإسلامية. حقا إن الإسلام سمح للرجل أن يتزوج بأربع، ولكن طبقا لآيات القرآن الكريم، يجب أن يعاملهن بالمساواة والعدل، أى أن يعدل بينهن فى كل شيء، وعندما سألت شيخا كان مطلقا حديثا، وكان له أكثر من زوجة سابقا، إن كان العدل فى هذا الأمر ممكنا أجاب : غير ممكن على الإطلاق!

أما فيما يخص الحكم القاسى بقطع يد السارق، فإنه طبقا للمذاهب الأربعة للفكر الإسلامى الكلاسيكي، فإنه يجب أن تتم مسامحة السارق لو سرق بسبب الحاجة والعوز : وبتريد السارق، طبقا لمعظم المفكرين الإسلاميين المحدثين، يتم السماح به فى مجتمع تتحقق فيه المساواة بصورة كلية.

لقد استمر الإسلام كالمسيحية واليهودية فى التطور عبر القرون.

عندما قمت بزيارة لمكاتب الإخوان المسلمين فى الشهور الأولى من عام ١٩٨٩، أخبرنى المرشد العام للجماعة، الشيخ مأمون الهضيبي، أن الممارسات القاسية المتعسفة لجماعة طالبان فى أفغانستان، على سبيل المثال، التى أجبرت النساء على ترك العمل وأغلقت مدارس الفتيات وحرمت الموسيقى والتليفزيون ورجمت الزناة حتى الموت، شوّهت

الإسلام بصورة صارخة. وقد كانت جماعة طالبان فى تعسفها وتسترها بالدين شيئا بغيضا ومكروها لديه كما كان يمكن أن يكونوا كذلك لدى الشيخ حسن البنا والمؤسسين الآخرين لجماعة الإخوان المسلمين.

لم تكن جاذبية الشيخ حسن البنا فقط هى التى أكسبته هذا الحب والولاء الشديدين، ولكن كان إيمانه الشديد وعقيدته القوية من أجل إصلاح المصير الواضح للإسلام: تلك الإمبراطورية التى تأسست فى القرن السابع والتى امتدت من إسبانيا إلى إندونيسيا، وكانت لها إنجازات عظيمة ورائعة فى الفكر الفلسفى واللغات والجبر والطب والهندسة. والتى استمرت منارة ساطعة لما يربو على الألف سنة. كان هدف الإخوان المسلمين كمبدأ هو استعادة الأمجاد الإسلامية التليدة.

تحولت حركة الإخوان المسلمين إلى حركة عسكرية أثناء الحرب العالمية الثانية. فقد تأسست جماعة سرية داخل جماعة الإخوان المسلمين وأطلق عليها اسم الحرس الخاص. كان أعضاؤها يرددون قسم الولاء والإخلاص للإسلام على المسدس والقرآن.

كان جمال عبد الناصر وأنور السادات من بين الكثيرين الذين انضموا للإخوان المسلمين فى خلال تلك السنوات الأولى، وكانا ضابطين شابين غير معروفين فى ذلك الوقت، من الذين التقوا بأعضاء من خلايا الجماعة السرية للإخوان المسلمين للتخطيط للقيام بأعمال عسكرية ضد القواعد والأفراد التابعين للجيش الإنجليزي. وعندما تم القبض على حسن البنا وسجنه بواسطة الإنجليز أثناء الحرب العالمية الثانية لاتهامه بالتخابر مع عميل للنازى الألماني، تم القبض على شخص آخر للمشاركة فى نفس الموضوع وهو أنور السادات.

عندما انتهت الحرب، بدأ الإخوان المسلمون فى توجيه ضرباتهم إلى ثكنات الجيش البريطانى وتفجير دور السينما التى كانت تعرض الأفلام الغربية. وعندما اندلعت الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل فى فلسطين عام ١٩٤٨، تصرف الإخوان المسلمون على عكس الحكومات العربية، وأرسلوا وحدة عسكرية من القوات الخاصة مدربة ومسلحة جيدا للقتال بجانب الفلسطينيين. فى العام التالي، استمرت قوة وتأثير الإخوان المسلمين فى النمو

والتزايد. ولم يكن ذلك على هوى الحكم الملكى فى القاهرة، وبدا واضحا أن الملك يخشى قوة وتنظيم الإخوان، لذا فقد قام الملك وحكومته باتخاذ الإجراءات اللازمة لفرض النظام. وقد تم إطلاق النار على حسن البنا فى شوارع القاهرة وقتله، وتم جمع وترحيل الآلاف من أتباعه إلى معسكرات اعتقال قاسية فى الصحراء الغربية حيث تم إضعافهم.

ولكن بحلول عام ١٩٥٢ عاد الإخوان مرة أخرى إلى الشوارع مساندين الجهود المناهضة للحكومة التى كان يقوم بها جماعة الضباط الأحرار، والتى كان يقودها ضابط برتبة بكباشى وكان معروفا جدا لدى الإخوان المسلمين : هو جمال عبد الناصر، وكان يعاونه البكباشى أنور السادات. عندما استولى الضباط الأحرار على السلطة فى يوليو عام ١٩٥٢، وأجبروا بريطانيا على الرحيل، كما أجبروا الملك فاروق على التنازل عن العرش، نتجت عن ذلك فترة توافق ورضاء بين الحكومة المدعومة بالجيش والإخوان المسلمين. ولكن استمر الإخوان المسلمون فى أسلوب إثارة المشاعر عن طريق المطالبة بحكومة إسلامية، ولم تدم فترة التوافق طويلا. ففى عام ١٩٥٤ تم اتهام الإخوان المسلمين بمحاولة اغتيال الرئيس عبد الناصر، ثم قمع وحظر الإخوان وتم إعدام قادتهم وتعذيبهم وتم تحريم نشاط المنظمة، وعادت مرة أخرى للعمل السري. وتم إرسال أو إعادة ما يزيد على أربعة آلاف من أعضائها إلى معسكرات الاعتقال. تكرر هذا السيناريو فى الأعوام ١٩٦٥ و١٩٦٦، وتم إعدام أعضاء كثيرين والقبض على أعضاء أكثر أيضا، وذلك عندما تم اتهام الإخوان بمحاولة فاشلة لقلب نظام حكم الرئيس عبد الناصر. بعد موت الرئيس عبد الناصر فى العام ١٩٧٠، تلقى الإخوان فرصة جديدة للعيش والنشاط مبعثها زوال القلق.

فعندما وصل الرئيس السادات للسلطة بدأ وبسرعة انتهاج سياسة معاكسة تماما لسياسات عبد الناصر. وتم تصنيف الشيوعيين والناصريين على أنهم أعداء النظام: وتم بسرعة وعلى عجل إطلاق سراح آلاف الإخوان الذين كانوا فى السجون. ولأنه لم تكن هناك أى قوة تدعم حكم السادات بخلاف الجيش فقد تم اتخاذ القرار برعاية وتشجيع الحرية السياسية، وبصفة خاصة الحقوق الدينية. ولذلك ففى عام ١٩٧١، وبتشجيع الرئيس السادات ومباركته قدم الملك السعودى فيصل مائة مليون دولار لشيخ الأزهر (ويعتبر

الأزهر أكسفورد العالم الإسلامى لتعليم الفكر الإسلامي) لقيادة حملة ضد الشيوعية والإلحاد ولنصرة الإسلام . وقد تم اعتبار هذه المعاهدة غريبة وفريدة بين دولة ومنظمة دينية أجنبية، كان الإخوان من أكثر المؤيدين لتلك الصفقة.

بعد موت الرئيس عبد الناصر بدأت جماعة إسلامية أخرى فى السيطرة على الاتجاه الإسلامى داخل حرم الجامعات، كانت تلك الجماعة هى الجماعة الإسلامية. وكانت معروفة بصفة عامة بالجماعة. كان الشيخ عمر عبد الرحمن هو المرشد الروحى لها. توسعت أنشطة الجماعات الإسلامية الموجودة بالفعل، وظهرت جماعات أخرى مسلحة بصورة متزايدة. كان ذلك بتشجيع من الرئيس السادات شخصيا الذى كان أكثر خوفا وانزعاجا من اليساريين وليس من الإسلاميين. من بين تلك الجماعات كانت جماعة الجهاد والتى خطط جناحها العسكرى لاغتيال السادات فيما بعد.

تلقت الجماعات الإسلامية مبالغ طائلة من المال من الداخل والخارج، تلك الجماعات التى بدأ نشاطها ينتشر خارج أسوار الجامعات، إلى المساجد الأهلية المجاورة كما كان يطلق عليها فى داخل المدينة وحواريها وأزقتها، وأيضا إلى أكثر المساجد تأثيرا وشهرة واتساعا فى القاهرة. وطبقا لما قاله الكاتب المصرى محمد حسنين هيكل، إنه لم تكن الدولة فقط هى التى تدر الأموال على الإسلاميين، ولكن حث الرئيس السادات نفسه رجال الأعمال على تقديم إسهاماتهم بمن فى ذلك صديقه الشخصى رجل الأعمال وصاحب أكبر شركة مقاولات فى مصر المهندس عثمان أحمد عثمان، الذى قام بدعم بعض تلك الجماعات، مزوِّدا إياهم بالزى والمال والسلاح.

تتكون الحركة الإسلامية المسلحة اليوم بصورة أساسية من نفس تلك الجماعات (نحو أربع وأربعين جماعة)، تلك التى ظهرت فى حرم الجامعات خلال العام ١٩٧٠، والتى تم تشجيعها وتسليحها وتدريبها بواسطة الرئيس أنور السادات نفسه.

السلام

وقف حسن التهامى وحيدا فى مساء يوم من أيام العام ١٩٧٨ ، فى ممر قصر عابدين الرئاسي، وقف يلقى التحية على الأروقة المظلمة، وعندما تمت مقاطعته بواسطة مجموعة من الموظفين المصريين الذين تصادف مرورهم بينما كان يحيى خيالا وسألوه عما رآه، رد نائب رئيس الوزراء بأنه رأى شبح صلاح الدين الأيوبى مارا. كان حسن التهامى صوفيا مكشوفًا عنه الحجاب(هكذا كان يدعى) والمفسر لأحلام الرئيس. كان التهامى هو الرمز، وكان بعض المصريين المعنيين بالأمر يعتقدون أن التهامى الذى كان يشبه راسبوتين، هو المصدر الرئيسى للجانب الغامض فى شخصية الرئيس السادات.

كان السادات انعزاليا ومؤمنا إيمانا عميقا ومتدينا. وكان أيضا متقلب المزاج يصعب التنبؤ بتصرفاته وانسحابيا. لقد تنبأ بسنواته فى السلطة فأظهرحاسة غير عادية لاقتناص اللحظة المناسبة ليأخذ المبادرة. وقد استطاع السادات تغيير الظروف والأحداث لدرجة أنه تمت تبرئته من الماضى الذى كان هو جزءًا منه. صفق له مؤيدوه ومستشاروه على قوة عزيمته وتصميمه ورؤيته الثاقبة، واتهمه معارضوه وناقدوه بكونه استعراضيا بهره النجاح السريع حتى أخذ يظن أنه من غير الضرورى التفكير فى العواقب، دون اكتراث كبير بخطواته التالية .

كان السادات بلا شك يمتلك شجاعة استثنائية. كان يمتلك جرأة غير عادية مكنته من القيام بمخاطرات غير محدودة. ولكنه وبينما كان منغمسا فى المقامرة على خشبة المسرح العالمى ، لم يعر قضايا مصر الداخلية إلا القليل من الاهتمام .

بينما كان السادات يقذف بالكرة مرة تلو الأخرى مستعرضا نفسه على خشبة المسرح العالمي، وهو فى الرابعة والخمسين من عمره بوصفه العربى الوحيد الذى أثبت عمليا كذب

الادعاء أن الجيش الإسرائيلى لا يقهر، وذلك فى حرب عام ١٩٧٣، بينما كان السادات غارقا فى ذلك كان معدل الزيادة فى عدد السكان فى مصر قد تصاعد بنسبة ٢,٥٪ . وبعد ذلك بأربع سنوات عندما كان فى طريقه إلى الكنيست الإسرائيلى فى «رحلته المقدسة» من أجل السلام فى نوفمبر من العام ١٩٧٧، كان يحمل فى ذاكرته أحداث الشغب التى حدثت فى يناير من العام ذاته (انتفاضة الغذاء) تلك الانتفاضة التى كانت التحدى الأعظم لرئاسة السادات. وبينما كان السادات يوقع على معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى مارس من العام ١٩٧٩، فى مروج البيت الأبيض، كانت الجماعات الإسلامية فى مصر، التى أولاها السادات جل رعايته وحمايته، قد بدأت تنحرف وبشدة بعيدا عن قبضته وسيطرته. كان يجب على السادات ألا يندهش من ذلك على الإطلاق. فكل الدلالات كانت هناك حاضرة ومرئية، مبكرا جدا منذ عام ١٩٧٤.

كان ذلك اليوم يوما عاديا خاليا من الأحداث المهمة، يتذكره المصريون الآن، حتى عصر ذلك اليوم، عندما قاد دكتور فلسطينى فى الفلسفة يدعى صلاح سرية مجموعة صغيرة من الرجال – كان معظمهم طلابا وكانوا أيضا أعضاء فى منظمة التحرير الإسلامية فى جناحها العسكرى المسمى (شباب محمد)– فى محاولة تمرد خائبة وطائشة فى الأكاديمية الفنية العسكرية، والتى كانت تحت قبضة وسيطرة الإسلاميين فى ذلك الوقت. جمع صلاح هناك السلاح والمتطوعين، وبدأ فى التحرك نحو المقر الرئيسى للاتحاد الاشتراكى العربى وكان ينوى اغتيال قادته بمن فيهم الرئيس السادات. كانت مغامرة طائشة وغير محسوبة ويائسة تم سحقها سريعا. ولكن تم قتل أحد عشر شخصا (فردا) فيها. وتم شنق صلاح سرية فيما بعد. مع ذلك فقد بدا وأن السادات نظر إلى تلك الحادثة على أنها لا تتعدى حدثا فرديا معزولا ولم ينظر إليها فى سياقها، كما نظر كذلك إلى سلسلة من الحوادث والأحداث التى حدثت فيما بعد، واستهدفت المزارات والمقامات الإسلامية والمساجد والتى قام بها مجموعة من المتطرفين الإسلاميين بجلبابهم الأبيض ولحاهم، وكانوا مراهقين وشبابا صغارا يؤمنون بالابتعاد عن شرور العالم الحديث والاعتزال عن العالم الكافر والتوبة عن الخطيئة. وكانوا قد كرسوا أنفسهم من أجل إصلاح المجتمع المصرى الكافر. كانوا

يطلقون على أنفسهم «جماعة التكفير والهجرة». وقد بدا وكأنهم قد مزجوا بين الأساليب الإرهابية لجماعة بدر مانهوف الألماني الغربي مع شيء مشابه للأفعال التي كان يقوم بها تشارلز مانسون وأتباعه.

في يوليو من العام ١٩٧٧، أي بعد أربع سنوات من حرب أكتوبر، وبينما كان السادات يخطط لرحلته المقدسة (القدس)، اختطفت جماعة التكفير والهجرة الشيخ محمد حسين الذهبي، وكان عالما مسلما جليلا ووزيرا سابقا للأوقاف والشئون الدينية، تم تعذيبه وشنقه وتم إطلاق النار على عينه بدعوى الكفر والردة. أما عن السبب الرئيسي لإعدامه، مع ذلك، فقد كان رفض السادات لدفع ثلاثمائة ألف دولار كفدية أو أن يطلق سراح ستين من أعضاء جماعة التكفير كانوا في السجون. كان أمير جماعة التكفير ينتحل صفة أمير المؤمنين، وكان باحثا زراعيا يدعى شكري أحمد مصطفى وقد تم إعدامه وأربعة من أتباعه. ولكن مرة أخرى بدا أن السادات ومستشاريه فضلوا النظر لتلك الحادثة على أنها حادثة فردية معزولة عن السياق العام للأحداث.

بينما كنت أتجول في شوارع القاهرة في اليوم الذي وقَّع فيه السادات معاهدة السلام مع إسرائيل، تحدثت مع رجال مسنين على مقاهٍ يرجع تاريخها الى العهد الاستعماري. في بازارات خان الخليلي: كنت أراقب شباب الموظفين وهم يعملون بهمة ونشاط يصلان إلى حد الغضب، وهم يزرعون شجيرات وزهورا وأشجارا كاملة أحيانا على طول الطريق المزمع أن يمر به موكب الرئيس من المطار : قابلت أيضا طلابا من جامعة القاهرة حيث كان آلاف من الطلاب يفترشون الحشائش محملقين في الشوارع، المليئة بعربات الشرطة وعلى متنها رجال في زيهم العسكري يقومون على حفظ الأمن تحسبا لأية أعمال غير مرغوبة، في كل هذا وجدت علامات قليلة من الابتهاج والفرح بما حدث في واشنطن، في نصف العالم الآخر.

ومع ذلك فعندما وصل السادات بعد يومين استقبلته جماهير حاشدة وصل عددها بحسب تقديرات الشرطة المصرية إلى مليونين اصطفوا على جانبي الطريق من المطار إلى أحد القصور الرئاسية والذي يبعد نحو خمسة عشر ميلا من المطار. كانت حمامات السلام ترفرف في كل القاهرة: حمامات مرسومة على اللوحات وعلى العربات والسيارات،

حمامات محنطة وحمام حى يطير محلقا فى السماء ويلقى بفضلاته على الحشود. كانت أيضا صور السادات – صورة وهو فى كامل وجهه وصور جانبية للوجه: وهو مبتسم أو مفكر مهموم، وهو شاب وهو رجل أكبر، كرجل صارم وقائد للثورة بزيه العسكرى الكامل، كرجل خير وإحسان وأب للأمة، فى بدلة عمل سوداء، كابن لتربة دلتا النيل فى بزة سفارى مفتوحة الرقبة – تملأ المدينة. كان هناك أيضا العديد من الفرق الموسيقية المختلفة التى جاءت لتشارك فى تلك المراسم، وكانت تعزف نشيدا وطنيا جديدا يتغنى بالسلام وهى مصطفة على طول الطريق، ذلك النشيد الذى كتبه موسيقار الأجيال، محمد عبد الوهاب، والذى منحه الرئيس السادات رتبة عسكرية شرفية وهى جنرال، لواء، وكان هذا سلوكا غير مبرر ولا يمكن تفسيره.

ولكن من بين آلاف وربما ملايين اللافتات التى كانت مرفوعة والتى كانت تعبر عن الفرحة بالسلام التى شاهدناها ونحن نسير خلف الموكب، كان هناك شىء غائب بصورة واضحة. لم تكن هناك أية إشارة فى أى مكان مع من كان هذا السلام. لم تذكر أية لوحة ولم تكن هناك أية إشارة لإسرائيل.

لذلك بعد الشهور والسنين التى أعقبت السلام، فإنه لم يعد بعد فى الإمكان إلقاء اللوم على إسرائيل والمجهود الحربى فى نقص الغذاء فى مصر، أو بسبب مئات الآلاف من العاطلين عن العمل: ولم يعد باستطاعة القانون العرفى أن يميط اللثام عن القيود السياسية وقصور الديمقراطية وتعطيل أدواتها وآلياتها.

بينما أنظر إلى الوراء مستعيدة ذكرى عصر ذلك اليوم من أيام شهر مارس، تحضرنى لافتة شدت انتباهى بصورة خاصة . كانت تلك اللافتة معلقة عبر فندق شيراتون، على بعد أمتار قليلة من القصر الرئاسى المفضل لدى الرئيس، وأزعم أنه كان بمقدور الرئيس رؤية تلك اللافتة من غرفة الاستقبال الخاصة بالقصر. كانت مكتوبة بخط أخضر وبحجم كبير وعريض وكانت تتساءل « لماذا السلام؟» وتجيب قائلة « حسنا، وما الذى فعلته لنا الحرب؟» وتساءلت حينها هل سيستمر السادات فى المقامرة؟ وقد فعل.

أدرك السادات فيما بعد أن طريقة تناوله للمشاكل الداخلية ساذجة جدا وسطحية أيضا. فكل الأصوات التى لم تناصره اعتبرت معادية، لذا فقد قام بتحييد أى قوة يمكنها أن تشكل أى تحدٍ أو تهديد ، فيما عدا الإسلاميين، حيث إن السادات كان قد قوًى موقفه مقدما. وبالرغم من انفتاحه المبكر على الديمقراطية، وقيامه بثورة التصحيح وتفكيكه لأجهزة الأمن الناصرية وغلقه للمعتقلات : وسماحه للمصريين بالسفر ومنحه حرية محدودة للأحزاب السياسية والصحافة، فإن السادات الذى وهب قدرا مؤكدا من الحريات عاد لكبح هذه الحريات وكبتها.

ففى خلال السنوات القليلة التى عشتها فى القاهرة لجأ السادات أربع مرات للاستفتاء الشعبى لتجاوز أو تجاهل دستوره وقوانينه: وفى كل مرة كان ينجح فى الحصول على ما يريد بنسبة تزيد على ٨٩ ٪ . أى أن الاستفتاء يمنحه توكيلاً مصدقًا عليه وصريحًا من الدعم يمكنه من فعل ما يريد. أيدت تلك الاستفتاءات الحكم بالسجن مدى الحياة على أى شخص يقوم بتنظيم مظاهرات أو إضرابات. منعت أيضا أية مناقشة عامة لمعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، وحرمت تقريبا كل الأطياف السياسية من الحياة البرلمانية.

عندما أنهيت دراستى فى بداية عام ١٩٧٩، كانت مصر قد أجازت رسميا الأحزاب السياسية بصورة معبرة عن كل الاتجاهات السياسية للبلد. وكان قد بدأ نحو خمسين مجموعة من المجموعات السرية العمل، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وعدد متزايد من الطلاب الإسلاميين كانوا يقضون إجازاتهم الصيفية فى معسكرات التدريب القابعة فى صحراء بعيدة.

ظل السادات رغم ذلك لا يعى الخطر الكامن الذى يهدد حكمه من جانب الإسلاميين، وقد أثبت خلال تلك السنوات أنه المثالى الوحيد الباقى على قيد الحياة.

إن السادات كشخص يصعب وصفه. ففى كل مرة رأيته فيها كان يبدو مختلفا بصورة ملحوظة، كان ذلك يتوقف على من يلتقى بهم، وأين كان هو، والحالة المزاجية التى يكون قد قرر ارتداءها فى هذا اليوم. أخبرنى أحد وزرائه ذات مرة « أنه كثير التلون كالحرباء، ويمكنه أن يكون أى شىء». فقد تم سجنه مرتين بواسطة الإنجليز، مرة بسبب فراره مع

أحد عملاء المخابرات النازية إبان الحرب العالمية الثانية، ثم بعد ذلك لدوره فى اغتيال أحد وزراء الملك فاروق، كان السادات دائما وأبدًا يبدى نفوره من الحكم الاستعمارى ومع ذلك فإنه كان أحيانا، يرسم نفسه إن لم يكن على هيئة حاكم فرعونى، فإنه يقلد الملك فاروق التابع لبريطانيا. ورغم أن التقشف والبساطة كانتا من سمات السادات الشخصية ومن أبرز عاداته - لم يكن يأكل إلا وجبة واحدة فى اليوم ويصوم الأصوام الدينية بثبات ومثابرة - فقد استمتع بحياة مترفة، فقد كان يتنقل بطائرة هيلوكبتر بين قصور الملك فاروق العشرة، والتى كان بعض منها يفتح لأول مرة منذ عام ١٩٥٢، عندما أقصى الضباط الأحرار الملك فاروق. كانت قصوره وقاعات اجتماعاته ومنتجعاته الصيفية كلها ناطقة بعبق الفخامة الملكية. وكما كان الملك، كذلك السادات فقد ألّه نفسه وامتلأت الشوارع بصوره على اللافتات وعلى السرادقات، ونجح فى تسويق وعرض نفسه فى الخارج. لقد بدا وكأنه صدق نفسه أنه الوحيد الذى يستطيع أن يحكم مصر فجمع كل السلطات فى يده .

التحق السادات بالكلية الحربية فى السنة الوحيدة التى فتحت فيها الكلية أبوابها لعامة الشعب المصرى فى عام ١٩٣٦. كان واحدا من بين اثنين وخمسين طالبا من عامة الشعب الذين تم قبولهم فى تلك المدرسة، كان أيضا من بينهم جمال عبد الناصر، والذى كان السادات نائبا مطيعا له. كان ناصر يعتبره سهل القيادة ومرنا ومتواضعا لايخشى خطره، فاختاره نائبا له عام ١٩٦٩ - نفس السيناريو الذى تكرر فيما بعد عام ١٩٧٥ عندما اختار السادات مبارك المطيع الأقل بريقا وكان من وجهة نظره مطيعا وسلسا، وهو الرجل الذى قاد سلاح الطيران المصرى إبان حرب أكتوبر ١٩٧٣، ليكون نائبا للرئيس. ولكن على عكس ناصر، الذى أعطى صلاحيات وسلطة قليلة لنائبه، فإن السادات وبمرور السنين شكل مبارك ليكون صورة منه أو الصورة التى أراده أن يكونها، حيث إن هذا الرجل القصير الممتلئ، رجل القوة الجوية الصموت - والذى يبلغ عمره السابعة والأربعين، والذى كان يصغر السادات بعقد كامل - حقق للسادات أمنيتين كانتا عزيزتين جدا عليه: أولاهما أن يرى سياساته مستمرة من بعده، والثانية أن يسلم الراية لواحد من جيل أكتوبر، واحد من هؤلاء الرجال الذين ارتدوا زيهم العسكرى وصنعوا مجد مصر الحديث عندما أعادوا

لمصر ثقتها بنفسها بأول انتصار فى حرب ١٩٧٣. فقد ظل مبارك لسنوات طويلة فى الظل خلف أو بجانب السادات، يدوِّن ملاحظاته بهدوء . وذات مرة اعتقد كيسنجر أنه موظف أو مساعد صغير ليكتشف فيما بعد أنه نائب للرئيس.

بمرور السنين أصبح السادات أكثر عزلة وانعزالا وأصبح غريب الأطوار. غض النظر عن الفساد الذى استشرى بين مستشاريه وأصدقائه المقربين منه، وأحاط نفسه بالوصوليين والمتملقين. وفى ذات مرة كنت فى زيارة لأحد السفراء الغربيين عندما أخبرنى أن السادات يمر بحالة نفسية ومزاجية سيئة وخطيرة. واستمر ليشرح أنه وفى أثناء حفل عشاء وزارى كان يحضره قبل ليال قليلة، قضى بعض مستشارى الرئيس المقربين جدا منه معظم الليلة فى مناقشة علنية عن أفضل سوق سوداء ربحا وأعلاها فى معدلات الكسب غير المشروع. عندها انزعج جدا السفير الغربى وأفزعه جدا هذا السلوك ومضى يحذرنى قائلا: « إن هذه الحالة الخطيرة من عدم الاستقرار سوف تنقلب عليهم فى يوم من الأيام وتلازمهم كأشباح مزعجة».

تأملت كثيرا فيما قاله بينما كنت أقلب أوراقى القديمة ذات صباح. واحدة من تلك الأوراق التى وجدتها كانت دراسة تمت فى عام ١٩٦٧، بواسطة وزارة التخطيط، وطبقا لهذه الوثيقة فقد كان الدخل السنوى لـ٣٢١ عائلة مصرية يبلغ مليارًا ونصف المليار من الدولارات، بينما هناك أربعة ملايين ونصف المليون من الأسر المصرية لا يزيد دخل الأسرة فيها على ١٨٠ دولارا فى السنة. وأيضا هناك مائة ألف سيارة تخدم نحو مائتى ألف من سكان القاهرة بينما لا يوجد سوى ألف ومائتى حافلة يركبها ثلاثة ملايين من سكان القاهرة.

استمر السادات فى المقامرة، رغم أن الدلالات والبراهين كانت أكثر وضوحا والمشاكل أصبحت أكثر حدة، وفى الوقت الذى كان فيه الاقتصاد المصرى فى حالة فوضى، فقد عزل مصر عن راعيها ونصيرها التقليدى المتمثل فى العالم العربى الغنى بالبترول.

لقد حمل الدكتور بطرس بطرس غالي، طبقا لروايته، على عاتقه أكثر مشاكل مصر وأصعبها. فقد تم اتهامه، كوزير دولة للشئون الخارجية للفترة من ١٩٧٧ وحتى

عـام ١٩٩١، بالإضـرار بالعـلاقات بيـن مصـر والمجتـمـع الأوربى مـن جهة، وبينها وبين دول عدم الانحياز وذلك فى أعقاب توقيع مصر لمعاهدة السلام مع إسرائيل. ففى سيرته الذاتية «طريق مصر إلى القدس» يقول الأرستقراطى القبطي، (الذى تولى منصب الأمين العام للأمم المتحدة فيما بعد) إن لقاءً جمعه بالسادات قبل رحلته المقدسة للقدس بثلاثة أسابيع فقط، هذا الموعد الذى كان سببا مباشرا لاستقالة كل من سلفه الوزير المصرى للشئون الخارجية، الوزير المتمرس والدبلوماسى البارع، الذى رفض أن يكون مرافقا للسادات فى رحلته للقدس. (وزير خارجية مصرى آخر استقال فى كامب دافيد نفسها قبل التوقيع على المعاهدة بدقائق قليلة وذلك فى مروج البيت الأبيض)، مضيفا حيرة جديدة وارتباكا جماعيا لحيرة وارتباك الصحافة العالمية، فلم يكن هناك أحد منا، يستطيع بين لحظة وأخرى، أن يفهم من ذا الذى يدير الشئون الخارجية لمصر.

بعد سنتين من ذلك التاريخ، وتحديدا فى العام ١٩٧٩ تم استدعاء الدكتور بطرس بطرس غالى بواسطة السادات لمقابلته فى أحد منتجعاته الرئاسية التى كان يختلى بنفسه فيها فى الإسماعيلية، والذى كان يطل على قناة السويس. كان وزير الدولة عائدا لتوه لمصر بعد قيامه بأسوأ رحلة جال فيها الدول الأوربية ودول عدم الانحياز، وكانت رحلة غير سارة بالمرة. فقد قام الملوك والسلاطين العرب والاشتراكيون والشيوخ العرب بنفس الجولات الدبلوماسية، وهم يملكون سلاح البترول الذى سبق وأن أشهروه فى وجه العالم إبان حرب أكتوبر من العام ١٩٧٣، مهددين بأن يجعلوا العالم رهينة لحظر تصدير البترول. نقل غالى للسادات وجهة نظره مزيفًا كلامه قائلا: إن معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية تم اعتبارها والنظر إليها على أنها ليست أكثر من مجرد سلام منفصل : لقد أصبحت مصر معزولة بصورة خطيرة : تمت إدانة معاهدة السلام.

نظر الرئيس لوزيره قائلا: «أريدك أن تغير كرسيك»، ووافق الوزير بسرعة دون حتى أن يعلم أو أن يكون متأكدا مما كان يدور بعقل الرئيس عندئذ.

«الآن» قـال الـرئيس – ناظرا بعينيه من مشربية لم يعد يعوق بصره جسد الوزير المتعب، وبـرؤية واضحـة لقناة السويس وصحراء سيناء التى كان بصدد استصلاحها–

« لا أود أن استخف أو أقلل من حجم المصاعب والمشاكل التى تواجه الدبلوماسية المصرية (الآن) ولكن كل هذه المشاكل والمصاعب تتضاءل أمام تلك الأرض التى استرجعناها بدون إراقة قطرة واحدة من دماء أولادى . أنا لا أخشى المقاطعة. ولست خائفا من الدول التى تقطع علاقاتها معنا. ولست خائفا أيضا من استفزاز وتفاهة العالم العربي».

إن ما يجب أن تندم عليه مصر هو هذا الزعم الخاطئ لما يزيد على عقد من الزمان.

كان هناك زهو خاص وغرور وربما ذكاء عند السادات، وقد نجح فى جعل خلافه مع العالم العربى خلافا شخصيا، وكان دائم السخرية والتهكم على القادة العرب ومضايقتهم. لقد بدا دائما وكأنه رجل مخيِّب للآمال ومحير، فأحيانا تراه القروى الساذج وأحيانا رجل دولة وأحيانا ممثلا عظيما وأحيانا دجالا مشعوذا، بدا وكأنه أعاد اكتشاف نفسه من جديد.

أخبرنى السيد إسماعيل فهمي، الذى كان وزيرا لخارجية مصر واستقال، حين كنت فى زيارة له قائلا: «ببساطة شديدة من المستحيل أن تعزل مصر نفسها عن العالم العربي» وقد كان إسماعيل فهمى أحد الذين استقالوا احتجاجا على زيارة السادات للقدس، وقد أخبرنى حين كنت فى زيارته ذات صباح من أيام عام ١٩٧٩، أنه كان قد قدم استقالته لأن السادات لم يناقش الأمر مع القادة العرب ولم يستشرهم فى ذلك ولم يستشرنى أنا « لم تكن لدينا الفرصة أن نعترض ونقول له لا» قال إسماعيل فهمي: « لقد مسرح الرئيس السادات الأحداث ليجعل الأمر يبدو وكأنه خيار بين شيئين الأبيض والأسود أى إما السلام أو الحرب. وبالطبع ستكون الغلبة للسلام، سلام منفصل لا يمكنه أن يفعل إلا القليل لتخفيف وتقليل المشاكل فى الشرق الأوسط» ذلك لأنه، برغم نشوب أربع حروب فى غضون ثلاثين عاما، فقد صمتت الأسلحة على الحدود المصرية الإسرائيلية، وهذا يقلل بصورة فاعلة – إن لم يكن يمحو تماما – احتمال أن يتمكن العرب سواء متحدين بدون مصر أو منفردين، أن يشكلوا أى تهديد عسكرى لأمن الدولة اليهودية أو شن الحرب عليها، فلم يكن الصراع فى الشرق الأوسط أبدا قضية مصرية إسرائيلية، ولم تكن الدولتان أبدا بؤرة هذا الصراع. إن نقطة الارتكاز الحقيقية فى هذا الصراع كانت دائما تكمن فى

اغتصاب إسرائيل واحتلالها لأراض فلسطينية. أما عن ملحق معاهدة كامب دافيد، المطالب والداعى الفلسطينيين لمحادثات سلام مستقلة - تقريبا تم التشاور عليه فيما بعد، وأنه جاء كفكرة ثانوية متأخـرة - وأنه لم يتم أخذه على محمل الجد من جانب المتفاوضين فى ذلك الـوقت، لا مـن جانب السادات، ولا من جانب الولايات المتحدة ولا من جانب الأربعة ملايين فلسطينى . وقد اندلعت الاحتجاجات والمحتجون حتى فى معسكرات اللاجئين الفلسطينيين وعبر العالمين العربى والإسلامي. لكن السادات لم يعر الصرخات الفلسطينية أدنى اهتمام حتى وإن كان يتفاوض ظاهريا باسم الفلسطينيين.

« قد لا يكون زمـام المبادرة والقرار فى يد ياسر عرفات ولا يستطيع التحكم فى الأمور» كان هذا ما قاله السادات لأحد الصحفيين فى مناقشة عن زعيم منظمة التحرير الفلسطينية. لا «لا يمكنه اتخاذ القرارات : ليست لديه السلطة ولا القدرة على فعل ذلك» «لم يعط السادات أى اهتمام لسيكولوجية الشتات الفلسطينى ولا لسيكولوجية الصراع العربى الإسرائيلي» أخبرنى بذلك الكاتب المبدع ومحرر الأعمدة الصحفية فى ذلك الوقت وأحد المفكرين السياسيين المصريين الرائدين، الذى انحاز بصورة مطلقة مع الناصريين واليساريين الذين سيطروا على الحياة الفكرية لمصر، لقد نشر سيد أحمد كتابا رائعا فى عام ١٩٧٥ معنونا « عندما تصمت الأسلحة»، مناصرا ومؤيدا الوفاق مع إسرائيل. ولكن بعد معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية غيَّر رأيه بسرعة. وقد شكى لى بمرارة وهو جالس فى مكتبه وبين كتبه، مخاطر السلام المنفرد الذى صنعه السادات مع إسرائيل، الذى لم يصنع شيئا يخاطب الاهتمامات أو الهموم الفلسطينية، ولكنه كان، من وجهة نظره، ليس أكثر من سلام «على الطريقة الأمريكية وصناعتها» تلك المقولة ووجهة النظر التى ما فتئ يرددها سيد أحمد ويؤمن بها. كان أيضا قلقا، كمعظم المفكرين المصريين سواء من اليسار أو اليمين، ومعهم كل المثقفين والمتعلمين من الطبقة الوسطي، من الضيق المستمر الذى سببه السادات للعالم العربى فى وقت كان الاقتصاد المصرى إحصائيا فى هبوط دائم وسريع، وبكلمات دبلوماسى أمريكى كان الاقتصاد المصرى «من سيئ إلى أسوأ».

كان الناتج القومى الإجمالى نحو ١٤ بليون دولار، كان مقدارا كبيرا من هذا المبلغ يأتى بصورة أو بأخرى من مناصرى مصر ورعاتها من الدول والحكومات العربية الغنية بالبترول. كانت علاقة مصر بالعرب دائما علاقة مشوشة ومحيرة بين من يمنح ومن يحرس أو يحارب. استاءت المملكة العربية السعودية والكويت، وكانتا من أهم وأكبر الدول المانحة من تفسير القاهرة الكوزموبوليتان وكأنهم المنعزل المتزمت. أما المصريون من جانبهم، وهم الذين يقطنون الدولة القومية الوحيدة في المنطقة، فقد كانوا فخورين ومعتزين على الدوام بأنفسهم. إذ إن لديهم تراثا وتاريخا قديما يمتد آلاف السنين : وهم حقيقة ليسوا عربا . وتسميتهم الحالية ليست إلا مصادفة جغرافية. لقد حاربوا كثيرا أبلوا بلاء حسنا ولذا فكان شيئا محرجا جدا أن يقفوا، كالشحاذين فى شوارعهم، ينتظرون صدقة من شيوخ الصحراء. ولكن رغم تاريخ المصريين التليد والمجيد فإن الحقيقة تقول إن مصر فى أواخر السبعينيات كانت بالفعل تستجدى المساعدات وكانت فنيا وعمليا مفلسة تماما.

ولقد بقيت مصر على قيد الحياة عن طريق تلك المنح والهبات الهائلة والقروض الخارجية. كان المليون ونصف المليون مصرى الذين يعملون فى الخليج العربى يشكلون المصدر الرئيسى للعملة الصعبة، وذلك عن طريق تحويلاتهم وكانت تحويلاتهم تصل إلى نحو مليار ونصف المليار من الدولارات. المصدر الثانى للعملة الصعبة كانت السياحة، والتى كان يسهم العرب فى دخلها بشكل كبير، وكانت تدر على مصر نحو ٦٨٦ مليون دولار سنويا.أما عن المساعدات العربية فقد كانت المساعدات من المملكة العربية السعودية وحدها تقدر مجتمعة بخمسة مليارات من الدولارات سنويا، ملياران منها على شكل دفعات ثنائية، وملياران لصندوق المنظمة الإقليمية لتطوير مصر ومليار آخر يتم دفعه لخدمة الديون المصرية الخارجية الهائلة. بقطع كل تلك المساعدات بعد توقيع مصر على معاهدة السلام تكون السعودية قد ألقت عبء بقاء الاقتصاد المصرى حيًا على كاهل الولايات المتحدة الأمريكية. وكان هذا بالتأكيد إحدى نتائج عملية السلام .

«هناك شيء واحد لم يضعه الرئيس السادات فى حساباته وهو؛ أن السعودية ستخاطر بعدائها لواشنطن» هذا ما قاله لى أحد الموظفين بجامعة الدول العربية آنذاك

« ولكن أولويات السعودية كانت قد تغيرت كثيرا. ما كان يحدث بين مصر والسعودية فى ذلك الوقت كان يأتى فى الدرجة الثانية لما هو على الساحة، أما الأول فكان إعادة تقييم وتعريف للعلاقة الأمريكية السعودية، وحتى يتم إصلاح هذا على نحو يرضى المملكة العربية السعودية، فأنا أخشى أن نظام السادات سيظل فى عزلة بل وسيزداد عزلة يوما بعد يوم. لقد نظرت السعودية بحذر شديد للثورة الإيرانية وأغضبها جدا الفشل الأمريكى فى دعم الشاه ومساعدته: كانوا أيضا مغتاظين إلى حد الهوس مما يلحظونه من التردد الأمريكى والضعف وعدم القدرة على احتواء تزايد النفوذ السوفيتى فى المنطقة وتهديده لها. وحتى يتم إصلاح كل ذلك فسيبقى السادات هو كبش الفداء بمعنى الكلمة.

وكان هذا بالفعل ما حدث فى السنوات الأولى للسلام. فقد تم بتحريض من السعودية -وبصورة خاصة من وزير خارجيتها الأمير سعود الفيصل، والذى كان من أشد المعارضين لمعاهدة السلام- ومن تلك الدول العربية التى اصطفت ضد المعاهدة فيما سمى بجبهة الرفض، فقد فرضت ثمانى عشرة دولة من الاثنتين وعشرين دولة الأعضاء فى جامعة الدول العربية عقوبات على القاهرة: فقد سحبوا إيداعاتهم من البنوك وأغلقوا سفاراتهم وطاروا عائدين لبلادهم. وقد شاهدتُ ذات مساء بينما كنت أسير فى حى السفارات رجلا نحيفا تغطى رأسه كوفية كبيرة يغلق نوافذ سفارة المملكة العربية السعودية ويغلق أبوابها. ولمحت وأنا فى طريقى أيضا أن السفارة العراقية قد رفعت العلم اليوغسلافى عليها. وبينما كانت السفن الإسرائيلية تجوب قناة السويس كانت السفن المصرية موضوعة على القائمة السوداء فى ترسانة السفن البحرينية.

إن محاولة رسم صورة لمجموعات الشرق الأوسط التى تم طرد مصر منها هو؛ رسم نسيج متذبذب لمن مع مَن إقليميا. فقد تم نقل المقر الدائم للجامعة العربية إلى تونس بدلا من القاهرة: وتم حل الهيئة العربية للتصنيع وكانت مصنع الأسلحة الوحيد فى العالم العربى ومقره القاهرة: تم نقل مقر الهيئة العربية للسياحة من القاهرة إلى عمان. تم تجميد أصول مؤسسة الخليج لتنمية مصر والتى كان يقدر تمويلها بنحو مليارين من الدولارات لمنظمات إقليمية بهدف تأمين تمويل دولى ولخدمة الدين المصرى الخارجي. ورغم أن

مصر دولة مصدرة للبترول (فقد كانت تصدر فى ذلك الوقت نحو ٥٠٠,٠٠٠ برميل يوميا) فقد كانت فى حاجة لاستيراد منتجات بترولية مكررة لما يقدر ب ١٥٠ مليون دولار سنويا لسد احتياجاتها المحلية. ولقد قام أعضاء منظمة أوبك فى الخليج بالامتناع عن تزويد مصر بهذه الكميات . وقاموا أيضا بطرد مصر من منظمة المؤتمر الإسلامي. مصر الدولة المحافظة والتى يبلغ سكانها المؤمنون المسلمون الملتزمون نحو ٣٤ مليون مسلم. ولكن أكثر ما أغضب السادات واعتبره إهانة لا تغتفر هو ما فعلته المملكة العربية السعودية عندما سحبت تمويلها لصفقة أسلحة مصرية أمريكية، تشترى مصر بموجبها طائرات إف ٥ الحربية المقاتلة بتفاهم بين مصر وأمريكا، على أساس أن تدفع السعودية ثمن هذه الصفقة. وبهذا أصبح التباعد والفرقة بين شيوخ عرب وبين الجندى القروى، كما كان يحلو للسادات أن يطلق على نفسه، خلافا شخصيا.

كان السادات غاضبا جدا بينه وبين نفسه، وربما كان خائفا ولكنه كان أمام العامة شجاعا ومقداما واستمر قدما فيما بدأه، هذا ما قاله لى أحد مساعديه.

تذكرت أيضا مؤتمرا صحفيا مهمًا كان الرئيس السادات قد عقده فى قصر عابدين، وكان الرئيس السادات جالسا محاطا بالرخام والمرمر والذهب. وعندما سئل كيف يمكنه تسيير الأمور بعد فقدانه للميارات الدولارات التى كانت مصر تتلقاها كمساعدات عربية، ابتسم السادات وأشار لخطة كارتر لمصر (كانت خطة تشبه لحد كبير خطة مارشال) والتى كان يثق تماما من أنه سيتلقاها من « أصدقائه الحميمين كارتر وكيسنجر وأعضاء الكونجرس الأمريكي». وعندما سأله أحد الصحفيين الحاضرين عن كم المبالغ المالية المزمع أن تتلقاها مصر طبقا لخطة كارتر، أجاب الرئيس: «يمكن أن يكون المبلغ محصورا بين عشرة أو خمسة عشر مليار دولار خلال أربع أو خمس سنوات» بدا الرئيس ساعتها وكأنه يرمى بالأرقام جزافا، وبدا وكأنه لا يفرق بين العشرة مليارات والخمسة عشر مليارا، حيث إن الفرق شاسع .

وعندما سألته عن علاقته برئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجين أجاب: «هذا سؤال مهم جدا» واستطرد قائلا: «اعتدت دائما أن أقول إن المشكلة بينى وبين بيجين أعنى بين

مصر وإسرائيل كانت بنسبة ٧٥٪ منها لأسباب نفسية. ولكن قبل التوقيع على معاهدة السلام بقليل كنت قد التقيت ببيجين وحده لأول مرة. أنا وهو فقط. وتحدثنا لمدة ساعتين وأستطيع أن أقول الآن جازما إن ٨٥٪ من المشكلة يكمن فى أسباب نفسية».

لم يفهم أحد من الحاضرين ما يرمى إليه الرئيس.

لقد أرسل السادات رجاله إلى الحرب عام ١٩٧٣، بهدف تحقيق السلام. كان ينظر إلى المستقبل على أنه سيكون مملوءًا بالرخاء لمصر، وذلك طبقا لخطة كارتر التى أسىء فهمها. ولكن، ربما كأى شيء آخر مهم، فقد تنبأ بعودة الأرض المصرية، المتمثلة فى صحراء سيناء التى يمكنه رؤيتها من خلال شرفة قصر الخلوة الرئاسى فى الإسماعيلية. وقد كانت مصر قد فقدت هذه الأرض فى فترة حكم سلفه الرئيس المصرى الأسطورى جمال عبد الناصر وذلك خلال حرب عام ١٩٦٧، عندما سحقت إسرائيل الجيش المصرى والكرامة المصرية فى ستة أيام دامية. ونشرت إسرائيل جنودها بطول الضفة الأخرى لقناة السويس بمكان لا يبعد عن وسط القاهرة سوى بما يقرب من ستين ميلا. انتهى عمليا العصر الناصري، بكل النيّات والأغراض والأهداف، أثناء تلك الأيام القليلة، ولكن ظل الكثير من العرب ينظر لناصر باحترام وإجلال- عاطفيا- كنبى أو قديس العصر الحديث. كان أكثر ما يخشاه السادات هو أن يقف فى ظل عبد الناصر أو أن يكون صورة باهتة له: لذا فقد استهان ونظر بازدراء لفكرة العروبة وعدم الانحياز وفكرة الوحدة الإفريقية والماركسية والشيوعية والاشتراكية وكل التيارات التى كان يؤمن بها ناصر. بعد كل ذلك وفوق كل ذلك فقد استطاع السادات بدهائه وذكائه ورؤيَّته التحول من الجندى البسيط – كما كان يحب أن يصف نفسه دائما إبان فترة حكم الرئيس عبد الناصر– إلى قائد واثق الخطى .

لقد جلب السادات سلاما منفردا مع إسرائيل ولم يخش أبدا بعبع هذا السلام.

كان الدخان يتصاعد بكثافة من قرية أبو صوير فوق حقول الذرة خلفها، حيث التقيت محمد عبد الكريم. كان يراقب جاموسته وهى تدير شادوف الري. كانت الحقول ممتدة

خضراء ومعشوشبة حيث أقف. ولكن على بعد ميل أو أقرب من ذلك، كانت الصحراء تبدأ في الإعلان عن نفسها، كانت تبدو للوهلة الأولى غريبة ومملة، ممسكة بأسرارها وسحرها، تغير ألوانها كامرأة لعوب، نسيجها ولونها كلما هب التراب والغبار. لا يكسر صمتها المطبق وسكونها القاتل سوى صوت هسهسة الرياح. حاولت جاهدة ساعتها أن أتخيل كل الغزاة الذين مروا من هنا عبر تلك الصحراء من الشمال، ولكن ليس هناك أية آثار لهم أو ما يدل على أنهم عبروا من ذلك المكان، لا بقايا أو آثار ولا مقابر ولا أضرحة: ليس هناك لا معابد دورية ولا أروقة رومانية. لم يفعل المصريون إلا القليل للحفاظ على ماضيهم الاستعماري. وكانت السماء صافية زرقاء. لم يكن من شيء حولنا سوى الصحراء تمتد بلا نهاية . تبرز على مرمى البصر بين الفينة والأخرى تكوينات صخرية متناثرة هنا وهناك، تبدو مشابهة لأعشاب ضخمة محترقة فى المحرقة. فيما عدا ذلك لم يكن هناك إلا القليل الذى يعلن عن نفسه فى ذلك الفراغ: شجيرات قليلة وأدغال متناثرة هنا وهناك، وقشور رمادية لنباتات تتوق لنزول المطر. تبدو بينها مجموعة من الخيام التابعة للجيش والتى كانت أكبر قليلا فى حجمها من كبائن التليفونات. ويبدو فى الأفق معسكر ضخم للجيش.

كنت مندهشة ومتحيرة لفكرة الجيش عن معاهدة السلام. فقد كان ضباطه رجالا حكماء ككل ضباط الجيش فى العالم العربى كله. فهم يميلون دائما للابتعاد عن حفلات الدوائر الرسمية والدبلوماسيين الأجانب : وبالتأكيد فإن أكثر ما يتجنبونه هو الصحافة. ومع ذلك فإن ما نعرفه بالفعل وعبر الحرب العربية الإسرائيلية فى الفترة ما بين ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣، هو أن هناك مليونين من الشباب الذين تبوأوا رتبا مختلفة فى الجيش المصري. وقد تلقى هؤلاء الشباب تدريبات عسكرية شاقة وحصلوا على برامج تدريبية مكثفة وعلى مستوى عالٍ بما فيها تقنيات ووسائل القدرة على البقاء على قيد الحياة فى مواجهة ظروف غاية فى الصعوبة ووسائل الكوماندوز، وكذلك القدرة على استخدام أحدث الأسلحة وأعقدها. عندما عاد هؤلاء الجنود إلى مدنهم وقراهم بعد آخر الحروب، فإن كميات كبيرة من هذه الأسلحة وجدت طريقها من ساحات المعارك إلى أيادى الأهالى فى كل أنحاء مصر. ولكن كان تركيز وجود هذه الأسلحة الأعظم فى الجامعات. وكانت هناك أيضا فى داخل حرم

الجامعات من القاهرة إلى الإسكندرية ومن الشمال إلى الوسط وصعيد مصر، حيث كان الطلاب الإسلاميون قد احكموا سيطرتهم على كليات القمة، وحيث كان هؤلاء الطلاب في مقدمة من تحدوا السادات ومعاهدة السلام خاصة وكانوا أيضا ضد دعمه ومساندته لشاه إيران المخلوع وضد شرعيته. وبدأنا في وقتها نسمع أسماء محمد الإسلامبولي وطلعت قاسم وعصام العريان - وكانوا قادة الطلاب في الجماعات الإسلامية، تلك الجماعات التي أغلقت الجامعات في الجنوب احتجاجا على معاهدة السلام، معلنين شجبهم وإدانتهم لها، معتبرين إياها خطيئة إسلامية. ولكننا لم نكن نسمع عن قائدهم الروحي رجل الدين الضرير الشيخ عمر عبد الرحمن.

كنت قد وصلت لقرية أبو صوير في عصر يوم من أيام عام ١٩٧٩، بعد فترة قليلة من توقيع معاهدة السلام، وكنت راغبة في معرفة كيفية استقبال هذه القرية البدوية ورد فعلها على الحدث، تلك القرية التي لا تبعد كثيرا عن الأهرام والواقعة على حافة الصحراء. لا تبعد أبو صويرسوى ساعة بالسيارة من القاهرة ولكنها رحلة للوراء عبر الزمن. والقرية عبارة عن مجموعة من البيوت مبنية من طابق واحد بمحاذاة ترعة صغيرة حيث تجلس النساء القرفصاء في صفوف ليقمن بغسيل ملابسهن وملابس أسرهن، والأطفال يلعبون ويمرحون ويسبحون ويتبولون ويتبرزون أيضا ويغسلون حيواناتهم. كان البدو الذين أصبحوا فلاحين في طريق عودتهم لمنازلهم من الحقول لتناول عشائهم، رابطين حميرهم وجمالهم خارج منازلهم. أما خرافهم فقد كانت تعبث بأكوام القمامة علّها تجد ما تأكله بينما كانت الأبقار والجاموس تمر بها في طريق عودتها من حقول الذرة.

مشى محمد عبد الكريم نحوي عبر الحقل ناظرا إليّ نظرة خاطفة وخبيثة. وفي بداية حديثنا سألني مبتسما «هل أنت إسرائيلية؟» لم يكن السؤال فيه ريبة ولا شك ولا عداء أيضا، ولكن بابتسامة خفيفة وبخفة الدم التي يتعامل بها المصريون مع أي شيء جديد أو أحداث غير عادية أو نادرة. بعدها توقف وانتظر وثبّت عينيه عليّ كما لو كان صيادا اصطاد طائرا نادرا أو منقرضا ليرى ما إذا كان قد اكتشف إسرائيليا بالفعل في دائرته أو في محيطه.

أجبته قائلة: « لا. أنا أمريكية».

تنهد قائلا: « كلهم متشابهون، لا فرق».

كانت تلك هى الطريقة التى كانت تدور بها حواراتى فى الفترة التى أعقبت توقيع معاهدة السلام. لأن معاهدة السلام كان يتم وصفها واعتبارها ليس فقط عن طريق اليساريين مثل محمد سيد أحمد، ولكن أيضا من الإسلاميين كمعاهدة ليست بين مصر وإسرائيل، ولكن بين مصر والولايات المتحدة. كانت تلك هى الأرض المشتركة الوحيدة التى التقى فيها الإسلاميون واليساريون فى ذلك الوقت.

استمر محمد عبد الكريم فى التحديق فىّ بفضول وبلا تحرج. كان رجلا نحيفا بوجه ضحوك مرح وفم تشكله أسنان صفراء. كان يرتدى جلبابا رثًا تتوجه صدرية بنية اللون. وتغطى رأسه عمامة بيضاء متسخة ضخمة بصورة تبعث على الدهشة. وبمساعدة العديد من المترجمين الذين التفوا حولنا، أخبرنى أن له ستة عشر ابنا من زوجتين: وأن ابنه الأكبر طارق الذى قدمنى له، كان يدرس الهندسة فى جامعة أسيوط فى صعيد مصر. كان محمد عبد الكريم قد انتقل وعائلته من العيش فى الصحراء حيث لم يبق إلا البدو على قيد الحياة ليعيش فى قرية أبو صوير قبل سنوات قليلة. وهو الآن فلاح بصورة رسمية حيث أنه لا يجوب الصحراء هو وأغنامه بحثا عن الماء والكلأ، ولكنه كما أخبرنى كان لم يزل بدوى الهوى.

بعد أن تبادلنا التحيات والمداعبات اقترح محمد أن نقوم بجولة فى الصغيرة. مدينة صغيرة عبارة عن بعض الشوارع الترابية القليلة المؤدية إلى ملعب لكرة قدم، ومسجد مبنى بصورة متقنة ومرصع بالأرابيسك. فى الخارج كانت هناك أكشاك الشاى حيث كان الرجال يجلسون واضعين رجلا فوق الأخرى على أسرّة من الحبال يدخنون الشيشة والحشيش. رأيت طابورا من السيدات فى طريقهن إلى منازلهن يحملن جرار المياه الفخارية على رؤوسهن، كن يمشين فى صمت وكن أيضا مجهولات الهوية متحصنات خلف رداء من الرأس لأخمص القدمين وحجاب أيضا. كن يزين ملابسهن بالعملات الذهبية والفضية والنحاسية بصورة جميلة للدلالة على المهور التى كانت قد قدمت لهن وقت زواجهن.

انضم إلينا مجموعة من الطلاب: كان بعضهم يتحدث عن النبى محمد (بينما كان آخرون يتحدثون عن ماركس. وانضم إلينا شيخ حكيم وتحدث عن القرآن. لم تكن هناك طرق ممهدة أو مرصوفة فى القرية، ولكنى شاهدت مجموعة من الموتوسيكلات (الدراجات النارية) اليابانية ولم يكن هناك أيضا مدارس وكانت نسبة الأمية نحو ٨٥٪ ، ولكن بدا أن كل شخص لديه مذياع، كما هى الحال فى معظم القرى المصرية، فالمصريون أذكياء ومهرة فى مناقشة القضايا العالمية وفى مناقشة شئون العالم. كانت القرى المصرية غير متطورة هذا شيء مؤكد ولكنها لم تكن متخلفة على الإطلاق.

توقفنا لكى نحيى جمل محمد الذى كان يجلس تحت شجرة أمام بيته المكون من حجرة واحدة يمضغ بعض الحشائش. كانت عينا الجمل نصف مغلقة. صاح طارق الابن الأكبر لمحمد قائلا « جمال» وكان محمد فى حالة واضحة من الغضب وأردف قائلا « لم نزل نركب الجمال ونحن فى القرن العشرين. وسيكون الوضع أكثر سوءا الآن بعد قطع العرب لمساعداتهم لمصر. إننا فى حاجة للكهرباء والماء والمستشفيات والطرق والمدارس».

نظرت إلى محمد الذى لم يبد رأيا واكتفى بالابتسام فقط.

سألته « هل تفتقد الحياة فى الصحراء؟».

أخبرتنى عيناه بأنه عاد بذاكرته إلى الماضي. عندئذ بدأ يحدثنى عن سنوات طفولته عندما كانت المياه قليلة وشحيحة وكانوا لا يجدونها إلا مرة واحدة فى اليوم . كان الماء دائما سرا له. الماء قالها بإنجليزية مكسرة (ووتر). أما الآن فهو يحصل على الماء من النيل عن طريق ترعة الري.بالنسبة لمحمد عبد الكريم، الرجل الذى كان لا يزال رافضا لمعاهدة السلام، كان النيل لم يزل يحكم. فبينما كان مستمرا فى كلامه تيقنت أن الفلاح البسيط منذ عصور الفراعنة لن يجد إلا تغيرا بسيطا بطول ضفاف النيل اليوم. فجاموسات محمد الثلاث تؤدى العمل ذاته الذى كانت تقوم به من آلاف السنين، إذ تقوم برفع المياه الغالية بإدارة رافعة ثقيلة خشبية يحفظ توازنها ثقل من الطين. وهى تقوم بالعمل معصوبات الأعين الآن كما كانت معصوبات الأعين فى ذلك الوقت.

لحنى محمد وأنا أراقب جاموسته تدور وتدور. وأردف قائلا: «جمالى هى الأكثر أهمية» فهى فى الواقع تؤدى كل الأعمال: فهى تعمل فى الحقل وتحمل الأثقال:

وعندما لا أجد لها عملا لدى فإنى أؤجرها. وعندما تغدو عديمة الفائدة أذبحها ونأكل لحمها: وتتعامل إحدى زوجاتى مع جلدها ونصنع منها سجادة للصلاة ومعاطف للأطفال، تماما كما كان يفعل البدو مع جمالهم منذ خمسة آلاف سنة.

كنا قد وصلنا لنهاية القرية وبدأنا فى العودة نجر أقدامنا عبر شوارع القرية الترابية، حتى وصلنا لأحد المساجد وهو واحد من الثلاثة مساجد الموجودة فى قرية أبو صوير وضواحيها، وكان قد تم بناء هذا المسجد بأموال سعودية. عندها تساءل محمد ما إذا كان ذلك التمويل السعودى الخاص سيتوقف أيضا.

لقد بدأ التاريخ العربى الإسلامى فى السعودية بحكم أنها المكان الذى ولد فيه النبى محمد والإسلام أيضا. ولكن فى القاهرة فقط وليس فى غيرها، شكّل الإسلام حضارة ترعرعت وتصدت للغزاة وقهرتهم مدافعة عن الإسلام والمسلمين. وإذا كانت السعودية تشرُف بحيازتها للمزارات الإسلامية المقدسة، ففى القاهرة موطن أقدم وأشهر جامعة إسلامية وصحافتها الرائدة. وملجأ المنشقين السياسيين الذين لجأوا إليها طلبا للحماية منذ أيام الإمبراطورية العثمانية. ويتوافد الطلاب العرب والمسلمون والأجانب طلبا للعلم فى جامعاتها. هنا فى القاهرة تكثر المنشورات والمناظرات والنقاشات العقلانية، وأخيرا شكلت السينما بؤرتها وأسبقيتها- وعلى عكس المدن السعودية التابعة- فقد كانت القاهرة فريدة وعاصمة حقيقية وعصرية بصورة لم تسبقها أية مدينة عربية.

وفى مصر أيضا تحقق ولأول مرة حلم الوحدة العربية، وبها أيضا ولدت حركة الإخوان المسلمين. إن أية وحدة سياسية أو ثقافية امتلكها أو حققها العرب كانت صناعة مصرية صرفة: ففى التاريخ الحديث نرى تأثير عبد الناصر ومن بعده بصورة أقل كان السادات . ولكن العلاقة بين التزمت والتعصب والقبلية الصحراوية، وبين انفتاح القاهرة ونظرتها العالمية كانت دائما علاقة مضطربة وغير مستقرة، لذا لم يرتدع السادات ولم يتراجع. وصرف النظر ولم يهتم بشيوخ الصحراء ولا بعقوباتهم الاقتصادية، فكذلك لم يعط اهتماما لمعارضى معاهدة السلام التى وقعها مع إسرائيل، هؤلاء المعارضون الذين

اجتاحوا حرم الجامعات المصرية وكذلك العالم العربى والإسلامي. وأثبت أنه هو السادات المتفرد، وتعامل مع كل من المعارضين والعقوبات على أنها مجرد أشياء مثيرة للضيق.

سألت محمدًا عندما توقف أمام المسجد: « هل أنت متدين؟».

«أستغفر الله، نعم، أجاب فأنا أحيا الحياة التى أمرنا الرسول، أنه علينا أن نعيشها».

ثم فكر لبرهة وأكمل قائلا « كان الرسول محمد أيضا بدويا».

فكرت فى الرئيس السادات، جالسا فى مختلاه الرئاسى فى الإسماعيلية، وناظرا من شرفته متأملا تلك الأرض. ولشد ما صدمنى ما أدركته، بينما كنا نقف خارج المسجد وشاهدت دوامة رملية هبَّت علينا من الصحراء التى كانت خلفنا، أدركت أن هذه الأرض تمثل واحدة من اثنتين من الجذور الثابتة للحياة فى القرية المصرية . أما الأخري، فى عشرات الآلاف من القرى الصغيرة والمدن الصغيرة، حيث يعيش ما يزيد على ٥٥٪ من المصريين، هى الدين. وكما قال محمد، فقد كان الرسول محمد بدويا.

لم يبدأ البدو سواء فى سوريا أو مصر أو الأردن أو حتى السلطة الفلسطينية فى هجر الصحراء إلا حديثا، وكان ذلك قد بدأ بصورة واسعة بعد حرب عام ١٩٤٨ كنتيجة مباشرة للحروب العربية الإسرائيلية. وذلك عندما وسع الجنرالات دائرة المواجهات لتضم الصحراء. لذلك وجد البدو أنفسهم تحت الحصار. لم يكونوا ليستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ضد الطائرات الحربية والدبابات، حينها بدأوا فى الهجرة.وأتوا إلى أماكن مثل أبو صوير القابعة على حافة الصحراء. عندما قمت بزيارة القرية لم يكن بها كهرباء رغم اعتقادى بأن هذا قد يكون قد تغير الآن: لم تكن هناك أيضا دور سينما ولا مولدات ولا سيارات. ولكن بين الفينة والأخرى وأثناء سيرنا كان يتم مقاطعة مسيرتنا بواسطة أحد الشبان ذى الشعر الطويل الذى يقود دراجة نارية يابانية بسرعة محدثا أزيزا كأزيز الطائرات، متحديا كل من يقف فى طريقه كما لو كان يقود هجوما على قافلة فى الصحراء بغرض سلبها ونهبها.

مع ذلك، ربما يكون فى هذا المساء، وأنا بجوار نار المخيم، هو معظم ما أتذكره. فقد أصر محمد أن نشاركه وجبته، أنا وجيرانه وأصدقاؤه وأسرته قبل مغادرتنا. جلسنا

حول النار المشتعلة وكأننا فى ليلة من ليالى ألف ليلة وليلة. كانت الشمس فى طريقها للغروب ومنظر الغروب كان رائعا فوق الصحراء، وكان الهواء نقيا صافيا رقراقا. ومن خلفنا كانت النار مشتعلة فى حفرة صغيرة فى الرمال. وبدأ النسوة فى إعداد الطعام والشاى الثقيل كثير السكر فى وعاء ضخم وكن يرتدين عقودا فضية وأساور عاجية وذهبية. كن يغرفن العجين من آنية خزفية مزركشة ويضعنها على الفحم، بينما أخريات كن يقدمن لنا التمور والبيض المهروس فى زيت الزيتون وجبن الضأن الحرِّيفة: والتهمنا الطعام التهاما بقطع كبيرة من الخبز وبأيدينا. بدأت تلوح فى الأفق الأضواء القادمة من القاهرة. ولكن لم يبد أحد من الجالسين حول النار اهتماما ولم تغر المدينة بأضوائها أو حياتها أيا من الجالسين، وجلسوا حول الجمرات المشتعلة كما كان يفعل أسلافهم فى العصور الغابرة. كانوا ينشدون الشعر القديم -شعر الحرب والانتقام- أو نثرا ينتقد المرابين ويتهكم على المرابى كشخص غير محبوب.

كانوا يشتكون من زوجاتهم ومن جيرانهم ومن السلطات المحلية . اشتكوا من موظفى مصلحة الرى ومن جامعى الضرائب. اشتكوا بتأثر من أساليب إدارة الحياة المصرية.بينما كنت أنصت لهم فلم أستطع أن أمنع نفسى من استدعاء شكاوى الفلاح الفصيح، التى تمت كتابتها منذ ما يقرب من أربعة آلاف سنة. وقد كان الفلاح خونانب (khunanub) يشتكى من نفس الأشياء تحديدا وبدقة لفرعونه الملك نيبكور (nebkaure) والذى سلبته فصاحة الفلاح البسيط رجاحة عقله، والتى استهل بها حاكم ومحكوم مراسلة دامت سنين عديدة.

بعد ذلك بأيام أشرت إلى هذه القصة فى حديثى مع الدكتور سعد الدين إبراهيم، أستاذ علم الاجتماع فى الجامعة الأمريكية. رد قائلا: « المصريون أيضا مغرمون بهذا الكتاب، فمنه يدركون ويتيقنون أن عمر شكواهم أربعة أو خمسة آلاف عام».

واستمر فى كلامه يحكى لى هذه القصة والتى حدثت قبل نحو عشرين عاما، فقد كتب عالم الاجتماع المصرى البارز سيد عويس كتابا عن ذهابة لأحد مكاتب البريد فى مساء يوم جمعة[1]». لم ير أيا من موظفى البريد، حيث إن الجمعة يوم عطلة، ولكنه، حدق عبر

---

(١) عن كتاب الدكتور سيد عويس، رسالة إلى الإمام الشافعى الذى تم نشره فى القاهرة عام ١٩٧٨.

إحدى النوافذ فرأى الدكتور عويس ساعيًا للبريد يوشك أن يشعل النار فى كومة كبيرة من الخطابات فى فناء مكتب البريد.

أخذ الدكتور عويس يضرب بيده على النافذة ويصرخ « هذه جريمة أن تحرق الرسائل».

صرخ رجل البريد مجيبا الدكتور بنفاد صبر قائلا، «إنها رسائل بلا عناوين، وغير معروف من أرسلها ولا لمن يود إرسالها: إن لهم عنوانا رائعا. إنها رسائل إلى الله».

أخذ عالم الاجتماع يتملق رجل البريد ويداهنه حتى أخرجه إلى الشارع ومعه كومة الخطابات، وأخذ يلتمس منه ويرجوه أن يسلمه تلك الخطابات. وقد فعل ساعى البريد. كانت معظم تلك الخطابات موجهة للقديسين ولمريم العذراء وللنبى محمد وإلى الله. ولكم كانت دهشة عالم الاجتماع عظيمة وهو يتصفح تلك الخطابات. لأن كل الشكاوى والشائعات كانت هى نفس الشكاوى التى نطق بها لسان الفلاح الفصيح وكتبها لفرعونه منذ أربعة آلاف سنة.

استند الدكتور سعد الدين إبراهيم على كرسيه للخلف وأشعل غليونه. «لذا كما ترين» من خطابات الفلاح الفصيح التى كانت كصلاة إلى الخطابات التى كانت فى مكتب البريد إلى البدو الذين قابلتهم، فإنك تكوِّنين فكرة عما قد كان هنا منذ زمن سحيق: إنها استمرارية المجتمع المصري.

سألته كيف تغيرت مراكز السلطة فى مصر، منذ أربعة آلاف سنة، عندما كتب الفلاح الفصيح رسائله لفرعونه.

ابتسم ابتسامة عريضة وهو جالس على مكتبه وقال « لم يحدث أى تغيير». واستمر فى كلامه موضحا أنه فى المجتمعات الهيدروليكية (التى يحكم الماء حركتها) التى تعتمد فى بقائها على نهر عظيم، هناك نظام متفاوت وغير متجانس للسلطة لحماية النهر: لأن من يحكم النهر يحكم المجتمع. «وحتى يمكن فعل ذلك» استمر قائلا: كان على فرعون أن يعتمد على شيئين أساسيين مهمين، الإكراه والإقناع، وقد فعل ذلك عن طريق ثلاث أذرع جبارة وخطيرة: أجهزة أمنه : ودواوينه الأهلية المدنية أى بيروقراطيته ومؤسسته الدينية. فعبر

أجهزة أمنه كانت رسالته واضحة لا لبس فيها: فهو يريد من رعيته أن تتذكر أنه دائما هناك، وهذا هو جانب الإكراه والإجبار: أما من خلال بيروقراطية دواوينه، فكان يجمع الضرائب، ولكنه كان فى نفس الوقت يعطى رعاياه وظائف عامة حكومية، وكان هذا هو جانب الإقناع. وما لم يستطع تحقيقه عبر هذين الاثنين فكان مخاطبة داخلية الإنسان ومخاطبة نفسه، ويتم عن طريق الدين بحيث يجعلك تقبل ما يريده الحاكم دون نقاش، لأن المؤسسة الدينية أقرت ذلك، لكى يخضع له رعاياه ويطيعونه عن اقتناع».

سكتَ لحظة ثم تنهد وقال «ذلك هو السبب الذى يفسر لماذا أكملت مصر عقيدة الملك الإله» فكرت كثيرا فيما قاله وظللت أتأمله بينما كنت أغادر الجامعة الأمريكية فى القاهرة وأمشى خارجة إلى الشارع، مررت فى طريقى بوزارات حكومية، ومررت بالمتحف المصري، ومررت بمسجد السيدة نفيسة. عندما تم توحيد مصر العليا ومصر السفلى لأول مرة عام ٣٢٠٠ سنة قبل الميلاد تقريبا إبان حكم الفرعون مينا، الذى أسس الأسرة الأولي، تم الإعلان عن ألوهية الفراعنة. بعد ذلك بألف سنة تقريبا، فى نفس الفترة التى أرسل فيها الفلاح الفصيح رسائله وشكاواه تقريبا، بدأ الفراعنة فى ادعاء الخلود .

توقفت لأشاهد مفرزة أمنية فى زى عسكرى مشدود ومنضبط ومموَّه. تتمركز فى أماكنها وتأخذ مواضعها بميدان التحرير انتظارا لمرور موكب الرئيس الذى كان من المزمع أن يمر فى غضون ساعات قليلة. سمعت صوت المؤذن الذى كان صوته الحزين يسبح عبر أسطح المنازل مناديا على الناس للصلاة. صدمنى هذا الإدراك ساعتها، أدرك أنه لم يحدث أى تغيير يذكر منذ الفراعنة وحتى الآن. فمصر رغم طبقاتها المتعددة وأعمدتها الحضارية المختلفة- بعضها جلى وواضح وبعضها الآخر مختلط ومشوش - هاهى الآن كما كانت حينئذ محكومة بالثلاثى المقدس الملك والجيش والمؤسسة الدينية .

بحلول ديسمبر عام ١٩٧٩، وعلى عكس كل التوقعات، فقد استطاع السادات أن يتجاوز نقطة ضعفه، وجوانب الضعف فى معاهدة السلام المنفردة وما أعقبها من أزمات سياسية ومؤامرات ومحاولات اغتيال استهدفته نجِّى منها جميعا. وكان السادات قد عزز سلطته فى العشر سنوات التى حكمها وذلك بعزل منافسيه، وحافظ بضمير يقظ على

الوضع، وتمكن من الاحتفاظ على ولاء ثلاثمائة ألف جندى فى جيشه. والذى كان يمسك قادته ورؤسائه بزمام السلطة فى مصر على مدى خمس وأربعين سنة. كانت العلاقة بين الرئيس والمؤسسة العسكرية علاقة بديهية ومسلمًا بها، بمعنى أن ولاء الجيش للرئيس كان بديهيا، وربما كان ذلك راجعا لكون حكم السادات، الذى كان امتدادا للحكم الناصرى قد انطلق ورأى النور من خلال انقلاب عسكرى أو عبر ثورة يوليو ١٩٥٢ التى قادها العسكر. لقد شكلت الإطاحة بالملك فاروق عن طريق مجموعة مغمورة من الضباط المصريين الشباب حدثا تاريخيا مهمًا فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث. لم يكن هذا الحدث معلما بارزا فى تاريخ مصر العريق الطويل فقط – مصر التى اعتبرها نابليون أهم بلد فى العالم – ولكنها أثرت بعمق فى الدول العربية والإسلامية. فقد كانت الخبرة والتقارب قد أثبتا لهم أن مصر – أقوى وأكثر بلد متقدم ومتطور فى المنطقة – كانت غالبا رائدة لما يخبئه المستقبل.

لقد كان وصول الضباط الأحرار للسلطة بدون طلقة واحدة ولا قطرة دم انقلابا مثيرًا للجدل وثورة مثيرة للجدل أيضا: ولقد كتب بعض المؤرخين فى هذا الصدد قائلين: إن المصريين بالفطرة والطباع ليسوا شعبا ثوريا، مدللين على ذلك بأنه لم يحكم مصر الحديثة على مر قرنين من الزمان سوى حكمين، وتلك حقيقة: أولهما كانت أسرة قرصان البانى يسمى محمد على – أكبر وأهم من اهتم بتحديث مصر والذى ظهر إبان حالة التشوش التى أعقبت الحملة الفرنسية النابليونية على مصر عام١٧٩٨ – والذى كان الملك فاروق آخر سلالته: وبعد ذلك كان حكم الضباط الأحرار عام١٩٥٢ . بالطبع تبدو المعادلة دقيقة رياضيا ولكنى أرى أن أهم شىء فى ثورة يوليو هو أنه ولأول مرة عبر٢٢٨٤ سنة أن المصريين قد بدأوا يحكمون أنفسهم.

كان اللواء محمد نجيب، البالغ من العمر خمسين عاما، هو الرئيس اسميا لثورة يوليو، ولكن عبد الناصر ذا الشخصية الكاريزمية هو الذى كان يمسك بمقاليد الحكم من خلف الستار. وكذلك كان خلفه السادات حيث جمع كل خيوط السلطة فى يديه.

لقد حكم مصر اثنان من فراعنة العصر الحديث لما يقرب من ثلاثين عاما هما، البكباشى جمال عبد الناصر والقائمقام أنور السادات. واستطاعا عبر فترة حكمهما استدعاء التقاليد

الفرعونية القديمة التى كانت تؤكد على الولاء التام والإخلاص الكامل للحاكم أو للرئيس إلى العصر الحديث. وفى سبيل تحقيق ذلك استخدما الحيلة والدهاء وكانا بارعين فى تزيين وزركشة الأمور والأحداث. وقد كانت هناك تحت تصرفهما وسائل وخيارات كثيرة للتخلص من خصومهما بعزلهم والسخرية منهم وتفريقهم وسحقهم إذا لزم الأمر. واعتمدا على الثالوث المقدس الملك والجيش والكنيسة (أى المؤسسة الدينية) لضمان ولاء الشعب المطلق لسلطتهما المطلقة كما كان يفعل أسلافهم الفراعنة من قبل.

تحرك ناصر بسرعة ليجعل الأزهر الشريف الصرح الدينى والتعليمى التقليدى والقديم تحت سيطرته، كان يريد أن يضمن ولاء تلك المؤسسة الدينية العريقة، ويجعلها تحت تصرفه. لذا فقد عين شيوخ الأزهر ومدرسيه وأئمته ومديريه، وهو ما فعله السادات باعتباره الوارث لثورته، وما يفعله الأن حسنى مبارك. لم يكتف عبد الناصر بضمان ولاء المؤسسة الدينية الرسمية له ولكنه بدأ رئاسته بعقد تحالفات مع الجماعات الدينية، وبخاصة جماعة الإخوان المسلمين، وعندما أدرك عمق الخطر الذى يشكله الإسلاميون على حكمه تحول فجأة وبعنف ضدهم وضد الجماعات المسلحة الى تعمل تحت الأرض. (تكرر هذا النموذج والسيناريو مع السادات فى آخر سنة من سنى حكمه ومع الرئيس حسنى مبارك الآن) لكن فى السنوات الأولى من حكم عبد الناصر، كان هناك شهر عسل فى العلاقات بين ثورة يوليو وبين الإخوان المسلمين. كان القليل جدا من المصريين ينظر إلى الجيش كمرشح للاستيلاء على السلطة والحكم عندما استولت مجموعة سرية من الضباط الصغار على السلطة. فمصر لم يتم حكمها عن طريق العسكر منذ العصر المملوكى فى القرن السادس عشر. وكانت قد اعتادت ولقرن من الزمان تقريبا على شكل الحكومة الملكية البرلمانية، ولذا فقد كان راسخا فى عقيدة المصريين أنه إن كان ولابد أن يحدث تغيير فى الحكم الاستعمارى فلابد أن يأتى هذا التغيير عن طريق القوى الإسلامية السلفية التقليدية، وذلك لأن الإخوان المسلمين كانوا فى طليعة القوى المناهضة لبريطانيا فى مصر وقادوا ضدها حملات عسكرية لفترة تزيد على الربع قرن تقريبا، تلك الحملات والأعمال العسكرية التى كان من نتيجتها، حرق وسط القاهرة قبل ستة أشهر فقط، وكرد مباشر حدث هجوم أدى إلى مذبحة قتل

فيها ما يقرب من خمسين رجل شرطة مصريًا عن طريق البريطانيين فى قناة السويس. ساعتها قرر ناصر وأعضاء ثورة يوليو أن وقتهم قد حان.

لم يكن قادة الإخوان مجهولين لثوار يوليو، وذلك لأن الأجندات كانت قد تلاقت منذ ما يزيد على العشر سنوات. فقد شارك الإخوان المسلمون ثوار يوليو كراهيتهم للحكم الاستعماري، لقد اشتركا معا فى أحداث الشغب ضد الاحتلال البريطانى وفى التفجيرات والإضرابات، ولكن أهم الأحداث التى جعلتهم يتحدون هو حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وفيها لأول مرة تلاقى الإخوان والثوار بالأحضان .

فى الواقع لم تكن خلفيات الإخوان وثوار يوليو وولاءاتهم مختلفة كثيرا، فكلٌ من الجيش المصرى ومؤسسته الدينية يستمد عناصره بصورة رئيسية من ال ٥٥٪ من المصريين الذين يعيشون فى الريف المصري. فكلٌ من الجندى والداعية كانوا يمتلكون نفس الخلفية وكل أفكارهم متشابهة ومستقاة من حياة القرية المصرية. فقد كانت جذور ناصر، وكذلك كل أعضاء مجلس قيادة الثورة تقريبا تنحدر بالولادة من حياة القرى والمدن المصرية الصغيرة وينتمون للطبقات الوسطى أو الدنيا، وظل هذا يؤثر فى تشكيل نموذجه طوال حياته ربما أكثر من أى شيء آخر. وذلك لأنه رغم أن الرئيس ناصر كان قارئا متحمسا للتاريخ والسير السياسية، فقد جاء هو وأصدقاؤه الضباط الأحرار إلى السلطة بلا أيديولوجية سياسية محددة أو مميزة. كانت كل أفكارهم محصورة فى طرد بريطانيا والإطاحة بالملك فاروق والقضاء على الإقطاع.

لذا فقد مال قلة من الضباط الأحرار نحو الماركسية، أما الآخرون بمن فيهم السادات فقد مالوا نحو حركة الإصلاح الإسلامية المتمثلة فى الإخوان المسلمين. لذا عملت المؤسسات الثلاث – الملك والجيش والمؤسسة الدينية – معا بصورة متناسقة ومتناغمة. ربما كانت لكل واحد خصومات داخلية ولكل واحد منافسون. ولكن فرعون فى مثل ذكاء ناصر وورثته كانوا دائما متيقنين من وضع المؤسسة الدينية والجيش تحت السيطرة.

ككل القادة المصريين السابقين سواء كانوا فراعنة أم أجانب ملكيين أو جمهوريين فقد حكم ورثة ثورة يوليو ١٩٥٢، مصر بسيطرتهم وإحكام قبضتهم على مؤسسات الدولة.

لذا فقد كانوا يختارون الرجال المخلصين تماما لهم، يختارون أهل الثقة للمناصب المهمة مثل نواب الرئيس ورؤساء الوزراء ووزراء الداخلية والدفاع وقادة الجيوش والإمام الأكبر شيخ الأزهر وبابا الأقباط الذين يمثلون مؤسساتهم الدينية. كل الحكام الإقليميين كانوا من تعيينهم، وكذلك المحررين أى رؤساء التحرير ورؤساء الجامعات ورؤساء هيئات القطاع العام. كان بناء أخطبوطيا تم ابتكاره على أ ساس ما كان موجودا من قبل من آلاف السنين.

ومع ذلك وحتى فى السنوات الأولى من حكم الرئيس عبد الناصر خرج أحد العناصر الثلاثة وبدأ فى التملص من سيطرته. فقد استمر الإخوان المسلمون فى الإثارة والتهييج والمطالبة بحكومة إسلامية ولم يدم شهر العسل بينهما وبين النظام إلا قليلا. لقد ذهب الإخوان أبعد كثيرا من الحدود الضمنية لقوتهم وسلطتهم، هذا طبعا من وجهة نظر الضباط الأحرار. لذا ففى أكتوبر من العام ١٩٥٤، وعندما تم اتهامهم بالضلوع فى محاولة اغتيال الرئيس عبد الناصر، تحرك الجيش الذى يحمى النظام ضدهم بعنف ووحشية : تم حظر المنظمة : تم إعدام وتعذيب قادتها وتمت إعادة ما يزيد على أربعة آلاف من قادتها لمعسكرات الاعتقال. (ما يدعو للسخرية هنا أن أحد الضباط الأحرار الذى كان جالسا على منصة المحكمة العسكرية وحكم على قادة الإخوان بالإعدام، كان هو الضابط الشاب أنور السادات، والذى ترأس مصر بعد ذلك بعقدين، ورعى بنفسه خروج العنقاء الإسلامية من قمقمها مرة أخرى وفى وقت آخر).

فى تلك الأثناء كان ناصر، الذى جاء للسلطة باهتمام بعيد فقط بالوحدة العربية وبلا فلسفة سياسية خاصة به، قد بدأ فى التطور إلى قائد عظيم سيترك أثرا بارزا لا ينمحى ليس فقط فى مصر ولكن فى العالم العربى والإسلامى كله على اتساعه.إذا كان هناك من حدث واحد يمكن اعتباره مرشدا له وقائدا لخطواته فى تكوين وإدارة حكمه، فقد كانت تجربته فى حملة العرب الكارثية على إسرائيل المتمثلة فى حرب عام ١٩٤٨ . فمنذ اليوم الذى تسلم فيه مقاليد الامور، ظلت الهزيمة تحكم سياساته الداخلية والخارجية. بمعنى أن كل شىء آخر نشأ وتولد منها: عزمه على التخلص من القوى السياسية والاقتصادية للطبقة الحاكمة السابقة: إعادته توجيه السياسة الخارجية المصرية نحو الشرق والتقليل

الشديد من التأثير الغربي: اعتماده على الاتحاد السوفيتى فى المساعدات العسكرية: ورغبته الجامحة والأكيدة فى تحقيق وحدة عربية مهما كانت التكاليف.

قد كنت أسأل أصدقائى المصريين دائما عن تقييمهم لتركة ناصر التى أورثها خلفاءه من بعده. ومن غير المدهش إطلاقا أن الإجابات التى تلقيتها كانت مختلفة ومتناقضة كالشخص نفسه (ناصر) . كان ناصر صناعة حقيقية لفترة الخمسينيات، لذا فقد كان عمودا أساسيا ومن القادة المؤسسين لحركة عدم الانحياز وعالم عدم الانحياز الذى كان يغازل الأمريكان بعيدا عن الروس بينما يفضل الصينيين. كان ناصر قوميا واشتراكيا مؤمنا بوحدة المصير العربى أى عروبيا وكان مغرورا بصورة ملحوظة ويصل غروره لحد الغطرسة. كان ساحرا ومحبوبا من الجماهير، وأكد عندما كان يقوم بسياسة الإصلاح الزراعى أن كل فلاح سيحصل على قطعة أرض ويصبح مالكا بعد أن كان أجيرا مسخرا: وضمن للفقراء فى الريف والحضر تعليما مجانيا وكذلك رعاية صحية مجانية أيضا : قام بدعم الغذاء والإيجارات. وضمنت الدولة توفير وظائف حكومية لجميع خريجى الجامعات وتم تأميم الاقتصاد بصورة كاملة تقريبا، وهى خطوة أثبتت الأيام أنها كارثة. ولكن ناصر – كورثته أيضا – كان له جانبه المظلم بل الأكثر إظلاما. فبمساعدة الذراع القوية لحكمه وهو الجيش الذى كان تحت أمره قلص عبد الناصر الحريات الفكرية والسياسية إلى أقل مستوى ممكن، تلك الحريات التى كانت مضمونة سابقا. ألغى الأحزاب السياسية – عدا الاتحاد الاشتراكي– وأقام معسكرات الاعتقال حيث ألقى بالآلاف فيها فى أى وقت ولأى وقت. لم يتم محاكمة الكثير منهم ولم توجه لهم أية تهم. بعض الذين قابلتهم لم يكونوا ليعرفوا لماذا تم القبض عليهم حتى اليوم.

كان ناصر غريبا كمصر نفسها.

وكما عاش ناصر فى ظل الأهرامات القديمة فقد رأى أن يصنع لنفسه آثارا تخلده، فبنى السد العالى فى أسوان. تبنى أيضا فكرة وصول عشرين ألف خبير روسى فى عهده كما رحلوا بنفس السرعة فى عهد السادات. اتخذ أيضا قراره الشهير بتأميم قناة السويس وذلك فى يوليو من عام ١٩٥٦، تلك الخطوة التى سببت العدوان الثلاثى على مصر عندما هاجمت جيوش إنجلترا وفرنسا وإسرائيل مصر. ولكن قرار الرئيس الأمريكى إيزنهاور

وإجباره للدول المهاجمة بوقف إطلاق النار عكس نتائج الحرب وقلبها رأسا على عقب لصالح ناصر. ربما تم اعتبار تلك اللحظة هى أعظم اللحظات الأمريكية فى عيون العالم العربي.

قويت شوكة عبد الناصر فى العالم العربى بعد الرحيل القسرى لقوات العدوان الثلاثى وثبتته كزعيم عربي. ولكن تعاليه وشموخه وغروره كان يمهد الطريق لهزائمه العسكرية المتوقعة فى الستينيات فى اليمن والكونغو وفى سيناء. كانت هزيمة مصر الساحقة المدمرة أمام إسرائيل خلال حرب الأيام الستة الدامية فى يونيه عام ١٩٦٧، هى قمة الذل لعبد الناصر وجيشه الذى كان تحت إمرته . بتلك الهزيمة انتهى عهد ناصر بحلوه ومره رغم كل النيّات والأغراض، خلال تلك الأيام الستة، وكما نرى هنا أن نراعا أخرى من ثالوثه المقدس قد تم سحقه، كما لم يسحق من قبل، عبر آلاف السنين.

إن الخزى والمهانة اللتين لحقتا بهم نتيجة تلك الهزيمة قد وصلتنى عن طريق الكتب والصور الحية بعد ثلاثين عاما .حين زرت مصرفى يونيه ١٩٩٧، فى ذكرى تلك الحرب كانت الأحزان ملموسة والجروح عميقة. وحين قرأت الصحف المصرية فى صباح الخامس من يونيه، أدهشنى أنهم يذكرون الحرب كأنها قد حدثت بالأمس.

تسارعت حركة الإحياء الإسلامية بعد الحرب، كانت تتغذى على الذل والمهانة اللتين لحقتا بمصر وضياع القدس فنشأت جماعات سرية سلفية – مثل منظمة التحرير الإسلامية وجماعة التكفير والهجرة – تلك الجماعات التى ستتحدى ورثة عبد الناصر فى السبعينيات بتأثير قاتل ومميت.

من جانبها، فإن الجماعات الإسلامية – والتى كانت ستقوم بتأسيس فروع لها فى كل الدول الإسلامية تقريبا فى غضون العقد القادم – ركزت وكثفت حملتها على تصدير ثورتها للخارج وبصورة خاصة لتلك المناطق التى احتلتها إسرائيل بعد حرب الأيام الستة. كان الشيخ أحمد ياسين هو الشخصية التى تم التركيز عليها لتحقيق ذلك. وكان الشيخ أحمد ياسين رجل دين فلسطينيًا يتمتع بحب الجماهير، وكان قد حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة الأزهر، وبينما كان فى القاهرة أصبح عضوا فى القيادة السرية لجماعة الإخوان. بعد عودة الشيخ إلى قطاع غزة المحتل أصبح الصوت السياسى البارز المهم للإسلاميين.

ومما يدعو للسخرية، ليس عل عكس السادات، الذى شجع وسلح ودرب إسلاميى مصر لإحداث توازن مع اليسار وتحجيم دور اليسار، شجعت اسرائيل الشيخ أحمد ياسين – الذى أسس منظمة حماس فيما بعد– ولم تسمح إسرائيل فقط لحركته الإسلامية بالنمو والازدهار بل كانت تدعمه خلسة . ولأن إسرائيل كانت تخشى منظمة التحرير الفلسطينية العلمانية، فرأى الإسرائيليون أن الإسلاميين هم الآلة المثالية لتحقيق سياستهم المبنية على مبدأ فرق تسد (أو فرِّق واحكم) يندم الإسرائيليون على هذا الافتراض الخاطئ الآن، كما سيندم أنور السادات فيما بعد.

عندما حل وقت مغادرتنا لمصر فى نهاية عام ١٩٧٩، كانت مخاوف السادات وحذره من الخطر الذى يشكله الإسلاميون على حكمه قد تزايد بصورة ملحوظة. فجماعة الإخوان المسلمين التى كان السادات قد تبنى منهجهم الإصلاحى قبل عقد من الزمان كانت قد تطورت وتبنت الاتجاه السائد فى الحياة السياسية، ولم تعد المعارض المخلص كما كان قد تخيلها حين قدم دعمه لها لتقويض اليسار. كانت قد أصبحت المعارض لسياساته بل وأقوى القوى السياسية المعارضة فى مصر والجيدة التنظيم أيضا. وكانت إدانتها لمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية ليست أقل حدة من إدانتها الشديدة لإسرائيل والولايات المتحدة. مثل جماعات الطلاب الإسلامية التى أفرخها ورعاها السادات، فإن جماعة الإخوان المسلمين أيضا قد انحرفت وخرجت عن دائرة سيطرة السادات.

ولكنها حينما تكسبت الاحترام، كان أعضاؤها الأكثر شبابا وتدريبا عسكريا قد بدأوا فى التسرب. ففى خلال الشهور الأخيرة التى قضيتها فى القاهرة كنت منبهرة ومتحيرة أن أرى بناءها الإسلامى، عالى التنظيم، بدأ فى التداعى والخضوع والاستسلام لدموية إسلامية غير منظمة أو جماعات (إسلامية مستحدثة) والتى كانت قد أصبحت كثيرة فى العدد ككثرة اختلافات أعضائها. كانت وجهة نظرهم فى ذلك أن جماعة الإخوان المسلمين قد أصبحت برجوازية، برجوازية جدا بالفعل لدرجة أن بعضا من أعضائها كانوا قد تم استقطابهم من القوات المسلحة، بمن فيهم واحد على الاقل من جماعات الصفوة فى الجيش.

ومع ذلك فإن الشيء الذى أقلق السادات كثيرا وأقلق معه الدبلوماسيين الغربيين، أنه فى مطلع هذه السنة كان قد تم اكتشاف مجموعة من الضباط والجنود فى القوات المسلحة أعضاء فى جماعة التكفير والهجرة السرية، تلك الطائفة الإسلامية العدمية التى اختطفت وقتلت وزير السادات السابق للأوقاف والشئون الدينية، بينما كان السادات يخطط لرحلته المقدسة للقدس. استمرت الجماعة الإسلامية فى زيادة تأثيرها ونفوذها: وفى نفس الوقت كان التلاميذ الذين بقوا على قيد الحياة من منظمة التحرير الإسلامية الذين قاموا بعملية التمرد والعصيان العقيمة فى الأكاديمية الفنية العسكرية عام ١٩٧٤، أعادت لم شملها تحت اسم جماعة الجهاد السرية. لم تكن جماعة الجهاد ولا الجماعة الإسلامية تستقطب أعضاءها من الطلاب أمثال نادين، ولكنهم اتجهوا لاستقطاب وتجنيد الموظفين الحكوميين أصحاب المراتب العليا وموظفى الدولة الذين يتحكمون فى التليفزيون والراديو وأعضاء الاستخبارات العسكرية والحرس الجمهوري. بدأ مرة أخرى وكأن المؤسسة الدينية والمؤسسة العسكرية قد اتحدتا مرة أخرى. وحتى وإن كانت قليلة فى العدد– فقد كان من المستحيل أن تُعرف على وجه الدقة – فإن وجود أعضاء من الجيش فى الجماعات الإسلامية كان شيئا مهمًا وله دلالة، لأنه كان يعنى أن الإسلاميين قد اخترقوا الحصن الوحيد الباقى لقوة السادات السياسية.

كانت انتفاضة الغذاء عام١٩٧٧، بمثابة التحدى الأعظم لرئاسة السادات، ولكن بطريقة غريبة، شكلت تلك الأحداث أقوى وأضعف نقطة فى حياته. لأن الجيش وقف خلفه ودعمه حتى وإن كان على مضض، ولكن الجيش نشر جنوده فى شوارع القاهرة ليحمى رئاسة السادات . كانت تلك المرة الأولى من مرتين فى تاريخ مصر الحديث التى وافق فيها قادة الجيش على إقحام الجيش وقواته المسلحة ضد السكان المدنيين، وذلك إخلالا بعهد تم قطعه للجيش من قبل الرئيس بعد حرب ١٩٧٣ (كانت المرة الثانية التى تدخل الجيش لحفظ الأمن فى فترة رئاسة الرئيس مبارك وتحديدا عام ١٩٨٦ خلال أحداث الشغب الدامية التى قام بها جنود الأمن المركزي) أخبرنى أحد مستشارى الرئيس السادات أن السادات كان يعرف دائما أن انتفاضة الغذاء كانت تمثل شرخا فى شرعيته.

ولكن بدا وكأن عام ١٩٧٩ سيكون العام الأكثر تنبؤا بالنسبة للسادات، لأنه فى هذا العام تمت إعادة تصميم وتشكيل نسيج العالم الإسلامى بصورة كبيرة وعنيفة.

فبينما كان السادات ينعم مبهورا ومزهوا بالاهتمام الذى أولته له ولاتفاقية سلامه الولايات المتحدة الأمريكية، كان حكم الشاه ينهار فى إيران القريبة إلى حد ما، حيث كان حكما ملكيا عمره ٢٥٠٠ سنة، مدعوما بأقوى جيش فى الشرق الأوسط وبثروة نفطية هائلة، كان هذا الحكم الملكى ينهار وتم تقويضه بواسطة مجموعة معارضة مفككة التنظيم وغير مسلحة يقودها رجل دين إسلامى عسكري. ففى منتصف يناير تهاوى حكم الشاهنشاه محمد رضا بهلوى بعد أن تخلى الجيش عن دعمه. وفى الأول من فبراير تم الترحيب بشدة بعودة رجل الدين العسكرى آية الله الخومينى من منفاه بالقرب من باريس. كانت تلك نقطة تحول فى تاريخ العالم الإسلامى الحديث.

ورغم أن آيات الله كانوا شيعة– وهى أقلية طائفية إسلامية، ومعظمها من الفرس، متمركزة فى العراق وإيران والشيعة هم طائفة انشقت وانقلبت من الأغلبية السنية على خلفية مسألة أحقية الخلافة بعد الرسول محمد، وفى تفسيرهم للشريعة (القانون الدينى الإسلامي) – كان أثر ثورتهم عميقا. فقد كان أعظم الانتصارات السياسية الإسلامية المذهلة عبر قرون.

لذلك، فعلى الأقل لتلك اللحظة، كان الخلاف السنى الشيعى على مسألة الوريث الشرعى لخلافة النبى محمد – سواء عن طريق النسب لعلي، وهو ابن عم الرسول وزوج ابنته، كما يؤمن الشيعة : أو عبر الخلافة، المبنية على الانتخابات والإجماع من شيوخ المجتمع، كما يرى السنة (وكذلك التقاليد البدوية القديمة) – تلك الاختلافات لم يتم النقاش أو النزاع حولها بالقوة المعتادة. لذا فقد رقصت الجماهير المهتاجة فى شوارع القاهرة وعواصم العالم الإسلامى الأخري. ربما لا يوجد شخص واحد هزته الأحداث بقوة وبصورة سيئة سوى السادات.

كانت هناك سكرة، وبالنظر إلى الماضي، فإنه من المستحيل أن تعرف ما إذا كان الانتصار الذى حققة رجال الدين سيكون بهذا العمق لولا أنه تحرك مصادفة بالترادف مع الانتفاضات الأخرى فى العالم الإسلامى الواسع. لأنه لم يكد آية الله الخومينى ليبدأ فى التلذذ بغنائمه فى الوصول للسلطة فى إيران حتى اجتاح الاتحاد السوفيتى أفغانستان المجاورة لإيران من أجل تدعيم حكومة مؤيدة للشيوعية وذلك فى ديسمبر ١٩٧٩.

لم يكن صناع السياسة الأمريكان الذين هالهم ما حدث مستعدين للتعامل مع كل من الحدثين، وكان استعدادهم لمواجهة ما حدث سيئا ومريضا، فردوا بطرق ووسائل قصيرة النظر وكالعادة لا تخلو من مفارقة. فالرغبة الجامحة لدى إدارة الرئيس ريجان فى الانتقام من الاتحاد السوفيتى وتقليص دوره فى وقت تزايد فيه النفوذ السوفيتي، دفع تلك الإدارة لدعم كبير لهذا التحالف العنيد لمجموعات المقاومة الأفغانية، والمعروفة باسم المجاهدين. فتولت الولايات المتحدة عبر السنوات القادمة بقصد أو بدون قصد قيادة ودعم أول حرب مقدسة إسلامية منذ ستة قرون.

ونتيجة لقيام أمريكا بذلك العمل فقد تلقت دعما مهمًا وجوهريا من الجارة باكستان والتى كانت محكومة بحكومة عسكرية بقيادة الجنرال محمد ضياء الحق، والذى كانت تحركه عاطفتان هما أفغانستان والإسلام. والخطوات التى دفعته لاتخاذها كانت لها آثار قوية : فقد قسم دولته بفرض قهرى لتطبيق الشريعة الإسلامية وتعهده بمد جيوش المقاومة الأفغانية بشحنات من الأسلحة القادمة عن طريق المخابرات المركزية الأمريكية، هذا العمل الذى وجد استحسانا حماسيا من جانب السادات ومن كل الجماعات الإسلامية المسلحة فى مصر على اختلاف فروعها. وبحلول بداية الثمانينيات كانت الجيوش فى أفغانستان وباكستان وإيران إما تحكم باسم الإسلام أو تحارب من أجله.

طبقا لما جاء فى الحديث النبوى فإنه على رأس كل قرن تظهر حركة إصلاحية لإعلاء شأن الدين فى العالم الإسلامى وإضاءة شعلته. ولقد أتت تلك اللحظة. فقد هبت رياح الإسلام مكتسحة ما يقف فى طريقها بدرجات مختلفة من القوة فى العالم الإسلامى من شمال أفريقيا والشرق الأوسط إلى وسط وجنوب شرق آسيا، بل وإلى كل دولة فى

العالم الإسلامى تقريبا. فظهرت الحكومات المحافظة والأصولية هشة وغير حصينة لأن حركة البعث الإسلامية اتخذت لها هدفا خاصا هو محاربة النفوذ الغربى والماركسى. ولأن الإسلام يعنى الاستسلام لله فإنه دين محافظ، فهو بطبيعته قوة محافظة وله شريعة صارمة تحكم السلوك الفردى والعام بصورة تقليدية، لذا فإن أى تغيير اجتماعى يواجه تحديا للعقيدة نفسها. فمن بين كل الديانات العظيمة فى العالم يعد الإسلام أكثرها تماسكا ويعتبر الديانة الوحيدة التى يمكن تعريفها على أنها سياسية.

بنهاية عام ١٩٧٩ أخذ يجتاح مصر كلها شعور بالحيرة والتردد والانجراف، وقد هبطت شعبية السادات لأدنى مستوى لها خلال السنتين التاليتين. وهذا طبيعى بالنسبة لسياسى مثل السادات له مهارة غير عادية قامر بمستقبله السياسى على الولايات المتحدة ومعاهدة السلام. وللحظة على الأقل بدا السادات وكأنه قد ضاع وانتهي، لذا وكما فعل فى مناسبات عديدة من قبل، فقد انسحب السادات إلى خلوته متخفيا خلف حجابه المبهم. كان هناك شعور بالغضب وعدم الفهم بين الكثير من المصريين، وكان هناك أيضا الخوف بدرجة ملموسة مما يخبئه المستقبل. ففى أشد الأوقات التى كانت رياح الانبعاث الإسلامى تجتاح مصر كان السادات سواء من خلال معاهدة سلامه أو فى أفغانستان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالسياسة الأمريكية .أما أمريكا فمن جانبها بدا وكأنها غافلة عن رياح التغيير الإسلامية لا علم لها بها، بالاضافة إلى فقدانها لدعم مهم كانت تحصل عليه من شاه إيران، ومن ثم قررت الاعتماد بصورة متزايدة على السادات والجنرال الباكستانى ضياء الحق والمملكة العربية السعودية. وقد أثبتت الأيام أنه ثلاثى مدمر لكل الأطراف.

إن استقرار مصر مهم جدا للسلام وكان لم يزل هناك استقرار حتى نهاية ١٩٧٩. ولكن المشاكل الاقتصادية ازدادت حدتها. كان العالم العربى فى حالة اضطراب وكانت مصر مهددة بانقسامات تلوح فى الأفق، فهناك نفس الخلاف السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى كان مستحوذا على إيران قبل خلع الشاه.

كنا قد حزمنا حقائبنا استعدادا لرحلتنا فى مغادرة مصر، وأستطيع بالكاد أن أتذكر حالة التشوش والتخبط والصخب والضجيج التى كانت سائدة والمشاحنات اليومية. بدلا من ذلك فإنى أعود للحظات معينة: الشعور برياح الصحراء: النيل بتياراته المتقلبة، الحضارة الباقية الدائمة والعريقة والصامدة عبر آلاف السنين.

ومع ذلك فقد كان هناك شيء مختلف جدا عما كان عليه حين وصولنا، لقد تم النطق لأول مرة بصيحة « الله أكبر» فى أيام الرسول محمد قبل ألف وثلاثمائة وخمسين عاما. تلك الصيحة العربية القديمة هى اليوم دعوة للحرب. فقد كانت الصرخة التى صاحبت الهجوم على السفارة الأمريكية واحتلالها فى طهران قبل أن نهم بالمغادرة، هذا الاحتلال الذى نتج عنه أخذ أكثر من خمسين دبلوماسيا أمريكيا كرهائن. كانت أيضا الصرخة التى صاحبت استيلاء بعض المنشقين السعوديين المدربين والمسلحين جيدا على الحرم المكي، وهو أحد المزارات الإسلامية المقدسة، وكانت صرخة لمواجهة الأنظمة المكروهة. خلال آخر شهر لنا فى القاهرة، كانت صرخات الله أكبر تجلجل بصورة متزايدة من فوق أسطح المنازل المظلمة .

أبنائى

تتسم احتفالات مصر بالذكرى السنوية لحرب ١٩٧٣ بالعظمة والأبهة، تلك الذكرى التى عبر فيها الجيش المصرى قناة السويس وحطم خط بارليف العظيم وأعاد الأرض التى احتلتها إسرائيل فى شبه جزيرة سيناء، وأيضا لأن هذه الحرب ثبتت وقوت سلطة السادات. كان عبور القناة يمثل للسادات ما كان يمثله قرار تأميم قناة السويس لعبد الناصر: فقد أعطى ذلك لحكمه شرعية كان فى أمس الحاجة إليها.

كان السادات، الذى كان يواجه انتقادات متصاعدة فى مصر، متحمسا بصورة كبيرة وخاصة وهو يحيى ضيوفه الأجانب عند وصولهم إلى منصة العرض لحضور العرض العسكرى بمناسبة انتصارات أكتوبر، وذلك فى يوم خريفى جميل من أيام شهر أكتوبر (السادس من أكتوبر ١٩٨١). كان السادات مرتديا بدلة عسكرية تم تفصيلها على الطراز البروسى وقام بتفصيلها خياط الرئيس فى لندن، وكانت قد وصلت مصر قبل العرض بأيام قليلة. لم يرتد السادات قميصه الواقى من الرصاص، هذا السلوك الذى كان ينم عن ثقة وزهو أكثر من اللازم، وقد شرح هو هذا الأمر لزوجته (طبقا لما قاله الكاتب المصرى محمد حسنين هيكل) أنه سيكسر الخطوط (يقلل من أناقة بزته العسكرية بروسية الطراز). القليل فقط من الحاضرين هم الذين قاموا بتحية نائب الرئيس المتواضع حسنى مبارك أثناء مرورهم والذى كان يقف بجانب السادات. والقليل جدا منهم كان قد حدث وسمع الداعية الإسلامى الشيخ عمر عبد الرحمن.

حاول الرئيس مبارك أن يثنى الرئيس عن حضور العرض (قال لى ذلك أحد أصدقاء الرئيس). كان الرئيس يشكو كثيرا من الإجهاد وكان يعانى من نوبات دوار. وكان قد تم تحذيره من مبارك بأن هناك معلومات قد وصلته من المخابرات العسكرية عن مؤامرة

اغتيال يتم التخطيط لها تستهدف حياته.أيضا نصح مبارك السادات لكى يتخذ إجراءات صارمة ضد خصومه وخاصة الجماعات الإسلامية المتشددة السرية، كان السادات يبدى تفهمه وقبوله لتلك النصائح ولكنه لم يأخذ الأمر على محمل الجد أبدا.

فى سبتمبر ١٩٨١ أى فى الشهر السابق على يوم العرض كان السادات قد قام بأكبر حملة قمعية فى تاريخ رئاسته، واعتقل خلالها أكثر من خمسمائة شخصية من ألمع الشخصيات فى مصر وأكثر الشخصيات السياسية بروزا وأهمية. كان من بينهم وزراء سابقون وأساتذة جامعات ورجال صحافة ورجال من مختلف الأطياف السياسية فى مصر من اليمين واليسار مسلمون وأقباط : رجال ونساء كلهم بلا تفرقة ولا تمييز تم إرسالهم لأسوأ السجون فى القاهرة الكبري.

كان السادات عنيدا ومتصلبا، وكان ضد اقتراح مبارك بعدم حضور العرض العسكري. فيوم السادس من أكتوبر بالنسبة له كان من أفضل الإجازات وأروعها وكان مغرما حد الهوس بأبهة وفخامة العرض العسكري. كان أيضا واثقا جدا من ولاء وإخلاص الجيش لدرجة جعلته يذهب للعرض فى سيارة مكشوفة، سيارة كاديلاك سوداء اللون ذات سقف متحرك خصيصا لهذا اليوم. كان يقول لحرّاسه « ابتعدوا من فضلكم، فأنا بين أولادي».

كان العرض العسكرى الذى تمت إقامته احتفالا بالذكرى الثامنة لنصر أكتوبر احتفالا مبالغا فيه. كان احتفالا ناطقا بالعظمة والأبهة، بحيث يمثل معلما تاريخيا بارزا، لأنه، ولأول مرة، كان من المقرر استعراض الكثير من المعدات العسكرية الغربية إلى جانب الروسية، ستكون هناك أيضا الطائرات الفانتوم المقاتلة النفاثة الأمريكية وطائرات الهيلوكبتر تشينوك والطائرات المقاتلة الفرنسية ميراج.

كان من المقرر أن يتم تتويج العرض العسكرى بالاستعراض الجوي، ولذا فقد انصرف الكثير من الصفوة وعلية القوم الحاضرين واستغرقوا فى أحاديث شخصية، حيث إن العرض كان قد قارب على نهايته، وكانت الطائرات تستعرض قدراتها بينما كانت العربات المدرعة من طراز زيل (zel) تسير من أمام المنصة كجزء من العرض العسكري. كانت تلك العربات تسحب خلفها مدفعا روسيا ميدانيا ١٢٣مم. فوق كل عربة يجلس ستة

رماة بخوذاتهم ممسكين بسلاحهم بين ركبهم. عندما انحرفت واحدة من تلك العربات عن مسارها وتوقفت أمام المنصة، القليل من الحاضرين اعتقدوا أنه قد أصابها عطب ما. قفز خارج العربة رجل قصير عريض المنكبين مرتديا قبعة عسكرية مدببة وتبعه ثلاثة آخرون.

نهض السادات من على كرسيه الذى كان يشبه كرسى العرش الموضوع فى الصف الأول من المنصة متوقعا أن يتلقى تحية عسكرية. بدلا من ذلك ألقى اثنان من الجنود برّمانات يدوية عليه مباشرة. عندئذ بدأت الطلقات النارية تنطلق نحوه من رشاش أوتوماتيكي. وقام الملازم خالد الإسلامبولى بإطلاق النار على جسد السادات المسجى لمدة خمس وأربعين ثانية قبل أن يستوعب حراس الأمن المفاجأة ويستفيقوا من شلل اللحظة الصادمة ويبادلوهم إطلاق النار. لقى الرئيس السادات حتفه ومعه سبعة آخرون فى مكانهم.

كان القائد الشاب لمجموعة الاغتيال يصرخ قائلا «أنا خالد الإسلامبولي. لقد قتلت فرعون، ولا أخشى الموت» كانت هناك صدمة فى القاهرة ومع ذلك فالقليل من المصريين خرج لتوديع السادات وحضور جنازته .

بعد ثمانية أيام، حسنى مبارك، والذى كان فى الثالثة والخمسين من عمره آنذاك، وهو رجل حذر متواضع .كان يعمل طيارا مقاتلا فى السابق، ثم قائدا لسلاح الطيران المصرى إبان حرب أكتوبر ١٩٧٣، وفى اليوم الثامن لاغتيال السادات، أقسم مبارك اليمين باعتباره الرئيس الرابع للجمهورية فى تاريخ مصر . كانت وظيفة لم يتمنها ولم يكن بحق يريدها كما أخبر أصدقاءه.

بعد شهر من ذلك التاريخ كان خالد الإسلامبولى يجلس على منصة خشبية داخل قفص عملاق فى محكمة عسكرية خاصة، وذلك لمحاكمة ٢٤ شخصًا تم اتهامهم بالضلوع فى مؤامرة اغتيال الرئيس السادات. كان يجلس بجوار خالد رجل بجلباب بنى طويل وطربوش أحمر برباط أبيض – شعار الأزهر – الرجل الذى سيأخذ على عاتقه مهمة التخطيط لثورة إسلامية بعد عقد من ذلك التاريخ، تلك الثورة التى كانت تهدد بتمزيق مصر وتفتيتها: كان الرجل الجالس بجوار خالد الإسلامبولى هو الشيخ عمر عبد الرحمن البالغ من العمر ثلاثة وأربعين عاما فى ذلك الوقت.

كان قتلة السادات أعضاء فى الخلية السرية المسلحة لتنظيم الجهاد والتى كان يقودها العقيد عبود الزمر، وكان ضابطا بالمخابرات العسكرية، والذى كان قد اختفى من وحدته قبل شهور قليلة. طبقا لكلام النيابة فقد كان الشيخ عمر عبد الرحمن هو المرشد الروحى للجماعة. وكان يقف خلف القضبان بتهمة إصداره فتوى تحلل قتل السادات وتبرره.

خلال المحاكمة التى دامت ثلاثة شهور والتى انتهت فى مارس ١٩٨٢، كان الشيخ عمر يهمس متحدثا لخالد الإسلامبولى، الذى كان يجلس على يمينه (والذى تم إعدامه مع أربعة آخرين بمن فيهم أحد القناصة وكان حاصلا على بطولة الجيش). كان الشيخ عمر عبد الرحمن واحدا من اثنين تمت تبرئتهما من محكمة مبارك.

على حد علم الشيخ أنه لم يلتق أبدا بحسنى مبارك، ولا حسنى مبارك أيضا كان قد التقى بالشيخ كما أخبرنى فيما بعد، ولا حتى سمع عنه بالرغم من أن كليهما قد ولد فى قرى صغيرة لا تبعد الواحدة عن الأخرى بأكثر من سبعين ميلا فى دلتا النيل، ولا يختلفان كثيرا عن بعضهما فى كونهما من الفقراء. ولم يكن الرئيس ولا الشيخ يختلفان كثيرا عن الشباب فى مثل تلك القري. فقد اختار كل منهما إحدى الطرق التقليدية التى تتيح لصاحبها الترقى لأعلي: اختار الأكبر الجندية أما الأصغر فاختار الدعوة.

بدا وكأنهما اثنان مختلفان كثيرا، أحدهما عن الآخر، الرئيس والشيخ، ولكن كما اكتشفت فيما بعد وبمرور السنين أن ما بينهما من الصفات المشتركة أكثر بكثير مما قد يبدو للعيان.

وحّد خالد الإسلامبولى بطريقة ما حياتيهما، ذلك الملازم ذو الأربعة والعشرين ربيعا والذى قاد سرية المدفعية فى الذكرى السنوية الثامنة لانتصار أكتوبر المجيد. وبطريقة فضولية لم يكن خالد الإسلامبولى أكبر أو أقل من الشاب أنور السادات قبل ما يقرب من أربعين سنة.

كنت أعيد قراءة كتاب السادات «البحث عن الذات» عندما توقفت فجأة أمام هذه الفقرة:

«طبقا للخطة كان توفيق ينتظره خارج المبني. عندما كان أمين عثمان فى طريقه ليستقل المصعد. ناداه توفيق « يا باشا يا باشا» عندما التفت ليرد على المنادي، أطلق توفيق عليه النار. كان توفيق يقصد عندما ناداه أن يطبق القانون الذى كان يحرم إطلاق النار على رجل فى ظهره».

ارتبطت تلك الفقرة بدور السادات فى واقعة اغتيال أمين عثمان فى يناير من عام ١٩٤٦، والذى كان يساند بريطانيا بشدة، وكان أيضا وزير مالية الملك فاروق. لم أستطع مقاومة الذكرى. كان الإسلامبولى أيضا يصرخ «فرعون فرعون» قبل أن يفرغ رصاصاته من بندقيته الآلية فى جسد السادات.

ولد خالد الإسلامبولى فى صعيد مصر عام ١٩٥٧، بعد سنة واحدة من تأميم عبد الناصر للقناة، وما أعقبها مما اعتبره الكثيرون انتصارا على العدوان الثلاثى – وقد تمت تسمية خالد على اسم الابن الأكبر لعبد الناصر – كان يبلغ خالد عشر سنوات من العمر عندما تجرعت مصر مرارة الهزيمة فى حرب الأيام الستة الدامية فيما سمى بنكسة ١٩٦٧. كان ابنا من أبناء ثورة يوليو بحق، وبكل ما تعنيه الكلمة وكان مرآة لنجاحاتها وانتكاساتها. ولم يكن خالد لمعظم حياته متدينا رغم أن أسرته كانت متدينة. فقد كان والده محاميا ووالدته ربة منزل: وكان أخوه الأكبر، والذى كان خالد يحبه، قائدا للجماعة الإسلامية وهو طالب. كانت الأسرة بالمقاييس الموجودة فى صعيد مصر – أفقر مناطق مصر وأكثرها تجاهلا على مر السنين– تعتبر من الصفوة ومن الطبقة العليا: وكان أفرادها وطنيين وقوميين مثل عبد الناصر.

كان حلم خالد أن يصبح طيارا فى القوة الجوية – كما كان مبارك– ولكن هذا الحلم اضمحل بفشله فى اجتياز امتحان القبول فى الأكاديمية الجوية، فاختار بعد ذلك الكلية الحربية (مدرسة المدفعية) والتى تخرج فيها بامتياز مع مرتبة الشرف فى عام ١٩٧٨. لم ينضم خالد للجماعة الإسلامية المسلحة السرية إلا فى العام الأخير من حياته. أما عن أسباب انضمامه لتلك الجماعة، فقد ظل ذلك سرا لم يكشف عنه الستار ومات وسره معه أمام فرقة إعدامه.

ربما يكون خالد قد تأثر بأخيه الأكبر محمد، والذى كان شخصية قيادية فى الجماعة الإسلامية فى كلية التجارة جامعة أسيوط، والذى كان أحد تلاميذ الشيخ عمر عبد الرحمن. (وطبقا لما قالته والدة خالد فإن خالد كان قد تأثر بصورة بالغة حين علم بنبأ اعتقال محمد فى سبتمبر ١٩٨١، خلال حملة الاعتقالات الكبرى التى جمع السادات فيها خصومه من كل الأطياف السياسية وألقى بهم فى السجن.

أو ربما يكون قد تم تجنيد خالد عن طريق أحد أصدقائه فى ثكنات الضباط أو عن طريق جند الشيخ. وقد كان خالد مشاركا متحمسا ومتوقدا فى مجموعات الدراسة الإسلامية الشعبية المتزايدة والتى كانت تقام فى وحدات للضباط والجنود.

لسوء الحظ، يمكن للمرء التأمل الآن، أن تلك المحاكمة لجريمة الاغتيال قد كانت سرية فيما عدا ثلاثة أيام منها وركز فيها الادعاء على نقطة واحدة وهي: كيف تمت عملية الاغتيال. أما فيما يخص المسائل والقضايا الأكثر أهمية ودلالة والتى كانت وثيقة الصلة بالقضية والمؤامرة لم يتم كشف النقاب عنها وإزالة اللبس فيها، فمثلا لم يعرف متى ومن الذى اتخذ قرار اغتيال السادات؟ وما المؤسسات التى دعمت هذا القرار، وإلى أى حد كان دعمها؟ كل ذلك ظل فى طى الكتمان ولم تحاول المحكة العسكرية كشف النقاب عنه.

« كيف استطاع خالد ومجموعته إدخال ذخيرة حية للعرض العسكري؟» سألنى أحد موظفى الولايات المتحدة فى ذلك الوقت. لماذا لم يتم كشف النقاب عن أسئلة كتلك « كيف وصل بالمدرعة ليقف بها بجوار المنصة؟» كيف وصل بعربته المدرعة فى هذا الوقت المحدد حيث كانت الطائرات تؤدى استعراضها والكل مشغول بها؟» «كيف تمكن من جمع رجاله؟» – وقد كان اثنان منهم خارج الجيش (أى لم يعودا ضمن ضباط الجيش) « وكيف تمكن من وضعهما معه فى عربته المدرعة؟» وبعد ذلك سأل « هل يمكن للضباط التخطيط لكل تلك الأشياء ولهذه الأنواع من الأشياء؟».

بعد ذلك بسنوات سألت الرئيس مبارك عن رأيه فيما حدث، وكيف حدث؟ فرد بسرعة قائلا: إن مسألة اغتيال السادات من الأشياء التى يرفض مناقشتها ولا يحب الخوض فيها.

كان مبارك واقفا بجانب السادات عندما لقى حتفه، ولقد نهض واقفا معه عندما رأى السادات خالد الإسلامبولى يقترب من المنصة، وطبقا لرواية أحد منفذى عملية الاغتيال فى شهادته أمام المحكمة قال: إنه رفض قتل الرئيس مبارك. قائلا « لقد كان هناك واقفا أمامى لكنى قلت له تنح جانبا لأنى أريد هذا الكلب» (يقصد السادات) جاء ذلك فى شهادة عبد الحميد عبد العال، وقد كان ضابطا سابقا فى الجيش المصري. وقد رفضت هيئة المحكمة طلبا من محامى المتهمينْ عبد العال باستدعاء الرئيس، ومثوله للشهادة، وكذلك رفضت المحكمة أيضا طلبات مماثلة من محامى الإسلامبولى باستدعاء وزيرى خارجية السادات السابقين اللذين سبق أن استقالا من الوزارة، أحدهما قبل التوقيع على الاتفاقية، والآخر قبل زيارة السادات للقدس. (رحلته المقدسة) للقدس.

هذا وقد رفضت المحكمة بنفس القوة طلبات للشهادة - سواء كانت تلك الطلبات من جانب ممثلى الادعاء أم من الدفاع - كان مبارك وجيشه يأملان أن تبقى المحاكمة المنعقدة لمحاكمة ضباط وضباط صف فى الجيش فى أيديهم على قدر ما يستطيعون وإلى أبعد حد.

عندما نظرت للصور التى نشرتها الصحف للأربعة والعشرين متهما فى اغتيال السادات أدهشنى المتهمون الرئيسيون الأربعة - العقيد عبود الزمر قائد الجناح العسكرى لجماعة الجهاد: محمد فرج مهندس الكهرباء، والذى كان المنظِّر الأيديولوجى الرئيسى لتنظيم الجماعة : الملازم خالد الإسلامبولى والشيخ عمر عبد الرحمن - أدركت أن هؤلاء الأربعة يمثلون ويعكسون تحالفا بين الحياة العسكرية والمدنية والدينية فى مصر. وعندما تقدموا، واحدا تلو الآخر، ليدافعوا عن أنفسهم أمام منصة القضاء، كان هؤلاء الأربعة يمثلون فى عيون داعميهم ثالوثا مقدسا آخر بمعنى ما.

«ليست مصادفة أن يطلق هؤلاء الأولاد الذين يتحدون النظام على أنفسهم قادة الخلافة» «قال الدكتور سعد الدين إبراهيم، أستاذى السابق فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة، والذى كان ولم يزل يدرس الحركة الإسلامية منذ ما يقرب من عشرين عاما». إن الجماعات الدينية لهم جيوشهم الخاصة وعقيدتهم العسكرية ورؤيتهم الخاصة عن كيفية

تنظيم المجتمع والدولة. لأن نظامهم الداخلى محكم جدا وصارم، فإذا تحدينا فرعون فإننا نتحدى المؤسسات الثلاث التى تخضع لسيطرته - جيشه ومؤسسته الدينية ونظامه البيروقراطي. إذا كنا ننادى بملك جديد فهذا يعنى أننا ننادى أيضا بقائد جديد للجيش ورئيس دينى جديد. وهذ هو ما يحاول الإسلاميون أن يفعلوه بإقامة نظام مواز يتحدى الدولة، وهذا هو أيضا السبب الذى يحتم الصدام المدمر بين الطرفين.

لم يهتم أحد يوم مقتل السادات بالتوقيت الذى انطلقت فيه الرصاصات بواسطة خالد الإسلامبولى ورجاله العسكريين المسلحين. فقد حدث الاغتيال قبل ستة أشهر فقط من اكتمال انسحاب إسرائيل من سيناء وعودتها لمصر - وللسادات- تلك الأرض التى كان السادات يطل عليها ويتأملها من نافذة القصر فى خلوته فى الإسماعيلية. ولكن فى مقابل عودة الأرض فقد وافق السادات على بقائها منزوعة السلاح وعلى تقليص عدد الجنود الذين يتمركزون فيها، والقبول بوجود قوات حفظ سلام دولية لمراقبة نزع سلاح تلك الأرض المصرية. قيل الكثير وكتب الكثير فى ذلك الوقت عن مشاكل ومؤامرات فى الجيش، وكان من الأشياء المؤكدة أن ضباط الميدان كانوا ساخطين.

كلٌ من السادات،الجندى البسيط، الذى أرسل الرجال إلى الحرب من أجل تحقيق السلام، والملازم خالد الإسلامبولي، هذا الجندى الإسلامي، الذى تم ترويعه بفداحة الثمن الذى دفعه، كلاهما كانا قد خالفا العهد والميثاق غير المكتوب وغير المنطوق للثالوث المقدس. خلال الأسابيع الأولى من تولى حسنى مبارك للرئاسة، قام بفصل أكثر من ضابط من الجيش فى أول خطوة مؤقتة ومترددة ليعيد إحدى الأذرع الرئيسية لسيطرته. قام الرئيس بذلك بهدوء وبدون ضجة.

أعلن أيضا حالة الطوارئ فى البلاد، والتى ظلت سارية حتى الآن، والتى حكم بها ما يقرب من عشرين عاما (لما يقرب من ثلاثين عاما الآن). (قانون الطوارئ هذا يسمح للسلطات باعتقال واحتجاز أى شخص مشكوك فيه دون توجيه تهمة، ويسمح أيضا بمحاكمة المدنيين أمام المحاكم العسكرية الخاصة والتى لا يمكن استئناف أو نقض أحكامها).

عندما وقف خالد أمام قادته الضباط الذين كانوا يحاكمونه فى الأيام التى سبقت إعدامه، وقف متحديا جريئا ولم يبد أى ندم. واستمر فى ترديد عبارته «لقد قتلت فرعون» قالها لآخر مرة. بعدها التفت نحو والدته فى قاعة المحكمة غير العادلة وغير المنصفة المؤقتة وصرخ ملوّحا بالمصحف القابض عليه فى يده وقال: «سنلتقى فى الجنة إن شاء الله» وردت أمه « آمين».

طبقا للشريعة الإسلامية[٢] فإن اغتيال السادات عمل مبرر، وهذا ما شهد به خالد وأصحابه أثناء محاكمتهم، وذلك على اعتبار أن الرئيس المصرى انحرف وابتعد عن الإسلام. وقد بنوا وجهة نظرهم تلك على تفسير- لنص يعد مشوشا، حسب اتهام مزدريهم- لمفكرالعصور الوسطى الإسلامى ابن تيمية، واعتنقوا فكرة أن السادات كان كافرا ويجب أن يتم قتله . وكان انحرافه الأعظم من وجهة نظرهم يكمن فى رفضه لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.

عندما عدت أدراجى مرة أخرى إلى مصر فى عام ١٩٩٣ أى بعد وفاة كلٍّ من السادات والإسلامبولى باثنى عشر عاما، كانت الصراعات والمراهنات قد تصاعدت بصورة ملموسة، وأصبحت أكثر عنفا ورغبة فى الانتقام بين ورثة تركات السادات والإسلامبولى واللذين هما الرئيس مبارك والشيخ عمر عبد الرحمن. وبدا للعيان أن مصير البلد والأمة متعلق بين هذين الشخصين وبين أيديهما وإيدى الدوائر الصغيرة من المستشارين المحيطين بهما والجيوش المنحازة لهما.

كان كل من الرئيس والشيخ قد قضيا السنوات الواقعة بين الفترتين فى العمل بحرص ومثابرة لبناء أساس قوى ومتين للسلطة، تحرك مبارك بسرعة لتقوية وإحكام سلطته، بينما ركز الشيخ على توسيع دائرة سلطته. بإحالة منافسيه الأقوياء وبالحفاظ الدقيق على الوضع القائم، نجح مبارك فى البقاء على رأس السلطة وفى إحكام سيطرته على جمهوره الحقيقى وأنصاره- وهم الثلاثمائة ألف رجل فى جيشه - رغم محاولات الشيخ المريرة لاختراق المؤسسة العسكرية والتسرب اليها.

---

(٢) لا يخفى على القارئ قدر التسرع الذى ينطوى عليه هذا الحكم .

فور وصول الرئيس مبارك للسلطة أعلن التزامه والتزام مصر بمعاهدة السلام مع إسرائيل، تلك المعاهدة التى استمر الشيخ فى رفضها ومعارضتها بصوت أقوى وأعلى .

خلال تلك السنوات كانت قد عادت الجامعة العربية لمقرها الرئيسى فى القاهرة، منهية بذلك عزلة مصر عن العالم العربي، وبرهن الشيخ والرئيس على براعتهما فى مصادقة قادة العالم العربى وخاصة الأسر الحاكمة فى الخليج العربي. وبنهاية الثمانينيات كان كل من النظام الحاكم والمعارضة الإسلامية يتلقيان دعما قويا وقبولا متزايدا من المملكة العربية السعودية.

كان التحدى الأعظم لرئاسة الرئيس مبارك فى فبراير عام ١٩٨٦، وتجلى ذلك فى أحداث الأمن المركزي، عندما خرج آلاف من الجنود فى مظاهرات تخريبية طلباً لمرتبات أفضل وقاموا بأحداث شغب عنيفة فى الشوارع وحرقوا وسلبوا ونهبوا، كما فعل آلاف المصريين الغاضبين فى انتفاضة الغذاء إبان حكم السادات قبل عقد من الزمان. وكما حدث من قبل حين كان السادات رئيسا، فقد حدث فى هذه المرة وللمرة الثانية فى تاريخ مصر الحديث، تم نشر قوات الجيش المصرى على مضض وكره من تلك القوات فى شوارع القاهرة لحماية رئيس المصريين.

لم يتم كشف النقاب عن دور الإخوان المسلمين والشيخ عمر عبد الرحمن وجماعته الإسلامية المسلحة السرية، أو عن حجم مشاركتهم فى تلك الأحداث، أو حتى إثارتهم لها وإزكاء نارها. تلك الأحداث التى دامت لثلاثة أيام متصلة مما كان مؤكدا حينها وحتى الآن هو أن كلا من الإسلاميين المعتدلين والمتطرفين المسلحين قد استفادوا كثيرا من تلك الأحداث.

استمرت قوة الشيخ عمر عبد الرحمن وسلطته فى التمدد والازدياد، وفى نفس الوقت، بدأت جماعته المسلحة السرية فى الارتباط والقيام بأحداث عنف ضد حكم الرئيس مبارك. فى عام ١٩٩٢ تحرك الرئيس مبارك بقوة وبعنف ضد الشيخ وجماعته. كان تحرك مبارك وقمعه لهم ردا مباشرا لأعمال العنف المتكررة التى قام بها المتطرفون ضد الأقباط والمفكرين وقوات الأمن والشرطة، وهجومهم على السياح الأجانب فى محاولة منهم لضرب الاقتصاد الذى يمكن أن يؤدى إلى إسقاط حكم الرئيس مبارك. كان الهجوم الرسمى

الحكومى وحشيا، وفى نظر الكثير من، قصيرى النظر، بسبب قوة وتجاوز السلطة تحوًل الكثير من المصريين إلى جانب الإسلاميين.

فى استخدام القوة، كانت الفجوة والانفصال بين الرئيس والشيخ والقطيعة بينهما أقل من أن تكون تامة ومطلقة. تراهما للوهلة الأولى: شخصين غير مقبولين مختلفين جدا، ومن ناحية أخرى تراهما متشابهين إلى حد بعيد – أحدهما جندى علماني، والآخر داعية إسلامي: كلاهما ولدا فى فقر دلتا النيل. وكلاهما بمرور الزمن انضما لأهم مؤسستين فى ثالوث السلطة المقدس – الأصغر فى جامعة الأزهر : والأكبر فى الأكاديمية العليا للطيران. وكطيار مقاتل إبان الحروب المصرية الإسرائيلية. كان كلاهما بسيطا ومتقشفا إلى حد كبير فى حياتهما الشخصية. كان كلاهما لا يمكن التنبؤ بما سيفعله وكانا يحيران ويربكان أقرب المقربين إليهما، وحتى مستشاريهما بالتخطيط لخطوة ما ثم فجأة يغيران رأيهما. كانا يشتركان كلاهما فى التعاطف مع دعم الولايات المتحدة ولرعايتها للمجاهدين فى أفغانستان. وكان كلاهما قد أصبح أكثر جرأة وإقداما وتحديا وعنادا.

وبينما كان يظهر للعيان أن مصر تنجرف إلى حرب عصابات، وإن لم تكن قوية بما يكفى لسحق الطرف الآخر، فإنها لم تكن ضعيفة لتسقط وتضمحل وتنتهي.

ولد حسنى مبارك – مع مولد جماعة الإخوان المسلمين– فى عام ١٩٢٨ فى قرية صغيرة وهى قرية كفر المصيلحة، وهى بالكاد تبدو كنقطة على الخريطة، فى محافظة المنوفية فى طرف دلتا النيل، التى تحتضن الصحراء الغربية وتصفعها الصحراء دائما برياحها ورمالها. سليل عائلة كبيرة وعالية البناء فى كفر مصيلحة، فقد كان والده موظفا صغيرا فى الحكومة (كان مفتشا فى وزارة العدل فى مركز المحافظة) وكان رجلا صارما ومفرطا فى الانضباط، تلك العادة والخصلة التى ورثها عنه ابنه. كانت والدته كالقرية التى ولد فيها الصغير حسنى، فقيرة ومحافظة جدا وتقليدية بصورة كبيرة. (وقد أنجبت ابنة واحدة وثلاثة أبناء آخرين) ومع ذلك فإن كفر مصيلحة كانت مثل المحافظة التى تتبعها تفخر بكونها فريدة ومتفردة: لأنه فى دولة كانت الأمية فيها تصل إلى ٧٠٪ من السكان كانت المنوفية قد

محت الأمية فيها تقريبا. (كان هذا بفضل نتيجة لثورة ١٩١٩ والدور الذى لعبه فيها ابن المنوفية عبد العزيز فهمى باشا، والذى تنبأ بأن انتشار التعليم هو الطريق الوحيد لتحريك وتثوير المجتمع المصري. أصبحت المنوفية الأرض التى يجرى عليها اختباره، وكنتجة لذلك فإن المنوفية تمتلك أعلى نسبة متعلمين فى محافظات مصر كلها وأبناءها المنايفة - كما يطلقون عليهم - يسيطرون على الحكومة المصرية).

عندما سألت أحد المنايفة كيف يمكنه أن يصف القرية والمحافظة التى قضى فيها الرئيس عقدين من الزمان من حياته، ابتسم وأجاب «لدينا نحن أبناء المنوفية سُمعة فى مصر أننا مكارون ومخادعون وحذرون وبخلاء ونحن فعلا نمتلك تلك الصفات». وقد كان المكر والحذر من الصفات الأكثر تأصلا فى حياة الرئيس مبارك. الرئيس منطو أيضا مثله فى ذلك مثل الكثير من المنايفة: ولكنه على عكس الكثير منهم فقد كان منذ نعومة أظافره مواظبا ومهتما بلياقته البدنية، وكان يلعب لعبة الهوكى العنيفة والحادة. وأخيرًا الإسكواش. (والإسكواش من الأشياء أو الهوايات القليلة الواضحة التى لازمت الرئيس وحملها معه طوال حياته). ومن القصص التى تحكى عن حياة مبارك المبكرة أنه يتذكر نفسه سائرا فى شوارع كفر المصيلحة، وهو فى طريقه ليمارس لعبة الهوكى حاملا على كتفه عصا اللعب التى كان يستخدمها أيضا فى الدفاع عن نفسه ضد قطعان الكلاب الضالة فى الشوارع. وهذه من القصص القليلة المعروفة عن حياة الرئيس لأنه على عكس ناصر والسادات فإن الرئيس مبارك محب للخصوصية ويركز دائما عليها ولا يحب أن يقتحم أحد خصوصياته. وأنا أعود بذاكرتى إلى الوراء، فأتذكر تلك الرحلات التى كنا نقوم بها كصحفيين إلى قرية ميت أبو الكوم، الحارة وشوارعها المتربة لنلتقى السادات وهو يستمتع فى حديقته الجديدة بأسئلة الصحفيين، كانت تلك اللقاءات دائما ما تذكرنا بأصول السادات البسيطة وكان هو يحب ذلك. كان مبارك يحضر مثل تلك اللقاءات أحيانا ولكنه أبدا لم يقل إنه ينحدر من أصل مشابه لا يبعد إلا قليلا عن تلك الشوارع الترابية.

التحق مبارك وهو طفل ومراهق بالمدارس المحلية، حيث كان يعتبر طالبا مجدا ومجتهدا ولكنه لم يكن لامعا. وفى نوفمبر عام ١٩٤٧، غادر المنوفية وهو فى التاسعة عشر من العمر إلى القاهرة، حيث التحق بالأكاديمية العسكرية العليا. لم تكن له أى رغبة فى أن يسير على نهج والده ليصبح موظفا فى دواوين الدولة.

نفس الطريق التى سلكها رجل الدين الضرير (الشيخ عمر عبد الرحمن) بعد ذلك بعقد من الزمان، والذى كانت قريته لا تبعد كثيراعن قرية الرئيس. رغم أن حياتيهما ستصبح متشابكة ومتداخلة بصورة صعبة بعد عقود قليلة فيما بعد. حتى كشباب، لم يكن الاثنان مختلفين بصورة كبيرة: فكلاهما ينتمى لقرية صغيرة وعاشا فى مناطق وأماكن غامضة وغادرا تلك الأماكن وهما فى التاسعة عشر من العمر: اختار كل منهما واحدا من الطريقين التقليديين اللذين يتيحان لمن يسير فيهما الترقى والصعود المستمر لأعلي: كان كلاهما عالى التحصيل وينتمى للطبقات الجائعة للسلطة والمكانة الاجتماعية. وبالرغم من تكوينهما الجسمانى المشابه لتكوين الفلاحين سكان الدلتا فإنهما عندما غادرا قريتهما لم يلتفتا مرة أخرى إلى الوراء. وحسنى لم ينظر أبدا إلى الوراء.

اسـتبـدل حسنى مبارك بحياته فى كفر المصيلحة حياة أخرى لما يقـرب مـن أربعين سنة. فصار ينتمى للطبقة الوسطى المستريحة للحياة العسكرية. عقب تخرجه عام ١٩٤٩ فى الأكاديمية العسكرية، برتبة ملازم،حصل على تدريب كطيار مقاتل فى أكاديمية القوة الجوية: وطبقا لما قاله أحد زملائه فقد كان مبارك عاديا. «كان الانضباط والدقة من الصفات الملازمة له والمتأصلة فيه». قال زميله «الإستراتيجية العسكرية شيء متأصل فيه». عبر السنوات السبع التى أعقبت ذلك عمل مبارك كمعلم فى كلية الطيران وكان يعلم الآخرين الطيران بمن فيهم الرجل الذى أصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية السورية، وهو حافظ الأسد. كانت تلك السنوات من أسعد السنوات فى حياة الرئيس مبارك. وقد عرف عنه فى ذلك الوقت دقته والتزامه وانضباطه. فقد كان يجسد الحياة العسكرية كما يقول الكتاب، وكان لا يستريح كثيرا بل ويحتقر السياسة.

حتى قبل ثورة يوليو عام ١٩٥٢ – والتى كان حسنى وقت قيامها أصغر من أن يشارك فيها، حتى لو كان لديه هذا الميل للمشاركة – فقد استطاع أن يميز نفسه ويمهد الطريق لصعوده وترقيته. ولكنه استفاد كثيرا من الثورة لأنه كان من هذا الجيل الذى كان فى العشرينيات من عمره، الذين أتيحت لهم فرص الترقى بسرعة جزئيا بسبب تطهير الجيش من العناصر؛ التى كانت تحوم حولهم شبهة وجود علاقات قوية وولاء للملك فاروق

والملكية المصرية التى تم إلغاؤها. كان بأمر مباشر من ناصر أن تم إرسال مبارك إلى روسيا (الاتحاد السوفيتي) والذى كان أهم مصدر للسلاح المصري، وذلك فى أواسط الستينيات وذلك من أجل تدريب متقدم فى أكاديمية فرونز العسكرية فى موسكو. « بعد أن تم ترشيحنا واختيارنا طلبنا عبد الناصر» قال لى أحد الجنرالات المتقاعدين والذى كان قد ذهب مع مبارك إلى موسكو وتدرب معه. وقال لنا عبد الناصر إن له طلبًا واحدًا منا : أنه يريدنا أن نعود من موسكو بلا انتماءات شيوعية. «وهذا ما فعله الجنرال ومبارك».

لقد كره الضباط المصريون التاريخ القسرى للحزب الشيوعى الذى صاحب نهجهم العسكرى والمراقبة الشديدة التى كانوا يخضعون لها، واليد الثقيلة التى كانت فوق رؤوسهم وتقيد حركتهم. ولكن أكثر ما كانوا يكرهونه فى الاتحاد السوفيتى هو رفض الاتحاد السوفيتى أن يشاركهم فى تقدمه التكنولوجى . « لم تتم معاملتنا على أننا متساوون كانوا دائما كمن يتفضل علينا» قال الجنرال. تأثر الضابط الشاب مبارك وغضب كثيرا من هذا الأسلوب فى التعامل المتعالي. وظل مستاء ويحط من قدر الاتحاد السوفيتى السابق منذ ذلك الحين.

(بعد ذلك بسنوات وعندما كان قائدا للقوة الجوية، قال للسادات ذات مرة إن القوة الجوية المصرية لن تقبل الطائرات السوفيتية المقاتلة ميج ٢٣ «حتى ولو وهبها الروس للمصريين مجانا»).

عندما كان مبارك على وشك السفر لموسكو كان قد تزوج من سوزان ثابت . وهى مصرية – أيرلندية، والتى ظلت ولم تزل زوجة له. لقد كان حسنى مبارك ملتزما وصارما فيما يخص القضايا الأخلاقية كما كان فى النظام والالتزام. وقد أخبرنى صديقه الجنرال « الفتيات الروسيات كن يطاردننا فى كل مكان بصورة لا تصدق»، « كن من حولنا فى كل مكان» كان من الصعب أن تفلت منهن وكان مبارك هو الوحيد الذى أخبرنا، حتى الذين كانوا يفوقونه فى رتبته العسكرية، «إذا اتخذت صديقة وأنت متزوج فهذا يعنى أنك لا تحترم الأسرة والعلاقة الأسرية». كان هذا مبدأ سنراه يقود مبارك عبر رئاسته .

تأثر مبارك أيضا بقيادته للوحدات العسكرية الجوية التى أرسلها عبد الناصر للقتال فى الحرب الأهلية اليمنية. والتى أثبتت أنها خطوة كارثية ومشروعا فاشلا وقد تم اتهام المصريين، وهم فى إخفاقهم، بإلقائهم غازات سامة على المؤيدين للمملكة السعودية. يمكن القول إن حرب اليمن تعد بمثابة فيتنام مصر. ومع ذلك كانت الحروب العربية الإسرائيلية عامى ١٩٦٧ و١٩٧٣ لها أكبر الأثر عليه حتى إنهما ظهرا وشكلا حياة مبارك.

فى الخامس من يونيه عام ١٩٦٧، وهو اليوم الاسوأ فى تاريخ المصريين الذى تجرعت فيه مصر مرارة الهزيمة المخزية أمام إسرائل فى حرب الأيام الستة، كان مبارك قائدا لغرب القاهرة، القاعدة الأساسية لطيران العاصمة. فى خلال ثمانين دقيقة من أول يوم فى الحرب تم تدمير كل القوة الجوية المصرية وأنظمة الدفاع الجوى المصرى أيضا تقريبا. القائد لم يكن موجودا فى الوقت الذى كانت فيه الحدود المصرية يتم اجتياحها، ولذا فقد أمر مبارك طياريه بالطيران للجنوب إلى محافظة أسوان والأقصر. عندما انتهت الحرب كانت طائراته من ضمن حفنة الطائرات التى لم يتم المساس بها.

بعد ذلك تمت ترقيته بسرعة وبعد الحرب بشهور تم تعيين مبارك مديرا للاكاديمية الجوية (اكاديمية القوة الجوية) وفى يونيه من عام ١٩٦٩، وهو فى عمر صغير بصورة ملحوظة تم تعيينه عن طريق عبد الناصر رئيسا لأركان القوة الجوية، وفى عام ١٩٧٢ عينه السادات قائدا عاما لسلاح الجو. كان لدور مبارك فى التخطيط لحرب ١٩٧٣ وبنائه للقوة الجوية المصرية من الأشياء التى جعلته يترقى لأعلي، ويوضع فى الدائرة الداخلية للرئيس السادات. لذلك ففى صباح السادس من أكتوبر كان حسنى هو الذى شن الهجوم المباغت على إسرائيل ممكنا بذلك القوات المصرية على الأرض من تصحيح واستعادة كبرياء مصر، بينما كان الجنود يعبرون قناة السويس ويقتحمون خط بارليف المنيع الحصين . لو لم تنته حرب ١٩٧٣ بانتصار حتى ولو جزئيا لاختفى مبارك من التاريخ.

البحث عن الشيخ

فى السادس والعشرين من فبراير عام ١٩٩٣، كنت فى غرفتى فى أحد فنادق القاهرة وكنت أشاهد ال cnn عندما علمت بأخبار الانفجار الذى حدث بمركز التجارة العالمى فى نيويورك. صدمتنى الأخبار كما كانت أيضا صادمة لمعظم الناس فى القاهرة ، ولكنى أيضا كمعظم المصريين، لم أر سببا لربط ما حدث بمصر أو، لهذا الأمر، بالعالم الإسلامى الواسع الكبير. عدت مرة أخرى إلى القاهرة لأعرف أكثر عن هذا القائد الدينى المتحمس والذى سبق وأن سمعت اسمه يتردد كثيرا فى أيام دراستى فى القاهرة، جئت لأعرف أكثر عن الشيخ عمر عبد الرحمن. فإنه وإن كان يعيش الآن فى الظل فى إحدى مناطق العاصمة نيويورك، ولكنه فى موطنه الأصلى مصر فإن هذا الشيخ الأعمى المريض المنهك والذى كان يتلقى دعما من شبكة دولية تساعده وتدعمه، كان يشعل نار الثورة ويزكيها ضد الدولة، وكان يقاوم نظام الحكم ويعارضه علنا وبشدة لما يقرب من ثلاثين عاما.

خلال الشهر التالى فقط بعد أن قامت السلطات بعدد من الاعتقالات عندما نما إلى علمى أن تفجير مركز التجارة العلمى يبدو ظاهريا أنه قد تم بواسطة أتباع الشيخ. كان محمد سلامة من أول من تم القبض عليهم، وهو عضو فى جامع السلام فى جيرسى سيتى حيث كان الشيخ يخطب ويؤم المصلين هناك. وقد تم اعتقال محمد سلامه لقيامه بتأجير السيارة التى حملت القنبلة إلى موقف السيارات الملحق بمركز التجارة. تم اعتقال نضال عياد وهو مهندس كيميائى ومن المترددين المنتظمين على المسجد وكانت التهمة الموجهة إليه هى المساعدة فى صنع القنبلة. تم اعتقال محمد أبو حليمة والذى قالت السلطات إنه كان مع سلامة فى يوم التفجير وكان يعمل مساعدًا وسائقًا للشيخ عمر. وهناك شخص آخر غير معروف عرفه العالم باسم رمزى أحمد يوسف، وكان قد قضى وقتا طويلا فى مسجد السلام بعد

أن دخل بهدوء إلى الولايات المتحدة قادما من أفغانستان، مع الأفغانى المحنك المتمرس أحمد محمد حجاج. (إبراهيم الجبرونى كانت تهمته أقل وقد كان أحد المرافقين المقربين من الشيخ عمر فى الولايات المتحدة). قال ضباط تنفيذ القانون فى ذلك الوقت إنهم لا يملكون دليلا لوجود علاقة للشيخ بالتفجيرات، ولا حتى لتقديمه للمحاكمة بتهمة ضلوعه فيها بصورة مباشرة. ولكن يبدو لى أن التهديد الأكبر لمصالح الولايات المتحدة لا يكمن فى القيام بعمل إرهابى هنا فى داخل أمريكا ولكنه يكمن فى احتمال وصول الإسلاميين المتشددين فى مصر للسلطة، هذا التهديد الذى كان يمكن أن يكون مرعبا ومخيفا كأى شىء مخيف واجهناه من الخمينى فى إيران إلى صدام حسين فى العراق.

تم اتهام الشيخ من إدارة الهجرة والجنسية بدخوله البلاد بصورة غير شرعية. وفى العشرين من يناير، قبل أسابيع قليلة من عودتى إلى مصر، ذهبت لحضور جلسة استجواب الشيخ فى نيووارك (new wark) بولاية نيو جيرسى (New Jersey) حيث لم يكن هناك أى من الذين تحدثت إليهم يصدق التهم الموجهة إليه- لا محاميه بالتأكيد، ولا واحد من المائتى شاب الملتحين الذين كانوا يقفون بجرأة وتحديلوٍّحون باللافتات التى تساند الشيخ خارج محكمة الهجرة. كان المخبرون فى نيووارك أيضا فى حالة شك وريبة وغير متأكدين أيضا. وفى حوار عابر مع أحد الحراس كنت أعدد سلسلة التشويهات التى أدت إلى منح الشيخ تأشيرة سياحة ضمنت له الدخول للولايات المتحدة عن طريق السفارة الأمريكية بالسودان فى مايو ١٩٩٠، ومنحه إقامة دائمة وال جرين كارد بواسطة ال INS فى أبريل عام ١٩٩١، والسماح له بالدخول من مطار كينيدى فى يوليو عام ١٩٩١، كانت أجابته مثيرة للشك. «يا إلهي، هل تقصد أن ثلاث وكالات وجهات حكومية مختلفة أخطأت أربع مرات عن غير قصد؟» كل الصحفيين الذين غطوا جلسة الاستماع كانوا يشكٍّون أيضا، وبصورة خاصة لأن الشيخ كان ولمرة واحدة قد ساعد الولايات المتحدة وشاركها اهتمامها بدعم المجاهدين ضد الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان. كان البعض منا قد تعقب الشيخ لأسابيع فى طريق كان يقودنا دائما إلى نفس الشقق، نفس المطاعم الشرقية وواجهات نفس المساجد التى كانت قد تمت زيارتها من المباحث الفيدرالية ال (FBI) فى وقت سابق. كانوا يتتبعونه

ويقتفون أثره منذ أكثر من سنتين، وبدا أنه كان مسرورا بينما يشاهد سلطات الأمن فى الشرق الأوسط وأوربا والولايات المتحدة يحاولون الربط بين كلماته والأعمال الإرهابية.

لأن مبنى المحكمة قد تم تطويقه برجال الشرطة الذين نما إلى علمهم أن مؤيدى الشيخ سيحتجون، لذا فقد انضممت لأتباع الشيخ فى الخارج. كان المشهد فى الداخل فى حجرة بالدور الخامس كما قد وصفها لى الشهود فيما بعد. كان الشيخ والذى بسبب مرضه الطويل واعتلال صحته يبدو أكبر بكثير من عمره البالغ خمسة وخمسين عاما، كان يستند فى مشيته على اثنين من أتباعه وأيضا كانا يسندانه بينما كان يقف أمام القاضى مرتديا رداء دينيا رماديا طويلا وطربوشا قرمزيا يتدلى من شريط أبيض خاص بالأزهريين. تظهر خصلات شعره البيضاء من تحت عمامته وتستريح على صدره لحية كبيرة بيضاء تماما. لم تكن إجراءات المحكمة غريبة عليه. فقد وقف من قبل أمام المحاكم فى مصر أربع مرات على الأقل، حيث كان ينظر إليه بصورة واسعة على أنه الأب الروحى لشبكة الجماعات الإسلامية المتطرفة السرية . كان قد قضى ما يقرب من سبع سنين خلف القضبان أو رهن الإقامة الجبرية.ربما كان أفضل ما يعرف عنه أنه كان أحد أهم المتهمين فى محاكمة اغتيال السادات. ورغم أنه تمت تبرئته من كل التهم – لأن الادعاء لم يتمكن من إثبات قيامه بإصدار فتوى تكفر السادات وتبيح قتله – فإن الاتهام كان كافيا لوضعه على قائمة المتطرفين فى مصر. مع ذلك فها هو قد وصل إلى الولايات المتحدة – بهدوء ودون أن يشد الانتباه – فى يوليو عام ١٩٩٠عن طريق السعودية وأفغانستان والسودان، وذلك عن طريق تأشيرة مثيرة لجدل كبير تم إصدارها عن طريق عميل سرى للمخابرات المركزية الأمريكية. (أوضح موظفو القسم القنصلى حينئذ أنه قد تم إصدار هذه التأشيرة عن طريق الخطأ بسبب خطأ فى الكمبيوتر فى سفارة أمريكا فى الخرطوم، وأن الشيخ عمر قد غير فى تهجئة اسمه عند ملئه لاستمارة طلب التأشيرة . ولكنى اكتشفت أخيرًا أن تلك التأشيرة كانت السادسة التى تم إصدارها للشيخ لدخول الولايات المتحدة).

والآن ها هو واقف أمام قاضى شئون الهجرة القاضى دانيل ميسنر (Daniel Meisner) بينما كان موظف ال (I N S) متحمسا وهو يقدم الأدلة على أنه حاول إخفاء معلومات عن

ماضيه فى استمارة طلبه للتأشيرة عن طريق عدم ذكره أنه كان متعدد الزوجات، وأنه كان قد تمت إدانته بتزوير شيك. (كان الشيك بمبلغ بسيط وقد تم سحب الدعوى فيما بعد). عندئذ وبحركة أدهشت جميع الحاضرين بمن فيهم عملاء المباحث الفيدرالية الذين كانوا يراقبون الشيخ، طلب الشيخ حق اللجوء السياسى فى الولايات المتحدة.

فى الساعة الثانية والنصف تماما عبر الشيخ وأتباعه الشارع الممتد أمام المحكمة إلى مكان به موقف للسيارات. وقفوا هناك فى صفوف متوازية ووجوههم شطر القبلة وبدأوا فى أداء صلاة الظهر. كان معظمهم شبابا، ولكنى لاحظت رجلا كبيرا بينهم - ربما كان فى أوائل الأربعينيات من عمره - وكان مميزا فى طلعته وهيئته عن الآخرين. كان مهندما ومرتديا أفضل الثياب وعليه جاكت سويدى من الفرو. وقد بدا أيضا أنه يملك الثروة والسلطة. عندما انتهوا من الصلاة قدمت نفسى له. كان هذا الرجل هو إبراهيم الجبروني. أخبرنى أنه مهندس مدنى قدم إلى بروكلين من بور سعيد وأقام عملا تجاريا كمقاول هناك. وبسرعة اكتشفنا أن كلا منا كان طالبا بالجامعات المصرية - فقد كان هو طالبا فى كلية الهندسة فى جامعة بور سعيد - خلال فترة السبعينيات المضطربة، عندما كانوا يبذلون جهودهم من أجل تدمير اليسار والقضاء عليه . فإن الحكومات المصرية والسعودية والدول الخليجية الأخرى قد حولت الجماعات الإسلامية حديثة العهد لتصبح ثانى كبر قوة منظمة بعد الجيش المصري. رجعت بفكرى إلى الوراء لتلك الأيام، عندما كان السادات قد منع السياسيين من جميع الأطياف السياسية من الحياة البرلمانية . وعندها بدأ نحو خمسين جماعة سرية بالعمل فى الخفاء من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. تساءلت ما إذا كان الجبرونى كان واحدا من هؤلاء الطلاب الذين كانوا يقضون إجازاتهم الصيفية فى معسكرات التدريب فى معسكرات الصحراء البعيدة.

كان مؤيدو الشيخ يأتون ويروحون ونحن نتكلم. كان هناك عدد من الأفرو أمريكان المسلمين مبعثرين حولنا، ولكن معظمهم كان من الشرق الأوسط. بعضهم مهاجرون قدموا حديثا ولا يعرفون الإنجليزية. كان هناك آخرون يجيدون الإنجليزية وهم على درجة عالية من التعليم، بينهم محام يعمل سائق تاكسى، ومهندس مدنى كان من الأتباع المخلصين للشيخ عمر عبد الرحمن لمدة تزيد على عشرين عاما.

فى عصر ذلك اليوم تنامى إلى علمى أن الجبرونى هو ابن عم السيد نصير، وكان واحدا من اتباع الشيخ عمر المخلصين المصريين. نصير – الذى كان قد تم اتهامه عام ١٩٩٠ بقتل الحام مير كاهان (Rabbi Meir Kahane) ثم ثبتت براءته. كاهان الذى قادته آراؤه المتطرفة ضد العرب إلى إنشاء رابطة مسلحة للدفاع عن اليهود– وكان نصير يقضى عقوبة بالسجن لفترة تتراوح بين سبع واثنتين وعشرين سنة فى سجن ولاية أتيكا بتهم سلاح متعلقة بتلك الجريمة.

كان الجبرونى هو رئيس حملة التمويل ومنظم حملة الدفاع عن ابن عمه وقد قام بعدة رحلات إلى الشرق الأوسط– أكثرها كان للمملكة العربية السعودية – فى محاولة لجمع الأموال. وقد سمحت له الحكومة السعودية بوضع صناديق لجمع الأموال فى آلاف من مساجد المملكة. ولقد تم جمع أموال طائلة ولكن غير معروف المبلغ تحديدا إلا أنه طبقا لأحد الحسابات فقد كان الرقم الذى تم جمعه مرعبا. قال ويليام كونستلر (William Kunstler) وهو أحد المحامين الثلاثة الذين تولوا مهمة الدفاع عن نصير: إن الجبرونى عمل فى تلك القضية كمحام تحت التمرين، وكان هو الذى يرتب للمحامين حراسًا شخصيين وتأمينهم بطريقة محكمة لأنهم، وطبقا لرواية كونستلر، كانوا محاصرين ومراقبين من قبل النشطاء المرابطين من جماعة الدفاع عن اليهود.

عندما تم فتح أبواب المبنى الفيدرالى فى (نيووأرك) Newark وظهر الشيخ عمر. كان المشهد يعج بلبلة ولغطا. واندفع أنصاره ومريدوه نحوه بحمى شديدة وفوضى شديدة أيضا. صرخ الجبرونى معطيا تعليماته وعندها أحاطت بالشيخ عمر دائرة محكمة من رجال الأمن.

« لا تجذب الشيخ!» صرخ واحد من مناصرى الشيخ للآخرين. «لا تلمسه! إنه لا يعرف من تكون!» صرخ رقيب شرطة « ابعدوا تلك اللافتات من الطريق» قالها من فوق حصانه.

بهدوء مطبق ووجه خال من التعبير تهادى الرجل الذى جاءت كل تلك الجموع لمساندته ببطء ولكن بعزيمة وقوة مرق من وسط الجماهير . تمت مساعدته ليصعد إلى سيارة كاديلاك بيضاء وانطلق مغادرا المكان.

خلال الأيام القليلة التالية قمت بزيارة الأماكن المجاورة فى بروكلين وجيرسى سيتى اللتين تعتبران قلاعا وحصونا لدعم الشيخ عمر فى نيويورك. ففى الوقت الذى وصل فيه أمريكا كان الشيخ بالفعل صوتا روحانيا قويا فى مصر، وأيضا - لمضايقة حكام المنطقة - كانت شرائط الكاسيت الناطقة بخطبه الحماسية الدينية تلف معظم منطقة الشرق الأوسط. إنه شخصية مثيرة للجدل لأنه استطاع أن يتحرك بثقة وصفاء ذهن، كان وهو فى مصر يتعامل بمساواة مع كل من الأصوليين الإسلاميين، وكذلك مع قادة حروب العصابات وكان يحوز احترام الجميع . وكان كذلك مع الأفغانى جلبادين حكمتيار ورؤساء الدول من بينهم مثلا الجنرال السودانى عمر البشير والباكستانى محمد ضياء الحق. إذا كان من المهم معرفة كيف دخل الشيخ إلى أمريكا فربما يكون الأهم هو لماذا قرر أن يأتى إليها أصلا. كانت للشيخ ثلاث أمنيات وكانت تلك الأمنيات تحرك عواطفه، أولاها الحرب الأهلية فى أفغانستان، والثانية نشر الإسلام والثالثة الإطاحة بالنظام الحاكم فى مصر. وقد وجد حلفاء مناصرين له ومنحازين لهذه القضايا فى شارع أتلانتا فى بروكلين.فى تلك المنطقة والمناطق المحيطة، حيث النساء يغطين رؤوسهن ويرتدين الحجاب، ويصطففن أمام محلات االعجائن لشراء الكعك والبقلاوة، وحيث الرجال يميلون للاحتشاد حول المراكز الإسلامية والمساجد. والتى أفرخت جمهورا غفيرا من الجماعات المسلحة المتطرفة، والتى كانت أفكارهم المتطرفة تسرى كالكهرباء كما أن لهجتهم كانت تتغير بعد تجنيدهم. وجدت فى أحد المقاهى الجانبية صورا للخومينى وياسر عرفات وصدام حسين يتنافسون لجلب الانتباه على الجدران. بعد ذلك قمت بزيارة مكتب الجهاد فى المنطقة — رسميا مركز الكفاح للاجئين— وقد أنشئ فى أواسط الثمانينيات بواسطة مصطفى شلبى وهو مقاول كهرباء من مصر، ليساعد الثوار الأفغان. وقد كان من هنا حيث بدأ الشيخ عمر محاولته الأولى لتأسيس وإحكام السيطرة على مركز للقوة فى الولايات المتحدة. رعى شلبى الشيخ منذ وصوله فأسس له شقة وأعطاه سيارة وسائقًا وتليفونًا. وجمع الرجلين معا أموالا كثيرة وجندا الشباب من المناطق المجاورة، وكما أخبرنى مصدر جدير بالثقة أن بعضا من هؤلاء الشباب تلقى تدريبات على الأسلحة فى موقع فى كونيكتيكت (Connecticut). تم تجنيد ما

يزيد على المائتى عربى وعربى – أمريكى، وتم تزويدهم بتذاكر سفر لباكستان ومنها عبروا الحدود للقتال مع المجاهدين الأفغان.

كانت فكرة الجهاد فكرة مسيطرة تماما على الشيخ وكان مهووسا بالمجاهدين. ومع ذلك لم تدم صداقته مع شلبى طويلا وحظى الخلاف بينهما على اهتمام دائم ومستمر من رجال المباحث الفيدرالية (F B I) ففى مارس ١٩٩١تم العثور على شلبى مقتولا فى شقته بعدة طعنات نافذة ورصاصة فى رأسه. وظلت القضية لغزا، ورغم أن الشيخ عمر لم يكن مشكوكا فى تورطه المباشر فى جريمة القتل، فإن عملاء المباحث الفيدرالية كانوا يحاولون استجلاء ما إذا كان قد أصدر فتوى تبيح قتله. وقد أثار هذا الاقتراح حفيظة الشيخ وحنقه، وعلى مر السنين كان الشيخ يرفض دائما مناقشة علاقته مع شلبى أو مقتله، ومرة قال لأحد الصحفيين «أنا لا أعرف هذا الرجل» وقال لآخر «تلك الأسئلة ليست أسئلة صحافة بل أسئلة المباحث الفيدرالية».

فى مكتب الجهاد قدم لى شخص سودانى نفسه باسم جلال كان جالسا خلف مكتب متهالك أمام مكتبة متهالكة؛ تعج رفوفها بالكتب الأدبية والدينية وشرائط الكاسيت الناطقة باللغة العربية. سألته عما حدث بين الشيخ عمر وشلبي، وما الذى أفسد صداقتهما (طبقا لوجهة نظر صديق للاثنين فإنهما اختلفا بشأن السيطرة على تمويلات الجهاد والمجاهدين، وعلى إصرار الشيخ على دعم الحركة الإسلامية فى مصر والتى كانت تحارب حكومة الرئيس حسنى مبارك).

رد جلال: «لا تعليق». وبدأ يشخبط بعصبية فى كومة من الأوراق كانت على المكتب القابع امامه.

ثم أردفت سائلة لأجعل الحوار مستمرا « لماذا لم يزل هذا المكتب مفتوحا إلى الآن رغم انتهاء الحرب فى أفغانستان؟».

فأعقب «البوسنة».

«وهل يحاول الشيخ عمر تجنيد الرجال وجمع الأموال لهذا الغرض؟».

«العالم الإسلامى واحد. وأينما يكون هناك صراع فنحن جاهزون للقتال». كان هذا هو كل ما قاله.

بعد ذلك ذهبت إلى جيرسى سيتى حيث عرفت موقع مسجد السلام أخيرا. برهن المكان على أن اختياره تم بصورة ارتجالية، فهو يقع فى الطابق الثالث فى مبنى من الطوب الأبيض فى شارع كينيدى بولفارد، حجرة باردة خالية من الأثاث. أضواء خافتة تتخلل عبر نوافذها البالية والتى كانت قد تم دهانها باللون الأزرق. جردل بلاستيكى على الأرض لجمع مياه الأمطار التى تنفذ من سقف الحجرة، والتى كانت متشابكة وفى بعد المناطق بدت وكأنها على وشك الانهيار. فى ركن بعيد مقعد خشبى مرتفع له ظهر عال، وكان ذلك هو قطعة الأثاث الوحيدة فى الحجرة. حاولت أن أتخيل صلاة الجمعة فى هذا المكان بينما يلقى الشيخ عمر خطبته وهو جالس فوق هذا الكرسى المرتفع بنحو ثلاثة أقدام فوق المصلين الجالسين على الأرض. تتسع الحجرة لما يقرب من مائة شخص، كما أعتقد. ولقد تم إخبارى أنها كانت دائما مملوءة.

خلعت حذائى فى الصالة الخارجية، وتقدمت بهدوء وحكمة على قدر ما استطعت محاولة تجنب الجرادل المبعثرة على أرضية الحجرة هنا وهناك لكى أدخل الحجرة. كان هناك ستة رجال جالسين على الأرض، واضعين قدما على الأخرى يسبحون الله بسبَح ملونة بين أيديهم. شاهدت فى ركن كراتين شرائط كاسيت سونى ولافتة معلقة على أحد الجدران مكتوبة بخط اليد تعلن عن رحلة بالأتوبيس فى عطلة نهاية الأسبوع إلى سجن ولاية أتيكا، بتكلفة قدرها خمسة وأربعون دولارا للفرد الواحد لزيارة أخينا السيد نصير.

قلت « معذرة» موجهة كلامى للرجال الجالسين على الأرضية. للحظات لم يعرنى أحد اهتماما. عندئذ وفى تناغم تام كما لو كانت حركتهم تؤدى فى رقصة، نهض الستة رجال معا. اقتربوا منى فى مشية إيقاعية من ناحيتين مختلفتين وسألوني، فى لهجة شرق أوسطية مختلفة، عن سبب قدومى إليهم.

سألت إن كان بإمكانى الاستماع لأحد شرائط الشيخ عمر، لأنى كنت قد سمعت أن خطبه ومحاضراته تحرضان على قلب نظام الحكم والإطاحة بحكم الرئيس مبارك،

وأن تلك الشرائط يتم تسجيلها هنا ثم يتم تهريبها لمصر وإيران ولبنان عن طريق سعاة مخصوصين.

«هل أنت مسلمة؟» سألني رجل يرتدى قلنسوة طويلة مخروطية الشكل، والذى قدم نفسه لى على أن اسمه محمد.

«لا. ولكنى فى طريقى للسفر إلى مصر» قلت فى ردى عليه.

ما كدت أتفوه بهذا حتى توجه واحد من الرجال إلى أحد الأركان وتناول مجموعة من الوثائق من على أحد الأرفف وسلمها لي. كانت تلك الأوراق عبارة عن تقارير دولية عن التعذيب فى مصر. وقال لى « مصر مكان مرعب وفظيع».

فجأة ظهر رجل قصير عبوس ومتجهم الوجه. كان يلف وجهه الملتحى بكوفية وكان يحمل فى يده نسخة من القرآن.

«قال معلنا حضوره: ليست لدينا شرائط، ولا نأذن بتوزيعها».

انسحب محمد والرجل الذى أعطانى الوثائق بعيدا ووقفت أنا وحيدة فى وسط المسجد. كان الرجل الملتحى هو المسئول، وللحظة شعرت بغربة شديدة عن عالمه ذى النسيج المحكم فى جيرسى سيتي، حيث يتم النظر للغرباء بشك وريبة، غربة واغتراب لم أشعر بهما حين كنت فى مصر بلده الأم، والتى تبعد عنا بنحو سبعة آلاف ميل.

عندما وصلت القاهرة فى بداية فبراير عام ١٩٩٣، أخبرنى صديق مصرى بثقة واضحة فى صوته، «إنها مصر كما تعرفينها، فقط ارتدت ملابس مختلفة قليلا». ولكن عندما تجولت فيها، لم أكن متأكدة. صعقت وصدمت كما لم أصدم من قبل، بالتناقض بين الفقر الذى بدا وكأنه ينتشر فى كل مكان وعالم الثراء الفاحش. بينما كنت أتجول فى شوارع وسط البلد شاهدت وكالة لبيع السيارات، وأنصت وأنا أسمع شخصين، كانا يرتديان خواتم متلألئة ويتجادلان ويلوحان بأذرعهما نحو سعر سيارة مرسيدس جديدة ب ٤٠٠،٠٠٠ دولار أمريكى والتى كانت قد وصلت لتوها. عندئذ شاهدت جماعات من أطفال فى العاشرة من العمر يتحركون بتثاقل بعربات كارو تجرها البغال. كانت وجوههم جميلة ولكنها قذرة وكانوا يرتدون ملابس بالية: كانوا يعيشون بين أكوام الدخان الناتجة من حرق أرتال القمامة فى مدينة القمامة جنوب القاهرة، وهم يتعيّشون عن طريق جمع القمامة من الشوارع.

بعد ذلك قمت بزيارة لسمسار عقارات فى الزمالك، كان رجلا ضخما وبدينا أخبرنى هذا السمسار بأن سعر متر الأرض المربع فى المنطقة يساوى عشرة آلاف دولار: بعد أن غادرته توجهت لزيارة مدينة الموتى حيث يعيش نحو نصف مليون قاهرى بين الأضرحة والمقابر التى يرجع عمرها للقرن الثالث عشر. كان يرافقنى فى تلك الزيارة مهندس معمارى علق على الأمر شارحا «إنها تسمى مساكن بديلة أو إسكان بديل» «إنها فى موقع ملائم ومناسب وهى بالطبع غير مكلفة لأنها مجانية». ولكن الحكومة تشعر بالحرج الشديد من وجود كل هؤلاء الناس بين المقابر.

منذ أيام دراستى فى القاهرة كانت مصر، ولم تزل تتلقى معونات ضخمة ومساعدات من الدول الغربية، بما فيها نحو مليارين من الدولارات من أمريكا وحدها. بدأت تصل هذه الأموال لمصر بعد معاهدة السلام مع إسرائيل عام ١٩٧٩، عندما انخرط السادات فى سياسات حولت القاهرة لتصبح محور السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. ولكن توزيع تلك المساعدات لم يكن فى أفضل حال، وكان القليل منها يتسرب. حقا، تطورت شبكة التليفونات تطورا ملحوظا وبصورة كبيرة (فقبل عقد من الزمان كان يسافر الأثرياء المصريون لقبرص أو اليونان ليوم فقط من أجل إجراء بعض المكالمات)، ولكن فى أحياء إمبابة أو بولاق أو شبرا لم يكن هناك من يملك تليفونا.

الثروة والثراء الجديد - والذى اكتمل عن طريق قرارات الانفتاح الاقتصادى المشكوك فيه بهدف جذب رؤوس أموال خاصة من الغرب - أفرخ أيضا طبقة جديدة من الوصوليين والانتهازيين والاستعراضيين الذين أحاطوا بالسادات كما يحيطون بحسنى مبارك الآن. ولا يهمهم إطلاقا أن ينفقوا مائة وخمسين ألف دولار فى عرس ابنة فى أحد الفنادق ذات الخمس نجوم فى القاهرة ، بينما لا يتجاوز معدل دخل الأسرة سبعمائة دولار فى السنة. كأشياء كثيرة أخري، فإن الانفتاح الذى أعطى الفرصة للمؤسسات الخاصة أن تنمو وتتربح بلا رقيب ولا حسيب، لم تفعل شيئا لتحسين الظروف الاقتصادية للمواطن العادى أو للعامة. القليل من المكاسب التى كانت متوقعة أن تصبح حقا قد تجسدت. كانت كل استثماراتها تقريبا فى القطاع الاستهلاكى غير المنتج، وظهرت تبعات ذلك ونتائجه

واضحة جلية للعيان فى تضخم الثروة والتفاخر بها، وفى استيراد السلع الكمالية، ومن بينها السيارات الفارهة مرتفعة السعر بصورة مبالغ فيها، وفى انتشار المطاعم والنوادى الليلية والملاهى ذات الخمس نجوم التى أشار إليها للكاتب المصرى محمد حسنين هيكل بـ « السوقية القذرة من المنتفعين بها» حيث لاحظ فى سوبر ماركت بالقاهرة وجود ما لا يقل عن ثمانية وخمسين نوعا من الشامبو معروضة، على أحد الأرفف للبيع.

بدا أن كل شيء قد خرج عن السيطرة. ازدهر وترعرع الفساد : وتضخم السكان وبدا أن الكثير من مؤسسات الدولة البيروقراطية قد أصابها الشلل التام.

ولكن أحد الانطباعات الحية فى هذه الزيارة كانت التحلل والتفسخ : عن المبانى الآيلة للسقوط والتى يمكن مشاهدتها عبر غيمة من التراب والغبار : من أرصفة المشاة المتكسرة ومياه المجارى فى الشارع: لمدينة كانت غاضبة وكانت لا تزال تعيش على الحافة لأن سكانها استمروا فى التزايد. وكلما تداعت المدينة وتهالكت، وكلما تضخم وتزايد سكانها كلما ازدادت الرغبة فى تبنى حركات الإحياء الإسلامية. فالدين والخرافة يترعرعان فى الأحياء الفقيرة. كانت المساجد من حولى فى كل مكان، أو هكذا قد بدا لى، أكثر من ألف مسجد منتشرة فى المدينة بمختلف الأشكال والصور: بعضها يتداعى وفى طريقه للسقوط وبعضها تم ترميمه : بعضها بأقواس رائعة ومرصعة بالرخام والذهب، وبعضها الآخر صغير، حجرات تستعمل كبدائل مؤقتة فى الأحياء الشعبية.

فى صباح يوم جمعة، قبل صلاة الجمعة بقليل، عدت أنا مع صديقتى هدى إلى الأسواق الشرقية فى خان الخليلي. كان هناك طوفان من البشر يتجهون إلى مسجد الحسين البالغ من العمر قرونا، والواقع بالقرب من المنطقة، كما أتخيلهم يتوجهون نحو الأزهر الذى لا يبعد كثيرا. بدأ صوت المؤذن يدوى فى السوق الشرقية.

فى يوم الجمعة هذا كان القليل من المحلات فاتحا أبوابه. «لم تكن الحال هكذا من قبل» علقت هدي، كان هناك ضيق فى صوتها. « لم يكن أصحاب المحلات فى خان الخليلى يغلقون محلاتهم فى أيام الجمع ولا فى أوقات الصلاة». كانت المنطقة تعج بحشود كبيرة من الناس فكان من الصعب علينا أن نجد سيارتنا، لذا فقد وجدنا أنفسنا نُحمل حملا فى وسط ربما ألف من المصلين وننقاد عنوة نحو مسجد الحسين.

تساءلت حينها ما إذا كانت هذه هى الحال فى القاهرة كلها - واكتشفت أخيرًا أنه هكذا كان. كل الأحياء والمناطق المجاورة قد تحولت هكذا فجأة ودون سابق إنذار. كانت أبواق السيارات صامتة ولا شيء يتحرك عدا المصلين الذين كانوا ما زالوا يتوافدون صوب المسجد. كان هناك السيدات وكن يرتدين الجلباب الطويل (العباءه) ويغطين أنفسهن من الرأس إلى أخمص القدمين. كان المصلون يسجدون على الأرصفة التى تم افتراشها بسجاد من القش (الحصر) وفوقهم أسقف مؤقتة مغطاة بقماش أخضر غامق. استمعنا ونحن خارج المسجد إلى الخطبة التى كانت تدعو الأغنياء إلى التصدق من أموالهم على الفقراء، وكانت الخطبة تؤكد على أنه من واجب المسلمين أن يقوموا بأعمال خيرية . كانت تلك دعوة صالحة أو هكذا بدت لي، ولكن هذا مسجد حكومى رسمي. بينما كانت الخطبة مستمرة أجَلت بصرى فى المنطقة المحيطة بالمصلين. لاحظت وجود أربع أو خمس مناضد موضوعة بين المبانى القديمة ومغطاة بقماش. كان القائمون عليها رجالاً ملتحين طوال القامة فى زيهم الإسلامى المكون من الجلباب الأبيض وغطاء الرأس الأبيض أيضا. بعد انتهاء الصلاة اقتربنا أنا وهدى من واحدة من تلك الطاولات والتى كانت عليها أكوام من الكتب الدينية والأدبية ونسخ من القرآن وشرائط عليها خطب الشيخ عمر عبد الرحمن.

علقت هدى على المصلين بأن مظهرهم يبدو كئيبا. ولكنى لاحظت أنها كانت قد غطت رأسها بحجاب أثناء الصلاة رغم أننا كنا خارج المسجد.

بعد ذلك وجدنا السيارة أخيرا فقالت لى هدى «يجب أن نذهب ونستمع إلى هالة». ولكنها لم تقل لى من تكون هالة تلك.

قدنا السيارة وتوجهنا إلى أحد نوادى الزمالك الحديثة. كان فى الداخل نحو خمسين سيدة بدا أنهن ينتمين للطبقات العليا والوسطى وفى منتصف العمر أو أقل. كن يجلسن على طاولات لعب الورق فى إحدى قاعات المحاضرات. كن يشربن الشاى ويثرثرن. عندئذ كان هناك صمت مطبق.

فقد دخلت الحجرة امرأة ذات أبعاد واسعة، كان رأسها مغطى بحجاب أبيض، كان يتدلى من وسطها قماش شفاف. خمنت أنها ربما كانت فى أوائل الأربعين من عمرها.

وبعد ذلك علمت أنها نشأت وترعرعت فى حى إمبابة. كانت ترتدى جلبابا قرمزى اللون طويلا تجره خلفها ولم تكن مرتدية أية مجوهرات ولا أية مساحيق تجميل. بدأ أنها تتهادى مرتدية حذاء طويل الكعب جدا. بعد أن اتخذت مجلسها على منصة القراءة وقيامها بعمل كلمات وعبارات التقديم أردفت قائلة، «فى حياتى السابقة كان الجميع يحملقون فىّ باستمرار. كنت أشعر باحتقار فى نظراتهم لأنهم كانوا ينظرون إليّ نظرة دونية. ثم توقفتْ وأخذت فى البكاء وكانت متشنجة. وشاركها النساء الحاضرات بكاءها وأخرجن مناديلهن وأخذن فى تجفيف أعينهن». استمرت قائلة «حتى أن حدث وأتانى النبى محمد (ص) فى حلم»، «وغطانى الرسول بيديه الكريمتين حينها علمت أننى لن أشعر بأننى عارية مرة أخرى».

كان هناك هرج ومرج وآهات الراحة والرضا بين المستمعات وتم تنحية المناديل جانبا. كانت هالة صافى واحدة من أنجح الراقصات الشرقيات المصريات، ولكنها بعد لقائها بالرسول فى الحلم، ها هى قد ولدت من جديد وتغيرت حياتها من النقيض إلى النقيض، من الرقص إلى الوعظ.

فى مساء ذلك اليوم ذهبت بصحبة أحد الصحفيين الأمريكان للبحث عن عبد النبى خليفة. لم أكن أعرف عنه شيئا سوى أنه كان ابنًا لقاض ينتمى للطبقة المتوسطة العليا، وكان موجودا بمستشفى قصر العينى فى الحجرة رقم ٢٤. كان عبد النبى خليفة من أتباع الشيخ عمر عبد الرحمن مثله مثل ما يقرب من ثمانمائة آخرين من العائدين من أفغانستان بعد انتهاء الحرب هناك. وكان قد تم اعتقاله قبل عشرة أيام. (كان قد تم سن قانون جديد يعتبر تلقى تدريبات عسكرية فى الخارج جريمة يعاقب عليها القانون بالإعدام، وكان قد تم بالفعل الحكم بالإعدام على ثمانية من المجاهدين الذين كانوا يحاربون فى أفغانستان وعادوا إلى مصر). وكان خليفة الذى كان يرقد بجناح المعتقلين بمستشفى قصر العينى قد تم تعذيبه، وطبقا لأقوال محام إسلامى فإنه كان يعانى شللا نصفيا وكانت هناك تساؤلات ما إذا كان لم يزل على قيد الحياة أم لا.

دخلنا مستشفى قصر العينى والذى هو جزء من كلية طب جامعة القاهرة، عبر ممر غير مضىء تحت الأرض. ساعدنا وميض خافت كان يومض بين الفينة والأخرى أن نستدل على طريقنا بينما كنا نحاول ألا نثير الانتباه لوجودنا، ولكنا كنا نعرف تماما ما كنا نفعله : اثنان من الأجانب يتجولان فى ممرات تحت الأرض باحثين عن جناح سرى خاص بالسجناء. شىء غير مبرر وغير معقول.

اقترب منا شاب حليق اللحية يرتدى ملابس غربية، وتطوع من تلقاء نفسه وأخبرنا قائلا « لقد نقلوا السجناء ورحلوهم إلى مبنى آخر ملحق بالمستشفي. قادنا فى الخروج من النفق مرورا ببعض قاعات الطلاب وأشار إلى مبنى مكون من سبعة طوابق. السجناء الذين قدموا من الزنزانة رقم ٣٤ فى الطابق الثامن» هكذا أخبرنا هذا الشاب. رفعت عينى إلى أعلى فرأيت سقفا صغيرا ملحقا : كانت نوافذه مسيّجة بقضبان من الحديد ومغطاة من داخل القضبان بواسطة ظلال الروطان.دخلنا المبنى وبدأنا فى صعود السلالم.

فى الطابق السابع انتهت السلالم. وبينما نحن واقفون نفكر فيما ينبغى أن نفعله ظهرت فتاة شابة محجبة وقالت «أنتم تبحثون عن المحتجزين السياسيين» كان هذا كل ما قالته. بعد ذلك قادتنا نازلين من ممر لآخر، حتى وجدنا سلما مخفيا إلى حد ما، ورغم أن الملحق كان جديدا فقد كانت الجدران المؤدية له قذرة: براز وإبر وورق وقاذورات تغطى بئر السلم.

عندما وصلنا للطابق العلوى وجدنا بابا أبيض اللون مغلقا بقفل وسلسلة من الداخل. كان يقف على الباب أربعة رجال شرطة فى زى أسود لا يناسب أجسامهم وقبعات عسكرية، كانوا قائمين على حراسة المدخل، وظهر بسرعة وجه خامس من خلف نافذة صغيرة جدا لم تكن موجودة أصلا فى الباب وتم قطعها فيما بعد، عليها قضبان حديدية.

أعلن رفيقى قائلا: «لقد قدمنا لرؤية عبد النبى خليفة» قالها فى صوت فى منتهى الثقة لكنى كنت أشك أنه كان كذلك من الداخل.

رد أحد الحراس «ولماذا تريدون رؤيته».

أجاب مرافقى «نريد أن نجرى حوارا صحفيا معه. نحن صحفيان».

لدهشتي، قام أحد الحراس بفتح الباب وبعد أن دخلنا أغلق الباب وأمن غلقه بأربعة أقفال. أنا أكره الأماكن المغلقة وأعاني من إرهاب الاحتجاز. وليس هناك من أحد يعلم أننا هنا. وتذكرت شيئا قاله لى أحد محاميى الإخوان الذى كان قد ترافع عن عشرات المعتقلين، وكان يقابل عشرات المحتجزين . قد قال لى سابقا : إن أكثر الأشياء المرعبة والمخيفة التى يواجهها المساجين هو أنه يمكن أن يتم قتلهم دون أن يعلم أحد، فلا يوجد من يعلم أنهم رهن اعتقال أو احتجاز ولا مكان احتجازهم.

تحركنا محاطين بستة رجال شرطة، ثلاثة على كل جانب وتم اقتيادنا إلى حجرة صغيرة لا تبعد سوى بضع خطوات عن الباب، وهناك تم تقديمنا للازم يدعى أشرف بك حسنى أو على الأقل هذا هو الاسم الذى أعطى لنا، وكان هو الضابط المسئول. كان له وجه نسوى مدوّر وشعر أبيض ويرتدى زيا عسكريا أسود قاتما. وكان منتعلا نعال حمام بلاستيكيًا أزرق.

سألنا «ما الذى تفعلونه هنا؟» وكأنه يستجوبنا مع انى اشك أن يكون محققا.

بعد حوار طويل بدا وكأنه لن يوصلنا لأى مكان ولا أى حلول، أخبرنا أننا نحتاج إذنًا من النائب العام حتى يمكننا رؤيته ولكنه أكد لنا أنه موجود هناك.

بينما كنا نغادر أجَلت بصرى عبر الممر الخالى فرأيت اثنى عشر بابا مغلقا بأقفال وسلاسل حديدية. على عكس النشاط الصاخب ونشاز الأصوات وضجيجها فى باقى المستشفي، فلم يكن هناك صوت يُسمع فى هذا الطابق.

بمجرد خروجنا من المستشفى وجدنا رجل الشرطة الذى كان قائما على حراسة المدخل فى الطابق الثامن ينتظرنا فى الفناء.

أخبرنا أنه يوجد أحد عشر محتجزا فى عنبر السجن، وهم جميعا من الإسلاميين، قال ذلك تطوعا منه. معظمهم من القاهرة، ولكن القليل منهم من صعيد مصر. تم إحضارهم جميعا من سجون طرة وأبو زعبل وأنهم جميعا فى حالة مرضية شديدة، ومعظمهم يعانون من أمراض مزمنة فى القلب أو المعدة، ولكن بعضهم يعانى من جروح وإصابات فى الأرجل وجروح عميقة مفتوحة. وعندما سألناه إن كانوا قد تم تعذيبهم، أجاب بنعم.

«التحجب» كما يطلقون عليه بدأ يعلن عن نفسه منذ أن كنت أدرس فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة. أصبح الآن ارتداء الحجاب هو القاعدة فى الجامعات. فقد شاهدت ذات مساء مجموعة من الطالبات وكن كلهن محجبات يمشين عبر كوبرى يفصل المناطق الحديثة فى الجيزة حيث تقع جامعة القاهرة عن حى بولاق، أحد أكبر الأحياء الفقيرة العشوائية المكتظة بالسكان فى القاهرة. كن ينظرن للأمام لا يلتفتن يمينا ولا يسارا، بلا اكتراث يُذكر بالسيارة المدرعة حاملة الأفراد الذين يقومون على حراسة الكوبرى آنئذ. كانت تلك السيارات الرمادية الخفيضة قد أصبحت من المعالم فى الشهور الحالية.

وفى الزمالك وحولها كانت هناك مجموعات من شرطة مكافحة الشغب، كانت معالم وجوههم غير واضحة بسبب الخوذات ذات القناع التى كانوا يرتدونها. كانوا يقومون على الحراسة خارج المراكز السياحية والفنادق نصف الخالية، ومبنى الأوبرا الذهبى الذى بناه اليابانيون. فى صباح ذلك اليوم قام حارس بتفتيش أشيائى قبل أن أدخل إلى بوتيك. والآن أرى العربات المحملة بقوات الانتشار السريع تندفع بقوة بجوارى على كورنيش النيل.

فى ربيع عام١٩٩٣، تصاعدت المواجهات والمراهانات مرة أخرى بصورة ملموسة فى حرب وهمية فى الخفاء – حرب بلا جبهة ولا خطوط أمامية – بين قوات الأمن التابعة لمبارك والإسلاميين المسلحين أتباع الشيخ عمر عبد الرحمن. كان كل يوم يموت شخص تقريبا. وكان الإسلاميون المسلحون وبجرأة جديدة قد صعَّدوا من هجماتهم ضد الأقباط المسيحيين وقوات الأمن والمفكرين والأماكن السياحية. وكان رد الحكومة وحشيا وعنيفا.

كان هناك اهتمام متزايد بين العلمانيين – الذين بدا وكأنهم تركوا فى الخلفية خلال عملية الاستقطاب المتزايد للحياة السياسية – تصاعد الاهتمام بالحركة الإسلامية التى اتخذت الكثير من الوجوه والأشكال. وكان هناك أيضا نقد عالمى لأسلوب الحكومة فى الرد عليها. كان هناك أيضا خوف ملموس، خوف لم أعرفه من قبل هنا، إن مصر، والتى يبلغ سكانها الآن ستين مليونا – أى ثلث العالم العربى – يمكن أن تخسر معركتها ضد الإسلاميين المسلحين.

منذ منتصف السبعينيات، عندما بدأ الإخوان المسلمون ينخرطون فى الاتجاه السائد فى الحياة السياسية، ومنذ أن بدأت الجماعة الإسلامية فى السيطرة على الاتجاه الإسلامى بالجامعات، كان هناك ارتفاع فجائى يمكن تقديره، فى كل من التأثير والشكل الجانبي، عبر مصر من الإسلام السياسي. كان من السهل أن يجدها، سواء فى المناطق المزدهرة الغنية أو فى الأحياء الفقيرة، فى الصعيد أو الوسط أو على ساحل البحر المتوسط كل الجماعات المتباينة سواء كانت مسلحة متطرفة أم معتدلة اشتركوا معا فى هدف محدد وحتمي،وهو إقامة دولة إسلامية ثيوقراطية فى مصر يتم تطبيق الشريعة الإسلامية فيها. كان اختلافهم الوحيد فى طريقة التناول. ما إذا كان هذا سيحدث عن طريق االتطور أم طريق الثورة.

أسست الجماعة الإسلامية قاعدة قوية لها فى كل مكان فى مصر فى حرم الجامعات والقرى والمدن الصغيرة والكبيرة فى الصعيد والوسط وعلى ضفاف النيل، بينما فى المراكز الأكثر تحضرا وفى المناطق الشعبية المجاورة فى القاهرة والإسكندرية والإسماعيلية وبور سعيد بدا أنها تتقاسم الأرض (أحيانا بصورة متعاونة وأحيانا لا) مع حركة الجهاد السرية، والتى كانت قد أعادت تجميع صفوفها – تحت قيادة طبيب يدعى أيمن الظواهرى – منذ مقتل السادات. كانت الجماعات المسلحة الأخرى قد تشكلت أو انقسمت، نشأت أو تشتتت وتفرقت منذ أيام دراستى : بعضهم كان يبشر بالعنف ضد الحكومة وضد الدولة : وآخرون كانوا يطالبون فقط بالإطاحة بحكم الرئيس مبارك فقط : وكان لم يزل هناك من يطلب من أتباعه الانسحاب من المجتمع ومقاطعته.

ولكن رغم انقساماتها وتشكيلاتها الجديدة فإن الحركة المسلحة كانت تتكون أساسا من نفس الجماعات – نحو أربع وأربعين جماعة – تكونت وتشكلت داخل حرم الجامعات خلال السبعينيات تحت سمع وبصر ودعم الرئيس السادات. شكل الكثير منها تحالفات مفككة فى يونيه ١٩٨٠، فى السنة التى سبقت وفاة السادات، وبالرغم أن الاختلافات فى الأنظمة والقيادات المميزة، فقد عملوا منذ ذلك الحين، من وقت لآخر تحت القاعدة الأساسية للجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد.

مع كل هذا الاهتمام الذى حصلت عليه تلك الجماعات الأكثر أصولية وسلفية، فقد تم ارتباط الغالبية العظمى من الإسلاميين فى ثورة سرية لإسقاط حكومة وحكم مبارك. وحتى من بين الجماعات المسلحة كالجماعة الإسلامية لم تكن مسلحة بالأسلحة فقط ولكن بعدد كبير واسع ومؤثر من المؤسسات والمنظمات الخيرية وشبكة من المدارس والعيادات الصحية والمراكز الاجتماعية والمساجد. بعض من أعضائها - الذين لم يعد يقتصر استقطابهم على كونهم فى الجامعات أو المناطق الشعبية المحيطة، ولكن من الموظفين فى الأجهزة الحكومية والفنانين - كانوا يأتون من الإخوان المسلمين الذين تم تعذيبهم وتحويلهم إلى متطرفين داخل السجن خلال السنوات الأخيرة لحكم السادات.

من جانبها فقد كانت جماعة الإخوان المسلمين قد استمرت فى التطور فى الاتجاه المعاكس، وكان قد أصبح لها فرصة جديدة فى الحياة والعمل : رغم أنها كانت لم تزل محظورة فإنها فى الواقع قد تمت مسامحتها من الحكومة لأنها مثلت ما أطلق عليه فيما بعد بالاتجاه المعتدل فى النزعة الإسلامية فى مصر. فقد أعادت بناء مؤسستها عبر عشرين عاما وبالوعى الذاتى اعتنقت سياسة إصلاح معتدلة: وكما كانت قد فعلت مع عبد الناصر والسادات، فقد أوجدت تسوية مؤقتة مع حكومة مبارك. لأنه وبالرغم من أن فلسفتها كانت دائما تحمل فى ثناياها الميل للعنف، فها هى تبشر الآن أن الجهاد يجب أن يتم بالطريقة المعتدلة فقط : أول مهمة اتخذها قادتها على عاتقهم هى تغيير المجتمع عبر التسلل إلى الكيانات الاجتماعية والسيطرة على المساجد. بدا كل ذلك طبيعيا وغير مؤذ من وجهة نظر حكومة الرئيس مبارك. كانت هناك سخرية مؤكدة فى ذلك، بالطبع، لأن مبارك — مثل ناصر والسادات - كان قد بدأ رئاسته بالتودد للإسلاميين، الذين، كان يأمل أن يسلموا له الجمهور المؤيد الواسع الذى كان فى حاجة إليه لإضفاء شرعية على حكمه. مع ذلك- فكما فعل ناصر والسادات- عرف بمرور الوقت الخطر الذى يشكله الإسلاميون عليه وعلى حكمه، وتحول بسرعة ووحشية ضدهم مستهدفا جماعاتهم المسلحة السرية على وجه الخصوص. وكما كان الأمر مع ناصر والسادات، فإن تحرك مبارك جاء متأخرا جدا ربما بعد فوات الأوان.

عندما عدت مرة أخرى إلى مصر كان لدى الإخوان كل من السلطة الواسعة والثروة الضخمة: فقد كان النمو الكبير للبنوك الإسلامية وبيوت المال قد أصبح ظاهرة منذ أيام دراستى فى القاهرة. فى أواخر التسعينيات كانت الحركة الإسلامية قد أنشأت دولة مالية داخل الدولة. وقد عملت البنوك وبيوت المال بعيدا عن سلطة الدولة: لم يعرفوا أى قانون ولا نظام: وتعامل الكثير منهم بصورة واسعة وبلا ترابط، وكانت المبالغ التى يتعاملون فيها تقدر بمليارين إلى ثلاثة مليارات دولار. عندما انهارت أكبر مؤسسة مالية لهم وهى الريان ومؤسسات أخرى تقدر بالمئات، كانت أكبر فضيحة مالية فى التاريخ الإسلامي.

ولكن، الغريب، أنه بالرغم من الخسارة الجزئية لإحدى أبرز الأذرع المالية للحركة لم يظهر له إلا أثر عابر على وجوه التوسع الاجتماعية والسياسية الأخرى. كان هناك تكاثر للمؤسسات الاجتماعية الإسلامية الخيرية بما فيها مراكز تقديم الرعاية اليومية للأطفال والمستشفيات والمدارس: ولكل المؤسسات ذات التأثير الإسلامى على وسائل الاعلام والفنون والمحاكم. كانت الجماعات الإسلامية ومازالت تسيطر على الكثير من الاتحادات العمالية والطلابية والنقابات من بينهم نقابة المحامين والأطباء والصيادلة والمهندسين . وفى انتخابات عام ١٩٨٧ البرلمانية دخل الإخوان تحت لواء حزب العمل الاشتراكي، ورغم أن الانتخابات كانت تحت سيطرة الدولة بصورة كبيرة فإنهم فازوا بنحو ٢٠٪ من المقاعد، مما جعلها قائدة للمعارضة البرلمانية لنظام مبارك، حتى قاطعت الانتخابات التالية فى عام ١٩٩٠.

وقد رأى كثير من المراقبين أن الإخوان المسلمين كانوا قد فقدوا الكثير من الأرض لصالح الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد. وفيما يخص النصح والإرشاد الديني، فقد اتبعت تلك الجماعتان والجماعات المسلحة الأخرى تعاليم الشيخ عمر عبد الرحمن.

ولد الشيخ عمر عبد الرحمن فى مايو عام ١٩٣٨ من أسرة فقيرة فى دلتا النيل، وتحديدا فى محافظة الدقهلية. وفقد الشيخ بصره فى الشهر التاسع من عمره بسبب داء البول السكري، وكانت لديه اختيارات قليلة بالإضافة للدراسة الدينية، والتى كانت تعتمد على الاستظهار والحفظ. حفظ الشيخ القرآن وهو فى الحادية عشرة من العمر بمساعدة نسخة من القرآن

مكتوبة بطريقة برايل. حصل الشيخ على شهادة الماجستير بامتياز من كلية أصول الدين، وذلك في عام ١٩٦٥، وبعدها بدأ يجاهر بارائه فى السياسة الإسلامية، ولكن اتجاهاته كانت معتدلة وكانت عبارة عن نشرات مكتوبة ومحاضرات عن القرآن. ثم فى عام ١٩٦٧ عندما أكمل نصف رسالة الدكتوراة فى موضوع التشريع الإسلامى فى جامعة الأزهر. كان العالم العربى يعانى الذل ومرارة الهزيمة فى حرب الأيام الستة أمام إسرائيل. كان للهزيمة أثر بالغ فى نفس الشيخ فتغيرت أفكاره بصورة ملحوظة وغريبة. وقد قال لى زميل للشيخ وهو الآن مدرس فى الجامعة «ربما كانت أفكاره تلك وتطرفه موجودة على طول الوقت». «ولكنى رأيت فيه عنفا وفى لغته فظاظة لم أعهدهما فيه من قبل، فقد كان دائما ذكيا متوقد الذهن وطموحا بصورة كبيرة ولكنه تحول الآن إلى متطرف بصورة كبيرة».

حصل الشيخ على إجازة للبحث وإكمال رسالة الدكتوراه. وبناء على توصية من الأزهر– كمرشح لنيل شهادة الدكتوراه فقد تم ترقيته إلى درجة شيخ وإمام – تم تعيينه فى قرية مغمورة فى الفيوم تدعى فيديمين تبعد نحو ساعة جنوب غرب القاهرة. وفى خلال سنتين فقط كان الشيخ قد حول فيديمين – ومعها الكثير من بقية مناطق الفيوم – إلى قلعة وحصن للإسلام السياسي. كان يسافر من مسجد إلى مسجد يلقى خطبا ملتهبة وموجهة وبصورة حصرية ضد «الفرعون» «المرتد» «الكافر» والذى كان واضحا أنه لا يمكن أن يكون إلا عبد الناصر. كان ناصر بالفعل قد قمع الإخوان المسلمين ولكنه كما أخبرنى أحد الشيوخ كان قد أبدى صبرا كبيرا فيما يخص «هذا الشيخ الشاب المتهور المغرور». تم إيقاف الشيخ من ممارسة مهام منصبه التعليمى عام ١٩٦٩، وتم القبض عليه فى السنة التالية فى وقت وفاة عبد الناصر، عندما حرض الناس فى قرى الفيوم وحذرهم من الدعاء لرئيسهم. وتم سجنه بدون توجيه اتهام له لمدة ثمانية أشهر.

بعد إطلاق سراحه كرس الشيخ حياته لإنهاء رسالة الدكتوراه والحصول عليها ولإنجاب ورثة له. (لدى الشيخ الان زوجتان وابنة واحدة وتسعة أبناء). كانت سنة ١٩٧١ آخر سنة له فى الأزهر وقد برهنت على أنها نقطة تحول فى حياته. فقد كان السادات قد جاء إلى السلطة فى تلك السنة بلا قاعدة سياسية تدعمه سوى الجيش، وكان قد تحول إلى الحقوق

السياسة – وبصفة خاصة الحقوق الدينية. ومرة أخرى تتحد المؤسسة الدينية والجيش ويرتبطان معا. لذا ففى العام ١٩٧١ وعندما قدم الملك السعودى فيصل دعما للأزهر بتوصية ودعم من السادات بمبلغ مائة مليون دولار باسم شيخ الأزهر الشيخ عبد الحليم محمود من أجل شن حملة ضد الشيوعية والإلحاد ولنصرة الإسلام،أظهر هذا الاتفاق إن الوجه السياسى لمصر قد تغير وتحول. كان الشيخ عمر أحد تلامذة الشيخ عبد الحليم الواعدين النجباء. كانت هناك حملة دعائية كبيرة فى مصر كلها: تمت كتابة وإصدار كتب جديدة وبناء مساجد جديدة: وتم تجنيد الطلاب. وفى خلال سنة وأحدة تم إرسال الشيخ مرة أخرى إلى الفيوم وبعدها إلى صعيد مصر، إلى المنيا فى البداية ثم إلى جامعة أسيوط فيما بعد وذلك فى أبريل من العام ١٩٧٣. كأستاذ للشريعة وأصول الدين، وبدأ فى اقتباس وتدريس التعاليم المتطرفة للشيخ المصرى سيد قطب والباكستانى أبو الأعلى المودودي، والتى تعد المرجع الأساسى اليوم لكل الجماعات الإسلامية المسلحة. وكان الشيخ سيد قطب عضوا فى جماعة الإخوان المسلمين وخدم كوزير للتعليم فى العهد الناصرى ولكنه حوكم وتم إعدامه عام ١٩٦٦، فى علاقته بمؤامرة فاشلة لقلب نظام حكم عبد الناصر. أما المودودى فقد كان قائدا للجماعة الإسلامية فى باكستان، وهى قريبة فى أفكارها من الإخوان المسلمين وقد تم الحكم عليه بالإعدام عام١٩٥٣ . (ولكن تم العفو عنه فيما بعد ومات فى الولايات المتحدة عام١٩٧٩). وكلاهما تم اعتباره من شهداء الإسلام.

خلال التسع سنوات التى قضاها الشيخ سيد قطب خلف القضبان أبدع كتابا أطلق عليه: «معالم فى الطريق» والذى نقش فيه مقررا أن الجهاد لا يجب أن يشن من أجل الدفاع فقط، حماية للأراضى الإسلامية، ولكن يجب أن يتم بصورة هجومية ضد أعداء الإسلام. واصفا حكم ناصر بأنه حكم جاهلى بربرى مما يبرر أى شكل من أشكال المقاومة ضده، وقد تم تشبيه كتاب «معالم فى الطريق» لسيد قطب بكتاب لينين «ما الذى ينبغى أن يتم فعله» فى تأثيره على الإسلام المسلح فى عالم اليوم.

كان الشيخ عمر جزءا من هذا التقليد الثورى منذ أن كان بالأزهر.

ففى كتابه « كلمة حق»، والذى تم نشره فى عام ١٩٨٧، يتبنى الكاتب أيديولوجية مناصرة إسلامية : من أجل استعادة الخلافة، والتى تم القضاء عليها وإلغاؤها عن طريق الزعيم التركى مصطفى كمال أتاتورك عام ١٩٢٤بعد تفكيك الإمبراطورية العثمانية عقب الحرب العالمية الأولي: بتنفيذ وتفعيل الجهاد فى البؤر الإسلامية الساخنة التى تعانى من مشاكل واضطرابات: وبالتطبيق الكامل للشريعة الإسلامية. وعارض بقوة وبشدة وبصراحة معاهدة كامب دافيد للسلام بين مصر وإسرائيل وانفتاح مصر الاقتصادى على الغرب: ودعى بدلا من ذلك إلى الاعتماد على المصادر المحلية والاكتفاء الذاتى رغم أنه لم يعارض الاستعانة بالعلم الغربى والتكنولوجيا الغربية.

فى عام ١٩٧٦بدأ الإسلاميون فى أسيوط وضواحيها فى تكثيف أنشطتهم ضد حكم السادات، لم يعد الشيخ عمر يظهر بمظهر المرن سلس القيادة ولا لين العريكة،الرجل المتواضع الذى تم إرساله إلى أسيوط كمبعوث أكاديمى وممثل للأزهر. كان أنصاره قد كثروا، بصورة تدعو إلى الغرابة بعض الشيء، وكان معظمهم من بسطاء الشعب والطلاب الغاضبين وأساتذة الشريعة وعلوم الدين. كان قد ظهر على أنه قائد الجماعة فى صعيد مصر، ورغم أن الجماعة كانت مجرد وليد صغير حديث العهد، جماعة مبنية على النشطاء الإسلاميين داخل الجامعة، والتى كانت حتى ذلك الوقت تحت سيطرة الحكومة بصورة مطلقة فى القاهرة، بدا نظام الحكم يصعدٌ من حذره. كان السادات قد بدأ يتخذ إجراءات صارمة. وبدلا من أن يجعل نفسه تحت رحمة الحكومة أو ضحية للقمع فإن الشيخ عمر، الذى أصبح الرئيس الأعلى، الذى لا يسأل، للإسلام السياسى فى صعيد مصر، رحل إلى المملكة العربية السعودية. وهناك انضم إلى كلية البنات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فى الرياض.

خلال السنوات الثلاث التى أعقبت ذلك سافرالشيخ إلى كل دول الشرق الأوسط. وبعين ثاقبة تنظر إلى المستقبل، قام الشيخ بعمل وزرع صداقات أدت فى النهاية إلى تكوين شبكة دعم دولية لأنشطته، فأنشأ محورا يربط أفغانستان وباكستان والسودان. لقد أثبت أيضا خبرة عالية ومهارة فائقة فى استغلال الانقسامات السياسية داخل المؤسسات

السعودية. كانت طريقته، كما وصفها لى أحد الدبلوماسيين العرب الذين تعاملوا معه فى تلك السنوات، «جذابة وخادعة خطيرة وازدواجية. كان لدى الشيخ حس عالٍ بالتوقيت المناسب لخطواته. كان يوجه نقده القاسى حتى يبلغ احتمال السعوديين مداه، وعندها وبسهولة فائقة ويسر مساو يكبح جماح نقده . النقطة الرئيسة هى أن الرجل سياسى وليس داعية إسلاميا. فقد كانت كتاباته الدينية وخطبه ضحلة، على حد علمى ومعرفتى . ولكنه استطاع السيطرة على خيال الجيل الجديد. ربما يكون أفضل ما يمكنك أن تصفه به هو أنها كانت شعبية».

بينما كان الشيخ فى المملكة العربية السعودية التقى الدكتور حسن الترابى القائد المثقف الواسع المعرفة للجبهة الوطنية الإسلامية فى السودان، والذى يعتبر الآن الرجل الأقوى فى السودان. (فى ديسمبر ١٩٩٠ تأسست حكومة إسلامية قوية فى السودان وكانت الجبهة تسيطر على الحكومة بصورة كاملة) كان الشيخ عمر والترابى لديهما أشياء كثيرة مشتركة وسرعان ما أصبحا صديقين. وتوطدت صداقتهما أكثر إبان أحداث عام١٩٧٩. معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية: الاجتياح السوفيتى لأفغانستان والثورة الإيرانية. كان العالم العربى فى حالة من الثورة والهياج وكانت مصر مهددة بنفس النوع من النزاع والخلاف السياسى والاجتماعى والاقتصادى المحتمل الكامن الذى سيطر على إيران قبل خلع الشاه. بسبب معاهدة السلام التى وقعتها والتى جعلتها تقف وحيدة فى وسط عالمها العربي. عاد الشيخ عمر عبد الرحمن إلى مصر فى السنة التالية. وكان قد جمع أموالا طائلة – عبر ما أشار إليه بعض المراقبين وأطلق عليه « الريال السياسى أو السياسية الريالية» فى إشارة لما أغدقته السعودية من أموال وافرة وبدون قيود ولا تمييز على الجماعات الإسلامية المتباينة والمختلفة –وذلك لمقاومة وتحدى الأزهر والمؤسسة الدينية التقليدية. لم يبد الشيخ إضمارا لهدفه الأساسى ولم يخف نيته والمتمثلة فى : الإطاحة بالحكومة المصرية وإقامة دولة إسلامية ثيوقراطية.

من غير المعروف على وجه الدقة أين كان الشيخ عمر عبد الرحمن عندما قتل السادات. ولقد تم القبض عليه قبل ذلك بشهر خلال حملة الاعتقالات الكبرى التى قام بها

أمن السادات، وجمع كل خصومه وألقى بهم فى السجون. ولكن قبل اغتيال السادات وفى ظروف لم يستطع أحد أن يشرحها لى، تمكن الشيخ الأعمى من الهرب. هل عاد بعدها إلى أسيوط والتى سبق وأن أسس قلعته فيها وكانت قاعدة سلطته وتحت سيطرته؟ وهل شارك فى الانتفاضة التى اندلعت فى أسيوط بعد موت السادات؟ (تلك الانتفاضة التى كانت دموية بصورة مفرطة وخلفت وراءها أكثر من مائة قتيل من رجال الشرطة والتى كانت تقودها الجماعة الإسلامية).

فى الصور التى نشرتها الأخبار فى ذلك الوقت للمحاكمة التى كانت منعقدة لمحاكمة الأربعة والعشرين المتهمين بتدبير وتنفيذ عملية اغتيال السادات، كان يظهر الشيخ عبد الرحمن بصورة الأب الرقيق الرحيم بينما كان جالسا فى القفص العملاق المخصص للمتهمين بطول أحد جدران المحكمة. كان من السهل تمييزه بزيه الأزهرى وشارته الأزهرية أيضا. كان يتحدث عبر الكثير من الإجراءات هامسا بشىء ما فى أذن خالد الإسلامبولى والذى كان يجلس على يمينه: أما المتهمون الآخرون فقد كان الصمت يخيم عليهم أو يؤذنون للصلاة بين الفينة والأخري.

ولمدة اثنتى عشرة ساعة ظل الشيخ، الذى كان الشيب قد بدأ يدب فى لحيته، يدلى بشهادته أمام محكمة مبارك العسكرية المكونة من ثلاثة قضاة، منكرا أن يكون قد أصدر فتوى تحلل اغتيال السادات.

« هل يجوز شرعا سفك دم حاكم رفض الحكم بشرع الله؟» وجه له أحد القضاة هذا السؤال بينما كان الشيخ عمر واقفا أمام المنصة.

رد الشيخ « هل هذا سؤال نظري؟».

وقيل له إنه هكذا، ورد الشيخ أن هذا الدم يجب أن يسفك.

فسأله القاضى «وماذا عن السادات؟ هل كان قد عبر الخطوط ووصل إلى الكفر؟».

تردد الشيخ ورفض الإجابة.

وكان هذا طبقا لمحامى الدفاع هو جوهر القضية. لا مكان فى إجابة الشيخ - كما لو كانت حقيقة أنه أصدر تلك الفتوى - لم يكن هناك أى ذكر لأى اسم محدد. صفق له أتباعه ومريدوه على ألمعيته وحساسيته وقابليته.

تمت تبرئة الشيخ ليس فقط من تهمة اغتيال السادات ولكن أيضا فى تهمة أخري، كان قد وقف متهما بها ومعه ثلاثمائة أخرون وهى القيام بتشكيل تنظيم الجهاد، والتآمر لقلب نظام الحكم والإطاحة بالحكومة. رغم ذلك فقد قضى الشيخ نحو ست سنوات خلف القضبان أو رهن الإقامة الجبرية، وذلك فى الثمانينيات. فى عام ١٩٨٥قام بأول زيارة له إلى بيشاور. المدينة الباكستانية الصغيرة الترابية على الحدود بالقرب من ممر خيبر والتى كانت تستخدم كمنطقة تجميع للحرب فى أفغانستان. من السهل أن تتخيله وهو فى بيشاور، حيث إننى عندما كنت هناك وجدت سيلا لا ينقطع من زيارات رجال الدين والشيوخ والملالى والمجاهدين والجواسيس متجولين فى طرقها الضيقة ودعاة، بالتداول أو التناوب، فى المكاتب التابعة للسبع مجموعات الرئيسية التى كانت تحمل لواء المقاومة فى أفغانستان. رغم أن تلك الجماعات كانت تتناحر فيما بينها لسنوات، كانت لم تزل، على اتصال وحوار دائمين فيما بينها، منسقة الجهد والعمل العسكرى داخل أفغانستان. فضل الشيخ عمر أكثر مجموعتين حدة وكرها للغرب وأكثرها تشددا، واللتين كانتا تحت قيادة كلا من جلبادين حكمتيار وعبد رب الرسول سياف: كل من الرجلين كانا يتلقيان دعما ماديا سعوديا بوفرة وسخاء. فى خضم الحرب كان حكمتيار المتعصب المتحجر، والذى كان الأفضل لدى الشيخ، والذى كان قريبا جدا من الرئيس الباكستانى الجنرال ضياء الحق- يتلقى ٥٠٪ تقريبا من كمية السلاح التى كانت تقدمها ال «سى آى إيه C I A» للمجاهدين الأفغان. مثل كل تلك المساعدة كانت تتم عبر باكستان.وفى بيشاور - وعن طريق حكمتيار والسياف تم تقديم الشيخ لرجال المخابرات الأمريكان والباكستانيين الذين كانوا يديرون الحرب.

كانت شبرا ذات يوم منطقة ثرية مترفة، كما تم إخبارى، حيث استقرت عائلات يونانية وأرمنية وإيطالية ورجال أعمال أقباط هناك. بينما كنت أتجول عبر شوارعها المتربة، لم أر ما يدل على رخائها ورفاهيتها. ذهبت إلى شبرا بصحبة ممدوح إسماعيل وكان محاميا فى الثلاثينيات من عمره، وكان من مريدى الشيخ عمر ومحبيه بصورة علنية وكان أيضا قد قضى ثلاث سنوات حبيسا معه من ١٩٨١ إلى ١٩٨٤، فى سجن طره، كان فى انتظار المحاكمة ومعه ثلاثمائة آخرون، بتهمة تنظيم الجهاد.وكان ممدوح كالشيخ قد تمت

تبرئته ومعهما ١٨٩ آخرون من المتهمين، وذلك عن طريق المحكمة العسكرية. وهو الآن لا يقوم سوى بالدفاع عن الأشخاص الذين يتم توجيه تهمة الانضمام للجماعة إليهم ويعمل في مكتب القاهرة الخاص بمنتصر الزيات، المحامى الناجح الذى تولى مهمة الدفاع عن الشيخ عمر مرتين، وأتى إلى نيويورك عام ١٩٩١ للمساعدة فى الدفاع عن السيد نصير. كان الزيات هو الذى طلب من ممدوح اصطحابى إلى شبرا وتحديدا إلى مسجد نصر الإسلام، والذى كان يعتبر قلعة الجماعة. كان الخطيب هو الشيخ محمد عبد المقصود والذى كان من أشد منتقدى الحكومة والمعارضين لها وكان، بالمصادفة، مهندسا زراعيا فى مجلس خبراء حكومي.

بينما كنا نشق طريقنا بصعوبة فى الشوارع المنفرة، نحاول بقدر الإمكان، تجنب المجارى المفتوحة والسير فى ممرات ضيقة، مررنا بمقاهى كانت تعج بشباب بلا عمل (ففى مصر يتخرج كل سنة فى الجامعات آلاف من الخريجين حيث لا عمل لهم سوى الجلوس فى المقاهى أو التسكع فى الطرقات). ومررنا أيضا ببعض المكتبات القبطية المسيحية، والتى قام الكثير من القائمين عليها بنزع صور العذراء مريم أو تم إجبارهم على ذلك من على جدران مكتباتهم ومحلاتهم.أشار إلى أحد مراكز رعاية الأطفال الخاص بالجماعة وأيضا لإحدى مدارسهم. كان هناك تقريبا على كل حائط مررنا به وعلى كل بلكونة أو شرفة رأيت الرايات الخضراء البيضاء وشعارات الإخوان المسلمين. « الإسلام هو الحل». كما كانت تقول الإعلانات. بدا وكأنهم فى حالة الثقة الحالية التى كان الإخوان يتمتعون بها.

كنت قبل أيام قليلة قد سألت دبلوماسيا غربيا عن مدى الخطر الذى تشكله الجماعات الإسلامية، وأجاب «إنهم لا يشكلون خطرا على النظام – على الأقل فى الوقت الحالى – ولكن لو استمرت كل القوى السلبية التى تقود هذه الحركة بدون ضبط أو تعديل لمدة اثنى عشر شهرا إلى ثمانية عشر شهرا، فلن أعرف ماذا سوف يحدث». ولكن هناك سؤالين مهمين هما ما يجب أن نسألهما وهما : إلى أى حد يرتبط الإخوان المسلمون بالجماعات الإسلامية السرية المسلحة؟ والسؤال الحقيقى المهم هو: إلى أى حد تمكن الإسلاميون من استقطاب واختراق واستمالة القوى المسلحة إليها، وبخاصة الجيش؟ فالحكومة تبدى قلقها الشديد

لما يجرى فى صفوف الجيش وبخاصة فى الرتب الأقل من رتبة ضابط. هم يقظون جدا حاليا واليقظة تخبرنى أن هناك شيئا مقلقا.

بينما كنت أنا وممدوح نقترب من المسجد سألته عن رأيه فى الإخوان المسلمين.

« إنهم شيء من الماضي، كان زمانهم فى الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات. أما الآن فهو زماننا نحن» وبسرعة أعلمنى أن أغطى رأسى وعلى الفور فعلت».

نظرت للأمام وحتى قبل أن نصل إلى المسجد رأيت مجموعات من رجال الأمن الذين كانوا يعملون فى جهاز المخابرات. أتوا فى كل حجم وشكل: بعضهم كان مرتديا الزي، والآخرون فى ملابس مدنية. وشكلوا معا متاريس لستعمرة عسكرية واسعة فى محيط مسجد نصر الإسلام.

بدا لى أن حضورهم الكثيف ليس له إلا قليلاً من الأثر على المصلين - كانوا نحو سبعمائة فرد - المصلون الذين ملأوا المسجد وتدفقوا إلى الشارع. كانوا يحملقون بتحد فى الضابط المسئول، وكان الضابط أيضا يرد على نظراتهم بنفس التحدي. كان الضابط مزعجا وكريه الطلعة وكان يرتدى معطفا أسود من الجلد وممسكا بجهاز لاسلكى .

أخبرنى ممدوح أن معظم المصلين قد تم سجنهم وتعذيبهم والقليل منهم فقط تم تقديمهم للمحاكمة. « ففى ظل قانون الطوارئ المصري، القانون سارى المفعول منذ اثنى عشر عاما، منذ اغتيال السادات، يمكن القبض على أى شخص واحتجازه بلا سبب ودون محاكمة.» كان يمكن أن يقضى العديد منهم حياته فى السجن». «فى حينه تم القبض على نحو ستة آلاف من الإسلاميين، وكانت منظمة العفو الدولية قد اتهمت الحكومة المصرية بأنها أعطت البوليس رخصة رسمية بقتل كل المسلحين المشتبه بهم مع وعد بعدم محاكمتهم».

أخبرنى ممدوح أنه قبل أسبوعين قامت قوات الأمن المركزى ومعها عشرون سيارة ناقلة جنود بغلق تلك المنطقة وتفتيشها، ونتيجة لتلك الحملة تم القبض على نحو مائتى رجل. كان من بينهم الصيادلة والمحامون والتجار وتجار المخدرات وولد عمره تسع سنوات لأب هارب من أعضاء الجماعة. بين صفين من العمارات المتهالكة العالية جلس المصلون فى صفوف مستقيمة: كان بعضهم يرتدى ملابس غربية عبارة عن جينز وجاكيت

والآخرون فى الزى الإسلامى (الجلباب الأبيض وغطاء الرآس). لاحظت أن هناك ما يقرب من عشرين فى الزى العسكرى الخاص بالجيش. عندما بدأ صوت المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة أحضر لنا رجل يرتدى جلبابا رماديا ونظارة، مقاعد مستقيمة الظهر وجلسنا فى زقاق مجاور بالقرب من المصلين، منصتين لصوت الشيخ محمد عبد المقصود القوى المتصاعد، الذى كان يطالب بالتطبيق الفورى للشريعة الإسلامية.

سألت الرجل ذا النظارة « كم يتقاضى الجندى المجند؟».

أجاب قائلا «نحو اثنى عشر دولارا شهريا». نظر إليّ أحد الجنود بين المصلين وابتسم.

صرخ الشيخ عبد المقصود وهو يخطب فى المصلين «الديكتاتوريون كفرة! سيحرقون فى نار جهنم!» لم يذكر مبارك بالاسم ولكن الجميع كانوا يعرفون من المقصود. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ما معناه أن من يسىء استخدام السلطة ليس بمسلم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾.

قال الشيخ لائما جموع المصلين. سألت محمود « هل كانت تلك العبارة فتوي؟» ورد أنه غير متأكد.

كان هناك ولد يقود رجلا أعمى من بين المصلين، كان الرجل يرتدى جلبابا رماديا وممسكا فى يده بعكاز ولديه لحية بيضاء. كان واحدا من بين القلة القليلة من المصلين الذين بدا وأنهم تجاوزوا الأربعين. وبينما كنت أجول ببصرى بين المصلين الملتحين كنت أتساءل ترى من ينتمى منهم للجماعة، ربما جميعهم ينتمون إليها. لأنه ومنذ أن كنا نعيش فى مصر والسنوات التى تلت ذلك ومنذ أن كان الشيخ عمر عبد الرحمن يقود الجماعة من جامعة أسيوط، كانت الجماعة قد امتدت خارج أسوار الجامعة، وأصبحت الآن متمثلة بقوة فى النقابات واتحادات العمال والمستشفيات والمحاكم وبين المحامين. ليس هناك من بين من تحدثت إليهم من رغب فى تقدير عدد المنتمين للجماعة، ولكن هناك تقديرًا متفقًا عليه من الدبلوماسيين الغربيين أن عدد المنتمين للجماعة يتراوح بين خمسين إلى مائة ألف عضو منتمين فعلا للجماعة ويؤمنون بأفكارها واتجاهاتها، ومستعدين للعمل من أجل تحقيقها وأن عدد المتعاطفين الذين يقدمون نوعا من أنواع الدعم يمكن أن يكون ضعف هذا العدد.

كلما أتعمق فى دراسة الحركة كلما ظهرت المفارقات بصورة واضحة ومدهشة وصادمة. أذهلت الأوساط الرسمية المصرية فبدت فى حالة ضياع وعجز عن كيفية الرد. لذلك، فكل جهد بذل لكسرها ولمقاومة فتنتها وإغرائها – سواء كان عن طريق القمع والقهر أم عن طريق تنظيم حملة قوية وكبيرة لإظهار أن حكومة مبارك أكثر إسلاما من النشطاء الإسلاميين– باءت كلها بالفشل. فى الواقع أن كل طريق سلكته الحكومة بدا وكأنه نجح فقط فى تقوية قبضة الإسلاميين. أخبرتنى سيدة وقور فى حجرة دراستها ذات مساء أنها تعتبر الجماعة أكثر شبها بـ«روبن هود» العصر الحديث (Robin Hood) وأن خالد الإسلامبولى أصبح بطلا شعبيا بعد اغتياله للسادات.

عندما انتهت الصلاة فى مسجد نصر الإسلام فى شبرا انضم إلينا ما يقرب من دستة من الرجال وقام ممدوح بتقديمى للجميع. سألت أحد الرجال لماذا تحول الكثير من الشباب إلى الإسلام السياسي؟

أجاب قائلا «إن الشريعة الإسلامية فقط هى التى ستخلصنا من الفساد».

ورد آخر «كلما كثفت الحكومة من ضغطها على الشباب كلما ازداد الشباب ثورة ورفضا».

« كلما كثفوا من ضغطهم وقمعهم على الدين والمتدينين كلما ازددنا قوة»

بينما كان الآخرون منخرطين فى حديثهم اقترب منى رجل نحيف وقف بهدوء بجانبي. أخيرا، أخبرنى أن اسمه أحمد، وعمره خمسة وعشرون عاما، وأنه كان يعمل فنى تكييفات. وكان يعيش مختبئا وكانت ملابسه عبارة عن بنطلون أسود بال وقميص أخضر مهدل بلا هندام. من المؤكد لم تكن تبدو عليه أوجه شبه مع الإرهابيين الفارين، ولكنه كان قد تقوى عبر السنتين اللتين كان قد قضاهما فى السجن، وضعف هذا العدد من السنوات سرا أو مع الجماعات السرية.

كل ما فعله فى البداية كما أوضح لى أنه كان يوزع منشورات تحض النساء على ارتداء الحجاب. «اتهمونى بأننى زعيم وقائد لثورة» واستمر قائلا «تم سجنى وتعذيبى لمدة أربعة أشهر فى سجن طرة عام ١٩٨٨. وبعدها أحضروا أمى وعذبوها أمامي».

انضم إلينا الرجل ذو النظارة الذى كان قد جلب إلينا المقاعد عند وصولنا فى البداية وسألته عما يعتقد : لماذا تحول الكثير من الشباب إلى الإسلام السياسي؟ فأجاب قائلا «إن كل قادتنا منذ ثورة يوليو ١٩٥٢ – ناصر والسادات وحسنى مبارك – داروا بنا فى كل الاتجاهات وجربوا كل النظريات لدرجة أن الناس فى مثل عمرى لم يعودوا يعرفون ما إذا كان السد العالى مشروعا عظيما ومفيدا أم أنه عديم الفائدة وضار، وما إذا كنا قد انتصرنا فى أكتوبر أم أننا هزمنا. خذلتنا الاشتراكية فى العصر الناصرى والرأسمالية فى عصر السادات. أما الإسلام فهو الوحيد الثابت والمخلص والوفى، ويظل باقيًا هكذا « الإسلام هو الحل».

فكرت فى السيدة بينيبيكر التى كانت تقول دائما: إن ثورة ١٩١٩ ما زالت مستمرة. فكرت أيضا فى ذلك المساء البعيد من يوم الجمعة عندما قمت لأول مرة بزيارة أحد المساجد المجاورة واستمعت إلى صوت الشيخ اللاهب للمشاعر وكان صاحبه هو أحد المهندسين الزراعيين الذى تلقى العلم فى أمريكا، وهو يبشر بالثورة القادمة. استيلاء الضباط الأحرار على السلطة فى عام ١٩٥٢، أدى إلى رحيل بريطانيا وتنازل الملك : وتبنى الثورة أيضا لقوانين الإصلاح الزراعى الطموح. ولكن هل كانت ثورة بحق أم هى مجرد انقلاب؟ إن التركة التى تركتها لمصر فهى أنها واحدة من الدول المؤمنة بالقومية العربية والداعية إليها وأكثر الدول احتراما وكبرياء حتى هزيمة ١٩٦٧. ولكن ظلت إنجازات الثورة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية محل نقاش وجدال كبيرين.

بينما كان محمد يتناقش مع أصدقائه، كنت أراقب أحد المصلين يغادر المسجد ويتوارى فى أزقة شبرا، حيث كانت الشمس قد مالت للمغيب وبدأت تتوارى خلف أسطح المنازل. عندما فرغ المسجد تماما تحدث ضابط المخابرات المسئول فى جهاز اللاسلكى وبعدها ركب سيارته المرسيدس السوداء وانطلق مغادرا. لم يكسر الصمت المخيم على المكان سوى صوت احتكاك إطارات سيارته بالأرض، وأصوات المؤذن ونباح الكلاب التى كانت تتناهى إلى أسماعنا.

قام رجل عجوز يرتدى جلبابا أبيض متسخا وغطاء رأس أبيض وأغلق باب مسجد نصر الإسلام، وفيما أنا أراقبه وهو يغرب بعيدا خطرت ببالى فكرة صادمة لى مفادها أن الصراع فى مصر ليس دينيا فقط، كما يدعى بعض الإسلاميين، ولكنه صراع -ليس مختلفا عن الحرب الأهلية فى لبنان- بين من يملكون ومن لا يملكون، بين الأغنياء والفقراء. إنها معركة تتلخص فى معظمها بين الفقر والغني، بين السلطة المستحوذ عليها والسلطة المطالب بها.، كما أنها كانت بين عقائد ومذاهب سياسية أو دينية. ولقد اقتنعت أن الفاعلية الإسلامية فى مصر هى فى أصلها ظاهرة اجتماعية اقتصادية، وهى دنيوية بمعنى ما. وإلا ما كان قد انضم إليها الكثير من الماركسيين واعتنقوها.

بينما كنا أنا وممدوح واثنان آخران قد انضما الينا نعود أدراجنا سائرين فى شوارع شبرا الضيقة تذكرت شيئا كان قد قاله منتصر الزيات الليلة الماضية. «المشكلة فى الصحافة هى أنها فى كل مرة تذكر الجماعة الإسلامية يكون عن أخبار هجوم - على أتوبيس سياحي، إطلاق نار على الشرطة، ولكن تلك نسبة ضئيلة مما تفعله الجماعة. ماذا عن آلاف المؤسسات الممولة إسلاميا والتى تحت سيطرتهم من عيادات ومستشفيات ومدارس؟».

والآن بعد زيارتى لشبرا فهمت وجهة نظره. لقد بنى الإسلاميون تحت قيادة الإخوان المسلمين نظاما اجتماعيا خيرا منافسا للدولة. مؤسسات موازية صحية واجتماعية وتعليمية خيرية قدمت وتقدم خدماتها والتى تفوق فى بعض الأماكن تلك التى يتم تقديمها من مؤسسات الحكومة.

جاءت نقطة التحول عند بعض المصريين عام ١٩٩٢ . عندما ضرب زلزال مدمر القاهرة، حيث أودى بحياة ما يقرب من ستمائة شخص، وجرح الآلاف وفقد آلاف منازلهم. فى خلال ساعات قليلة كان الإسلاميون موجودين فى الشوارع، يمدون المواطنين بالبطاطين ومساكن الإيواء والخيام بينما كان رجال حكومة مبارك فى مكان ما حيث لم يرهم أحد. تزامنا مع سقوط كل أيديولويجية تم اعتناقها بواسطة السياسيين والمفكرين المصريين منذ تحول الدولة، فإن عجز الحكومة، أكثر بكثير من مسدسات الإرهابيين وتفجيراتهم وقنابلهم، هو الذى يغذى الشعلة الإسلامية بالوقود .

وافق الدكتور محمد عبد المقصود الشيخ المحبوب فى شبرا على لقائى بعد ظهر يوم فى مكتب منتصر الزيات المحامى. وقال إنه ليس من الحكمة أن يقابلنى فى مسجد نصر الإسلام.

كان الشيخ رجلا طويلا أحدب يعرج فى مشيته، وكانت لحيته الطويلة السوداء قد دب فيها المشيب . كان يرتدى جلبابا أسود وغطاء رأس أبيض، وكان يمسك بالقرآن بين يديه، ثم وضعه برفق على المكتب أمامه. طلبت منه أن يقول لى شيئا عن نفسه وعن معتقداته وما يؤمن به.

قال إن عمره خمسة وأربعون عاما وأنه حاصل على شهادة الماجستير فى العلوم من جامعة القاهرة، والدكتوراه فى الزراعة من جامعة الأزهر. «كنت نشطا وفاعلا أيام الدراسة ومهتما بأنشطة الطلاب السياسية وتم اعتقالى عدة مرات. وأنه لم يحدث حتى الآن أن رأيت انتخابات عادلة ونزيهة فى هذا البلد إطلاقا».

استمر الشيخ فى حديثه قائلا: إنه كان معجبا جدا بعبد الناصر، ولم يدهشنى ذلك كثيرا، وذلك لأن عددا كبيرا من الاشتراكيين والناصريين السابقين، بالإضافة إلى الماركسيين القدامى صاروا جزءا من الحركة الإسلامية الآن. كان ريتشارد بى ميشيل (Richard P. Mitchel) الأستاذ بجامعة ميتشجان فى كتابه المهم «مجتمع الإخوان المسلمين» الذى صدر ١٩٦٩، يتساءل: ألا يمكن أن تترجم الفاعلية الإسلامية وتتحول إلى قومية مصرية؟ وبمرور السنين كانت الإجابة بالإيجاب . لأن الرابطة التى تربط اليمين الإسلامى المصرى واليسار الماركسى ليست بالغرابة التى يمكن أن تبدو عليها. فالحركتان ظهرتا للوجود فى أيام دراستى مشتركين فى معارضتهما لحكم السادات المتسلط، وتشاركا بصورة خاصة فى معارضتهما الشديدة معا لمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية.

وبمرور السنين وجد الإسلاميون، والذين كانوا يتبنون برنامجا طموحا للإصلاح الاجتماعي، وجدوا أن أفكارهم ليست غريبة عن الأفكار الماركسية كما كانوا يعتقدون فى البداية. والماركسيون – أكاديميون ومثقفون ومحترفيون – الذين اعتنقوا القومية العربية والاشتراكية إبان عهد عبد الناصر، وجدوا ضالتهم فى أن يتسلقوا عربة الجماعة الإسلامية لإحداث ثورة فى مصر. أما فكرة إلحادهم من عدمه فتلك كانت فكرة ثانوية.

استمر الشيخ قائلا «بعد موت عبد الناصر، قابلت بعض الإسلاميين: وأصبحت قريبا من الدين والتدين، بدأت أصلى بانتظام وتركت لحيتى تنمو. كانت هناك مثل هذه الثورة فى ذلك الوقت، وأدركت حينها أن ما يجب علينا فعله هو تطبيق ما جاء فى كتاب الله (القرآن) فكل الحلول هناك. لذلك فى عام ١٩٧٧ أصبحت شيخا».

سكت برهة ثم أردف قائلا « الإسلام هو دين الأوقات الصعبة والعصيبة، وتلك الأيام كانت أيامًا قاسية وصعبة جدا. كان السادات قد أخبرنا أن عام ١٩٨١ سيكون عام الرخاء والرفاهية. ظهر فى التليفزيون فى وسط الحقول المزروعة فلفل أخضر بحجم القرنبيط وحوله الدجاج التى ستضع كل واحدة منها مليون بيضة. عندما تم اغتياله فى تلك السنة علمنا أن ديوننا قد تضاعفت إحدى عشرة مرة خلال الإحدى عشرة سنة التى حكم فيها. كان يكذب. أتى مبارك بعده وقال « تلك سنوات صعبة ولكن السنوات القادمة ستكون أفضل». ولم يكن الشيخ الشبراوى يتفق مع ذلك إطلاقا. وبدأ الشيخ الآن فى الصياح انظرى إلى الأشخاص! فى حملتكم الانتخابية عام ١٩٩٢ ظل كلينتون يسأل ويلح فى السؤال « هل الأمور الآن أفضل مما كانت عليه قبل عشر سنوات؟» حسنا لنطبق هذا هنا الآن، وسنرى أن الأمور سارت إلى الأسوأ بصورة بعيدة جدا. وبالنسبة لنا نحن فى الحركة الإسلامية، حتى لو أعطتنا الحكومة خروفا لنأكله كل وجبة، لن نقبل مبارك حتى يحكم بكتاب الله وحتى يعطينا السلطة. أليس من الأمانة والشجاعة أن يكون هناك استفتاء على تطبيق الشريعة. ولكن هذا الحاكم لا يجرؤ أن يفعل ذلك : إنهم خائفون.

رفع يديه لأعلى علامة على الانتصار وابتسم أتباعه الذين كانوا فى صحبته وأشرقت وجوههم.

«نحن نعرف أن الغرب – وخاصة الولايات المتحدة– تركز على ضرب الحركة الإسلامية فى مصر «استمر الشيخ قائلا». فنحن أهم دولة فى الشرق الأوسط، وستتأثر المنطقة بنا. ولو تحولت مصر إلى حكومة إسلامية سيكون أثر ذلك بليغا وشديدا على المنطقة بدرجة أكبر بكثير من الأثر الذى خلفته ثورة الخومينى فى إيران».

اعتذر الشيخ باختصار : فقد كنا فى رمضان واستأذن وذهب لمكتب آخر ليصلى صلاة العصر .

عندما عاد سألته إن كان قد استشعر تهديدا من منظور أن الحكومة حقيقة كانت قد أصدرت قرارا حديثا بعودة كل المساجد وجعلها تحت سلطة الدولة. هل من الممكن أن تسيطر الحكومة على مسجد نصر الإسلام؟

«نعم نظريًا يمكن أن يتم تأميم مسجد نصر الإسلام» رد قائلا: «ولكن الحكومة مترددة جدا فى تلك الخطوة، لأنها يمكن أن تبرهن أنها خطوة فى غاية الخطورة. فإن غلق المساجد الشعبية سيضطرنا لأخذ خطوة جديدة. سنذهب إلى الناس ونخرج بهم إلى الشوارع وسنذهب إلى النقابات والأسواق والاتحادات. سنشل الدولة، تماما كما حدث فى إيران. يمكن أن تكون النتيجة دموية ومأساوية ولكننا نعلم أننا مبررون بأقوال القرآن الكريم.

أخيرا، انتقل الحوار – كالكثير من الحوارات فى مصر– إلى الشيخ عمر والجماعة. سألت الشيخ محمد عبد المقصود أن يقول لى ما الذى شكل قاعدة الشيخ عمر عبد الرحمن الشعبية؟

فأجاب «هناك حديث عن الرسول (ص) يقول الحديث: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان. وهناك الكثير من الناس يحاولون تغيير الأشياء الآن بطرق مختلفة. والشيخ عمر قادر على الجمع بين شيئين : لكونه أزهريا فهذا يعنى أن لديه علما ومعرفة، وكمعارض للبيض الفاسد الجالس فى الأزهر الآن، فهو قادر على توضيح وتفصيل وتوصيل تلك المعرفة. وهو يتحدث بصوت عال ومسموع. إنه يخبر بالحقيقة : وهو لا يتصنع ولا يتكلف. فقد عانى الكثير، بالرغم مما هو معروف جيدا من كونه معاقا» .

سألته « هل هو حقا الشيخ الأقوى والأكثر شعبية هنا؟».

أجاب « هو الأول بين أترابه وبين أناس يشبهونه . إنها من نعم الله علينا، إذ كل الأشياء لا تتركز فى شخص واحد، لأنه لو حدث ذلك ومات هذا الشخص أن تنهار الحركة.

السفير حسين أمين الدبلوماسي والمفكر البارز الذي اتخذ موقفا نقديا ضد المليشيات الإسلامية، لديه اعتقاد راسخ أن مسألة قيام حكومة إسلامية مصرية أمر حتمي لا مفر منه. عندما قمت بزيارته في ذات صباح في بيته المكون من طابق واحد في منطقة هليوبولس المتميزة، سألته أن يشرح لي مبعث هذا الاعتقاد.

قال: «لسوء الحظ أن الإصلاحات الاجتماعية والسياسية لا يمكنها اللحاق بالمد الإسلامي المتصاعد».

« هناك الآلاف من المجندين الذين ينضمون كل يوم للجماعة أو للحركة، الشباب العاطل الذي لا يجد وظيفة، ولا يمكنه الزواج ولا يمكنه إيجاد شقة. بمرور الوقت يمكن أن يحدثوا انقلابا. كيف ؟ هناك ثلاثة سيناريوهات ممكنة. كان وزير الداخلية الأسبق زكي بدر يقول لو مات الرئيس مبارك أو تم اغتياله اليوم، سيتولى الحكم في البلاد ضابط آخر، وليس رئيس مجلس الشعب. ولا يوجد بين ضباط الجيش من له شهرة كافية تضمن له دعما شعبيا إذا لم يقل للناس – وهذه هي المسألة – إنه ينوي تطبيق الشريعة. هذا أحد السيناريوهات الذي يبدو لي محتملا تماما».

«السيناريو الآخر هو الاستيلاء بالعنف على السلطة. فالوضع الاقتصادي والاجتماعي الحالي سيئ جدا لدرجة أن شرارة صغيرة يمكنها أن تشعل صراعا عظيما. أحداث الشغب عام ١٩٨٦ – التي قام بها جنود قوات الأمن المركزي الذين كانوا يطالبون برفع رواتبهم، وخرجوا للشارع واضعين مبارك أمام أكبر تحد لرئاسته – يمكن أن تحدث مرة ثانية، بداية بحادث صغير وضئيل، يمكن أن يتم إجبار الجيش على التدخل بالقوة. ومثل هذا كان يمكن أن يحدث. إلى هنا يأتي دور الناس الذين قد تحملوا وعانوا الكثير» وضع إصبعه تحت ذقنه وقال: «الأسعار في ارتفاع مستمر، والتضخم مرتفع، أحوال الإسكان في حالة يرثى لها. في الواقع إن كل شيء في حالة من التفكك. فلم تكن المائة سنة الماضية بالنسبة لغالبية الناس سوى تجربة مستمرة. لقد جربنا كل شيء من الليبرالية إلى الفاشية إلى الرأسمالية إلى سياسة الانفتاح الاقتصادي في عهد السادات. لم ينجح شيء ولم يتحقق شيء. لذا، الكثير يتساءلون الآن: ما الذي بقي لنا لنجربه، فيما عدا الحل الإسلامي؟ الشيء الوحيد الذي لم نجربه من قبل هو القانون السماوي بدلا من القوانين البشرية».

لقيت وجهة النظر هذه دعما من عدد من أصدقاء أمين وأصحابه المفكرين لذا سألت السفير عما يعتقد.

«هناك مغالطة متأصلة فى هذا الجدل» أجاب: «فى الواقع لم تكن لدينا ديمقراطية حقيقية هنا ولا ليبرالية حقيقية. فقد ارتكبت الاشتراكية الناصرية أخطاء فادحة. وسياسة الانفتاح الاقتصادى فى عهد السادات لم تسمح إلا للأغنياء أن يزدادوا غني. كانت كلها محاولات مشبوهة. وعلى ذلك فقد تولد لدى الأغلبية أن الاقتصاد الإسلامى سيكون هو المنقذ وهذا أيضا اعتقاد خاطئ - لا يوجد مثل هذا الشيء. ستكون هناك رأسمالية واضحة وصريحة تحت حكم إسلامى.

وأخيرا قال السفير وهو متكئ للخلف بكرسيه، «هناك سيناريو آخر وهو وصول الإخوان المسلمين إلى السلطة عبر الطرق السياسية البطيئة والثابتة كالمعتاد. فهم الآن موجودون ضمن التيار الرئيسى للحياة السياسية، ولكن علينا ألا نقع فى خطأ الادعاء بأن الإخوان المسلمين قد نبذوا طريق العنف كلية. عندما يزعمون أنهم جاهزون لتولى السلطة سترى العلاقة واضحة وجلية بين الإخوان والمسلحين. حتى لو كانت علاقة وقتية. فكل جماعة تستفيد من أعمال الأخري: فكل حادث عنف تقوم به الجماعة يجعل الإخوان يبدون وكأنهم البديل المقبول. وأيضا تستفيد الجماعة من جماعات الضغط الإخوانية ووجودها وحضورها المسموح به فى الحياة السياسية حتى وإن لم يكن بصورة قانونية كاملة.

توقف أمين وطلب كوبا من القهوة. والسفير أمين رجل ضخم باش الوجه، وقد كان حديثا يخدم كسفير فى الجزائر، وقد كان هناك عندما استولى الجيش على السلطة عام ١٩٩٢، وألغى الانتخابات لمنع الإسلاميين من الفوز بالانتخابات. استمر أمين قائلا: «إن الإخوان يكسبون أرضا حتى بين زملائه الدبلوماسيين». «وكما تعرفين فإن الأمر جد خطير. فالجميع ينظر إلى الدبلوماسيين المصريين على أنهم صفوة المجتمع، فنحن نتحدث لغات عديدة ومسموح لنا بالسفر للخارج ومعرضون دائما لذلك والاطلاع على العالم الخارجي. ولكن لايمكن أن تتخيلى كيف أن هذا الاتجاه أصبح متزايدا ومتصاعدا داخل وزارة الخارجية. فقد حضرت عشاء فى نادى الدبلوماسيين قبل عدة ليال، وعندما حان وقت صلاة العشاء وسمع الأذان غادر ثلاثة أرباع الحاضرين الحجرة لأداء الصلاة».

الاتجاه الإسلامى متصاعد ومتنام فى صفوف العسكريين أيضا، حتى بين الرتب العالية، ثم ألقى باللوم فى حدوث ذلك على حكومة مبارك والتى فى محاولتها للتأثير على الإسلام السياسى أتخمت الدولة بالدين: فى الصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية. كان لها عظيم الأثر فى خلق شكل جديد «من الإسلام الرسمي».

هز أمين رأسه وقال «إن مبارك هو الذى ساعد تلك الحركات على الاستمرار. لقد قدم تنازلات - وشكل لجنة لدراسة فرض الشريعة الإسلامية. رغم أننى متأكد أنه ليست لديه أى نية لتطبيقها. وكان فقط عندما بدأ المسلحون الإسلاميون فى الهجوم على الأقباط فى صعيد مصر وحرق الكنائس ومحلات الأقباط وقتل المسيحيين فى صعيد مصر، وبعدها الهجوم على السياح والمفكرين عندها فقط تيقن مبارك من حتمية المواجهة الصريحة مع الإسلاميين وهذا ما نشاهده الآن» .

سألت السفير إن كان يمكن أن تتحول مصر إلى لبنان أخرى من وجهة نظره؟

أجاب السفير «من ناحية الصراع بين المسيحيين والمسلمين، لا فلبنان مقسم بالتساوى بين المسلمين والمسيحيين . أما الأقباط فى مصر فهم أقلية لا يمكنها أن تساير الانخراط فى حرب دينية طائفية مع المسلمين. لو حدث هذا سيتم سحق الأقباط فى ساعات قليلة لو حاولوا مقاومة سيطرة الإسلاميين على السلطة، وذلك عن طريق الإسلاميين. ولكن إذا كان السؤال عن حرب بين الحكومة والإسلاميين - فالإجابة نعم تماما. وهاهى قائمة بالفعل والحكومة تعترف أنها تواجه صعوبات فى التعامل معها. فقوات الشرطة ليست بتلك الكفاءة، وهناك أيضا الكثير من الجنود والأعضاء فى الخدمات الذين يرفضون استخدام القوة ضد من يحمل كتاب الله. هناك آخرون أيضا يعتقدون أن الإسلاميين سيصلون إلى السلطة على أى الأحوال، لذا يرون أنه من الأفضل ألا يعزلوا أنفسهم وينتقلوا إلى قوائمهم. ولم يزل هناك آخرون يؤمنون أن القضية لا تستحق منهم الدفاع عن نظام حكم فاسد».

لقد أخبرنى أحد المسئولين الحكوميين أن الإسلاميين قد تلقوا دعما بملايين الدولارات من الحكومة الإسلامية فى إيران، وأن نحو ألفين وخمسمائة من النشطاء الإسلاميين قد تلقوا تدريبا فى معسكرات على الشريط الحدودى مع السودان.

عارض أمين وجهة النظر تلك قائلا: «إن الدعم الذى يحصلون عليه من تلك الدول قليل». «نعم، هناك بعض التدريبات تتم فى السودان وهم أيضا يحصلون على سلاح من إيران. ولكن هذه حركة شعبية وأهلية. كل ادعاءات الحكومة على أنها عكس ذلك ما هى إلا محاولات لإخفاء المشكلة الحقيقية. ولكن لأن هذا يقال فهناك بعض التنسيق العالمى، وإذا أردت معرفة النقطة الرئيسية أو المفصل الرئيسى انظرى إلى السودان وحسن الترابي».

فالجماعة الإسلامية المحظورة والمسموح لها بالعمل كان مقرها الرئيسي، حتى وقت قريب، فى مبنى غير جدير بالاهتمام فى وسط القاهرة مقامًا فى وسط سوق مزدحم لبيع الأطعمة والخضروات وطريق قذر. رموزها وشعارها المرفوع بوضوح على الباب عبارة عن سيفين متقاطعين وقرآن أحمر فى وسط علم أخضر يرفرف .

ظلت جماعة الإخوان المسلمين هى الجماعة الأقوى صوتا بين كل الحركات الإسلامية، وقد أخبرنى الكثير من المصريين خلال السنة الماضية أنها قد أنجزت تقدما ملحوظا نحو هدفها – فى دولة سبعون بالمائة تقريبا من سكانها مسلمون– للاستيلاء على السلطة سرا وخلسة. فهم لم يقيموا فقط هيكلا اجتماعيا قويا ومؤثرا بل إنهم سيطروا على معظم الاتحادات ومنظمات الطلبة والنقابات. إن السؤال المهم فيما يخص الإخوان المسلمين– السؤال الذى يثير غيظ البرجوازيين المصريين المتشنجين والكثير من أصدقائهم الغربيين– هو: هل نبذت جماعة الإخوان المسلمين العنف حقا. فالجماعة تؤكد أنه ليست لديها سيطرة مباشرة على الجماعات الأخرى كالجماعة الإسلامية ولكن هذا الكلام لا يقنع بعض المصريين ولا الغربيين.

استقبلنى نائب المرشد العام مصطفى مشهور، الذى أصبح فيما بعد مرشدا عاما فى عام ١٩٩٦. كان رجلا نحيفا فى السبعينيات من عمره بلحية بيضاء. وكان عالم أرصاد بالوظيفة، يرتدى بدلة ورباط عنق. كان أيضا سياسيا بارزا قضى ما يزيد على عشرين عاما فى السجن . وحتى قبل أن أطرح اية أسئلة قال «كما ترين هناك صراع بين الحركة الإسلامية والاتجاهات السياسية الأخري، ولكنى أستطيع أن أؤكد لك أن الإسلاميين سينتصرون فى المعركة، لأننا شعب مسلم». كان يتحدث بهدوء وجرأة.

سألته « هل يؤمن الإخوان بالثورة؟».

أجاب «لا ونحن لا نتفق مع هؤلاء الناس الذين يستخدمون العنف وينادون بالجهاد. إن استخدامهم للعنف يمكن أن يجهض الحركة ويعرضها للخطر، ويعيدنا سنوات إلى الوراء. لقد عانينا بالفعل ضربات قاصمة لأكثر من سبعين عاما. ولكننا الآن لدينا رهان على مستقبل هذا البلد، ولسنا مستعدين للتخلى عنه. منهجنا التطور التدريجى- ربما يأخذ وقتا - ولكن يمكننا التأكد من النتيجة النهائية. كان يمكننا الاستيلاء على السلطة عبر انقلاب ولكن إذا كانت الأغلبية من الناس ليسوا على استعداد لقبولنا، فما الذى يمكن أن نجنيه أو نكسبه؟ ستتم الإطاحة بنا ببساطة عن طريق انقلاب مضاد» .

رجعت بفكرى إلى الوراء على ذكر كلمة انقلاب. سألته عن القوة التى كانت عليها جماعة الإخوان داخل الجيش؟

تردد ولم يجب مباشرة. ولكنه بدلا من ذلك اختار كلماته بعناية شديدة وقال: «أنا لا أقصد انقلابا إذا كانت الغالبية العظمى من الشعب لا تؤيدنا ونحن ممنوعون من الحصول على السلطة كما حدث فى الجزائر. ليست لدينا كوادر نشطة داخل الجيش ولكننا نعرف الاتجاه العام والمزاج العام لجنرالات الجيش. الجيش متدين فهو جزء من الشعب وهم قريبون من الإسلام وملتصقون به مثلنا تماما».

سألت مشهور عن الأثر الذى يخلفه كون الجماعة لم تزل محظورة؟

أجاب: «حسنا، وبصراحة شديدة، إنه شىء فظيع. نحن نعمل بقدر ما نستطيع فى النور عبر اتحادات الطلبة والنقابات والمساجد. هناك طرق ظاهرة وواضحة ولا تخطئها عين». انتظرته أن يكمل ولكنه لم يقل شيئا أكثر من ذلك.

سألته: «هل الحظر المفروض، الذى أجبر الإخوان على العمل ولو جزئيا بصورة سرية، يعمل لصالح الجماعات الإسلامية المسلحة؟

أجاب: «بالطبع، وكل يوم تظهر جماعات متطرفة جديدة وتقوم بأعمال لا نحبذها. لايحتاجون إلى موافقة حكومية للعمل. ومما لا شك فيه أن الناس يتحولون إلى جماعات العنف بصورة متزايدة، لأنهم شعروا أن جماعةالإخوان غير مؤثرة وغير فاعلة، لأننا

لا نستطيع حتى أن نلغى قرار الحظر». توقف للحظة وبعدها قال: «الحوار بين الحكومة والإخوان بشأن رفع الحظر كان ولا يزال مستمرا «فى شد وجذب» ولكن ببساطة شديدة مبارك رفض الموافقة على تأسيس حزب مبنى على الإسلام، خوفا من أن يؤدى ذلك إلى صراع وخصام بين المسلمين والأقباط المسيحيين».

قال لى أحد الدبلوماسيين الغربيين إن مشهور، والذى كان ينظر إليه بالفعل على أنه الرأس المدبر فى الإخوان، ينظر إليه على أنه الرابط بين الإخوان وأكثر الجماعات أصولية. سألته إن كان ذلك صحيحا؟

أجاب: «فى الوقت الحاضر ليست بيننا اتصالات أو روابط. حاولنا فى الماضى أن نقنع بعضا من هؤلاء النشطاء بأن افعالهم خطأ وطرقهم خطأ وعنفهم خطأ ولكنهم لسوء الحظ لم يقتنعوا. لم نزل نحاول فى هذا الاتجاه هناك حوار دائر بيننا وبينهم فى السجن».

جاء الكثير من الناس ورحلوا ونحن نتحدث بمن فيهم عصام العريان، الباثولوجى البارز والذى كان له صوت مهم وواضح فى البرلمان المصرى عندما كان الإخوان المسلمون يقودون المعارضة من ١٩٨٧ إلى ١٩٩٠، قبل مقاطعتهم الانتخابات التى جرت فى تلك السنة. قبل انضمامه للإخوان كان العريان أميرا للجماعة، لذا سألته إن كان فى إمكانه أن يرتب لى مقابلة مع أحد المحاربين الذين عادوا حديثا من أفغانستان. بدا وكأن السؤال كان مفاجأة له وبعدها رد «إنه أمر مستحيل. هؤلاء الرجال مطاردون. فهم إما فى السجن أو هاربون ومختفون. إنه وضع مقلوب لأحداث فيتنام إلى حد ما. فقد ذهب هؤلاء للقتال فى حرب شعبية. ولكن الآن يتم سجنهم ومحاكمتهم وإعدامهم فور عودتهم».

أخبرنى أحد علماء السياسة الذين درسوا حركة الإخوان المسلمين لعدد من السنوات من قبل،إنه يعتقد أن العنف لم يعد جزءا من سياستهم. رغم ذلك، قال إنه لم يستطع أن يعثر على حالة واحدة قام فيها الإخوان بإدانة ما ترتكبه الجماعة من أعمال عنف. نعم إنها أدانت العنف الحكومى، ولكن لم تدن العنف الصادر عن الجماعه الإسلامية.

فى المساء السابق وفى غضون خمس وأربعين دقيقة من تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك، انفجرت قنبلة فى أحد المقاهى فى ميدان التحرير فقُتل أربعة أشخاص

اثنان منهم من السياح وجرح ثمانية عشر شخصا. سألت مشهور إذا كان الإخوان ضد العنف فلماذا لا يدينون الأعمال الإرهابية، واستخدام العنف من جانب الجماعات كالجماعة الإسلامية مثلا؟

(كان ناطقا باسم الجماعة فى أسيوط قد أعلن مسئولية الجماعة عن الحادث فيما يخص تفجير التحرير).

أجاب: «لقد حزنا وتأسّينا من وقوع مثل هذه الأعمال، وأضاف قائلا: إنها اعمال غير مقبولة ونرفضها».

متي؟

أجاب، «في كل الأوقات».

الآن من أجل التسجيل، هل ستقوم بإدانة تفجير ليلة أمس؟

تردد قليلا ثم قال: « لا نستطيع أن ندين كل حادث على حدة لقد قلناها كلها من قبل».

بينما كان يمشى معى إلى الباب قلت إنى أتساءل إذا لم يكن هناك خطر من اختطاف الحرس القديم فى الحركة الإسلامية كما حدث مع جماعة بنى صدر فى إيران، وذلك عن طريق منافسيهم الثوريين الأشد تطرفا.

أظن أننى لمحت للحظة حزناً على وجهه. ثم هز كتفيه قائلا: « هناك دائما خطر كبير، ولكنى لا أعتقد أنه سيحدث. لأننا عندما نأتى إلى السلطة لن نجعل قيادتنا فى أيدى الشيوخ ولكن فى أيدى المثقفين».

الأزقة الموحلة فى بولاق الدكرور، حى الفقراء الذى يفوح بالعطن، الذى لا يبعد سوى عبور النهر من جامعة القاهرة، ليس أكثر من طرق ناتئة مظلمة تلك التى تشق دروبها بين أكواخ مبنية من الطوب اللبن ومحلات مظلمة ضيقة والدخول إليها هو دخول إلى عالم غير معروف تندر زيارته. لذا من السهل أن تفهم كيف أن مؤامرة قتل السادت تم التخطيط لها هنا ولم يتم اكتشافها .لأنه ليس هناك أى وجود للحكومة هنا : ولا خدمات ولا مدارس ولا بريد ولا محطات إطفاء ومن أجل كل النيّات والأغراض الجميلة لا توجد أيضا شرطة، فسلطات الأمن تنسحب من بولاق بعد أن يخيم الظلام .

كنت قد ذهبت إلى بولاق مع سيدة سأطلق عليها اسم «نادية» لكى أقابل أخاها، وهو عضو فى الجماعة الإسلامية، وكان من العائدين الذين قاتلوا فى أفغانستان. كان قد عاد لتوه إلى مصر وكان فارا، بعد سلسلة من المفاوضات التى لا تنتهى مع الوسطاء وافق أن يرانى فى أحد المساجد المجاورة.

عندما وصلنا لاحظت وجها فى الزحام، شخصًا ضعيفًا نحيفًا بدا وكأنه يعانى من فقر الدم، ربما كان فى العشرينات من عمره . بلحية رفيعة تحد جانبى وجهه ومرتديا جلبابا أبيض، كان يتناول إفطاره حيث إننا كنا فى رمضان. بعد الإفطار أخذتنى نادية إلى فناء المسجد وقدمتنى لأخيها . سأطلق عليه جمال .

أخبرنى أنه كان لا يزال هناك نحو الف مصرى يقاتلون فى الحرب الأهلية بأفغانستان، بمن فيهم محمد الإسلامبولى شقيق قاتل السادات وابنى الشيخ عمر عبد الرحمن الكبيرين . كانا مقيمين فى البداية بصورة أولية فى معسكرين للتدريب خاصين للحزب الإسلامى– وهى المنظمة التى كانت تابعة لجلبادين حكمتيار – على مشارف كابول، ولكنهم كانوا يتحركون بسهولة ويسر عبر الحدود إلى داخل باكستان، وقال : كان مقر منظمتهم فى بيشاور، ومن هناك سافروا إلى مصر عبر السودان وعبروا الحدود المسامية والتى أطلق عليها حصار صحى (cordon sanitaire) .

بعد ثلاثين دقيقة أو ما يقرب من ذلك استأذن جمال وغادر المسجد مع بعض أصدقائه – بمن فيهم الشاب الصغير الذى لاحظته مبكرا – تركنى بلا رقم هاتف وباسم مستعار .

وبعد عدة ليالٍ اصطحبت صديقًا لى من منظمة حقوق الإنسان العالمية إلى ندٍ خاص حديث حيث كنت ذاهبة للحصول على شهادة من شخص كان قد تعرض لتعذيب شديد. فوجئت برؤية الرجل الضعيف الذى سبق وشاهدته من قبل فى المسجد . طلب منى بان أعرفه باسمه المستعار أبو جهينة . قال : «حدث ذلك فى قيادة مباحث أمن الدولة، جردونى من ملابسى ووقفت عاريا معصوب العينين. بعدها أخذونى إلى ما يسمى عنبر العناية ووضعوا أسلاك كهرباء على شفتى وعلى أعضائى التناسلية وعلى أطراف أصابعى . أعتقد أنه كان يوجد معهم طبيب حاضر التعذيب، لأنه بقدر ما أتذكر، كان هناك شخص

يأمرهم عند فترات معينة أن يتوقفوا. عندئذ تم تعليقى حيث تم ربط معصمى يدى بقضبان حديدية فى نافذة مرتفعة وكانت قدماى لا تلامس الأرض . ولمدة ثلاث ساعات وباستجواب على فترات متقطعة كانوا يضربوننى بقضيب من حديد. استمر اعتقالى لمدة ثلاثة عشر يوما . وعندما تم إطلاق سراحى فررت واختبأت.» كان ذلك فى عام ١٩٨٨م واليوم أبو جهينة هو الناطق باسم جماعة الجهاد . سألته إن كان بإمكاننا أن نلتقى ثانيا فوافق .«هنا فى النادى؟» سأل . فلما لمح تعجبى شرح لى ذلك قائلا إن والده عضو فى مؤسسة مبارك .

عبر الأيام التالية التقينا مرتين فى شرفة النادى . بدا لى أنه مختلف تماما عن الرجل الذى التقيته فى مسجد بولاق .فقد كان مرتديا بدلة ورباط عنق، وكان يومئ برأسه منحنيًا لأعضاء النادى حين يمرون. وذات ليلة حدث أن كان يجلس على الطاولة بجانبنا عضو فى مجلس وزراء مبارك. وسمعنا أزيز طائرة فوق رؤوسنا وبعدها ظهرت طائرة هيلوكبتر للعيان فقال أبو جهينة: معلقا بابتسامة «إنها من أجل أمن الوزير».

كان متخرجا فى كلية الاقتصاد جامعة القاهرة. وكان عمره ستة وعشرين سنة ومثله مثل الكثيرين الذين كنت قد استمعت إلى قصصهم، تم تجنيده وجعله أصوليا متطرفا فى السجن، كان غاضبا وصلبًا.

سألته: «هل يعرف والده ؟» أجاب: «نعم» وبسرعة غيّر دفة الحوار بعيدا عن أسرته، قال : «إن جماعة الجهاد والجماعة الإسلامية ما زالتا جماعتين مختلفتين ولكنهما الآن لديهما ثلاث لجان متحدة : لجنة للعمليات، وأخرى للدعاية، وثالثة للتمويل. وكان هو يخدم فى الثانية وقد وصف نفسه بأنه كان يعمل تحت قيادة القائد العام العقيد عبود الزمر الضابط السابق فى المخابرات العسكرية، والذى يقضى الآن عقوبة السجن لمدة اثنى عشر عاما فى قضية اغتيال السادات .قال : «لهذا السبب اخترت جماعة الجهاد». «فقد فضلت كثيرا أن أكون تحت قيادة ضابط عسكرى حارب فى ١٩٦٧ وفى ١٩٧٣ . فهو يعرف كيف يمكن تغيير النظام السياسى بالقوة. كنا نضرب أهدافا من القمة فقط كالوزراء المتحدثين باسم البرلمان والسادات». كان يصف الرجال الذين تحركوا فى نفس الدوائر كما فعل والده.

«ليس لدينا اهتمام بالعمليات الإرهابية البسيطة كالجماعة مثل قتل السياح وأصحاب الرتب الدنيا فى الشرطة. وتلك هى نقطة الخلاف الإستراتيجية العظمى بيننا وبين الجماعة : الجماعة تهاجم من أسفل أما الجهاد فيهاجم من أعلى».

سألته كيف يتم تنظيم الجماعات ؟

قال : «مثل عنقود العنب واستمر شارحا أن الحركة تتكون بصورة أساسية من عناقيد من خلايا مستقلة، بلا رابط بين الخلايا ولكن تحت قيادة شخصية كاريزمية فى القمة . ليس هناك شخص واحد لديه رؤية واضحة عن الشبكة كلها، لم يكن فى الحقيقة ضروريا أن نحسب عدد الجماعات لأن أيديولوجياتهم واحدة فى الأساس : فتكاثر وتوالد تلك الخلايا مبنى بصورة أساسية على الخلافات الشخصية وعلى الحاجة إلى الأمان .القادة الوحيدون الذين كانوا معروفين عالميًا هم العقيد عبود الزمر والشيخ عمر عبد الرحمن».

سألت أبو جهينة عن الشيخ عمر وعن قيمته وريادته للحركة أجاب : « لم يكن لدى الكثير من كوادر الجماعة خلفية دينية ولا تدريب بل كانوا فى ذلك الأمر عكس جماعة الجهاد حيث إن التدريبات التى تتم لتجنيدنا هى أكثر دقة وإحكاما – فإى شخص ينضم لجماعة الجهاد، يجب أن تكون لديه معرفة بالقرآن والنظام الشرعى الإسلامى بصورة كلية كشرط أساسى لانضمامه. ولكن الآخرين يحتاجون إلى مستشار دينى ومرشد لأفعالهم، لذا فهم يتجهون بأنظارهم صوب الناس أمثال الشيخ عمر للحصول على الفتاوى لتبرير وإجازة أعمالهم». وقدم لى مثالا على ذلك: « منذ عدة سنوات، كان لدينا نقص فى التمويل واقترح علينا شخص أن نقتل تجار الذهب ونسلب ممتلكاتهم . ولكن كان هناك جدال على ما إذا كان ذلك العمل مبررا، فسألنا الشيخ عمر عن رأيه وأصدر لنا فتوى . ولكن كان هناك شرط ملزم ومرتبط فحواه إذا كان هذا التاجر يعمل ضد الإسلام يمكن أن يتم ضربه».

فسألته : «الأقباط المسيحيون ؟» أجاب أبو جهينة : «تماما كما قلت» .

بينما كنا مستمرين فى الحديث كان يقبض بأصابعه على نسخة من القرآن . أشعلتُ سيجارة وجلت ببصرى عبر النيل الذى كان متوهجا بالأنوار بينما كانت قوارب صغيرة تطوف حولنا .

قال أبو جهينة : «أنا لا أحبذ التدخين». قال ذلك بنفس الطريقة التى قال بها كل شىء باختصار، وفى جمل قصيرة وبطريقة الواعظ والمرشد وبصورة مباشرة .

سألته إن كان قد حدث وسافر إلى أفغانستان. أجاب أنه لم يذهب قط ولكنه يعرف الأفغان جيدا. «فهم مهرة جدا فى القتال ويعرفون كيف يفخخون السيارات» وبدأ يقهقه. بدا لى فى بعض الأوقات أنه مستفز جدا، سألته «هل تعرف عبد النبى خليفة؟ أجاب «نعم فقد عملنا معا لفترة. كان هو فى وحدة الدعاية وطبع منشورات ضد الحكومة، بداية فى بيشاور. كان هذا كل ما قاله ولكن فى عرف هذا النظام الحاكم لو حدث وأن قمت بزيارة لأفغانستان فأنت عدو للدولة مدى الحياة»[٣] .

كان قد أخبرنى دبلوماسى غربى أن المصادر الأساسية لتمويل الحركات الإسلامية كانت لا تزال المملكة العربية السعودية ودول الخليج - كانت الكويت فقط هى التى علقت تمويلها بعد حرب الخليج - والإخوان المسلمون يملكون قاعدة تمويلية كانت تضم شبكة واسعة من مؤسسات الاستثمار الإسلامية فى الخارج، والتى يقدر رأس مالها الحالى بثمانية مليارات دولار. بالإضافة إلى الإيرادت التى تتدفق عليهم من الإخوان العاملين فى دول الخليج الغنية بالنفط وبصفة خاصة المملكة العربية السعودية . عندما سألت أبو جهينة عن مدى صحة ذلك قال: «لم يكن هذا من اختصاصاتى ولم أكن فى قسم التمويل، ولكنه أكد شكًا كان عالقا وتمت إثارته بواسطة كثير من الدبلوماسيين الغربيين، أن بيشاور كانت تتجلى كقاعدة تنظيمية أساسية للجماعات الإسلامية المسلحة المصرية، وكانت هناك روابط وعلاقات مباشرة من بينها، معسكرات التدريب فى شمال السودان وتلك المعسكرات خارج كابول. تذكرت شيئا كان قد قاله السفير أمين عن زعيم الجبهة الوطنية الإسلامية : « حسن الترابى من أعظم القادة المؤثرين فى العالم الإسلامى السنى اليوم. فهو المنسق العام وهو يقوم بمهمته بكفاءة عالية بحق».

---

(٣) على الرغم من أننى تقدمت مرارا وتكرارا بطلبات من أجل مقابلة وزير الداخلية، أو أى من مساعديه، للرد على تلك الادعاءات، فإن كل محاولاتى جوبهت بالرفض.

كان الشيخ حسن الترابي، بنفس القدر الذى يمكن لأى شخص آخر، قد ورث الغنائم التى قدمتها المخابرات الأمريكية للمجاهدين الأفغان.

لم يكن هناك مكتب سياسى للعالم الإسلامي: وقد كان المثال المساوى الأقرب له هو الخلافة التى تم إلغاؤها والتحول بعيدا عنها بواسطة الزعيم التركى مصطفى كمال أتاتورك مؤسس تركيا العلمانية. ولكن كانت هناك تحالفات إستراتيجية ضمت السودان وباكستان وأفغانستان (وبضمان ودعم من المملكة العربية السعودية) تلك التى كانت قد ظهرت كمحور أساسى لقوى الإسلام المسلح. ومن المفارقة اللافتة للنظر أن هذا التحالف ما كان ليظهر للوجود لولا القتال مدة تقرب من عقد فى أفغانستان. فقد كانت واشنطن والسعودية وجنرالات باكستان وبدرجة أقل جنرالات السودان جميعا لديهم هوس اسمه إخراج الاتحاد السوفيتى من أفغانستان. نتيجة لذلك فقد تدفق الآلاف من الإسلاميين المسلحين من كل أنحاء العالم إلى أفغانستان للحرب فى معركة الجهاد التى شنتها وكالة المخابرات الأمريكية، ومن السخرية المفزعة للغالبية الساحقة من قادة الحركات الإسلامية اليوم،أنهم قد تلقوا تمويلا وتسليحا وتدريبا فى ساحة المعارك الأفغانية من الولايات المتحدة الأمريكية!

كان الشيخ حسن الترابي، ذلك الرجل المثقف الواسع الاطلاع واحدا من أبرز المنظرين لفكرة الإسلام المسلح، وكان يزوِّد المسلحين بمراكز إضافية للتدريب، وأماكن إيواء آمنة، ودعما لوجستيا. فالسودان الذى كان يرأسه تحول ليصبح الدولة الإسلامية السنية الوحيدة فى العالم، حيث تأسس وتأصل فيها حكم إسلامى ثيوقراطى صلب بالإضافة للأسرة الحاكمة الإقطاعية فى السعودية. كنت دوماأجد حضور السعودية فى عالم الإسلام المسلح شيئا غريبا وشاذا. فتمويلها السخى والوفير والذى لم يكن يفرق بين الكثير من الجماعات الإسلامية كان مدفوعا جزئيا باهتماماتها الجيوبولوتيكية، وحربها بالوكالة للتفوق والهيمنة على إيران الشيعية فى الخليج الفارسي: كانت فى رأيى، محاولة جزئية، تعبر عن قصر النظر، أن تشترى حماية نظامها المحاصر واسترضاء الجماعات المتشددة المنتشرة. بنهاية ١٩٩١ كان الأمراء السعوديون والعرش السعودى نفسه يهتزان بقوة بدرجة أخرجتهما عن هدوئهما.

سألت أبو جهينة عن رأيه فى الحكام السعوديين؟

قال « فاسدون» وأضاف: «ولكن هذا لا يعنى أننا سنرفض أن نأخذ أموالهم». نظر حول الشرفة الفخمة التى كنا جالسين بها وابتسم.

عندما التقيت بأبى جهينة للمرة الأخيرة ذات مساء فى نفس النادى سألنى إن كنت أستطيع مساعدته فى الحصول على تأشيرة لدخول الولايات المتحدة. وقد كان بالفعل قد تقدم للحصول على تأشيرة مرتين، ولكن طلبه رفض رغم أنه تقدم بجوازى سفر مختلفين. أخبرته أنى لا أعتقد أن هذا ممكن وودعنا أحدنا الآخر. راقبته وهو يبتعد فى الشارع الخالى من المارة؛ شخصا نحيفا ضئيلا غير مؤذٍ أخذ فى التضاؤل بينما كان يحتويه الضباب المنبعث من النيل الخالد!

الإجراءات الأمنية الصارمة التى اتخذتها قوات أمن مبارك لفرض هيبة الدولة لم يسبق لها مثيل منذ اغتيال السادات. شنت قوات الأمن غارات تفتيشية صارمة على المنازل والمساجد وعلى قرى بأكملها، وكانت هناك موجة هائلة من الاعتقالات: تم على الأقل قتل خمسة وأربعين شخصا عبر تلك الغارات. بدا وكأن أى شخص له لحية ويعيش فى المناطق الشعبية لابد أن يتم اعتقاله. حتى الإخوان المسلمين لم يسلموا من هذه الغارات، وتم إجبارهم على التخلى عن سيطرتهم على النقابات المهنية. من جانبهم، ضاعف المسلحون الإسلاميون من غاراتهم على قوات الأمن والسياح الأجانب، وكانت هناك حوادث حيث تم إلقاء مادة حمضية (ماء نار) على السيقان العارية للسيدات الأجنبيات.

فى تلك الأثناء كان قد تم رفض منح الشيخ عمر عبد الرحمن حق اللجوء السياسى فى الولايات المتحدة وتسلم أمرا بالترحيل من مصلحة شئون الهجرة: فى نفس الوقت تقريبا، تمت إعادة محاكمته ومعه ستة وأربعون من أتباعه أمام محكمة أمن الدولة العليا الطارئة فى الفيوم على خلفية تهم تمت إقامتها بناء على مظاهرات ضد الحكومة فى أبريل ١٩٨٩ . فى عام ١٩٩٠ تمت تبرئة الرجل من كل التهم فى هذه القضية بسبب تضارب أقوال الشهود وضعف الأدلة. ومع ذلك ففى إعادة المحاكمة تم الحكم على الشيخ الأعمى بالسجن سبع سنوات مع الأشغال الشاقة لقيامه بإلقاء الحجارة على قوات الأمن.

بعد عودتى من القاهرة فى الأيام الأخيرة من شهر مارس، وافق الشيخ عمر على منحى أول مقابلة صحفية معه.

التقينا فى شقته فى جيرسى سيتي، فى الطابق الرابع فى عمارة بالطوب غير مرقمة. قبل أن ندخل حجرة المعيشة خلعنا أحذيتنا أنا وأحمد ستار، وهو أحد معاونى الشيخ والذى كان يقوم بالترجمة. وما إن جلسنا على أريكتين ضخمتين لونهما بيج حتى دخل الشيخ . كان يرتدى ثوبا رماديا من نسيج صوفى فوق جلباب أبيض والطربوش القرمزى الأزهرى وزوجًا من الجوارب الصوف الأبيض. كان يضع نظارة سميكة سوداء على عينيه، وكان يمشى بدون مساعدة حتى وصل إلى إحدى الأرائك . على إحدى الطاولات بجانبه كانت هناك نسخة من القرآن.

حيَّانى الشيخ بحرارة، وبعد أن تأكد كلانا أن جهاز تسجيله يعمل وفى الوضع الصحيح (كان معى جهاز تسجيل سونى صغير، أما هو فكان لديه تسجيل ضخم)، سألته إن كان قد لعب أى دور فى تفجير مركز التجارة العالمي؟

«إطلاقا لم يكن لى أى دور حتى ولو صغيرا، ولم تكن لى علاقة بالموضوع، وتفجير برج التجارة عمل مخالف للإسلام تماما. ومع ذلك كلما فتحت جريدة أو التليفزيون أجد مسجد السلام الذى يوصف بأنه قلعة الإرهاب ومركزه الرئيسي! إن هذا نفاق ورياء خالصان من جانب الصحافة. انظرى إلى هذا الرجل فى تكساس- الرجل الذى ادعى أنه يسوع المسيح. (كان يشير فى ذلك إلى دافيد كوريش) لقد تمت إدانة نصف الكنائس المسيحية على ما قام به؟ وعندما تمت إدانة جوناثان بولارد بالتجسس لصالح إسرائيل، هل اتهم أحد حاخامات اليهود أو معابد اليهود بأنهم خونة للولايات المتحدة»؟

رفع يديه لأعلى وطوح ذراعيه، بعدها جلس مسترخيا بصورة أكثر راحة على الأريكة.

سـألت الشيـخ عـن أهم سبب من وجهة نظره لظهور وارتفاع الإسلام السياسى فى مصر؟

أجاب الشيخ: «هناك الكثير من العوامل المتداخلة- سياسية واقتصادية وسياسية ودينية. الناس يعانون معاناة شديدة ومستمرة. فهم يعيشون تحت خط الفقر بينما يُودع

حسنى مبارك وعصابته البلايين من الدولارات فى بنوك أمريكا وسويسرا. السجون ملأى بالمساجين الإسلاميين الذين يتم تعذيبهم بأساليب مهينة بل وأكثرها إهانة. والآن لم يكفه الاحتجاز والاعتقال. فهو يقوم بقتل الناس داخل المساجد. هذا ما حدث أخيرا بالفعل فى أسيوط وأسوان فى بداية هذا الشهر، ولكن هذا يحدث فى مصر كلها. أصبح نظاما معمولا به الآن. إن مبارك يحكم مصر بقبضة من حديد وتحت قانون الطوارئ. والناس يعيشون فى دولة بوليسية، وأنا أتحدى مبارك الآن عبر قلمك، أن يحكم مصر ساعة واحدة بدون قانون الطوارئ. لن يستطيع أن يفعلها ولو للحظة واحدة».

بعد وقفة قصيرة استمر قائلا: «ثم يأتى بعد ذلك الجانب الإيجابى للموجة الإسلامية- فيما تقوم به الجماعة الإسلامية والجماعات الأخرى من إنشاء بنية تحتية من المستشفيات والعيادات والمدارس. وهناك أيضا الدعوة والإرشاد لتوضيح المعنى الحقيقى للإسلام. ولا تقتصر هذه الحركة على مصر: فهى تحدث فى كل أنحاء العالم الإسلامي، فى تونس والجزائر ودول الخليج والمملكة العربية السعودية. الناس متعطشون للإسلام ولا توجد قوة على الأرض يمكنها أن توقف هذه الحركات. لا يمكن».

سألته: «هل الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد حركات دينية أم حركات سياسية ؟».

أجاب الشيخ عمر : « فى المسيحية هناك فصل بين الكنيسة والدولة .لأن الكنيسة قاومت عملية التحديث الأوربية، لذا تمت تنحيتها جانبا، ولكن فى الإسلام الأمر مختلف تماما: فالإسلام يغطى كل مظاهر الحياة، السياسية والاقتصادية والدينية والقضايا الاجتماعية والعلم والمعرفة . لذلك فليس بالإمكان أن تفرق بين الدين والسياسة . لا يمكنك أن تكون مسلما صحيحا إذا لم تكن تعرف السياسة. لا يمكننا أن نتبع مبدأكم «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

طلب الشيخ عمر شايا ثم قهوة . ونظرت حولى إلى غرفة معيشته الإسبارطية والتى يدخلها تيار هواء عابر. كانت الصناديق والكراتين قد تم وضعها فى أكوام وفى أركان الحجرة . هناك تقويم وآيات قرآنية معلقة على الجدران . سألته : «فى أثناء محاكمتك فى قضية اغتيال السادات أخبرت القضاة أنه من الواجب شرعا قتل الحاكم الذى لا يحكم بشرع الله».

قاطعنى «نعم» لقد قلت للقاضى: إن الذى لا يحكم بشرع الله هو كافر. ولو طبقت هذا على حكم عبد الناصر أو السادات أو مبارك فستجدين أنهم كفرة».

قلت : «على ذلك فقد أصدرت فتوى ضد السادات معلنًا أنه كافر ؟».

قال : « أنا لست هنا لأنكرها أو لأقول نعم أو لا : فالقضاء المصرى قال إنى برىء وإنى لم أصدر مثل هذه الفتوي».

ثم ساد الصمت لحظات، بعدها أضاف الشيخ عمر بصوت عال: «لقد كان السادات نفسه هو الذى أصدر فتوى قتله، بابتعاده الشديد عن الدين وسجنه للناس واعتقالهم، ورجاله هم الذين قتلوه. وهكذا سيكون مصير مبارك أيضا».

هدأ الشيخ وضبط طربوشه، وعندئذ سألنى «هل تعتبرين ما قلته الآن فتوي» ؟ وقبل أن أجيب استمر قائلاً: «إنها وجهة نظرى فقط» وابتسم .

سألته : «هل الأعمال الإرهابية التى تتم ضد السياح فى مصر مبررة ؟».

أجاب: «لا يتم ضرب السياح فى مصر ولا الهجوم عليهم، ولكن المقصود هو ضرب السياحة. بالرغم من أننى يجب أن أضيف أنه يجب على السياح أن يحترموا ديننا وثقافتنا، فالسياحة ليست شرب الخمر ولا المقامرة ولا النوادى الليلية. ولكنى لأثبت فكرتى الأساسية أن صناعة السياحة هى المقصودة بالهجوم. فقد تم تفجير أربع حافلات خارج متحف القاهرة، ولكن بعد أن غادر السياح ودخلوا إلى المتحف. هدف هذه العمليات والتفجيرات هو الضغط على النظام الحاكم فى مصر لإطلاق سراح آلاف الإسلاميين المحتجزين هناك. هل تعلمى أن العديد من منفذى تلك العمليات والتفجيرات هم آباء وأعمام وأخوات هؤلاء المعتقلين داخل السجون الآن ؟ لذا فقتل السياح ليس هدفنا».

طلب الشيخ من أحد معاونيه أن يحضر له كوبا من الماء، مثل هذا الفعل تكرر كثيرا خلال المقابلة. عندئذ وضع رجليه وجلس متربعا كشكل نصف زهرة اللوتس، وظهر أنه مستريح ويشعر بالرضا. قلت له: إن بعض المصريين كانوا يتنبؤون أنه خلال سنة أو سنتين ستصبح مصر دولة إسلامية؟

أجاب: «ليس المهم متى. لا يمكننا أن نرى إطارا زمنيًا ولكن ما اتفق عليه هو أن حكم مبارك سيسقط. فقد وصل إلى نقطة لم يصلها أى ديكتاتور حكم مصر من قبل. آه، الملك حسنى! وألقى الشيخ بيديه فى الهواء، أصبحت سخريته واضحة. «الملك حسنى يحكمنا منذ أحد عشر عامًا وهم الآن يطلبون منه أن يحكم لست سنوات أخرى، وبعدها سيجعلونه رئيسا مدى الحياة . لذا فكما ترين – استدار بوجه نحوى – ليس هناك أى اختلاف حقيقى بين الملك حسنى والملك حسين والملك حسن ملك المغرب». عندما خفتت ضحكة الشيخ ومعاونيه سألته: « أى نوع من الدولة الإسلامية كان يريدها فى مصر، وأى نموذج تريد للحكم، الإيرانى أم السعودى أم السوداني؟

أجاب الشيخ : «إن الدولة الإسلامية التى كان يأمل فيها ستكون أقرب للمثال السودانى . فالمملكة العربية السعودية تطبق الشريعة الإسلامية حقا. والأمراء السعوديون ينفقون بلايين الدولارات فى الكازينوهات والملاهى الليلية والبارات. وثروات الملك وأسرته تقدر بمليارات الدولارات، لذلك فكيف يمكن أن يكون هناك فقر فى السعودية ؟ هم لا يعطون أية حريات لرعاياهم على الاطلاق. سجونهم، مملوءة بأناس أبرياء. ليس هذا هو الإسلام. إسلامهم تجميلى بغرض واحد فى عقلهم : للحفاظ على عرش الأسرة الحاكمة . إن ما نريده هو دوله إسلامية حقيقية. نريد دولة لن يكون فيها فقر وتضمن الحرية. سنحكم بالشورى أو بمجلش للشورى تسمونه فى الغرب ديمقراطية».

سألته : «ماذا يعنى فرض الشريعة الذى تعنيه على غير المسلمين من المصريين، الأقباط المسيحيين بالتحديد؟».

أجاب : «الإسلام يضمن حقوق اليهود والمسيحيين تحت القانون الإسلامي. حيث يسمح لهم بممارسة طقوسهم وشعائرهم ويحمى بيوت العبادة لهم، لن يكون هناك ضغط من أجل تغيير عقيدتهم. ولكن فى نفس الوقت فمن المعروف جيدا أنه لا توجد أقلية فى أى دولة لها قوانينها الخاصة. هل السود الأمريكان لهم قوانينهم الخاصة ؟ يتم السماح لنا فى الإسلام بأن نتزوج بأكثر من زوجة – ديننا يسمح بتعدد الزوجات – . ولكن القوانين الأمريكية تحرم ولذلك تتم معاقبتنا ونمنع من ممارسة قوانيننا هنا».

سألته : «كم زوجة لديك : اثنتين أم ثلاثًا؟».

أجاب : « لدى واحدة فقط، ولكنى أود أن يكون لدى ثلاث أخريات».

قلت : «ولكنى قابلت واحدة فى مصر وتحدثت مع أخرى فى التليفون».

هل قمت بطلاق واحدة حديثا ؟

قال : «إن مقابلتك لاثنتين لا يعنى شيئا حتى ولو طلقت زوجة فلا يزال هناك لدى التزام بأن أتعهدها هى وأبناءها فهم أبنائى رغم كل شىء».

بعد ذلك التفت إلى المترجم وقال له كفى .

فسألته : تحت أى الظروف والأحوال يكون الجهاد واجبا فى الإسلام ؟ وهل كانت أفغانستان واحدة من تلك الظروف ؟

قال : «نعم الجهاد كان مبررا وواجبا فى أفغانستان، وكان من أفضل أنواع الجهاد التى قمنا بها فى العصر الحديث . فقد هاجم الاتحاد السوفيتى دولة إسلامية، لذا فقد كان أمرًا واجبًا ومطلقًا على المسلمين أن يدافعوا عن هذا البلد المسلم، ولو لم يفعلوا ذلك لكانت هناك دولة شيوعية وحكم شيوعى الآن فى أفغانستان».

سألت الشيخ عمر: كيف فسر حقيقة أن المصريين الذين كان قد تم تجنيدهم بواسطة حكومتهم وبواسطة المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية للقتال فى أفغانستان تتم معاملاتهم الآن على أنهم إرهابيون.

قال : «إن الحاكم الظالم دائماً يخشى أن يتلقى شعبه تدريبًا قتاليا أو عسكريا، وهؤلاء الشباب تلقوا تدريبات عالية. إنه يخشى أن يطيحوا به وبحكمه فى يوم من الأيام، لذا فغريزته الفطرية تجعله يودعهم فى السجون أو التخلص منهم . إن هذا لا يحدث فى مصر فقط بل فى المملكة العربية السعودية وفى ليبيا أيضا.

سألته : «كم مرة ذهبت إلى أفغانستان ؟».

«لا أستطيع تذكر عدد المرات. ولكنى ذهبت إلى هناك مرات قليلة». وتحول صوته لتظهر نبرة حزن واضحة فيه. «كنا نذهب من باكستان إلى المواقع الأمامية داخل أفغانستان». « مع جلال الدين حكمتيار؟».

تجنب الإجابة عن سؤالي مباشرة. «ذهبت مع كل قادة المجاهدين» رد أخيرا.

سألته «مارأيك فى حكمتيار؟».

قال: « كم من الزعماء الآخرين ستسألينني عن رأيي فيهم ؟».

أجبت «اثنان فقط. « آية الله الخوميني وحسن الترابي».

قال: «كلهم رجال عظماء حاولوا خدمة دينهم وخدمة أوطانهم. وأنا أعتز بهم جميعا وأقدرهم وأجلّهم جميعا».

سألته إن كان قد شعر أن ميل الصحافة إلى المقارنة بينه وبين الخوميني فى إيران له ما يبرره؟

« أنا أخدم ديني وأطالب بإقامة دولة إسلامية. هذا كل ما أطالب به. وعندما يتم إقامة هذه الحكومة فى مصر سأكون خادما لتلك الدولة. لا أتطلع إلى القيادة».

«ولكن لو تم عرض منصب شيخ الأزهر عليك– أهم وأكبر منبر ديني فى الدولة– أعتقد أنك لن تمانع فى ذلك؟».

«لو أردت أن أكون الإمام الأكبر وشيخ الجامع الأزهر لكنته الآن».

سألت الشيخ: كيف أمكن لطفل فقير وأعمى يعاني داء البول السكري ونشأ فى حي فقير أن يصبح قائدا لأكبر جماعة اسلامية مسلحة فى مصر؟

«بعون الله . لم تكن هناك نقطة تحول فى حياتي. ولكن الله يعين من يشاء. وإلا كيف تمكن الأفغان من طرد قوة عظمى؟ إن ذلك ما كان ليحدث لولا معونة الله سبحانه وتعالى».

سألته: « وماذا عن الثلاثة مليارات دولار التى قدمتها لهم المخابرات الأمريكية ؟».

قهقه الشيخ ضاحكا. وبعدها قال «بدون الله ما كان هذا ممكنا حتى لو منحونا مائة مليار دولار. الله أقوى وأعظم من القوتين. لقد ظلت أمريكا تحاول تدمير الاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٤٥. ما كان بإمكانها أن تفعل ذلك وحدها».

هناك شكوك عديدة ساورت كثيرًا من الناس فى القاهرة سواء من المصريين أم من الدبلوماسيين الأجانب بخصوص التقرير القائل: إن تأشيرة الدخول التى حصل عليها الشيخ عمر، والتى بموجبها دخل للولايات المتحدة تمت بطريق الخطأ، وأنا تم إخباري

من مصدر موثوق أن الشيخ حسن الترابى تدخل لصالح الشيخ مدعوما بموظفين فى المخابرات المركزية الأمريكية الذين كانوا قد تعرفوا إلى الشيخ فى أفغانستان. لذا فأنا أسأله الآن ليخبرنى كيف حصل على التأشيرة فى الخرطوم؟

أجاب: «بطريقة عادية جدا، مثل أى شخص آخر. عبر القنوات الشرعية. ولن أعطى أية تفاصيل أكثر».

«ولكن كيف يمكن لكل هذا العدد من الجهات والأقسام الحكومية الأمريكية أن يرتكب كل هذا العدد من الأخطاء وفى أوقات مختلفة؟ هناك شك واسع فى أن الحكومة الأمريكية منحتك حق الدخول إلى هنا؟».

قال: «أقترح أن توجهى هذه الأسئلة إلى حكومتك».

خلال المقابلة التى استمرت ساعتين كان الشيخ عمر مفعما بالحيوية والنشاط، ولكنه الآن يشعر بالتعب والإعياء، فقد أراح ذقنه على صدره. فالشيخ يعانى من داء البول السكرى والقلب، والكثير من مؤيديه كانوا قلقين بخصوص صحته المتدهورة. فقبل أسبوع واحد، كان الشيخ قد أرسل بشريط كاسيت مسجل عليه رسالة لأتباعه حول العالم، وتمت إذاعتها فى المساجد الأهلية فى مصر. فى الرسالة التى أطلق عليها « وصية لأهل مصر». قال فيها: « اقتربت نهاية حياتى واقترب الوقت الذى سألقى الله فيه». لذا سألت الشيخ إذا كان يحتضر وماذا كانت تعنى هذه الرسالة؟

أراح الشيخ رأسه على الأريكة ولم يجب على الفور. بعد ثوان تحول بوجهه نحوى وقال: «عندما نسأل مكتب المباحث الفيدرالى (F B I) عن سبب مراقبتى يقولون لأن أعدائى كثيرون» – بمن فيهم الجماعات اليهودية المسلحة والحكومة المصرية – وهم يحموننى منهم. لذا فمن الممكن أن يحدث لى شىء، من الممكن جدا».

سألت الشيخ عن علاقته بالجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد؟

أجاب: «أنا مجرد داعية إسلامى ينطق بالحق».

زاد إصرارى للحصول على إجابة فضحك قائلا: «كفى كفي! يمكنك أن تصفينى بالمرشد الروحى للجماعة».

الحياة في الأزقّة

كان نجيب محفوظ الكاتب العربى الوحيد الحائز على جائزة نوبل فى الآداب لا يترك شيئا للمصادفة بل كان مرتبا ومنظما جدا. كان دقيقا ومنضبطا جدا وكان يقيس حياته باللحظات والدقائق والثواني. لذا ففى مساء ذلك اليوم المشئوم، يوم الرابع عشر من أكتوبر عام ١٩٩٤ – كما اعتاد أن يفعل مساء كل يوم جمعة منذ سبعة أعوام – غادر الكاتب البالغ من العمر حينئذ اثنين وثمانين عاما، العمارة التى يسكن فيها قبل الخامسة بخمس دقائق، ومشى خارج العمارة. بدا له أن الشارع هادئ هدوءا غير عادي، حيث البيوت القديمة بألوانها الصفراء والبيجيه منذ الخمسينيات، وحيث المحلات من كل الأنواع والأشكال والمكاتب،وهى تمتلئ عادة بالزحام المرورى والضوضاء.

مشى الكاتب خطوات فى الشارع كأنه خيال ضعيف نحيف يمشى منحنيا قليلا ومستندا على عصاه: كان نصف وجهه مختفيا خلف نظارة سوداء. (عيناه كانتا ضعيفتين وحساستين). قال فيما بعد إنه شعر بضيق لأنه لم يستطع أن يعثر بسرعة على سيارة الدكتور فتحى هاشم التى كانت فى انتظاره. وقد كان الدكتور فتحى طبيبا بيطريا فى الثامنة والأربعين من عمره، وكان قد اعتاد أن يصطحب نجيب محفوظ من بيته فى العجوزة إلى مقهى قصر النيل المطل على النهر. كان الدكتور فتحى يقوم بهذه المهمة بانتظام لمدة سبع سنوات، حيث كان نجيب محفوظ ولمدة ثلاثين عاما يلتقى فى المقهى برجال الفكر والأدب وبتلاميذه من الأدباء الشبان. وكانت جلسات يوم الجمعة من طقوسه التى يحافظ عليها.

حكى لى الدكتور فتحى عندما التقيته مع مجموعة من أصدقائه على طاولة نجيب محفوظ فى مقهى قصر النيل، بعد ذلك بأسابيع قليلة ما حدث قائلا: «فى اللحظة التى شاهدت فيها نجيب محفوظ قفزت من سيارتى وتوجهت نحوه بسرعة، كان على مقربة

منى وأعطيته ذراعي. فتحت الباب الأمامى الأيمن للسيارة، وركب نجيب محفوظ، وأغلقت الباب. بدا كل شيء طبيعيا – فيما عدا خلو الشارع من المارة. فى البداية على الأقل».

استمر فتحى قائلا، «بينما كنت أستدير حول سيارتى رأيت شابا يقترب. توجه مباشرة نحو نجيب محفوظ. اعتقدت أنه يريد أن يسلم عليه، كما يفعل الكثير من الناس. كانت نافذة الشباك الأمامى الأيمن مفتوحة، ومد الأستاذ محفوظ يده متوقعا أن يتلقى سلاما. لم ألاحظ أن جسد الأستاذ كان يرتعش إلا عندما جلست فى مقعد السائق. اعتقدت أن الشاب يهزه بقوة فصرخت فيه قائلا «ماذا تفعل؟» هل أنت مجنون؟ «كانت تلك هى اللحظة التى تلاقت فيها عيناى بعينى ذلك الشاب . عندما صرخت فيه بعد تردد، ولثوان قليلة تجمدت عيناه فى نظرة لعيني. لم أستطع رؤية وجهه ولكنى فقط رأيت جبهته وعينين– كانتا عدوانيتين خائفتين فى نفس الوقت. كانت بشرته سوداء جدا ليس كسوادنا نحن. ضرب فتحى بقبضة يده على الطاولة. بعد ذلك وفى لحظة استدار الشاب وفر هاربا. بعدها فقط رأيت شيئا بنيا عالقا على كتف محفوظ. كان ذلك الشيء يد سكين (مدية)». توقف فتحى عن الكلام للحظة، وبعدها أضاف «كان النصل لم يزل مغروزا فى رقبة الأستاذ نجيب محفوظ، فى الجانب الأيمن.

كان محفوظ فى كامل وعيه، لكنه لم يقل شيئا عندما انحنى الدكتور فتحى فوقه لينزع السكين من رقبته بعناية وحرص، وبعد أن انتزعها ألقاها خارج السيارة فى الشارع ووضع يده فوق الجرح مباشرة، والذى كان قريبا جدا وبصورة خطيرة من الشريان السباتي».

بعد أن استوعب فتحى ما حدث واستفاق من الصدمة بدأ فى الصراخ. عندما بدأ الناس يظهرون: بوابون من كل الأشكال خرجوا من العمارات فى جلابيبهم وعماماتهم ورواد مطعم مجاور وحراس مستشفى الشرطة القابع عبر الشارع والقليل من الشباب فى ملابس غربية سراويل وقمصان. تذكر فتحى أنه لم يكن من بين الحاضرين من لديه لحية.

رجع فتحى بسيارته للخلف فى اتجاه البوابة الرئيسية لمستشفى الشرطة، والذى كان يبعد نحو خمسين ياردة وقاد عكس الاتجاه بينما كانت يده الأخرى موضوعة على جرح الأستاذ النافذ فى رقبته. قال فتحي: «لم يستغرق الأمر كله سوى خمس دقائق».

عندما وصلوا المستشفى أصر محفوظ بشدة على مغادرة السيارة بلا معاونة من أحد، وأذعن فتحي لرغبته. في اللحظة التي رفع فيها فتحي يده عن رقبة الكاتب الكبير انفجر الدم خارجا بغزارة. وقد استدعى الدكتور فيما بعد ما حدث قائلا: رأيت أمامي شخصا هزيلا ضعيفا ومريضا بداء السكر ومريضا بالقلب وأعمى تقريبا وبالكاد يسمع قابضا بيده على الجانب الأيمن من رقبته وخاطبني قائلا: «فيه نقطة دم هنا. لازم عايز تلقى نظرة. أشعر بخدر أيضا في ذراعي. وفي اللحظة التي رفع يده عن رقبته اندفع الدم بغزارة في كل مكان، ومع ذلك احتفظ بهدوئه وسكينته. جلس على كرسي وانتظر. وفي غضون عشر دقائق، أدخلناه غرفة العمليات حيث تم إجراء عملية استغرقت خمس ساعات».

كان نجيب محفوظ قد خلف وراءه، خارج جدران المستشفى شاهقة الارتفاع، جيوشا من البوابين والجيران والباعة الجائلين والمارة ورواد المقاهي،الناس الفضوليين الذين اختلط وجودهم بمئات من رجال الشرطة في زيهم العسكري. كانت أصواتهم تتعالى وتخفت ملوحين بأيديهم في غضب لدرجة تجعل عماماتهم تسقط. لقد قضى نجيب عمره كله يصف مثل هذا المشهد ويوثِّقه في رواياته- مشهد البلبلة والتشوش واللخبطة، مشهد التناقض المقترن بالحيلة والمغالطة، مواقف لا يبدو فيها على حقيقته- لقد وصل نجيب محفوظ بشكل الرواية إلى الكمال في الأدب العربي . لقد قدم، وفي تفاصيل دقيقة وغنية تعقيدات الحياة وتشابكها في الحارات وفي المناطق الهامشية . حيث تتمتع شخصياته بخصوصية شديدة وكانت ممن ينتمون للطبقات الدنيا والوسطي، ودائما ما كانوا يتجادلون حول قضايا العدل والظلم والأمل والتوقع والتحرر من الوهم والإيمان بالله. كانت أوصافه وتصويراته للمدينة، رغم أنها تقارن دائما بتصوير ديكنز لمدينة لندن وتصوير زولا لباريس، فإنها قاهرية بصورة فائقة، وشخصياته تتصارع قابضة وممسكة بأهداب مستقبل غير مضمون وهم مثقلون بعبء الماضي.

عندما علم أصدقاء محفوظ بنبأ الطعنة توافدوا مسرعين إلى مستشفى الشرطة، وكذا فعلت ابنتاه وزوجته. وككل المصريين أذهلهم ما وقع. كان أكبر عمل من أعمال العنف المثيرة للجدل في مصر في سنوات طويلة.

كانت هناك تأويلات كثيرة لما حدث، كان بعضها غير منطقى ومنافيًا للعقل. ولكن ظلت الأسئلة المهمة: إذا كان الأمر بالفعل محاولة اغتيال، فلماذا نجيب محفوظ؟ من كان مسئولا عن تلك المحاولة؟ وربما بنفس الأهمية، لماذا حدث ذلك الآن؟

أسرعت الحكومة بإلقاء اللوم على الجماعة الإسلامية، وحملتها مسئولية ما حدث، والتى كانت ظاهرة فى ذلك الوقت كأوسع وأقوى الجماعات الإسلامية المسلحة السرية.

فى الوقت الذى تم فيه الهجوم على نجيب محفوظ كانت المعركة بين الإسلاميين والنظام الحاكم حامية الوطيس. وكانت قد دخلت عامها الثالث وكان كل من الطرفين، وبصورة مألوفة جدا، قد صعّد من عملياته ورهاناته لأعلى المستويات فى حربهما الانتقامية. فقد كان الإسلاميون قد صعّدوا من اعتداءاتهم على السائحين الأجانب والمسيحيين الأقباط وقوات الأمن والوزراء والشرطة. وكانت الحكومة من جانبها ترد بعنف ووحشية على تلك الأعمال.

خلال ساعة من الهجوم على محفوظ، كان قد وصل الوزير الحازم الصلب المتشدد اللواء حسن الألفى وزير الداخلية محاطا بنحو عشرة أو خمسة عشر من مساعديه من الرتب العالية. وفى تتابع سريع وصل بعده وزراء الاعلام والثقافة والصحة وثلاثة أطقم للتصوير، ومجموعة من رجال الصحافة ورجال الإعلام والتليفزيون والاذاعة المصريين الحكوميين. ما كادوا يصلون حتى أعلنت الحكومة – ولدهشة الجميع– أنه سيتم إلقاء القبض على منفذى العملية فى الصباح التالى، تم القبض على سبعة شبان، وتم قتل ثامن بنيران الشرطة. قال لى أحد القاهريين المرتابين فى الأمر، إن أفعال الشرطة ذكرته بكلود رينز (Claude Rains) عندما قال، (اجمع المشتبه بهم الاعتياديين وضعهم فى السجن). فى النهاية تمت محاكمة ستة عشر إسلاميا مسلحا أمام محكمة سرية عسكرية خاصة. (كان عدد من تلك المحاكم، التى لا يوجد استئناف لأحكامها، قد تم إنشاؤها بواسطة مبارك وقد وصفتها منظمة العفو الدولية على أنها تقوم بإجراء «محاكمات غير عادلة بصورة صارخة» بحلول نهاية عام ١٩٩٧، كانت تلك المحاكم قد حكمت بالإعدام على مائة من المسلحين تقريبا، وهو أكبر عدد من أحكام الإعدام على جرائم سياسية فى هذه الدولة.

تم توجيه تهمة الشروع فى القتل لبعض المتهمين فى قضية نجيب محفوظ، وآخرين تم اتهامهم بحيازة أسلحة ومفرقعات بدون ترخيص، واتهامهم جميعا بانتمائهم وعضويتهم للجماعة الإسلامية. أنكر كل المتهمين التهم. وفى يناير من عام ١٩٩٥، حكمت المحكمة على اثنين من المتهمين بالإعدام وعلى اثنين آخرين بالسجن المؤبد.

كان محفوظ ينتقد العنف وينبذه ويدينه علنا سواء كان من جانب الجماعات الإسلامية المسلحة أم من جانب الحكومة، وكثيرا ما انتقد سياسات حكومة مبارك. وكانت الجماعات قد اهتمت بمحفوظ لأول مرة قبل ثلاثين عاما، عندما حكمت أقوى وأكبر مؤسسة دينية وهى الأزهر على إحدى رواياته وهى «أولاد حارتنا» على أنها هرطقة وخروج على الدين. الرواية مليئة بالشخصيات المجازية المستعارة التى تماثل شخصيات من الإنجيل والقرآن وتتناول بالوصف العلاقة المركبة والمعقدة لجماعة من سكان أحد الأحياء الفقيرة القاهرية مع أنبيائهم المختلفين وآلهتهم، وبعد أن تم نشر تلك الرواية مسلسلة فى جريدة الأهرام واسعة الانتشار، تم حظر الرواية ومنع نشرها فى كتاب . ولم تتم الإشارة إليها أو يتم السماح بنشرها رسميا فى مصر عبر خمسة وثلاثين عاما. ولكن بعد فوز محفوظ بجائزة نوبل عام ١٩٨٨، كان ذلك الحدث شيئا قلب حياة محفوظ رأسا على عقب، وأدخل على حياته الشديدة التنظيم والشديدة الخصوصية بعضا من التشويش.

فى السنة التالية كان هناك غضب عارم يجتاح العالم الإسلامى قاطبة على خلفية نشر سلمان رشدى لرواية «آيات شيطانية» وكان رد فعل الخومينى على ذلك أن أباح قتل سليمان رشدى وأهدر دمه، أما الشيخ عمر عبد الرحمن — الذى كان وقتها رهن الاعتقال فى صيف ١٩٩٣، وكان ينتظر محاكمته فى نيويورك بتهمة التآمر والتحريض على شن «حرب إرهاب مدنى ضد الولايات المتحدة» واغتيال الرئيس مبارك خلال زيارته لنيويورك، ولتفجير معالم مدينة نيويورك البارزة– كان قد أخبر صحفيا فى حوار معه أن سلمان رشدى لا يختلف عن نجيب محفوظ، كليهما – فى رأى الشيخ– منشق وهرطوقى. «والشريعة الإسلامية تدعو هؤلاء إلى التوبة، وإن لم يتوبوا سيتم قتلهم. لو كان هذا الحكم قد تم تطبيقه على نجيب محفوظ لما جرؤ سلمان رشدى على فعل ذلك، ولعرف أن هناك حدودا لا يمكنه تجاوزها ومحطات يجب التوقف عندها».

عندما سألت مصدرا أمنيا مصريا مسئولا إذا كانت تلك من وجهة نظره ترقى إلى مرتبة الفتوى التى تبرر قتل محفوظ، قال إنه غير متأكد، ولكن تلك كانت الطريقة التى تجرى بها الأمور. وهكذا يمكن أن يتم تفسير الأمر على هذا النحو، وأن المسلحين الإسلاميين كانوا قد هددوا باغتيال محفوظ فى أكتوبر فى الذكرى السنوية لحصوله على نوبل. والأهم، والكلام على لسان المصدر الرسمي، هو أن الشيخ عمر عبد الرحمن كان المرشد الروحى للجماعة الإسلامية.

ذات مساء بعد أسبوع أو أكثر قليلا من الاعتراف الملغز غير المرتب أو المنطقى للشاب -أشقر البشرة ذى اللحية- والذى تم امام شاشة التليفزيون على خلفية طعن محفوظ على ما ادعاه ساعتها أن خطته كانت تهدف لخطف الكاتب الكبير، ولكن المحاولة فشلت فكان البديل هو طعنه. وقد سحب هذا الشاب اعترافه فيما بعد. قال لى المخرج السينمائى الممتاز وأحد الأصدقاء المقربين لمحفوظ توفيق صالح: «لم أصدق رواية الحكومة منذ البداية. كما أن المفكرين القاهريين الذين تحدثت معهم فى الأمر وجدوا أن الاعتراف مثير للضحك أكثر منه موضحا للحقيقة ومفسرا للأمر».

استمر توفيق صالح فى حديثه قائلا: «فى الليلة السابقة على طعن محفوظ كنت قد اصطحبته بسيارتى إلى جلسة أخرى فى مقهى آخر. بعد أن غادرنا منزله بنحو عشر دقائق ظهر شخصان غريبان من ذوى البشرة السوداء. كان أحدهما يرتدى جلبابا وكوفية، أما الثانى فكان فى ملابس غربية. كانا يحملان باقة من الورود وعلبة من الشيكولاته، وقالا إنهما قد أتيا لمقابلة الأستاذ نجيب. تضايقت زوجته قليلا وقالت لهما إن نجيب لا يقابل أحدا فى منزله. ولكن فى الليلة المقبلة يمكنهما أن يقابلاه على مقهى قصر النيل. أخذت منهما الورد والشيكولاته وأغلقت الباب. قالت لى فيما بعد إنه لم يبد على أى منهما أنه متعلم وأنهما يتحدثان العربية بلهجة خليجية». (وطبقا لما قاله شاهد آخر إن هذين الرجلين ركبا سيارة مرسيدس وانطلقا).

استمر توفيق فى روايته قائلا: «بينما كنا فى المستشفى فى انتظار خروج الأستاذ نجيب من غرفة العمليات، أخبرنا فتحى أن الشاب ذا البشرة السوداء الذى طعن محفوظ جرى

نحو سيارة مرسيدس صفراء كانت واقفة فى انتظاره عبر الشارع، وكان بداخلها ثلاثة أو أربعة آخرون، وبعدها انطلقت السيارة فى اتجاه كوبرى الجلاء. ثمَّنت وزارة الداخلية تلك الشهادة ليومين فقط: فجأة توقف أى كلام يخص المرسيدس. ادعى البوليس أنه قد تم التغرير بفتحي أو أنه أخطأ (رغم حقيقة أن فتحي قام بمطاردة الطاعن حتى ركب السيارة) وأنهم الآن متأكدون تماما من أنه لم تكن هناك أية سيارات. بعد ذلك بيومين وعندما أظهروا هذا الشاب أشقر البشرة ليعترف، أكد بيان الداخلية: أنه استقل تاكسيًا وذهب إلى ميدان التحرير ثم استقل حافلة من هناك رغم أنه كان قد قال قبل قليل إنه كان قد خطط لخطف نجيب محفوظ! ما الذى كان ينوى أن يفعله، أكان ينوى خطفه فى الحافلة؟

بقدر ما كان العرب الخليجيون الغامضون متهمين ومتورطين، لم تستطع زوجة نجيب محفوظ التعرف إليهم من خلال مجموعة الصور التى عرضها البوليس للمقبوض عليهم، بما فيهما صورة الشاب أشقر البشرة الملتحي. مع ذلك عندما عرض التليفزيون اعترافه على الهواء أخبرت أصدقاء لها أنه بالفعل هو نفس الشاب الذى أعطاها الورد والشيكولاته فى الليلة التى سبقت طعن زوجها. اندهش أصدقاء محفوظ لسماعهم ذلك، لأنه وبينما كانوا يشاهدون منصتين للاعتراف لم يلحظ أى منهم اللهجة الخليجية.

بعد ذلك بشهور تم إعدام الشاب الأشقر الملتحى شنقا، وقد كان يعمل فى صيانة وتصليح الأجهزة الكهربائية، واسمه محمد ناجى مصطفي. ومثلما كانت محاكمته سرية كذلك كان الكثير من الألغاز المحيطة بطعن نجيب محفوظ التى ليس من المحتمل أن يتم حلها أبدا بصورة كاملة.

أخبرنى أحد الدبلوماسيين الأجانب ذات مساء «إنه شىء عجيب بحق، فتلك ليست طريقة عمل الجماعة ولا أسلوبها. فهم لم يعتادوا اللجوء لتلك الأساليب البدائية أو استخدام الأسلحة البدائية فى عملياتهم. لماذا يستخدم سكين مطبخ، تلك التى تتطلب مهارة فائقة، بينما فرص النجاح تكون أكبر بكثير لو استخدمت مسدسا؟ لقد كان هذا العمل عمل هواة بصورة واضحة، والجماعة الإسلامية ليست جماعة من السذج. إنهم أناس محترفون. لذا فهل يعنى هذا أن الجماعة انشقت وخرجت منها جماعة أو جماعات أخرى،

وأن ما نشاهده الآن هو بزوغ جماعات أخرى أكثر تعصبا؟ إن ما نملكه فعلا وما يتوجب علينا عمله هو التخيل فى غياب الأدلة أو دخان المسدسات، إن المهاجم خرج من الجماعات الإسلامية السرية. ولكن السؤال المهم هو : ما الذى يعنيه ذلك؟

انتاب المفكرين المصريين إحساس شديد بالقلق من أن يكون هذا الهجوم إيذانا بتصعيد جديد من جانب الإسلاميين ضد الفكر العلمانى، وكمقدمة أسلوب العمليات الجزائرية هنا. (فى الجزائر تم ذبح عدد من المفكرين بوحشية أمام أسرهم). الموظفون أيضا فى مكاتب منظمات حقوق الإنسان فى مصر ونيويورك أبدوا انزعاجهم أيضا من سهولة وخفة وتزايد الاعتقالات. ورغم كل التناقضات المتضمنة فيها. بدا الأمر وكأنه تشدد من الحكومة فى سياسة « الاعتقال الجماعي» حيث تم اعتقال نحو خمسين شخصا، وتم تعذيبهم بصورة مستمرة لكى يعثروا على وأحد. وبعيدا عن مستشفى هليوبوليس، فى المناطق الشعبية المجاورة وأزقة نجيب محفوظ، أفسح القلق الطريق للخوف، واختبأ العشرات من الرجال ممن كانوا شبابا أو أصحاب لحية.

ولد نجيب محفوظ فى منطقة شعبية مكتظة بالسكان فى وسط الحوارى والأزقة القديمة الكائنة فى قلب القاهرة الإسلامية خلف مسجد الحسين، وتحديدا فى منطقة الجمالية فى ديسمبر من العام ١٩١١ . كان والده موظفا صغيرا فى دواوين الحكومة، ولكنه أصبح فيما بعد مديرا لأعمال أحد التجار فى أحد بازارات خان الخليلي، وكان تقليديا بصورة كبيرة ومختلفا عن ابنه الأصغر بصورة كبيرة: كانت أمه شغوفًا به وأصبحت أقرب أصدقائه. كان وحيدا فى طفولته التى لم يتم الإشارة إليها كثيرا. بعد أن أنهى دراسته فى المدارس الابتدائية والإعدادية فى مدارس دينية إسلامية انهى المرحلة الثانوية فى مدرسة عامة، وبعدها التحق بجامعة القاهرة وكان اسمها حينئذ جامعة فؤاد الأول، وتخرج فى عام ١٩٤٣، فى كلية الآداب قسم الفلسفة. وهو يتذكر تلك الفترة التى تزامنت مع حركة المقاومة الاستعمارية ضد البريطانيين ويعتبرها أسعد فترات حياته– كما كانت «العصر الذهبى للوطنية المصرية، عندما كانت العصور والأزمنة نفسها تنصت إليك» هكذا كتب فى روايته «اللص والكلاب» عام ١٩٦١ .

حتى عام ١٩٧١ كان يكتب كل أعماله فى آخر الليل، لأنه كان يقضى نهاره موظفا فى دواوين الدولة، إذ كان يعمل بوظيفة الرقيب على الأفلام ومرشدا فنيا، وموظفا بسيطًا فى مختلف الوزارات بما فيها وزارة الأوقاف والشئون الدينية.

كان محفوظ خجولا وكتوما قد تأخر زواجه، ولكنه كان مؤمنا قوى الإيمان، وصوفيا إلى حد ما واشتراكيا فابيا من النوع العاطفي. فى أواخر الخمسينيات كانت الواقعية الاجتماعية هى السمة الرئيسية لأعماله. كانت حياته المنظمة جيدا وبدقة نقيضا للعالم الذى أبدعه فى كتبه، نحـو أربعـين رواية، عبر أربعين عاما، كان عالم شخوصه قاسيا ومضطربا، مفعما بالمعرفة التاريخية يجتاحه الإحساس الطاغى بالضياع. فثلاثيته القاهرية والتى كانت وراء حصوله على جائزة نوبل هى رواية نهر تتبع سيرة حياة ثلاثة أجيال من أسرة واحدة، وتمتد زمنيا مرتبطة بأحداث الحربين العالميتين. وفى تلك الرواية لم يتناول الجوانب والموضوعات الدينية والسياسية فقط، التى كانت موطن قوته دائما، بل تناول أيضا موضوعات الدعارة والمخدرات وانحطاط الطبقة الفقيرة فى المجتمع الحضري. وفى عام ١٩٧٩، وعندما كان من أول المساندين الداعمين لمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، تم حظر تداول ثلاثيته وعدد آخر من أعماله فى كثير من الدول العربية.

بمرور الزمن أصبحت رواياته أكثر قسوة وصرامة .وكان الفشل والسقوط اللذان تعانيهما مصر المعاصرة هما مسرح أعماله. ونرى أحد أبطاله يصرخ فى أقصوصته «يوم قتل الزعيم» ناديا «نحن نعيش عالما قبيحا من الشعارات»، «وبين الشعارات والحقيقة هناك هوة سحيقة، حيث سقطنا جميعا وأضعنا أنفسنا» وقد تم نشر هذه الرواية منذ عقد من الزمان، وتحتوى الرواية على جميع العناصر الموجودة فى العالم الخيالى التنبؤى المحفوظي: تراجع النظام المصرى وظهور الدولة السلطوية المتسلطة وتمزق وتفسخ الطبقة الوسطى الحضرية بسبب الجمود والكساد الاقتصادى والغموض: الضغوط الجنسية التى يواجهها الشباب والشابات بسبب كونهم منفصلين عن بعضهم بصورة صارمة: تصاعد الفساد وتصاعد النبرة الإسلامية والاتجاه للإسلام، كنتيجة حتمية لنظام يبدو وكأنه نظام حلزونى خارج عن السيطرة. بينما يتتبع خيبة أمل شاب فى يومه يوم

السادس من أكتوبر عام ١٩٨١ – اليوم الذى تم فيه اغتيال السادات بأيدى خلية عسكرية تنتمى لجماعة الجهاد– يخلط محفوظ الوهم بالواقع فى نسيج متجانس عبر عيون بطل روايته، علوان، وومضات من الذاكرة تقفز عبر الزمن. فهو غير قادر على الزواج لأنه لا يستطيع أن يجد وظيفة محترمة بمرتب محترم يمكّنه من شراء شقة أو فرشها، علوان الذى تخرج فى قسم الفلسفة بمرتبة الشرف، يتقاسم مع جده حجرة حقيرة قذرة وضيقة، جده الذى عاصر ثورة ١٩١٩، تلك الثورة التى كانت تعنى أن مصر تواكب عصرها. يجلس علوان الآن على مقهى، حيث ينبعث الضوء من مصابيح كهربائية يغطى الذباب أسلاكها ويبدأ حوارا ذاتيا داخليا:

نحن قوم نرتاح للهزيمة أكثر من النصر فمن طول الهزائم وكثرتها ترسبت نغمة الأسى فى أعماقنا .... جريح القلب والكرامة. أهيم على وجهى ككلب بلا مأوى. مقهى ريش منقذ من ضجر الوحدة .... كم أمة تعيش جنبا إلى جنب فى هذه الأمة؟.... كم عدد أصحاب الملايين؟ الأقارب والأصهار والطفيليون. المهربون والقوادون والشيعة والسنة. حكايات ولا ألف ليلة وليلة .... بكم البيض اليوم؟ والنقوط فى ملاهى الهرم. وفسخ الخطبة! ماذا قال إمام الجامع علىمسمع من جنود الأمن المركزى؟ لا مرحاض عام فى الحى كله. لم لا نؤجرها مفروشة؟ ما هو إلا ممثل فاشل (السادات) وضرب المفاعل العراقى؟ صديقى بيجن .. صديقى كيسنجر. الزى زى هتلر والفعل شارلى شابلن . لقد أجر البلد بأكمله –مفروشة– للولايات المتحدة».

بعد ثلاثة أسابيع ونصف الأسبوع من حادث الاعتداء على محفوظ وافق على لقائى فى مستشفى الشرطة، فذهبت إليه مساء والمستشفى عبارة عن مجمع مبان من الزجاج والكروم. كانت إجراءات الأمن صارمة، عندما وصلت إلى البوابة الرئيسية مصحوبة بأحد من أصدقاء محفوظ، وهو الشاعر نعيم صبري. بعد مرورنا من بوابة فحص حديدى وإبراز هوياتنا وتفتيش حقائبنا مرتين تم السماح لنا بالدخول. وجدنا محفوظ فى غرفته فى واحد من

الطوابق العليا وكانت معه زوجته وابنتاه. كانت ممرضة جالسة عند مدخل الحجرة وثلاثة رجال أمن في ملابس البوليس متململين بسلاحهم الكلاشينكوف خارج الحجرة.

حيًّانا محفوظ ملوحا بيده بوهن. اندهشت عند رؤيتي له لشدة ضعفه وشدة نحافته التي بدا عليها. كان صغيرا جدا وكان يرتدي بيجاما زرقاء وروبًا من نفس اللون، وجلس منحنيا قليلا على كرسي بين سريرين لفرد واحد. تحدث معي بإنجليزية غير متقنة طالبا مني الجلوس على أحد الأسرَّة على يساره معللا ذلك بأنه لا يسمع بأذنه اليمني. كان محفوظ قد فقد كمية كبيرة من الدماء، وكان قد تطلب عددا من عمليات نقل الدم. قال محفوظ « التركيز يتعبني لذا لا تتوقعي مني الكثير».

بدأت بالسؤال الذي كان يسأله كل الناس في القاهرة لماذا أنت؟ ولماذا الآن؟

بدا وكأن هناك غشاوة تغطي عينيه ثم قال «لقد تم ببساطة الإمساك بي والإيقاع بي في المنتصف، في المعركة بين النظام والإسلاميين». «أما لماذا الآن؟ فليس هو السؤال– ربما الظروف أو الأوضاع أو ربما القدر– ومع ذلك كان يمكن أن يحدث في أي وقت، ولأنني مقتنع أن الحرب ستستمر، وأن كل طرف سيسير فيها إلى أبعد ما يستطيع. لماذا أنا؟ لماذا الآخرون؟ هز كتفيه وابتسم ابتسامة حزينة».

قلت له «في اليوم الذي قتل فيه الزعيم، يبحث علوان عن النظام والعقل ويتجادل مع الله ؟ ومع ذلك لا شيء في الأزقة والحواري كما يبدو أن يكون؟».

« نعم» قاطعني محفوظ قبل أن أنهي فكرتي. «من الممتع أنك اخترتِ هذا الكتاب ومن الواضح جدا أن سؤالك هو : هل تنبأت بصورة أو بأخرى بالهجوم الذي حدث لي؟ نعم، ربما، لقد فعلت. ولكن تنبأت أيضا بالكثير مما يحدث الآن في مصر، إنها الحاسة المحفوظية».

على مستوى الشارع تبدو مصر كدولة بوليسية ليست تحت السيطرة تماما: حيث تتلاقى الآمال والطموحات مع المنجزات أو لا تتلاقى مطلقا: حيث الأوغاد المتشردين يحتفلون ويفخرون بشجاعتهم وشطارتهم: وحيث الشباب المثقف والمتعلم الغاضب يجلسون على المقاهي في الحواري والأزقة وعلى شواطئ النيل، ينفقون أوقاتهم وحياتهم

بلا فائدة ترجي. وهم يمثلون صورة مصر نفسها، فإنجازاتهم أقل كثيرا جدا من أحلامهم.

لقد تم تحديد هوية الدولة بتزايد الحيرة والتردد والانجراف. ففى القاهرة بصورة خاصة يبدو الناس وكأنهم يعيشون على الحافة، مثل الكثير من البنى التحتية للمدينة وآثارها القديمة التى تم تقليصها لتصبح ترابا. يزدهر الفساد ويترعرع. ويتصلب الجمود السياسي. وعدد سكان القاهرة فى تزايد مستمر، فهم يزيدون بما يقرب من ألف شخص كل يوم فى دولة -أكثر من نصف سكانها تحت الخامسة عشر من العمر- وأصبحت منذ التسعينيات وهى تنمو سكانيا بواقع يزيد على مليون نسمة كل عام. ومع ذلك فإن ٩٥٪ من السكان يعيشون على ٥٪ من مساحة البلد. وكل سنة تخرج مصر ما يزيد على مائة ألف خريج جامعى، والكثير منهم يبقى بلا عمل – فى دولة تجمدت فيها نسبة الأمية عند ٥٠٪ من عدد السكان، بينما تجمد متوسط دخل الفرد عند ٧٠٠ دولار فى السنة. أما الاختلاف المدهش للثقافات وطبقات المجتمع، فقد تم تقليصه بصورة واضحة إلى قطبين شديدى الاختلاف: الفقر المدقع والثراء الفاحش.

فمن السهل عليك فى أى مكان فى القاهرة جدا أن تجد عمارات فخمة عالية من الزجاج ومطلية بالكروم تنم عن ثراء فاحش، وخلف تلك العمارات تماما تجد الحارات والأزقة الضيقة القذرة -والأطفال نصف العرايا يلعبون- كما نرى فى «زقاق المدق» رواية نجيب محفوظ مع الصراصير فى الوحل والتراب. زيطة صانع العاهات فى نفس الرواية، كان يمكن أن يكون المتسول على الكوبرى الذى يفصل ميدان التحرير، مركز القاهرة، عن العجوزة، حيث يعيش محفوظ. راقبته وهو يخترق طريقه بين سيارات المرسيدس والتويوتا العالقة فى اكتظاظ مرورى أبدي. إحدى قدميه مقطوعة وقدمه الوحيدة عارية. يرتدى جلبابا ممزقا، لقد دفع نصفه العلوى إلى داخل السيارات عبر النوافذ المفتوحة مشيرا إلى جيبه الصدري. لم تكن لديه اسلحة.

بعد ظهر أحد الأيام جررت قدمى إلى ميدان التحرير، كان كل شيء هناك يبدو مقزما أمام هذا البناء الضخم المنتفخ ذى الاثنى عشر طابقا، المبنى على الطراز الستالينى:

المجمع- المركز الرئيسى لبيروقراطية الدولة المصرية المنتفخة المتعاظمة، بقوة ثلاثة ملايين. يقول الكثير من القاهريين إن أرواح كثيرة تجد راحتها فى المجمع أكثر مما تجدها فى المقابر. (طبقا لآخر دراسة فإن معدل الوقت الذى يعمله الموظف الحكومى فى مصر هو سبع وعشرون دقيقة فى اليوم). بينما كنت أحدق فى المجمع صدمتنى حقيقة مفادها أن المجمع، لربما أكثر من أى شيء آخر، قد أتى ليرمز للنظام الذى تم إبداعه عن طريق البكباشى جمال عبد الناصر عام ١٩٥٢، ولكن تم الآن استنزافه وصار فى انحسار وانحلال دائمين.

كان مبارك هو الوريث بالمصادفة -وعن غير رضا- لهذا النظام عام ١٩٨١، بعد اغتيال الرئيس السادات. ورغم أن هذه الولاية كانت عبئا لم يسع أبدا إليها فقد نما وكبر عبر سبعة عشر عاما، ليحتضنها ويطوقها، ويتشبث بها بعناد. (فها هو الآن أطول رئيس حكم مصر فى تاريخها كلها). ومبارك كممثل للجيل الثالث للثورة فهو يفتقر حب الجماهير الجارف الذى كان يتمتع به عبد الناصر وأيضا السادات، والكثير من القاهريين يرونه إلى حد ما أشبه بموظفى محفوظ البيروقراطيين: رمادي، ذى بعد واحد وأصغر تقريبا من الحياة.

إن مبارك رجل من الصعب تعريفه وتحديده، لأنه لا يظهر إلا القليل عن نفسه، ولديه هوس بالخصوصية. عندما تم سؤاله ذات مرة فى حوار تليفزيونى مصرى عن تسليته المفضلة من قبل، أجاب لم تكن لديه أية تسليات أو لهو. وبعد عشرين عاما فى السلطة لم يزل غامضا ومبهما فى أمور كثيرة بالنسبة للمصريين، كما كان عندما حلف اليمين عند توليه السلطة. من الصعب جدا الإجابة عن سؤال من هو حسنى مبارك؟ حقا من الصعب.

فسجله الحكومى الذى تم سحبه عند توليه منصب نائب رئيس الجمهورية، كان عبارة عن ستة أسطر لا غير، وسيرته الذاتية عند تنصيبه رئيسا أقل من صفحة واحدة ملحق بها ثلاث صفحات من الميداليات والأنواط والأوسمة التى حصل عليها. معظم الناس الذين يعرفونه يصفونه بعبارات عادية : «إنه شخص متوازن يخطو بحذر» أو « إنه منفذ وليس مجددا» أو « إنه رجل عسكرى اعتاد على الروتين، المفروض عن طريق سلسلة من القيادات

أو البيروقراطية». ولكن كل تلك التعليقات يتم استخدامها بعد تفكير عميق. لأن مبارك، طبقا لروايات أصدقائه، ليس من السهل أن تتحدث إليه أو تعرفه، وهو لا يحب مناقشة العواطف، يجب عليك أن تقرأ ما بين السطور.

كان مبارك دائما حويطا وحذرا ومتواضعا طوال حياته العسكرية، ولا يستريح للسياسيين، كما كان قليل الكلام. وكان قد بدا اختياره بعيد الاحتمال عندما عينه السادات نائبا للرئيس فى أبريل عام ١٩٧٥: وقد كان رد فعل الكثير من مستشارى السادات مزيجًا من الصدمة وعدم التصديق. ومع ذلك عند توليه السلطة وتسميته رئيسا تحرك ببراعة ليقوى ويحكم سلطته: فرض قانون الطوارئ وعزل منافسيه المحتملين، ومن أهمهم الفريق عبد الحليم أبو غزالة، وزير الدفاع القوى وصاحب النفوذ المؤيد لأمريكا. ورغم مجيئه من القوات الجوية، فإنه تمكن من البقاء على قمة جيشه العنيد، الذى يظل قادته هم المتحكمين فى السلطة فى مصر، كما كانوا كذلك منذ ما يزيد على خمسة وأربعين عاما.

كمعظم العسكريين، يعيش مبارك محاطا بالتذكارات، والصور، وشارات الملابس العسكرية والأوسمة والأنواط. لم ينتقل أبدا ليعيش فى واحد من قصور السادات الفخمة المترفة، ولكنه بدلا من ذلك ظل فى فيلا متواضعة فى منطقة منفردة فى هليوبوليس، على بعد مسافة قصيرة بالسيارة من قاعدة غرب القاهرة الجوية حيث قضى معظم أيام شبابه. يستشعر المرء أن الرجل الذى قدر له أن يحكم مصر لفترة أطول من أى زعيم آخر فى تاريخها الحديث يتمتع بكثير من الراحة، فى وسط هذا المكان الذى يذكره يوميا بحياة الجندية.

عندما تولى الرئاسة عام ١٩٨١، تحدث مبارك عن فترات رئاسة محدودة، وعن انفتاح مصر على الديمقراطية، وعن حاجته للمساعدة والنصيحة الخارجية، وعن حتمية إصلاح الاقتصاد المصرى الراكد- نحو ٧٠٪ منه كان تحت سيطرة القطاع العام المترهل غير الكفء ، وهى جزء من تركة عبد الناصر الاقتصادية التى كانت قائمة على الأسلوب الروسي. ولكن، طبقا لناقديه، فقد تنامت سلطة مبارك وقوته وأصبح محصنا بصورة

متزايدة، وقد أحاط نفسه بالمنافقين والأصدقاء العسكريين القدامي، وأصدر قرارات أكثر سلطوية حتى ممن سبقوه، بنفس الطريقة التى أهلكت أنور السادات والملكية المصرية. نبرته الإمبراطورية المتزايدة أذهلت الكثير ممن عرفوه كقائد بعيد عن الادعاء وكنائب لرئيس الجمهورية.

«لقد سقط الرئيس فى نوع من النرجسية السياسية» كان هذا ما أخبرنى به أخيرًا تحسين بشير، وهو سفير سابق محترم جليل ويحاضر باستمرار عن الإسلام المسلح المجاهد. « فهو ينظر حوله فيرى من يدعمونه ويؤيدونه بنسبة مائة بالمائة . لم يعد يعرف المشاكل التى تعانى منها مصر، ولو حدث وعرفها فإنه يلقى باللوم على المؤامرات التى يتم شنها عليه من أعدائه. إن الحقيقة الموضوعية التى تدفع الشباب بصورة مستمرة للتمرد والثورة هى ببساطة أبعد من إدراكه».

يقول أحد السفراء الغربيين: «إن مبارك معجب بكونه رئيسا. وهو واثق مما يفعله، وإذا نظرت حولك فى الشرق الأوسط كله،سترين أن السياسة أصبحت شخصانية بصورة كبيرة (أى أصبحت شيئا شخصيا) فطريقة تفاعل مبارك فى مصر، والأسد فى سورريا، وفهد فى السعودية، هى طريقة شخصية جدا، كلعبة محكمة فى البوكر أو الشطرنج. وعلى رقعة اللعبة تلك، مبارك يؤدى أداء رائعا فعلا وبحق. فعلى المستوى الداخلى ها هو الحزب الوطنى الديمقراطى قد أصبح ناجحا جدا فى قدرته على احتكار الانرع السياسية للسلطة، الرعاية تتدفق، لدرجة أن المعارضة العلمانية قد تم تهميشها إلى حد الخمود: فهم لا يلعبون دورا على الساحة السياسية. وتلك هى البراعة والروعة لنجاح الحزب الوطنى الديمقراطي: حكومة توظف جهودها بصورة واسعة كنظام دعم للرئيس.

عندما قام مبارك عام ١٩٩٢، بتنصيب نفسه رئيسا لمرة ثالثة لست سنوات جديدة وفريدة – فى استفتاء غريب لم يكن لدى الناخبين سوى التصويت بـ « نعم» أو «لا» حيث لم يكن هناك مرشح أو مرشحون منافسون كما لم يتم السماح بأن يكون هناك مرشحون منافسون – كان يأمل أن يدعم شرعيته. لأنه الاختلاف المهم الذى بين مبارك ومن سبقوه هو أن كليهما سواء عبد الناصر أم السادات، بطرق مختلفة، قد استوليا على السلطة: ناصر

بالإطاحة بالملك فاروق والسادات بدعم الإسلاميين له، وهزيمة اليسار. وبناء على ذلك استطاع كل منهما إنشاء وإقامة حكوماتهما الخاصة المميزة. وكان ناصر قد قوى سلطته من خلال تأميمه لقناة السويس، وقيادته للعالم العربى .أما السادات فباستعادته للأرض وانتصار أكتوبر ١٩٧٣ . ما قاما به أعطى لحكمهما شرعية لا تقاوم ولا يمكن تحديها. ولكن مبارك لم يكن لديه ما كان لسابقيه، لم يكن لديه ما يمكنه من شرعية الاستحواذ على السلطة والانفراد بها . فما هو إلا وريث قد ورثها.

وعدم قدرته، أو عدم رغبته، فى فهم التعامل مع المشكلات الضخمة التى تواجهها مصر أدى إلى شيوع نوع من الإدراك الواسع مفاده؛ أن أكبر دولة عربية لا تجد لها مرساة وأنها فى مهب الريح لأنها تدار بصورة رديئة. فبعد سبعة عشر عاما قضاها فى الحكم، لايزال يبدو أحيانا وكأنه وصى أو وكيل يشترى الوقت. مثل الموظف الحكومى المغتم فى بداية قصة محفوظ «طائر السلوى فى الخريف» مبارك يبدو وكأنه يقف فى وسط اللاشىء».

السمعة السيئة لحكومة مبارك كحكومة استفحل فيها الفساد تغذى الشعور بالسخط لدى الشعب، ويتم استغلال هذا الوضع من جانب الإسلاميين. ويؤدى هذا أيضا وبصورة دائمة إلى خوف بل رعب الدول الغربية المانحة وأيضا الدبلوماسيين الغربيين. أما الشىء المثير للغضب وبصفة خاصة هى الاتهامات المتصاعدة لعصابة الأبناء (أبناء الرئيس)، كما يطلق عليهم من عدد من أبناء الموظفين المقربين من مبارك المتعاملين معهم بصورة مستمرة، اثنان من الذين يتم ذكر أسمائهم باستمرار هما أبناء الرئيس. من الاتهامات التى يتم توجيهها لأبناء الرئيس – وبالتالى لحكومة مبارك هى مساعدتهم المستمرة للجارة ليبيا للالتفاف على العقوبات المفروضة عليها من الأمم المتحدة والتى جعلت الولايات المتحدة توجه الكثير من اللوم والتوبيخ لمصر. (مما استهجنته أمريكا بصورة مساوية هو ما أكدته المخابرات المركزية الأمريكية فى سبتمبر من عام ١٩٩٧، من أن موظفى أمن مصريين قد قاموا بخطف المعارض الليبى البارز منصور الكخيا، والذى كان على وشك الحصول على الجنسية الأمريكية. فقد تم اختطافه من فندق فى القاهرة ثم تسليمه لحكومة العقيد معمر القذافى التى كانت من أشد المعارضين لأمريكا. وقد كان منصور الكخيا سفير القذافى

للأمم المتحدة ووزيرا لشئون خارجيته، وبعد تسليمه للسلطات الليبية عن طريق الأمن المصرى تم إعدامه خارج العاصمة الليبية دون محاكمة أو تهمة وذلك فى عام ١٩٩٤. وقد نجمت عن بروز الدور المصرى فى خطف وقتل الكخيا مكالمة هاتفية غاضبة من نائب الرئيس الأمريكى للرئيس مبارك.

ومع ذلك ظلت أمريكا تراهن وبشدة على حكم الرئيس مبارك وتدعمه، لأنه وبعد توليه الرئاسة أسرع مبارك مؤكدا على التزام مصر بمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، وبدأ فى إعادة مصر لعلاقاتها مع أشقائها العرب واستعادتها لمكانتها وريادتها للعالم العربى، ثم شرعت فى العمل من خلف الستار كوسيط فى المحادثات الدائرة من أجل السلام فى الشرق الأوسط. كما أن الرئيس حسنى مبارك قد لعب دورا مهمًا فى إضفاء الشرعية، وقيام تحالف تقوده أمريكا ضد حكم صدام حسين فى العراق وذلك فى حرب الخليج. وعرفانا من الولايات المتحدة بدور مبارك فى ذلك تم إلغاء سبعة مليارات دولار من ديون مصر الخارجية.

لذلك فإن الكثير من المصريين – سواء كانوا إسلاميين أم ماركسيين أو علمانيين– وبسبب تلك الأشياء تحديدا وجدوا أنفسهم أكثر غربة ونفورا من رئيسهم.

تصرف وتعامل الولايات المتحدة الفظ مع الرئيس العراقى صدام حسين وفشلهم فى دفع العملية السلمية الفلسطينية الإسرائيلية للأمام، تم استيعابه بصورة عامة – ليس فى مصر وحدها، ولكن فى الشرق الأوسط كله – ليكون دلالة لإستراتيجية أمريكا أحادية الجانب بصورة واسعة، تلك الإستراتيجية التى أظهرت واشنطن من خلالها قصورا كبيرا فى التوازن فى علاقتها ومعاملتها مع العالم العربي. ففى الأمم المتحدة، قامت الولايات المتحدة بالضغط والترهيب والترغيب حتى فرضت عقوبات على العراق، أما عندما تحدت إسرائيل قرارات الأمم المتحدة تساهلت أمريكا واكتفت بالغمز واللمز. عندما نقضت حكومة بنيامين نتنياهو معاهدات أوسلو للسلام برفضها التخلى سوى عن جيوب متناثرة من الأراضى الفلسطينية المحتلة، بدا واضحا أن أمريكا افترضت إن حلفاءها فى العالم العربى – بما فيهم مبارك – يمكنهم السيطرة على مواطنيهم. ولكن الأحداث أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أنهم لم يستطيعوا فعل ذلك. وكل خطوة مزيفة وخاطئة خطتها الولايات المتحدة قوبلت بهجوم وعنف شديدين وانتقاد فى العالم العربى كله.

عندما أستعيد الماضى وأتأمل فيه، يبدو لى أنه لكى أفهم ما يحدث اليوم فى مصر وفى الشرق الأوسط، فمعاهدة كامب دافيد للسلام هى التى يكمن فيها مفتاح اللغز. فإلى حد ما كل شىء نشأ عنها وتولد منها: تصاعد النبرة ضد الأمركة وتصاعد المد الإسلامى السياسي. دولة حسنى مبارك المحتضره والمحاصرة، إحساس المرارة بالغدر وخيانة الفلسطينيين: وتحول مصر إلى دولة فى حالة حرب مع نفسها. ربما أكبر رمز ودلالة على ذلك وأكثر من أى شىء آخر هو جنازة الرئيس السادات عام ١٩٨١، فهو فى أعين الكثيرين جدا من أبناء بلده مجرم، خائن تم إغواؤه بواسطة الولايات المتحدة للعب دور الوسيط لإقامة دولة عربية موالية جدا لأمريكا: فإلى حد ما قدمت جنازته صورة واضحة لما أصبح عليه البلد: تم توجيه دعوات لحضور الجنازة لثلاثة رؤساء سابقين لأمريكا ورئيس وزراء إسرائيل: ولم تتم دعوة شعبه.

الباعث على السخرية؛ أن المساعدات الأمريكية التى انصبت بغزارة على مصر (نحو أربعين مليار دولار منذ ١٩٧٩) والتى حولت مصر لتصبح محور السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط - وجعلتها، بعد إسرائيل، ثانى أكبر دولة تتلقى مساعدات أمريكية وأكبر دولة تتلقى مساعدات بهذا الحجم خارج الحدود بعد فيتنام - كان القصد منها شراء استقرار سياسى، وقد تم تذكيرى ذات صباح فى أو اخر عام ١٩٩٤، بأن هذا الرأى كان مغلوطا ومخادعا. فكم كان الثمن باهظا والنتائج واهية.

بينما كنت أسير بمحاذاة النيل مستعيدة إحدى التمشيات التى كانت تقوم بها السيدة بينيبيكر والتى كانت مفضلة جدا لديها، مررت بمجموعة من شرطة مكافحة الشغب، كانت وجوههم مغطاة جزئيا بواسطة الأجزاء الأمامية لخوذاتهم، فقد كانوا قائمين على حراسة مراكز سياحية وفنادق نصف خاوية. فى الجزء الأدنى أبصرت نحو دستة أخرى منهم فى قارب تابع لدورية الشرطة، كان فى صحبة سفينة نيلية تقل مجموعة من السياح اليونانيين فى ملابسهم البكيني، وهم يأخذون حماما شمسيا، كان الجنود يقفون فى حالة انتباه منقوص موجهين بنادقهم الآلية نحو السفينة التى تحمل السائحين الذين كان يفترض أن يقوموا بحمايتهم. الحملة التى كان يقودها الإسلاميون المسلحون والتى كانت تهدف

إلى عرقلة الاقتصاد المصرى عبر قيامهم بمهاجمة السياح والسياحة- والتى هى المصدر الأول للعملة الصعبة فى البلد (تأتى بعدها مباشرة تحويلات المصريين العاملين فى دول الخليج والمساعدات الأمريكية) قد كلفت حكومة مبارك نحو مليار ونصف المليار عام ١٩٩٤ ودمرت صناعة السياحة فى مصر. بالتعاون مع محاولة حكومة ضعيفة ومرعوبة على نحو لا يمكن إنكاره من أجل الخصخصة وبناء إصلاح اقتصادى، مع العزوف المتصاعد من المستثمرين الأجانب لاعتبار مصر مكانا واعدا إلا أنه أفاد فقط فى توسيع الهوة بين الحكام والمحكومين. والخلل الاجتماعى والاقتصادى الذى كان يغذى جذوة الشعلة الإسلامية بدا أنه يسير من سيئ إلى أسوأ. ولن يغير ذلك شن الحرب على الإسلاميين.

عندما سألت أحد الدبلوماسيين الغربيين عن رأيه فيما يحدث قال « على عكس الجزائر. لا يشكل الإسلاميون المصريون خطرا على النظام — على الأقل فى الوقت الحالى- ولكن لو واصلت الحكومة سياسة رفض التحاور والبحث عن الجذور المسببة لتلك الثورة وأصرت كما تفعل على التعامل معها من منظور القانون والنظام، فلن أعرف يقينا ما سوف يحدث . فلدى مبارك عقيدة مستقرة فيما يخص الإسلاميين، ودائما ما يصر على التأكيد لنا أنهم من خلْق إيران والسودان، ولكنه لم يقدم أبدا دليلا على ذلك. نعم، هناك بعض التمويل الإيرانى يدخل إلى هنا وأيضا تلقى بعض المصريين تدريبات فى معسكرات السودان ولكنه من الخطأ جدا- وهو بالفعل، خداع ذاتى- أن تضع كل الثقل على مساعدة خارجية، لأن الغالبية العظمى من الأسلحة والأموال والجنود والغضب الذى يغذيهم ويدفعهم يأتى من هنا. رغم تأكيدات وآراء مبارك، فالمشكلة ليست إيران ولا السودان ولكنه هو ذاته المشكلة»

كان الغضب الذى يتحدث عنه السفير قد ازداد ربما قبل نهاية عام ١٩٩٤ . وكذلك مستوى العنف، وعناد وتصلب كل من الطرفين. وبدا أن مصر قد انزلقت لحرب عصابات أولية، حيث لا الإسلاميون ولا قوات الأمن قد عرف لها حدودا أو خطوطا أمامية. كان يتم تعذيب آلاف من المسجونين السياسين كجزء من السياسة الرسمية: المئات اختفوا : تم أخذ رهائن وممارسة العقاب الجماعي. كانت سياسة سائدة: وتم حصار وتطويق أحياء بأكملها وتم هدم مبان ومساجد.

قمت ذات يوم بزيارة لمجموعة من الشباب كان معظمهم طلابا، وقد كانوا فارين ومختبئين بعيدا فى أحد أزقة روايات نجيب محفوظ. كانوا قد توقفوا عن حضور محاضراتهم لأكثر من شهر، وعندما سألتهم عن السبب قال أحدهم «لأننا شباب وملتحون». أن تكون شابا ولديك لحية فى مصر فهذه جريمة».

إن ما أطلق عليه محفوظ «الجانب الخفي» هو الحقيقة الواقعية التى تختبئ خلف الشكل والتقاليد فى المجتمعات التى أصبح فيها القمع جزءا لا مفر منه فى الحياة اليومية لم تعبر عن نفسها فى حضور واضح لقوات مدربة أو رجال شرطة بدون زى رسمى فى الشوارع، رغم أننى كنت ألاحظهم من وقت لآخر. وعبرت عن نفسها فى الشعور بالخوف الذى يجتاح الأزقة وفى شعور الغضب فى صالونات القاهرة المتطورة رفيعة الثقافة. وعبرت عن نفسها أيضا فى الشعور المتنامى الكاره لأمريكا والذى لم أكن أراه أو أعرفه فى مصر من قبل، وفى حصار فكرى للكتاب والمفكرين والمخرجين والروائيين والشعراء الذين وجدوا أنفسهم محاصرين من الإسلاميين فى ناحية، والحكومة فى الناحية الأخرى، وبصفة خاصة شيوخ الأزهر الرسميين، الذين تزايدت آراؤهم الحادة بينما كانوا يحاولون توجيه وضبط وتقييد حرية الفكر والإبداع الفني، وكانوا فى آرائهم وفى تزمتهم وظلمهم ومطالبهم أشبه كثيرا بالإسلاميين المسلحين المتطرفين.

ما الذى يحدث لكياستنا وأدبنا؟ سألنى يوسف شاهين، المخرج المصرى العالمى المعروف ذات يوم، فقد كان الإسلاميون قد هاجموا فيلمه الذى حقق نجاحا لم يسبق له مثيل وكسّر الرقم القياسى المصرى من حيث نسبة المشاهدين، وهو فيلم «المهاجر» زاعمين أنه مبنى على قصة يوسف الصديق طبقا لرواية الإنجيل. وفى ذلك تجسيد لنبى على أنه إنسان. كان هناك تهديد بتفجير الدور التى كانت تعرض الفيلم، وقام محام مغمور مدعوما بالأزهر، برفع دعوى طالب فيها بحظر عرض الفيلم (والذى حدث بالفعل فى عام ١٩٩٥، رغم أن أمر الحظر تم إلغاؤه فيما بعد عن طريق محكمة الاستئناف). أخبرنى يوسف شاهين قائلا: «هل تعرفين أنه قبل كل هذا كنت قد أخرجت فيلما ينتمى للدراما الوثائقية يصور غربة سكان الأحياء الشعبية الفقيرة وانسلاخها عن المجتمع وتم منع عرضه عن طريق الحكومة». على

عكس الكتاب والفنانين فلم يصدر الإسلاميون المسلحون فتوى بشأنه، ولكنه مع ذلك شعر بأن هناك ما يهدده. كما عقب قائلا: «كلنا شعرنا بخوف وتهديد. سواء كان جسديا أم فنيًا. فخنق أعمال الإنسان الفنية وإبداعاته لا يختلف بأى حال عن طعن نجيب محفوظ فى رقبته».

كان محفوظ قد بدأ فى تلقى تهديدات بالقتل فى عام ١٩٨٨، بعد أيام فقط من تلقيه جائزة نوبل- عندما تم إحياء الجدال حول الرواية المحظورة أولاد حارتنا- ولكنه رفض بشدة وعناد شديدين أن يقبل حراسًا مسلحين من قبل الحكومة. وقد قال محفوظ فى مقابلة صحفية فى ذلك الوقت « إننى أذهب إلى المقهى سيرا على الأقدام، ولا أنظر يمينا ولا يسارا. ولذا فماذا لو أمسكوا بى أو نالوا مني؟ لقد عشت حياتى وفعلت ما كنت أريد أن أفعله».

على مدى ست سنوات، كان يمكن أن يكون محفوظ هدفا فى أى وقت. ومع ذلك فإن الرجل الذى عاش حياته فى أزقة الجمالية وحواريها، والذى لم يغادر مصر سوى مرتين فى حياته- إحداهما فى رحلة رسمية ليوغوسلافيا السابقة لمدة ثلاثة ايام والأخرى لليمن- لم يكن يصدق أبدا أنه يمكن أن يحدث له مكروه.

لقد اهتز محفوظ وبعنف فى يونيه ١٩٩٢، عند اغتيال صديقه فرج فودة، وهو واحد من أفضل الكتاب فى مصر، وكان مهاجما للمعتقدات الخاطئة . ليس فقط للجماعات الإسلامية المسلحة ولكن للزحف المتأسلم على الحياة المصرية .وقد تم إطلاق النار عليه خارج منزله فى القاهرة عن طريق عنصرين مقنَّعين من عناصر الجماعة الإسلامية الذين مزقوا جسده باثنتى عشرة طلقة من مسافة قريبة بعد أن كان قد تم اتهامه بالردة. كان هذا الاغتيال أول اغتيال يستهدف المفكرين المصريين، وقد كان مؤشرا على بداية الحصار الفكري. بالرغم من كتابات فرج فودة ونقده اللاذع فإن القليل من المصريين توقعوا أن يكون الثمن حياته.

فمثل فودة ومعظم العلمانيين المصريين فإن، محفوظ- كان يطالب الحكومة باستمرار للتحاور مع الخصوم الإسلاميين -ازداد اهتمامه بتزايد نفوذ الإسلاميين بصورة مضطردة ومتوافقة فى المدارس والجامعات، وفى وسائل الإعلام، والمحاكم، وفى الفنون والآداب، وهذا ما اعتبره ردا خانعا من الحكومة واستجابة فيها إذعان.

(الذى بدا واضحا أنها من شدة ذهولها من الحركة فقد استمرت الحكومة فى الميل والتأرجح ما بين القمع وبين القيام بحملة منسقة ومنظمة تنظيما رفيعا، لتجعل نفسها تبدو وكأنها أكثر إسلاما من النشطاء الإسلاميين) .

ففى يناير ١٩٩٤، أعطت مخاوف محفوظ إنذارا بالخطر. ففى جلسة اعتبرت، بكل الحسابات جلسة غير عادية للبرلمان المصري، قام عضو مجلس الشعب الإسلامى المستقل جلال غريب – بعد أن طلب من النساء مغادرة القاعة– باتهام وزير الثقافة فاروق حسنى بنشر صور عارية وإباحية فى مجلة حكومية شهرية: كانت إحدى الصور موضوع الاستجواب صورة لجوستاف كليمت (Klimt Gostav) لآدم وحواء . وصفق له المجلس تصفيقا حادا وهلل له مناصروه فى القاعة . قام غريب بالهجوم على مدارس الباليه فى مصر والترجمة العربية للأدب الأجنبى والإعداد المصرى لمسرحية كتبها برتولت بريخت (Bertolt Brecht) وأمام دهشة فى القاعة أعلن فاروق حسنى أن أى كتاب يتم إعداده للنشر عن طريق وزارة الثقافة سيتم إرساله للأزهر للمراجعة. لم يحدث أبدا من قبل فى تاريخ مصر الحديث أن وافقت أية حكومة على مثل هذا الطلب. وأصدر محفوظ منشورا غاضبا تم التوقيع عليه من قبل العشرات من الكتاب والمبدعين والفنانين وصف فيه الهجوم على الفنون بـ «الإرهاب الفكري» وأخبر صديقا له فيما بعد « لم يعد الرقيب فى مصر الدولة فقط، ولكنه أصبح مسدس المتشددين».

جامعة الأزهر هى أقدم جامعة فى العالم وهى تجذب آلاف الطلاب من كل أنحاء العالم الإسلامى سنويا. وحرمها، الذى أصبح فى اتساع وثراء متزايدين – وتشدد متزايد– يهيمن عليه مسجد مدهش من القرن العاشر له خمس منارات ينطلق منها صوت المؤذن خمس مرات يوميا لدعوة المؤمنين للصلاة. ولفترة طويلة كانت الجامعة الساحة الأولى والخصبة لتجنيد أعضاء فى الإخوان المسلمين، وقد قام خريجوها بالمقابل بإعادة تصدير شعار الإخوان المسلمين الداعى للإسلام المسلح عبر العالم الإسلامى كله.إن ما يزيد قلق الحكومة المصرية هو نجاح الإخوان حديثا، بفضل التمويل السعودى السخي، فى تجنيد واستقطاب شيوخ بارزين داخل الأزهر ذاته.

لذا لم يندهش الدبلوماسيون الغربيون عندما قام الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر، البالغ من العمر السابعة والسبعين، والمعين من قبل مبارك، بإصدار فتوى قاسية ضد انعقاد مؤتمر السكان الخاص بالأمم المتحدة فى القاهرة عام ١٩٩٤، ولا عندما منح لقب شهيد على واحد من شباب الجماعة الصغار والذى كان قد انضم للجناح العسكرى لحماس وقاموا بعملية إطلاق نار خلفت وراءها ستة عشر بين قتيل وجريح . سبب كلا التصريحين حرجا كبيرا للرئيس مبارك وذهولا للحكومة.

لم يندهش الدبلوماسيون ولا العلمانيون المصريون الذين تم محاصرتهم وأحكام الطوق حولهم بصورة متزايدة عندما قام واحد من أبرز العلماء المعتدلين المسلمين، وهو الشيخ محمد الغزالي، أحد علماء الأزهر، بالإدلاء بشهادته مدافعا فى المحاكمة المنعقدة لمحاكمة هؤلاء الذين تم اتهامهم باغتيال فرج فودة، أيد بقوة أن قتل المرتدين أو من يقاومون تطبيق الشريعة الإسلامية خارج اختصاص المحكمة. بالنسبة للعلمانيين، كان الشيخ الغزالى قد أتى ليقدم التقاء خطيرا بين المتطرفين المصريين والاتجاهات السياسية الإسلامية المعتدلة. ومن وجهة نظرهم، أنه وحيث إن الحكومة استوعبت الأزهر ووالته فقد جرَّأه ذلك عليها ، وقد بدأ الأزهر فى تبنى أفكار سياسية كتلك التى يتبناها المتطرفون.

« أدركنا، فجأة، أنه وفى داخل الأزهر نفسه هناك الكثير من الشيوخ ممن يؤيدون ويدعمون العنف، الذى يؤكد ذلك ويصدق عليه هو السفير المصرى المتقاعد تحسين بشير». الذى أخبرنى فى جلسة على فنجان من الشاي، لقد كان الأزهر دائما هو المركز. فزعيم حركة حماس الشيخ ياسين درس هناك، كذلك فعل حسن الترابى والشيخ عمر عبد الرحمن. واليوم ها نحن نرى شيوخ الأزهر وهم يصدرون فتاوى تتساوى فى تطرفها مع تلك التى يتبناها أعضاء الجماعة، وهم يقومون بإصدار تلك الفتاوى بتشجيع ومباركة من الإخوان المسلمين».

يستمر السؤال الرئيسى فيما يخص جماعة الإخوان المسلمين ليكون نفس السؤال وهو: هل حقا هى تنبذ العنف، كما ادعت أنها قد فعلت فى محافل ومناسبات عديدة. فهى

تستمر فى الادعاء بأنه ليس لديها تحكم مباشر ولا سلطة على الجماعات الأخرى كالجماعة الإسلامية مثلا، ولكن ظل بعض المصريين والغربيين غير مقتنعين .

أخبرنى أحد الدبلوماسيين الغربيين عندما ذهبت فى زيارة له قائلا: «كيفما يكون التنسيق بين الجماعات فهو شيء ثانوي، إن ما يهم أن تلك الجماعات كلها لديها علاقة فاعلة؛ فأهدافهم واحدة. يمكن أن يتنافسوا أو يختلفوا، وربما يكونون فى سباق ، أو فى جدال مع بعضهم البعض. هذا لا يهم. لكن ما يهم هو أنهم لديهم توزيع مؤثر وفاعل للعمل، والرابط الذى يربط كل تلك الجماعات معا هو المال المتدفق من السعودية ودول الخليج سواء كان يأتى من أفراد أم من الحكومات.

إمبابة، مختبئة هناك فى الحوارى والأزقة - بعيدة تماما عن فهمى وإدراكى ونظري، عندما لمحتها لأول مرة من شرفة المنزل أيام دراستي- لا يفصلها سوى كوبرى على النيل عن جزيرة الزمالك المترفة الغنية، ولكنها واحدة من أكثر الأحياء القاهرية كآبة وبؤسًا وشقاء، يقطنها نحو ٨٠٠،٠٠٠ ألف نسمة وربما أكثر.

ففيها البيوت المقفرة قليلة الأثاث ، المترنحة أحيانا ، تلك البيوت المبنية من الجص أو الطوب أو الحديد المزوج بالطين، متاهة من خطوط وبلاعات المجارى المفتوحة وشوارع الحوارى والأزقة غير المهدة. تلك الأزقة الضيقة التى لا تزيد سوى قليلا عن تلك الممرات الضيقة المظلمة المختبئة السرية. فبعض تلك الأزقة لا يتجاوز عرضها الستة أقدام، والمحاولة للسير فيها بالسيارة يعنى السير الهوينا بتمايل ورجرجة وانحراف، وبسرعة لا تزيد على من يسير على قدميه. عبر أخاديد ووديان وبرك ومستنقعات، ثم التفاوض على وسيلة للالتفاف حول أقفاص الدجاج، وأكوام القمامة المتناثرة والبالوعات المفتوحة. ومناشر الغسيل تطالعك على الجانبين من فوق الأسطح وعلى الشرفات، حتى إن الغسيل يصافح بعضه البعض لو هبت نسمة هواء، خالقا حواجز متصاعدة.

من اللحظة التى تصل فيها إمبابة ، تطالعك وتسحقك المشاكل المستعصية التى تواجه مصر. تصاعد القطبية السياسية؛ الزيادة السكانية التى قاربت نصف السكان فى سنوات حكم مبارك؛ اقتصاد يفتقر للبنية الصناعية، التى تجعل ١٥٪ على الأقل من الثمانية عشر

مليونًا ممن هم فى سن العمل لا عمل لهم، ومن ٥٠ إلى ٣٥ ٪ تحت سن العمل، ٢٣٪ من سكان مصر يعيشون فى فقر مدقع.

بينما ألقى ببصرى عبر النيل ، أرى فى الأفق مبانى وشوارع الزمالك تحفها الأشجار والحدائق الغناء والجنائن والمتنزهات وأرى مصر أخرى تعلن عن نفسها.

أتيت إلى هنا إلى هذا المكان بصحبة شاب يقوم بدراسات عليا – سأطلق عليه اسم أحمد، حيث إنه هارب ويعيش مختبئا– وفضّلنا أن نتمشى على أقدامنا.

السير عبر الحارات والأزقة يجعلك إلى حد ما قادرًا على استكشاف مدينة حافلة بالتنوع والاختلاف، تختبئ خلف الأسوار. ليس هناك أية آثار أو حضور للحكومة هنا: القليل من الخدمات: فقط فرقعات الكهرباء: والقليل من المستشفيات والمدارس. لقد تركنا الحكومة خلفنا، وخلّفناها وراء ظهورنا عند آخر طريق مرصوف.

تركنا وراءنا أيضا أشعة الشمس حيث الأزقة التى لا ترى الشمس. مجرد متاهة من الممرات الموحلة حيث العمارات الرثة القذرة بواجهاتها الجرداء تحيطنا من اليمين ومن اليسار حاجبة عنا الشمس والسماء.

أخيرا وصلنا لبغيتنا وهو مسجد الإيمان بالله. واحد من نحو سبعين ألف مسجد أهلى (غير رسمى) – تلك المساجد التى تضاعف عددها منذ أيام دراستى فى القاهرة– لم يكن المسجد أكثر من حجرة فى الطابق الأرضى بعمارة قاتمة اللون بالمنيرة الغربية بإمبابة. كانت الشعارات الإسلامية المتطرفة منحوتة بجرأة على الجدران وفوق النوافذ المتشابكة الشبكية وعلى الأبواب البنية، تلك الأبواب التى كانت مغلقة بأقفال ضخمة ومشمعة. فقد قامت الحكومة بغلق كل مساجد المنيرة الأهلية فى تحركها لسحق الجماعات الإسلامية – كانت هناك عشرة مساجد أهلية– وتم أيضا اعتقال أئمتها. كان إمام مسجد الإيمان بالله طبيبا وتم اعتقالة فى سجون مصر المختلفة أربع سنوات دون تهمة أو حتى محاكمة. كان هناك أيضا أئمة المساجد المحيطة – بمن فيهم أساتذة جامعات ومحامون واقتصادى ماركسى سابق– كانوا ما زالوا خلف القضبان حتى تلك اللحظة. ولكن المساجد الأهلية، تم إغلاق نحو ألف مسجد فى مصر كلها، كانت إلى حد ما، مثل الإسلاميين المسلحين أنفسهم

ما إن تخمد الحكومة جذوة نشاطهم فى مكان أو منطقة أو محافظة حتى تراهم يبرزون فى مكان آخر.

غادرنا مسجد الإيمان بالله، إلى مقهى مجاور، وجلسنا على إحدى الطاولات المجدولة المتناثرة فى الأزقة حيث وصفها محفوظ ذات مرة قائلا: «إن البيوت متراصة معا بلا نظام على جانبى الطريق كطابور من الجنود واقفين فى راحة واسترخاء». فى هذا اليوم المميز بالذات، كان هناك أربعة رجال أمن يتمتعون بطلعة بشعة وقبيحة، وكانوا جالسين على الطاولة المجاورة لنا، يسبِّحون بمسابحهم فى قلق. بينما كنا نرتشف فنجانا من القهوة الثقيلة. كنا نراقب الحياة فى الأزقة وهى تمر علينا: فتاه صغيرة كانت ترتدى جلبابا أسود وعلى رأسها الحجاب التقليدى وتمتطى حمارا : طيور فى أقفاص قذرة على ظهر عربة كارو يجرها بغل. قطيع من الأغنام تنتظر الذبح على باب قصّاب حيث اللحوم معلقة ومكشوفة فى العراء. مجموعة من الرجال سمر البشرة وسمر العيون يرتدون الجلباب وأغطية الرأس الخاصة بالصلاة . كانوا يمرون فرادى فى صمت كأنهم يؤدون تدريبا عسكريا سريا.. حملق جنود الأمن فيهم وردوا هم الحملقة. غالبا ما ينتمى الرجال ذوو البشرة السوداء لريف الصعيد المصري، قال أحمد، إن المعركة بين الحكومة والإسلاميين على أشدها. وكان الكثيرون فى المقهى يخشون أن تتحول المواجهات فى الصعيد إلى حرب أهلية بسبب التشوش الناجم عن تلك المواجهات.

انضمت إلينا امرأة ممتلئة الجسم، على أصابعها وعلى أنفها وشم، وهى تغطى رأسها بحجاب. قدمها لى أحمد باسم جميلة، وأضاف أنها عاهرة الحى. أخبرتنى أنها أعطت عشرين فى المائة من دخلها لأحد المساجد الأهلية. أثناء حوارنا جاء رجل ضخم متثاقل الحركة، وجلس معنا وبعده فتاة صغيرة، تلك الفتاة التى كانت قد أخبرتنى أنها كانت تضطر إلى قطع ميلين سيرا على الأقدام لتذهب للمدرسة.

إن الشخص الذى يقطن الأزقة ليس مجرد شخص ولكنه جزء من شبكة عمل اجتماعية، هذا ما كان قد أخبرنى به أستاذ علم اجتماع من قبل. والآن، بينما كنت أراقب الحياة فى الشارع، بدا لى وكأنما الأشياء موجودة عبر عنها الكثير من أعمال محفوظ، هناك

عالمان مختلفان أشد الاختلاف يتعايشان معا جنبا إلى جنب هنا فى الحوارى والأزقة: عالم التطرف الإسلامى النشط وعالم الرذيلة المتطرف. وهؤلاء الذين عاشوا هنا، مختبئين بعيدا عن أعين العامة، مثل الأزقة هم شخصيات محفوظية. فهم يضمون الموظفين والبيروقراطيين والمتعلمين المتعطلين، العمال وأصحاب المحلات . كل هؤلاء فى الأزقة وجدوا عزاء فى كونهم نكرات مجهولين ولكن عندما يقيسون حياتهم بأحلامهم وأمنياتهم يبدون أقزاما، لذا فليس من المدهش أن تتحول حوارى وأزقة إمبابة إلى معقل من معاقل الجماعات الإسلامية.

فكلهم حاضرون هنا — الإخوان والجماعة والجهاد - وفى محلات البقالة كما فى المساجد الأهلية من السهل أن تجد خطب الشيخ عمر عبد الرحمن. بعد أن غادرنا المقهى وسرنا أنا وأحمد عبر أزقة وحوارٍ أكثر ضيقا وجدناها ناطقة بصورة متزايدة بأهم وأعظم موضوعين فى مصر : المؤمنين والفقراء أو الإيمان والفقر.

كل ما يتناهى لآذاننا من أصوات سواء من مكبرات الصوت أو الإذاعة هو صوت لتلاوة القرآن . الناس يسجدون ويركعون مؤدين الصلاة فى أماكن ضيقة متربة. شاهدت على كل جدار مررنا به تقريبا رايات خضراء وبيضاء ترفرف فوق الشرفات وشعار الإخوان المسلمين « الإسلام هو الحل» على الجدران المحطمة.

بنى الإسلاميون تحت قيادة الإخوان المسلمين نظامهم الاجتماعى ومؤسساتهم الاجتماعية التى كانت تنافس المؤسسات الحكومية. فقد قامت الجماعة وعبر سيطرتها على المساجد الأهلية من إقامة وفتح عيادات طبية ومدارس ومراكز رعاية للأطفال ودور حضانة بأجور مخفضة أحيانا أو رمزية فى معظم الأحيان، وأيضا مصانع الأثاث لحل مشكلة البطالة وكانوا يوفرون اللحوم بأسعار الجملة للفقراء. ورغم برنامج الحكومة الاجتماعى الضخم بتكلفة عشرة ملايين دولار والذى أطلقته الحكومة فى نهاية عام ١٩٩٤، فقد ظلت المؤسسات الإسلامية بصفة عامة أكثر كفاءة وتتفوق على المنشآت والمؤسسات الحكومية. انهيار كل الأيديولوجيات العلمانية التى اعتنقها السياسيون المصريون والمفكرون خلال هذا القرن تم بجهود الحكومة وقمعها وكبتها أكثر بكثير من أسلحة الإسلاميين وتفجيراتهم التى تقوم بتغذية جذوة النار الإسلامية واستمرارية لهيبها.

بحلول منتصف عام ١٩٩٢، كانت الجماعة الإسلامية قد خلقت وكونت دولة داخل الدولة. ولم يكن هناك أى تسامح لمن يخالف تلك الدولة فى الأزقة التى كانت تحت سيطرتها. كان يتم توبيخ السيدات والبنات وتجريحه لو خرجن للشارع دون حجاب، وقد لاحظت أن الفتيات فى عمر السادسة – على عكس ما هو سائد من أن العمر الطبيعى للحجاب هو الثانية عشرة أو الثالثة عشر – كن يرتدين الحجاب. تم فرض الجزية بالقوة على أصحاب المحال التجارية الأقباط المسيحيين ثمنا لحمايتهم كما قيل لي، وأزال الكثير منهم صور السيدة العذراء من على جدران محلاتهم. كان الإسلاميون المسلحون بالمسدسات والمدى يجولون الشوارع ويحرقون محلات الفيديو وكان هناك الكثير من الأحياء التى لم يكن رجال الشرطة ليجرؤوا على الدخول إليها بعد حلول الظلام. تم تعيين أمراء محليين كان معظمهم من الشباب الملتحى ويرتدون الجلباب الأبيض وغطاء الرأس الخاص بالصلاة. وكل أمير يقوم فى منطقته بفرض وتطبيق الشريعة الإسلامية بالأمر. بعد ذلك تحركت الحكومة فى ديسمبر فى محاولة إجهاض لسحق الإخوان المسلمين. كان اجتياحا عمليا قوامه خمسة عشر ألف جندي، ومنذ ذلك الحين يتم شن تلك الغارات من وقت لآخر على فترات متقطعة.

وجدت آثارا للعنف فى كل مكان ذهبت إليه: ألواح معدنية عليها آثار إطلاق النار واضحة من ثقوب فيها والمساجد الأهلية التى تم غلقها : وجوه الأمهات اللائى اختفى أولادهن: منهم ولد صغير بالكاد يصل للمراهقة، كان قد تم اعتقاله وتم دفنه فى الأرض حتى رقبته لمدة أيام فى فى تربة مالحة جدا فى معسكر أمنى تابع للدولة. تغيّر لون جلده وأصبح كالأبرص حتى أصبح من المستحيل أن تخمن كم عمره.

قابلت على إسماعيل لأول مرة فى نوفمبر عام ١٩٩٤، فى مكتبه فى أحد أزقة إمبابة غير المضيئة والغارقة فى المياه. وعلى إسماعيل هو محام يدافع عن أعضاء الجماعات الإسلامية. رجل قصير فى منتصف الثلاثينيات من العمر. أكثر ما يميزه هو عيناه العميقتان السوداوان ولحيته السوداء المشذبة بدقة وعناية، حيّانى أنا ومترجمى بحرارة وقدم لنا مشروبا باردا (بيبسي) عند وصولي. بعدها قادنا من المكتب الخارجى إلى مكتبه الخاص وكان مكتبا صغيرا فى حجرة طلاؤها من الجير الأبيض ومضاءة بمصباح كهربى واحد مدلى من السقف. كان المصراع الوحيد الموجود فى النافذة الوحيدة مغلقا بأحكام.

خلال العمليات التى نفذها الأمن فى إمبابة فى ديسمبر عام ١٩٩٢، كانت إمبابة قد تم عزلها تماما عن العالم، لذا سألت إسماعيل أن يروى لى ما حدث وقتها. قال: « قاموا بحصار المنطقة كلها وتطويقها من أربع أو خمس نقاط إستراتيجية. وعندما استيقظ الناس فى الصباح وجدوا أنفسهم تحت الحصار. كان هناك الكثير من العمليات التى قامت بها قوات الشرطة هنا قبل ذلك والتى اعتاد الناس عليها. ولكن لم يحدث مثل هذا الأمر من قبل ولم نر شيئا مثل هذا من قبل. كان هذا حدثا غير مسبوق من حيث كثافته وشدته وعنفه وطول مدته وفى عدد من تم اعتقالهم. لم يحدث مثل هذا الأمر ولا حتى فى الأوقات الصعبة والسيئة– حتى عندما تم اغتيال السادات، على سبيل المثال– استمرت العمليات ليلا ونهارا ولمدة خمسة أسابيع. بحلول أول مساء كانت فكرة العقاب الجماعى هى الخط الفاصل المعروف والمكشوف: كانوا يعتقلون كل شاب لديه لحية وأمهاتهم وآباءهم وأولادهم وزوجاتهم . تم أخذ الأطفال الرضع. والأطفال دون العاشرة تم اقتيادهم لمراكز الشرطة وتعذيبهم للضغط على آبائهم كى يسلموا أنفسهم.

« تم تعذيب النساء بالصدمات الكهربائية وضربهم فى الشوارع – وجرّهن وسحلهن من شعورهن بعد تمزيق أغطية رؤوسهن. كان هناك ما لا يقل عن خمسة آلاف معتقل (طويل الأمد). خلال السنة التالية تم الإفراج عن نحو أربعة آلاف وخمسمائة شخص: لم يكن هناك توجيه لأية تهم أو محاكمات. لم يكن لدى الكثير منهم أية فكرة عن سبب اعتقالهم – سوى أنهم عاشوا فى أزقة وحوارى إمبابة.

سألته « وماذا بشأن الخمسمائة الآخرين؟»

أجاب قائلا: « ما زالوا فى السجن. تم توجيه تهم لبعضهم ومحاكمتهم، ومعظمهم تمت تبرئتهم وإخلاء سبيلهم عن طريق المحاكم. آخرون – وهم الغالبية العظمى منهم، نحو أربعمائة تقريبا– لم يتم تقديمهم للمحاكمة، لأن المحاكم قد أصدرت أمرا بإطلاق سراحهم لعدم كفاية الأدلة». توقف للحظات ثم أردف قائلا: « ولكن فى ظل قانون الطوارئ – والذى تم تمديد العمل به فى عام ١٩٩٧ لثلاث سنوات أخريات، ما يعنى أنه ظل ويظل عاملا لمدة عشرين عاما غير مسبوقة – عندما تدخلين للسجن فى مصر فلا أمل لك فى الخروج».

طبقا لمراقبى حقوق الإنسان فقد وصل عدد الإسلاميين فى السجون المصرية فى عام ١٩٩٤، إلى ما يزيد على عشرين ألفا فى مقابل ستة آلاف فى السنة السابقة. عندما قمت بزيارة لمكتب وزير الداخلية المتصلب حسن الألفى بدا ضجرا، وقال إن تلك الأرقام خاطئة تماما. ولكنه رفض أن يزودنى برقم بديل، لكنه، قال إنه تم اعتقال نحو أربعة آلاف إسلامى فى عام ١٩٩٤. أخبرنى إسماعيل أن الرقم الإجمالى لمن تم اعتقالهم يقترب من ثمانية وثلاثين الفا. كان هذا الرقم هو الأكبر لعدد المعتقلين السياسيين فى تاريخ مصر الحديث، والغالبية العظمى من هؤلاء المعتقلين تم إصدار أمر إطلاق سراح لهم من قبل المحاكم المدنية.٠

شرح لى إسماعيل أسلوب عمل نظام أورويليان (Orwellian) (نسبة إلى جورج أورويل فى روايته «حديقة الحيوان» وفيها تجسيد للنظام الشمولى القمعى البشع) عندما يتم إطلاق سراح أحد الإسلاميين بأمر الحاكم يتم نقل معظمهم بسرعة إلى مقرات مباحث أمن الدولة المخيفة المرعبة، وهو أحد أذرع وزارة الداخلية ويتم التحفظ عليهم هناك بأية حجة لمدة تبدأ من أسبوع إلى شهر. بعدها يتم إصدار أمر إلقاء قبض جديد ويتم التوقيع عليه من وزير الداخلية ذاته. أما خلال الفترة الفاصلة بين إطلاق السراح الصورى والاعتقال مرة أخري، فيقوم موظفو مباحث أمن الدولة بفبركة أوراق مدعية أنه قد تم بالفعل إطلاق سراحه. وتساءل إسماعيل « ومن كان سيدري؟ إنهم كانوا فى مقر مباحث أمن الدولة طوال تلك الفترة. لقد حدث هذا فى مصر من قبل، ولكن اللافت للنظر المخيف هنا الآن هو أن ذلك الأمر هو الشىء الطبيعي.

طلبت منه أن يعطينى مثالا فتحدث عن حسن الغرباوى، وهو محام من أحد أحياء القاهرة وتحديدا من عين شمس. تم اعتقاله فى يناير عام ١٩٨٩، وتمت تبرئته فى مايو من السنة التالية. ومنذ ذلك الوقت، صدر ثلاثون أمر إطلاق سراح من المحكمة وتم استصدار ثلاثين أمر إلقاء قبض واحتجاز. كان حسن الغرباوى لا يزال معتقلا منذ ست سنوات، ولم تتسن له مغادرة المعتقل على الرغم من حصوله على إطلاق سراح بحكم خمسة قضاة مختلفين ولخمس مرات سنويا.

قال إسماعيل « لدى خمسون حالة لمثل هذه القسوة. جميعهم مابين أطباء ومحامين ومهندسين معماريين يتم اعتقالهم فى حبس انفرادى فيما يسمى «السجن مشدد الحراسة يدعى– العقرب». والعقرب هو سجن جديد داخل قسم مؤمن بشدة فى مجمع مبانى سجن طرة وهو واحد من أشد أماكن الاحتجاز وأسوأها فى مصر. قال لى عدد من المحامين والقضاة إن تمويل بناء السجن قد تم ولو جزئيا بمساعدة من الولايات المتحدة. واستمر إسماعيل قائلا «هذا غير قانونى» «ها هى أحكام المحكمة» قالها ملوحا بمجموعة من الأوراق فى الهواء. «كان عبد الحارث مدنى واحدا من المحامين الذين تحدوا ذلك. لم يكن الأبرز ولا الأقوى والأشد ولكنه دفع حياته ثمنا لذلك».

كنت قد قابلت عبد الحارث مدنى –وهو شاب وسيم فى الثلاثين له عيون سوداء ولحية مربعة وشعر قصير أسود– فى مكتب محام إسلامى آخر فى القاهرة عام ١٩٩٢ . كان يتحدث بهدوء ونعومة تصل إلى حد الخجل. كان عبد الحارث قد دافع عن الكثير من الإسلاميين المسلحين بمن فيهم من كان قد تلقى حكما بالإعدام (وقد كانوا فى ذلك الوقت ٥٦).

تم اعتقاله فى إبريل عام ١٩٩٤، عن طريق مباحث أمن الدولة. قال إسماعيل « أنا أعرف القضية نقطة نقطة. لقد كان صديقي». أما عن الرواية التى رواها فقد تم تأكيدها فيما بعد من قبل مراقبى حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية»[٤].

كان يوم السادس والعشرين من إبريل يوما صيفيا جميلا فيه عاد عبد الحارث مدنى من المحكمة بعد قضاء يومه هناك، عاد من أجل عشاء مبكر مع زوجته البالغة من العمر ٢١ عاما وابنتيه الصغيرتين . بعد ذلك خرج كعادته ليمارس رياضته المفضلة وهى الجرى بمحاذاة النيل. فقد كان الجرى وكرة القدم هوايتيه المفضلتين. كان يشعر بسعادة كبيرة هذا المساء. فمنذ أيام قليلة كان قد كسب قضية مهمة : حيث حكمت المحكمة لصالحه بأن الحبس الانفرادى فى سجن العقرب التابع لليمان طرة ضد الدستور المصرى، وقانون

---

(٤) التقرير العالمى لمنظمة حقوق الإنسان الدولية، ١٩٩٥ (نيويورك: منظمة حقوق الإنسان، ١٩٩٤ . وتقرير منظمة العفو الدولية (لندن منظمة العفو الدولية)١٩٩٥.

العقوبات المصرى أيضا. وكان قد تم تسليم صورة من الحكم فى الصباح السابق فقط لمدير سجن العقرب قام هو بتسليمها يدًا بيد. كان عبد الحارث مدنى يخبر أصدقاءه بأن دائرة العنف فى بلده تفزعه، وأنه بصدد محاولة الآن لعرض اتفاق وقف إطلاق النار بين الطرفين، وذلك عبر عضو معارض محترم فى البرلمان وهو كمال خالد، وكان يأمل أن يتلقى ردا من خالد هذا المساء يحمل رد الحكومة .

وصل عبد الحارث مدنى إلى مكتبه فى منطقة راقية فى الجيزة نحو الساعة الثامنة من ذلك المساء، ومن الواضح أنه لم يلاحظ سيارات مباحث أمن الدولة غير المميزة والتى كانت واقفة تحت العقار. كان هناك بالفعل ثلاثة محامين من الذين كانوا يشاركونه مكتبه. وكان هؤلاء الثلاثة مثل عبد الحارث مدنى أعضاء فى المنظمة المصرية لحقوق الإنسان، ومثله أيضا كانوا يتلقون مساعدات قانونية مالية – كانت تقدم من المملكة العربية السعودية – للمعتقلين الإسلاميين . كان خالد قد نودى عليه كما روى أحد المحامين ولكن لم يتمكن عبد الحارث من الرد على النداء. حيث اقتحم تسعة ضباط من مباحث أمن الدولة المكتب محطمين الباب . كان آخرون يحاصرون المبنى، تم إصدار أوامر للمحامين الأربعة بالوقوف وجههم إلى الحائط وأيديهم فوق رؤوسهم. وبقوا هناك لثلاث ساعات كان فيها ضباط مباحث أمن الدولة قد قلبوا المكتب رأسًا على عقب.

بعد ذلك اقتيد عبد الحارث معصوب العينين إلى منزله بصحبة ضباط مباحث أمن الدولة .(أما المحامون الثلاثة الآخرون فقد تم إطلاق سراحهم) .

قام الضباط بتفتيش شقة عبد الحارث وإرهاب زوجته وطفلتيه . بعد ذلك اقتادوه لمقر مباحث أمن الدولة بالجيزة. كان الوقت ساعتها قد تجاوز منتصف الليل بقليل .

وفى الجيزة وفى مبنى بامتداد مستشفى قصر العينى مكون من ثمانية طوابق كان قد تم تحويله إلى عنبر سرى للاحتجاز، تذكر الأطباء أن عبد الحارث قد وصل إليه محمولا قبل الفجر بقليل. كان ينزف بشدة وكان فى حالة من الصدمة القاسية. ولم تمر سوى ساعة وكان عبد الحارث فيها قد لفظ أنفاسه الأخيرة . وطبقًا لتقرير لم يكشف عنه فى سبب

الوفاة يقول التقرير: إنه قد تم ضربه حتى الموت. فقد وجد فى جسده سبعة عشر جرحًا بما فيها جروح باستخدام آلة حادة . أما الضربة القاضية التى أودت بحياته فقد كانت باستخدام عصا غليظة هوت على رأسه من الخلف .

مع ذلك لم يخبر أحد أهله أو أصدقاءه بما جرى لمدة أحد عشر يومًا. فقط فى يوم السابع من مايو وعند الفجر تم إخبار زوجته لتأتى وتتسلم جثة زوجها من مشرحة زينهم. (أعلنت وزارة الداخلية أخيرًا أن عبد الحارث قد توفى بسبب فشل فى الرئة نتيجة الربو). كما أخبر مصدر رسمى للصحافة «ماذا تتوقع أن تقول الحكومة ؟ نحن لا ننتهك حقوق الإنسان . لقد مات ميتة طبيعية»! فى نفس الوقت الذى تلقت فيه زوجة عبد الحارث المكالمة التليفونية كانت مباحث أمن الدولة قد اعتقلت حماته. وأحد أبناء عمومته وابن عم زوجته، وتم اعتقالهم كلهم كرهائن حتى توافق الأسرة على تسلم جثته ودفنها بسرعة. ولكن أسرته رفضت مطالبين أولا بالحصول على تقرير من الطب الشرعى يحدد سبب الوفاة، وبعد ذلك يتم دفن الجثة. وتم إجراء تشريح مستقل لبيان سبب الوفاة. كانت الأسرة قد تم دعم طلبها بنقابة المحامين القوية ونقابة الأطباء، والتى كان الإسلاميون يسيطرون عليهما تمامًا، وفيما بعد تم الدعم من وزارة الخارجية الأمريكية ومنظمة العفو الدولية ومراقب حقوق الإنسان .

رغم ذلك لم يستمر رفض الأسرة واحتجاجها طويلاً، ففى المساء التالى كان ابن عم عبد الحارث أمير، والذى كان قد قضى يومين فى مباحث أمن الدولة، عاد إلى منزله. كان قد تم تعذيبه بشدة. وفى الصباح التالى عند الفجر ذهبت الأسرة إلى مشرحة زينهم واستلمت الجثة!

أعدت أجهزة مباحث أمن الدولة طائرة لتنقل أمير والتابوت الذى يحمل جثمان عبد الحارث إلى قريته الصغيرة (كيمان المتانة) فى صعيد مصر، حيث يعيش والدا عبد الحارث. ولكن لم يتم السماح لأى من والديه بحضور عملية الدفن ولا لأى شخص آخر، وتم تحذير الأسرة والقرويين بأنهم لو قدموا شكوى بسبب هذا الأمر فإن صلاح شقيق عبد الحارث الأصغر، والذى كان فى السجن بعد اتهامه بقتل ضابط مباحث أمن دولة (سرى) فى عام ١٩٩٢، سيلاقى نفس المصير الذى لاقاه عبد الحارث .

قام رجال مباحث أمن الدولة بدفن عبد الحارث فى قبر غير محدد فى مقابر المتانة بالقرب من ضفاف النيل ولمدة أربعين يوما، وهى المدة الرسمية للحزن. كان ضباط مباحث أمن الدولة واقفين على حراسة المكان. لم يتم السماح لأحد بالصلاة عليه أو إلقاء النظرة الأخيرة .وكانت النسوة فى المتانة اللائى يرتدين الجلابيب السوداء يمر من جانب المقابر وهن فى طريقهن لبئر القرية ولمدة الأربعين يوما تلك. يلتفتن بأعناقهن محاولات تحديد القبر. ولكنه لم يكن معروفا سوى للحاضرين من رجال الأمن فقط .فيما عدا ذلك فالمكان مجرد أكوام من الحجارة يغطيها التراب والرمال.

منذ قيام المدرس حسن البنا بتكوين جماعة الإخوان المسلمين قبل سبعين عاما، والمدارس الخمس والعشرين ألفًا فى مصر – والتى يقوم على التدريس فيها ٨٥٠ ألف مدرس يتقاضون مرتبات ضئيلة – أثبتت أنها أرض خصبة لانتشار الإسلام السياسي. وبحلول أواخر ١٩٩٤، كانت المعركة بين الإسلاميين والحكومة قد انتقلت إلى المدارس وكانت معارك عنيفة وشديدة . ففى الفصول فى جميع أنحاء مصر وبصورة خاصة فى صعيد مصر كان الإسلاميون قد أحكموا سيطرتهم بصورة أساسية على نظام التعليم فرفضوا الفكر العلمانى وأخذوا يهاجمونه ويحرفون الكتب المدرسية، ويقومون أيضا بتشغيل شرائط الكاسيت المعبأة بخطب أصولية تدعو للتطرف بواسطة الشيوخ المحبوبين فى الفصول. وبينما أصبحت حدود المعركة متسعة بصورة كبيرة فقد تم التعبير عنها بأكثر الصور رمزية، وكان هناك صراع متزايد حول ما إذا كان مسموحا للطالبات والمدرسات الحضور إلى الفصول بالحجاب . لذا فقد قمت بزيارة لمكتب وزير التعليم حسين كامل بهاء الدين، والذى كان يحمل على عاتقه أصعب وظيفة فى مصر .وكوزير للتعليم كان يتم اتهامه بالوقوف ضد النشطاء الإسلاميين فى المدارس . وقد قام الوزير فى عام ١٩٩٣ بحظر ارتداء النقاب فى المدارس، ولكنه عندما قام بإصدار قرار بمنع ارتداء الحجاب، فقد تم (ولدهشته الشخصية إلغاؤه من المحكمة) بعد ذلك قام الإسلاميون الذين تجرأوا بعد حكم المحكمة بتحديه بقوة فى مسألة النقاب . ومثلما يحدث دومًا فى مصر فإن حملة الحكومة ضد الحجاب أو النقاب أسهمت كثيرًا فى تقوية شوكة الإسلام السياسى .

فقد كانت هناك مظاهرات ومسيرات تقريبًا كل يوم مصحوبة دائمًا بأعمال عنف بينما كانت الفتيات المرتديات النقاب يقمن باقتحام المدارس الحكومية . وقد رأيت ذات يوم عددًا من الفتيات فى إمبابة يتم اعتقالهن -كان بعضهن أقل من عشر سنوات- وقد رفضن الدخول إلى سيارة الشرطة لأنها رمز للنظام كما قالت الفتيات، وعلى أية حال تم الدفع بهن إلى داخل العربات وكنا يلوحن بأيديهن ويرتلن آيات من القرآن .

حسين كامل بهاء الدين -طبيب أطفال وأستاذ جامعي، وهو واحد من قلة قليلة من المفكرين والمثقفين فى حكومة مبارك -قد صعق الكثير من القاهريين فى تصريح سابق له للصحافة قال فيه: إن الإسلاميين نجحوا فى اختراق المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية فى كل أنحاء مصر. وعند زيارتى له طلبت منه التوضيح.

قال: «لم أستطع تصديق أنه لدينا كل هذا العدد من المدرسين المتشددين. لقد قمت بتحويل أكثر من ألف مدرس إلى أعمال إدارية، بعدها تحولت للمكتبات التى كانت مليئة بالكتب والنشرات المتشددة وقمت بازالتها جميعا. وبعد ذلك كانت هناك مسألة الحجاب والنقاب، وكانت تلك المظاهرة حربا حقيقية. فعندما حاولت منع ارتدائهن الحجاب فى المدارس حدثت ثورة عارمة وشن عليّ الجميع حربا ضارية -وسائل الإعلام والمدرسون والأزهر والمتشددون وأجبروا مدارس بأكملها على ارتداء الحجاب. وجدت تلميذات فى مدارس تتراوح أعمارهن بين السابعة والثامنة والتاسعة تم إجبارهن على ارتداء الحجاب: كانت هناك مدارس تم منع الطلاب فيها من ترديد النشيد الوطنى ومن تحية العلم. باختصار كان الهدف مسح الهوية الوطنية- ولتكن هوية إسلامية فقط. فتم تحريم الموسيقى والمسرح وكل ما له علاقة بالفن فى المدارس بدعوى أنه حرام. كان المتشددون يحرمون التمثيل، ولذا ففى ليالى عرض المسرحيات كانوا يصطفون أمام المسارح للصلاة، فيغلقون مداخل المسارح حتى لا يتمكن أحد من الدخول. تم ذات مرة إجبار زوجة على الطلاق من زوجها لأنه أرسل أبناءه لمدرسة خاصة، أخبروها أن زوجها كافر.

استمر حسين كامل بهاء الدين قائلا: «إنها مشكلة هائلة ومعقدة. وقادة تلك الحركة متعلمون ومثقفون جيدا ويعرفون ما يريدونه تحديدا. يريدون الاستيلاء على السلطة ومنحهم نظامنا التعليمى مسلكا مناسبا جدا. ولكى نغير هذا، كان لزاما علينا أن نغير

النظام كله المبنى على الحفظ والتلقين. بدأت فى تطبيق هذا فى المرحلة الابتدائية، ولكن الأمر سيأخذ وقتا».

حيث إن المد الإسلامي لم يكتسح المدارس الثانوية والجامعات فقط، ولكنه امتد ليشمل ويعبر عن نفسه فى النشر والفنون، لذا فقد قمت بسؤال بهاء عن تأثير الأزهر على التعليم والتفكير العقلي.

أجاب: « لقد ذهبت الى الأزهر، وقابلت نحو ألف وخمسمائة من علمائه، وشرحت لهم وجهة نظرى فيما يخص الحجاب، ولكنهم حاربوا كل خطوة كنت أخطوها. وأصدروا حكما ضدي، ومازالوا يحاولون إجبارى على التراجع والتغيير.

رفض حسين كامل بهاء الدين التعليق على تزايد التاثير السعودى الجلى على الأزهر، وعلى الحركة الإسلامية فى مصر بصورة عامة، ولكن أحد مستشاريه المهمين كان قد أخبرنى من قبل أن مبالغ كبيرة سعودية تدخل إلى مصر، وأن تلك المبالغ زادت زيادة كبيرة فعلية السنة الماضية.

عندما سألت أحد الدبلوماسيين الغربيين عن كيفية تدبير التمويل اللازم للجماعات الإسلامية السرية، أجاب «إنها فى معظمها بصورة شرعية ولكن يتم إدارتها كلها سرا ومن خلف الستار: عبر البنوك وشركات التأمين والأصول والمنظمات الصورية والمساجد». أما ما تغير خلال عامى ١٩٩٣ و١٩٩٤، كان فى زيادة الأموال القادمة من أوربا والولايات المتحدة.

قال لى أحد السفراء الغربيين، إنه فى بداية عام ١٩٩٥، كانت للجماعات الإسلامية المسلحة مكاتب دعم وإعانة فى نحو ثلاثين دولة، وكانت تلك المكاتب الداعمة كلها تعمل تحت غطاء جبهة دينية، حيث كانوا يجمعون الأموال وينشئون خلايا تنظيمية ويشترون أسلحة ومتفجرات – ليس للجماعات الإسلامية فى مصر فقط، ولكن أيضا لمنظمة حماس الفلسطينية. ولقد علمت فيما بعد من مصدر رفيع المستوى فى الحكومة المصرية، أن تقديرهم للمبالغ التى تم جمعها فى عام ١٩٩٤ نحو خمسة عشر مليون دولار تم تحويلها عبر الولايات المتحدة، وطبقا للمصدر ذاته فإن معظم هذه الأموال ذهب لحماس.

استمر التمويل عبر السنين التالية وبحلول عام ١٩٩٨، كانت الملايين من الدولارات قد وصلت مصر والأردن وقطاع غزة من الولايات المتحدة.

كان الشيخ عمر عبد الرحمن قد وصل إلى الولايات المتحدة بهدوء وبدون جذب للانتباه منطلقا من السعودية إلى أفغانستان، فالسودان حيث حصل تأشيرة سياحية أثارت الكثير من الجدل، وهى السادسة التى تم منحها له بواسطة الولايات المتحدة. ربما يكون السؤال الأكثر أهمية كيف أتى ودخل الولايات المتحدة ؟ ولماذا قرر أن يأتى للولايات المتحدة؟. كنت قد علمت فى القاهرة أن غرضه فى البداية كان إقامة بنية تحتية داخل الولايات المتحدة، آلية تمويلية، وقاعدة تنظيمية للجماعات الإسلامية المسلحة فى مصر، وهو مشروع قد أتمه وأنجزه قبل اعتقاله.

ذهبت ذات مساء عام ١٩٩٤ قبل أعياد الميلاد، بقليل إلى مركز الإصلاح الميتروبوليتان فى جنوب مانهاتن، وذلك بعد عودتى من القاهرة إلى نيويورك لمقابلة الشيخ عمر عبد الرحمن. تمت المقابلة فى حجرة بدت وكأنها حجرة استجمام فى عنبر تحت حراسة أمنية مشددة. كان قد مضى على اعتقال الشيخ سنة ونصف السنة، وتم اعتقاله بسبب التهم الموجهة إليه من مصلحة الهجرة فى يوليو١٩٩٣، وهى مسألة لم يتم تفسيرها بعد. كانت مصادر رسمية أمريكية قبل أسبوع واحد فقط أو ما يقرب من أسبوع قد أبلغت الحكومة المصرية رسميا وفجائيا أن الشيخ عمر سيتمكن من مغادرة أمريكا إلي أى دولة تقبل استقباله– وأن أفغانستان طلبت استقباله– إذا لم تقم مصر بتقديم طلب تسليم واسترداد للشيخ بسرعة على أساس كونه مطلوبا فى مصر. كانت الحكومة المصرية لا تريد أن تفعل ذلك بل واستاءت جدا لأن هذا العمل سيخلق مواجهة شرسة مع أتباع الشيخ . وكان الأفضل لمصر أن يظل الشيخ تحت الحراسة داخل الولايات المتحدة لأجل غير مسمي. ولكن بعد أربع وعشرين ساعة من المحادثات الساخنة أحيانا بين وزير الخارجية المصرى السيد عمرو موسى والسفير الأمريكى روبرت بوليترو، تقدمت الحكومة المصرية على كره منها وعلى مضض بطلب استرداد الشيخ وتسليمه لمصر، مما أدى إلى توترات جديدة فى العلاقة بين مصر والولايات المتحدة. وكان الرئيس مبارك غاضبا كما أخبرنى بذلك أحد مستشاريه وقال: « إن أمريكا أرادت أن تلقى عن كاهلها محاكمة الشيخ لتلقيها بدورها على

مصر حتى تخلى مسئوليتها عن ذلك الفعل. بعدها حدث ما أدهش كل المهتمين بالقضية حيث أصدرت جانيت رينو (Janet Reno) المحامى العام أمرا باعتقال الشيخ.

اصطحبنى فى زيارتى للشيخ أحمد عبد الستار مترجمى المعتاد، والذى كان يقوم فى ذلك الوقت بمهمة المستشار القانونى للشيخ، الذى كان ينتظر المحاكمة بتهمة التآمر، والتى كانت ستبدأ فى يناير ١٩٩٥ فى مانهاتن. لم نكد نجلس على مقعدين بظهر مستقيم حتى دخل الشيخ عمر. كان يرتدى بدلة السجن الزرقاء وخفا بنيًا وجوارب صوفية بيضاء. لم تكن النظارات السوداء تغطى عينيه كالعادة ولا طربوش الأزهر، ولكنه كان يغطى رأسه بغطاء أبيض (طاقية الصلاة البيضاء) حيّانى الشيخ بحرارة كعادته فى كل مرة كنا نلتقى فيها، وفتح باب الحوار بإخبارى أن ابنه عبد الله البالغ من العمر عشرين عاما قد بدأ دراسته فى السنة الأولى طالبا بجامعة الأزهر، حيث حصل الشيخ نفسه على شهادة الدكتوراه فى الشريعة الإسلامية قبل ما يقرب من خمسة وعشرين عاما.

بادرت بسؤال الشيخ عن وجهة نظره فى حالة الاشتباك الجديدة فى الأزهر؟

قال الشيخ عمر: «ليس اشتباكا من وجهة نظري. إنما مجرد همس فاتر قد بدأ. ذكرت مؤتمر السكان التابع للأمم المتحدة، والذى عارض الشيخ جاد الحق على جاد الحق إقامته. ولكن فى التحليل النهائى وفى النتيجة النهائية، ماذا فعل؟ لم نر منه تلك المعارضة التى رأيناها من بابا روما – كانت معارضته واضحة وقوية. إننى معجب فعلا بهذا الرجل. لقد اعترض على هذا المؤتمر وكان من أشد المعارضين له، واعترض على فكرة الإجهاض وبأكثر الطرق إيجابية فعل كل ما استطاع لمنع هذا المؤتمر من الانعقاد. العالم كله عرف الموقف الذى اتخذته الكنيسة الكاثوليكية، فلماذا لم يقف شيخ الأزهر ليعلن للعالم كله وجهة نظر المسلمين وفكرهم واعتقادهم؟ لا، لم يكن رد فعل الأزهر مرضيا بما يكفى بالنسبة لي.

فقلت له فى إصرار: «ولكن الكثير من المصريين يعتقدون أن شيوخ الأزهر يشعرون أن تفسيراتهم للإسلام يتم إبطالها عن طريق تلك التفسيرات والتأويلات التى تتبناها الجماعات المسلحة المتشددة، وأنه نتيجة لذلك فهم يتبنون بصورة متزايدة أفكار تلك الجماعات».

أجاب الشيخ: «حسنا، لو كان ما تقولينه صحيحا» توقف للحظات ثم أكمل قائلا: «هل تعرفين، أنه لو لم يهمل الأزهر فى واجباته، لو لم يصبح الأزهر مجرد بوق للحكومة، لو قام الأزهر بتطبيق الشريعة الإسلامية، لما وجدت أيا من تلك الجماعات الإسلامية كالجماعة مثلا، تفعل ما تفعله الآن. ولم تكن تلك الجماعات لتوجد أصلا، لأنه فقط بعد أن تخلى الأزهر عن دوره التاريخى وفقده، بدأت تلك الجماعات فى الظهور لملء الفجوة التى تركها وخلّفها غياب الدور الأزهري.

طلبت منه أن يضرب لى مثالا فرد قائلا: «فى التعليم كمثال وهو مثال مهم جدا وفى تطبيق الشريعة الإسلامية، أستطيع أن أوكد لك أنه فى اللحظة التى يبدأ فيها الأزهر بفعل المفروض عليه أن يفعله والقيام بواجباته، فلن تعودى لترى أيا من تلك الجماعات الإسلامية العاملة».

بينما كان الشيخ مستمرا فى الكلام بدا مرتاحا ومنتشيا، وكان يهتز على كرسيه للخلف والأمام بينما كانت لحيته الطويلة البيضاء مستريحة على صدره. اعتذر أنه لا يستطيع القيام بواجب الضيافة وعدم تقديم مشروبات سواء شاى أو قهوة أو صودا، معللا ذلك بأنه غير مسموح له بحمل النقود وهو بزى السجن.

سألت الشيخ عمر عن وجهة نظره الشخصية فى حادثة الاعتداء على نجيب محفوظ وما إذا كان الاعتداء مبررا أم لا.

قال: «أنا لا أعرف الظروف المحيطة بالحادث ولا ملابساته، ولكن الأمر كله يبدو غريبا. ربما كان الأمر مجرد حيلة أخرى من الحكومة ولعبة من ألاعيبها لإغضاب الناس. فنجيب محفوظ كان أمامنا طول الوقت لسنوات ولو كانت لدى شبابنا الرغبة فى النيل منه لفعلوها منذ سنوات. ولكن السؤال الأكثر أهمية لدى هو لماذا الآن؟ فقد اتهموا ستة عشر شابا. إنه شىء لا يمكن تصديقه! يقولون إن ستة عشر شخصا كانوا مطلوبين للقيام فقط بخربشة شخص فى رقبته بسكين. والآن سيتم تقديمهم جميعا للمحاكمة أمام محكمة عسكرية وفى غضون شهر سيكونون جميعا قد حكم عليهم بالإعدام. ولن يعرف أحد ولا حتى محاميهم ما الذى حدث بالفعل لنجيب محفوظ».

أضاف « هذا ما أعتقده، إن نجيب محفوظ لم يكن هدفا للإسلاميين. كما قلت من قبل، نحن نعرف أين يسكن وأين يجلس وأين يتمشي. لم يكن الضغط على الإسلاميين بنفس القوة التى هو عليها الآن، وعندما كانوا يقدرون على الحركة والعمل بصورة أكبر وبحرية أكثر، لم يهاجموا محفوظ. لذا لماذا الآن؟ وما الذى كانوا يبغون تحقيقه من وراء قتله على أية حال؟».

قلت له: «لقد تم نشر نبأ إصدارك فتوى تعتبر فيها محفوظ مارقا وخارجا على الدين».

أجاب: « لا، لا، لا» وبدأ يعلو صوته «لم يكن الأمر سوى سوء فهم. إن ما قلته- وكان هذا عندما كانت آيات شيطانية عنوانا للصحف- قلت لو أننا عاقبنا نجيب محفوظ على كتابته أولاد الجبلاوى لما جرؤ سلمان رشدى على كتابة مثل هذا الكتاب. كان هذا فى معرض ردي، مجرد رأى شخصى وليست فتوي».

سألته: «كيف كان يجب أن تتم معاقبة نجيب محفوظ؟».

أجاب الشيخ عمر: « هنا يجب عليك أن تفهمى أحكام الشريعة الإسلامية. فقد كان يجب على الأزهر استدعاء محفوظ لمثوله أمام لجنة، حيث تتم مناقشته ومحاكمته والحكم عليه. وكان ستكون لديه الفرصة للدفاع عن نفسه ولو وُجد مذنبا كان سيتم منحه فرصة الإثابة والتوبة. ولكن طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية، فإن أى شخص يحكم عليه بأنه مارق تتحتم عليه الإثابة والتوبة».

«وإن لم يفعل؟».

أجاب الشيخ عمر «عند ذلك يتم قتله».

توقف عن الكلام لحظة وأردف قائلا: «ربما يبدو الأمر لك وللغربيين غريبا وربما تجدين الأمر قاسيا وصعبا. ولكن ذلك هو ديننا وتلك هى شريعتنا وهى شريعة سماوية فوق كل شىء وهذا هو حكم الله».

ظللنا صامتين لحظات ولم يقل أى منا أى شىء أكثر مما قيل.

قبل أن أغادر القاهرة كنت قد سألت أحد الدبلوماسيين الأجانب عما يتوقع حدوثه فى مصر بعد ذلك، وأجاب قائلا: «إن مصر ليست كالجزائر، ليس الآن على الأقل. الأمر

هناك حرب أهلية أما الأمر هنا فحرب عصابات. ولكن لو استمر العنف وانتشر واندلعت أعمال عنف واسعة النطاق فما الذى سيكون عليه موقف الجيش ساعتها، وكيف سيكون رد فعله على أساس أن الجيش يظل الداعم القوى والوحيد لرئاسة الرئيس مبارك. فأنا أشك أنه سيبقى الجنود فى الثكنات لأطول فترة ممكنة، لأنه هناك الكثير ممن يشكون فى أن يقوم الجيش باستخدام القوة لقمع المدنيين دعما لنظام وحكومة تفتقر للشعبية بصورة متزايدة.

بحلول نهاية عام ١٩٩٤، كانت أوساط رسمية فى حكومة مبارك تتحدث عن وجود علاقات وروابط متزايدة بين ضباط صغار فى الجيش والمتشددين الإسلاميين، حدث وأن كانت هناك محاكمة عسكرية واحدة وربما اثنتان– فى هذه السنة لضباط صغار تم اتهامهم بالتآمر على اغتيال الرئيس.

(تم إعدام هؤلاء الضباط رميا بالرصاص). كان هذا الإدراك بمثابة كابوس مزعج للحكومة بل وأسوأ كابوس لها. لذا فقد سألت الشيخ عن القوة التى يتمتع بها الإسلاميون داخل القوات المسلحة؟

تردد الشيخ ولم يجب بصورة مباشرة، وبدلا من ذلك قام باختيار كلماته بعناية، وقال: «هذا سؤال من الصعب الإجابة عنه، ولا يستطع أحد الإجابة عنه الآن. وحتى لو كنت أعرف الإجابة فمن المؤكد أننى لن أخبرك – أى الوحدات وأين وكم عدد المنتمين– وأسمح أن تقوم الحكومة المصرية بالقضاء عليهم. ما أستطيع قوله هو إنه بالإضافة للمحاكمات العسكرية كانت هناك على الأقل ثلاث محاكمات للمدنيين هذه السنة، والتى كان المتهمون فيها طلابا ينتمون للاكاديمية العسكرية.» (طبقا لما قاله محامو المتهمين كان عددهم نحو ثلاثة عشر) كان الشيخ عمر مملوءا حيوية ونشاطا أثناء مقابلتنا،ولكنه بدأ الآن يتململ فى مقعده. وأخبرنى أنه فى خلال ساعة كان ملتقيا بالنائب العام السابق رامزى كلارك والذى يقود فريق المحامين المدافعين عن الشيخ.

وقال: «سؤال واحد أخير».

سألته عن أكثر السيناريوهات المحتملة التى يمكن للإخوان استخدامها للوصول للسلطة فى مصر. لو قدر لهم الوصول.

قال الشيخ « كونى محددة». «أعطنى اختياراتك».

قلت إن عددا متزايدا من المصريين ومن الدبلوماسيين الأجانب يعتقدون بشدة أنه لو تم عقد انتخابات حرة ونزيهة كما هو مقرر فى نوفمبر ١٩٩٥، فإن الإسلاميين تحت قيادة الإخوان المسلمين من المحتمل أن يفوزوا. وها أنا ذا الآن أقول للشيخ إنه كما يبدو لى أن الثلاثة سيناريوهات وأكبرها منطقيـة وقبولا كانت الانتخـابات أو الانقـلاب العسـكرى أو العصيان المدنى عن طريق مظاهرات كثيفة وفوضى فى الشوارع».

قال الشيخ: «فلتنسى مسألة الانتخابات، لأنه طالما أن هذه الحكومة فى السلطة، فلن تكون هناك انتخابات حرة ونزيهة. فكل الانتخابات التى حدثت فى عهد مبارك كان يفوز بنسبة ٩٩٪. هل حدث هذا أبدا لرئيس أمريكي؟» (وطبقا لرؤية منظمة العفو الدولية فقد كانت انتخابات عام ١٩٩٥ « مزورة وغير ديمقراطية وغير نزيهة»).

استمر الشيخ قائلا: « فيما يخص الانقلاب العسكرى رغم أهميته. فالجيش المصرى الآن يرزح تحت إجراءات مراقبة أمنية مشددة لم يسبق لها مثيل. وقد أنشأت المخابرات العسكرية ذراعا جديدة لها – تسمى مجموعة الخامسة والسبعين– ويكمن دورها الذى أنشئت من أجله فى مراقبة صغار الضباط والمجندين الجدد. وتلك المراقبة تخبرنى أنه هناك ما يثير القلق. ولكن فى اللحظة التى يكتشفون فيها أن هناك شخصا يصلى أو يقرأ القرآن ويمارس الطقوس الإسلامية ويشاهدها يتم التخلص منه على الفور. لذا فمن خلال الاحتكاك، يحاولون استنزاف الرتب».

استمر الشيخ فى حديثه قائلا: «لذا فكما ترين قد استبعدنا اثنين من الاختيارات الثلاثة المطروحة، وبالنسبة لى فإن الاختيار الثالث هو الأنسب والممكن تطبيقه وحدوثه: حيث ينتفض الناس ويخرجون ثائرين فى الشوارع. فقد رأيت بأم عينك السخط السائد فى مصر كلها والاستياء الشعبى العام– نحن نسيطر على نقابة المحامين ومع ذلك عندما يتظاهر المحامون يتم ضربهم بالقنابل المسيلة للدموع والهراوات. نحن نسيطر على اتحادات الطلاب فى الجامعات، ومع ذلك يتم الزج بالممثلين لتلك الاتحادات فى السجون.

والطلاب كالمحامين هم ممثلون منتخبون. والعمال أصحاب الياقات الزرقاء مستمرون فى الإضرابات أكثر من ذى قبل. كل شخص فى مصر من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، قد فقد ثقته وإيمانه بهذا النظام، والناس على كل مستوى فى المجتمع فى صراع معه».

وقف الشيخ ومشى معى إلى الباب ورن الجرس للحارس لإخراجي. كان يبدو واثقا، وحتى خبيثا وقد صدمنى إدراك حقيقة أنه رغم أن الشيخ سجين محبسه فى الولايات المتحدة لما يزيد على العام، فهو عالم بصورة جيدة لما حدث ويحدث فى مصر أكثر مما يفعل الكثير من المصريين.

ذهبت فى مقابلة مع الرئيس مبارك قبل مغادرتى لمصر فى نوفمبر عام ١٩٩٤، فى القصر الرئاسى فى هليوبوليس الذى يبعد عن مركز القاهرة بنحو عشرة أميال حيث مكتبه الرئيسي. أن تسير عبر دهاليز القصر العالية الأسطح المتألقة بالرخام والمرمر والذهب، تشعر وكأنك تدخل عالما مندثرا من الملكية والحكم الاستعماري، يبدو وكأنه معزولا بصورة واضحة عن باقى مصر خلف جدرانه العالية المزخرفة بالجص.

يعلم الرئيس البالغ من العمر الآن سبعين عاما المخاطر المنطوية على مغادرته أراضى القصر. فعندما كان نائبا للرئيس، وكان يجلس بجانب الرئيس فى عصر يوم السادس من أكتوبر ١٩٨١، وهو يشاهد العرض العسكرى بدأت النيران تنطلق من البنادق الآلية. وفى خلال خمس وأربعين دقيقة كان السادات قد فارق الحياة.

وبعد دخوله فى فترة رئاسة ثالثة، ولأجل كل النيّات والأغراض ولفائدة الجميع، فقد نصب مبارك نفسه رئيسا مدى الحياة. وكان قد خالف وعده لشعبه برفضه الثابت والمستمر باختيار وتعيين نائب له- وهذا شيء لم يستطع ولم يجرؤ على فعله السادات ولا حتى عبد الناصر. وقد رفض وبإصرار المطالبات والمناشدات من مجموعة من أبرز المفكرين المصريين وقادة الأحزاب وقادة المعارضة من أجل تصويت شعبى على منصب الرئيس -بدلا من الاستفتاء- لانتخاب رئيس الجمهورية من بين مرشحين. وقد شرح أسبابه فى ذلك لصحيفة الحياة اللندنية قائلا: «كان المال سيلعب دورا كبيرا وكان سيتم انتخاب شخص غير مناسب وغير مؤهل كما سبق وحدث فى أمريكا اللاتينية» .

ذلك الجندى المتواضع البسيط ابن كفر المصيلحة، الذى يقدم لمحة خاطفة عن نفسه– مبرزا السحر والبراءة فى لحظة، القسوة والصرامة فى اللحظة الأخري– قد حطم أية آمال ترجى عن قيامه بتأسيس إصلاح ديمقراطى حقيقى . يعتقد الكثيرون من المصريين الآن أن الإصلاح السياسى ربما لا يأتى إلا عبر فوهات البنادق.

كل ما كنت قد سمعته عن الرئيس مبارك، قبل أن أقابله، جعلنى أتوقع أن أرى رجلا مخدوعا. تم إخبارى أنه لا يأخذ الضغط بصورة جيدة وأنه يميل للانطواء على نفسه. فقبل أيام قليلة كان قد التقى والرئيس الأمريكى بيل كلينتون الذى كان قد توقف فى القاهرة فى طريقه لحضور التوقيع على معاهدة سلام إسرائيلية أردنية. لم تكن المقابلة جيدة، وبدا أن الأمور سارت إلى الأسوأ، طبقا لكل البيانات والتصريحات. وبدأت الحكومة المصرية تستشعر أن السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط لم تعد لديها نفس العلاقات والروابط المحكمة مع مصر كما كانت فى السابق.

كانت هناك أيضا كارثة قد وقعت فى صعيد مصر، بعد أيام قلائل من مغادرة كلينتون، التى أدت إلى وفاة ما يقرب من ستمائة من المصريين عندما تم حمل وقود ملتهب مشتعل من أحد المستودعات التابعة للجيش عن طريق فيضان محلى عبر مدينة صغيرة. فقبل سنتين عندما تعرضت القاهرة لزلزال مدمر كانت الحكومة تتخبط وفى حالة فزع وخوف، بينما كانت الجماعات الإسلامية تقدم خدماتها ومجهوداتها وتخفف عن المنكوبين. كان مبارك عازما ومصمما على ألا يحدث هذا مرة أخري. ولكن الحكومة متعثرة وكثيرة السقطات وكل تعثر يستخدم كسلاح للهجوم على النظام ولفائدة الجماعات.

كانت الإجراءات الأمنية فى القصر الرئاسى مشددة وغير مسبوقة عندما وصلتُ. فهناك تنتصب بوابة إلكترونية على الردهة الخارجية وأجهزة مسح تليفزيونى معدنية. بعد بقليل من الوقت تم اقتيادى إلى المكتب الخاص بالرئيس. ومبارك رجل مكتنز ليس بالقصير ولا بالطويل وشعره أسود قاتم: وتشعر أنه لين أو متردد. حيَّانى الرئيس وأشار إلىّ أن أجلس على أريكة مذهبة على يسار كرسيه الرئاسى الأنيق، كان يبدو واثقا بل ومتحمسا. بعد أن تبادلنا التحيات والمجاملات، سألت الرئيس مبارك عن أهم القضايا التى تشغله وأهم المشكلات التى تحتل أولويات مصر.

أجاب الرئيس بالإنجليزية «إن أهم ما يشغل بالنا واهتمامنا هو الاقتصاد، ونحن نعمل بجد من أجل إصلاح اقتصادي. وأنا أعتقد أن سؤالك هذا بسبب المتشددين الإسلاميين هنا. إنهم لا شيء ولا يشكلون تهديدا يدعو للقلق. إننا معتادون على هذا فى مصر: أحيانا تصعد المواجهات وأحيانا تهبط. وبصراحة يجب عليّ أن أخبرك أن كل هذه المشكلات الخاصة بالإرهاب فى كل الشرق الأوسط ما هى إلا منتج ثانوى خرج من عباءة جماعة الإخوان المسلمين المحظورة عندنا – سواء كانت الجهاد أو حزب الله فى لبنان أو حماس. كل تلك الجماعات خرجت من تحت مظلة الإخوان المسلمين».

قلت: «ولكن يدعى جماعة الإخوان أنهم قد نبذوا العنف وتخلوا عنه الآن، ثم أضفت إن الكثير من المصريين يعتقدون أنه طالما تم حظرها وإجبارها على العمل السري، فقد جازفت وخاطرت بصورة متزايدة وأصبحت عرضة لأن يتم اختطافها بواسطة الجماعات الأكثر تشددا. لذا سألت الرئيس مبارك إن كانت لديه أية خطط لرفع الحظر عن جماعة الإخوان المسلمين وإعطائها الشرعية.

عندها ارتسمت على وجهه علامات نفاد الصبر والاستياء والجدية. وأجاب قائلا: «إطلاقا لا! لن أسمح بجزائر أخرى هنا. آه، نعم، قالوا إنهم تخلوا عن العنف ولكن فى الحقيقة هم مسئولون عن هذا العنف، وسيأتى اليوم عندما يتم فضحهم وكشفهم». استمر فى كلامه فقال لى هناك إجراءات مشددة سيتم اتخاذها ضد الإخوان المسلمين فى القريب العاجل. (تم بعد شهور وقبل الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩٥ اتخاذ تلك الإجراءات المشددة والتى كانت لتستمر على مدى السنوات الثلاث المقبلة).

بينما كنا مستمرين فى حوارنا، أبدى الرئيس ضيقه وقلقه مما اعتبره سلوكا وتصرفا سلبيا من الحكومات الغربية وبصفة خاصة من بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة، بسماحهم للجماعات الإسلامية المصرية المتشددة بالعمل بحرية على أراضيهم. ولكنه أعرب عن قلقه العميق الذى وصل إلى حد الغضب من هؤلاء الجنود المتمرسين الذين حظوا برعاية ودعم الولايات المتحدة فى الحرب بأفغانستان.

قال: « كل هؤلاء الذين ارتكبوا تلك الجرائم تقريبا، كل أعمال العنف تلك تم تدريبهم فى ساحة الحرب الأفغانية. وهم الآن منتشرون فى الشرق الأوسط كله. لديهم التدريب والمال والسلاح، وهم الآن يبحثون عن قضية، إن مشكلة العنف فى هذا البلد بدأت عندما عاد أول جندى من أفغانستان. قبل ذلك كان هناك حوار بين الحكومة وبين الجماعة الإسلامية».

عندما سألته إن كان بإمكانه أن يزوّدنى بالتفاصيل، تردد الرئيس، وقال إنه يفضل ألا يفعل.

كان قد أخبرنى عدد من الدبلوماسين الغربيين من قبل أنهم قد انزعجوا كثيرا من الشواهد الواضحة ليس فقط عن التعاون المتصاعد بين الجماعات الإسلامية المتشددة المصرية وحماس، ولكن أيضا عن التقارير الواردة من كون الحدود المصرية مع غزة، قد صارت وبصورة جوهرية منطقة مخصصة لتهريب الأسلحة والرجال، وفى تحويل الأموال إلى ومن السلطة الفلسطينية المحاصرة بقيادة ياسر عرفات، لذا فقد سألت مبارك – الذى قدم نفسه على أنه متجاوب مع المخاوف الفلسطينية أكثر مما كان يفعل السادات – إلى أى حد كان قلقه بشأن الخروقات التى تحدث ضد القانون والنظام فى قطاع غزة.

أجاب: «أنا قلق جدا بالطبع ومهتم أيضا، وآخر شىء نريده هو أن نرى شبح أفغانستان يطاردنا مرة أخري– وهذه المرة على حدودنا مباشرة أى قريبا جدا منا فى قطاع غزة. ويجب أن أكون واضحا جدا: إن فشل السلطة الحاكمة الفلسطينية وفشل ياسر عرفات لن يعيدنا إلى الوراء خمسين سنة فقط بل سيكون هناك إرهاب فى كل مكان! مخاوفى أنا الشخصية أنه لو حدث وتأخرت عملية السلام وفشل عرفات، فإن كل هؤلاء الإرهابيين المتطرفين الذين سبق وتدربوا فى أفغانستان سيهرولون إلى غزة للانضمام لحماس. سيكون وضعا كارثيا وسيخلق مشكلة معقدة جهنمية لنا».

أثناء مقابلتى مع الرئيس مبارك والتى طالت لساعتين بدا الرئيس متحيرا ومرتبكا وغاضبا بعض الشىء من بعض الأسئلة التى وجهتها له، على سبيل المثال ما يخص، السلوك الهجومى المتزايد للإمام الأكبر شيخ الأزهر والحبس الانفرادى للمعتقلين فى سجن العقرب

وكان يكسر حوارنا متحدثا بالعربية لوزير إعلامه الذى كان جالسا بجواري. تساءلت إن كان هذا ممكنا أن يحدث، كما تم إخبارى من قبل من بعض مستشاريه، هل يمكن أن يكون مبارك حقا لا علم له عن أشياء كثيرة مما حدث ويحدث فى مصر، رغم أن تلك الأشياء كانت تحدث باسمه؟

كان أحد كبار مستشاريه قد أخبرنى من قبل، من وجهة نظره، أنه من المفارقات المحيطة بالجماعات الإسلامية المتشددة فى الشرق الأوسط كون كل تلك الجماعات قد تم تفريخها عن طريق قادة المنطقة أنفسهم: فقد تم تكوين وإيجاد الجماعة الإسلامية فى مصر عن طريق المخابرات المصرية لسحق اليسار المصرى : أيضا قامت المخابرات الإسرائيلية بخلق حماس لهدم منظمة التحرير الفلسطينية : والأفغان العرب أيضا، الجنود المتمرسون الذين أفرختهم الحرب الأفغانية صنعتهم المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات السعودية. وكلما زاد الاتصال بين هذه الجماعات الإسلامية المختلفة بعضها البعض، كان هناك كره متزايد تجاه الولايات المتحدة: لأنه من وجهة النظر المصرية فإن الولايات المتحدة هى المسئولة عن خلق ما أطلق عليه المستشار وحشا متعدد الرؤوس فى ساحة القتال فى الحرب الأفغانية، ومع ذلك رفضت بعد ذلك مساعدة ومساندة الحكومات العربية المهددة بإعادة العفريت مرة أخرى إلى قمقمه وإغلاقه عليه.

لذا فقد سألت مبارك عن حجم المسئولية التى تتحملها حكومتا الولايات المتحدة ومصر فى نشأة الجماعات الإسلامية المتشددة التى نراها اليوم.

ظل الرئيس ساكنا وهادئا للحظة وبعدها أجاب بلا إجابة، «نعم السادات مسئول عن تكوين الجماعة. تم نصحه بصورة سيئة، وأخطأ هو خطأ جسيما بقبوله مشورة سيئة. ولكن يجب عليّ أن أخبرك. أنه رغم أن تلك الجماعة تطلق على نفسها اسم الجماعة الإسلامية، فهى ليست من الإسلام فى شىء ولا علاقة لها بالإسلام. لا يوجد فيهم جميعا من يعرف شيئا عن الإسلام. ببساطة ووضوح هم يريدون فقط الاستيلاء على السلطة، ومن هم هؤلاء؟ من يكونون؟ إنهم طبالون وراقصات من الأحياء الفقيرة والأزقة. ذلك الرجل الذى حاول اغتيال نجيب محفوظ لا يعرف شيئا عن القرآن : لا يعرف شيئا عن الصلاة. ولكنه ببساطة قبض ثمن ما فعله. إن المسألة كلها مسألة نقود .

سألته «من الذى يدفع لهم؟».

أجاب الرئيس: «التمويل يأتيهم من أماكن مختلفة، فهؤلاء الناس لهم اتصالات فى باريس وألمانيا وسويسرا. وهم يتنقلون بحرية هنا وهناك. وبفضل التكنولوجيا الحديثة فهم يقومون بالتحويلات البنكية برقيا ويديرون الحركة عبر المكالمات وبالفاكس».

سألته « وماذا بشأن الولايات المتحدة؟».

بدا واضحا جدا حجم المرارة والغضب اللذين كان يشعر بهما حتى قبل أن يتفوه بكلمة، وقال: «إن حكومتك على اتصال بهؤلاء الإرهابيين من الإخوان المسلمين، كان كل هذا يتم سرا، وبدون علمنا فى البداية. أنتم تعتقدون أنه بإمكانكم تصحيح الأخطاء التى ارتكبتموها فى إيران حيث لم تكن لديكم أية اتصالات مع آية الله الخومينى وجماعاته المتطرفة قبل استيلائهم على السلطة. ولكنى أستطيع أن أؤكد لك أن تلك الجماعات لن تصل للسلطة أبدا فى هذا البلد، ولن يسيطروا أبدا على مقدراته : ولن تكون لهم علاقات ودية مع الولايات المتحدة. تلك الاتصالات عديمة الجدوى ولن تأتى بأية فائدة لا للولايات المتحدة، ولا لأية دولة تدعم هؤلاء الإرهابيين.

قبل ما يقرب من عام كان الرئيس مبارك قد أخبر عددا من رؤساء التحرير، أن الشيخ عمر عميل مدفوع الأجر من المخابرات المركزية الأمريكية (C I A) لذا فقد سألته إن كان لا يزال لديه هذا الاعتقاد؟

أجاب بأنه ما زال مؤمنا أن الشيخ كان عميلا للمخابرات الأمريكية، وعندما سألته عن مبعث اعتقاده هذا، رد قائلا إنه كان قد قرأ ذلك فى جريدة نيويورك تايمز (The New York Times) . (لم يكن مدهشا أن الشيخ قد أنكر هذا الادعاء وأخبرنى أنه عندما أطلق مبارك هذا الاتهام وحتى وارن كريستوفر أنكر أن ذلك حقيقة).

عندما تسلم مبارك السلطة اتخذ خطوات جادة نحو الديمقراطية أكثر مما كان يعتقد الكثير من المصريين أنه سيفعل. ولكن بعد أن أعطى حريات حقيقية بدأ فى التراجع عنها وحجبها. والآن يعتبر سجل حكومته فى منظمة حقوق الإنسان من أسوأ السجلات فى انتهاكها لحقوق الإنسان فى كل مكان. لذا سألت الرئيس إن كان من الخطأ التعامل مع

الحركة الإسلامية على أنها مسألة قانونية ونظامية صرفة، وعبر تلك العملية التى تلقى انتقادا واستنكارا فى العالم كله.

قال الرئيس: «ليس لدى سجين سياسى واحد فى سجوني، كل المساجين هناك هم مجرمون تورطوا فى أعمال إجرامية. لم يحدث أبدا ولا مرة واحدة أن اعتقلت شخصا على عقيدته السياسية. ومع ذلك ففى اللحظة التى يتم فيها القبض على واحد منهم يقوم آخر بإرسال برقية على وجه السرعة لمنظمة العفو الدولية. ومعظم المنظمات الحقوقية فى الخارج تحصل على معلوماتها مما يطلق عليها منظمة حقوق الإنسان هنا، والتى يسيطر عليها أعضاء ناصريون ومخترقة من جماعة الإخوان المسلمين.

كان قد بدأ صوت الرئيس يعلو وتوَقف ليلتقط أنفاسه، ويأخذ نفسا عميقا. انتهزت الفرصة لأسأل الرئيس عن موعد نشر تقرير المعمل الجنائى بخصوص سبب وفاة عبد الحارث مدنى -والذى كان قد تم طلبه بواسطة مستشارين للرئيس كلينتون قبل أيام قلائل- انحنى الرئيس على مكتبه مقتربا منى وبدت عليه الجدية والصلابة بصورة ملموسة.

وسأل قائلا: « لماذا كل هذا اللغط والصراخ على عبد الحارث مدني؟ وبدأ صوته يعلو». وماذا عن حقوق الإنسان الخاصة بالنساء والأطفال الذين قتلهم هؤلاء الناس؟ لم يكن مدنى سوى مجرم! وهؤلاء الذين يسهرون على حقوق الإنسان إنما يسهرون على حقوق المجرمين. لم يسألوا عن حقوق الأبرياء الذين تم اغتيالهم وقتلهم فى الشوارع. ليس هناك توازن على الإطلاق! وماذا بشأن نجيب محفوظ؟ وماذا عن حقوقه؟ وماذا عن تلك السيدة التى فقدت أولادها جميعا- اثنين فى الحروب وثالث بأيدى هؤلاء الإرهابين. ماذا عنها وعن حقوقها؟ لا تستطيع أن تنجب أطفالا آخرين. وحتى هذا اليوم، عندما أراها فى التليفزيون لا أستطيع أن أنظر إلى وجهها».

رجع الرئيس بكرسيه للخلف، وبدا عليه فجأة التعب والإجهاد. بعدها أردف قائلا، غير موجه كلامه لأحد بالتحديد، «إننا فى فوضى».

غادر نجيب محفوظ مستشفى الشرطة فى الأيام الأخيرة من عام ١٩٩٤، ولكنه لم يستعد أبدا حياته الطبيعية متنقلا من مقهى إلى مقهي. وهو الآن يقابل أصدقاءه فى جلسات تحت حراسة أمنية مشددة وكان أكثر ما يضايقه أنه محاط برجال أمن مسلحين بأسلحة ثقيلة. عندما قابلته لآخر مرة فى صيف ١٩٩٧، قال لى إن الطعنة خلفت وراءها شللا كاملا تقريبا فى يده التى كان يكتب بها. لذا فإن واحدا من أهم الكتاب الموهوبين فى العالم وأوفر الكتّاب إنتاجا كما وكيفا، لايقوى إلا بالكاد على توقيع اسمه.

تم نشر الرواية المحفوظية المثيرة للجدل «أولاد حارتنا» بصورة مسلسلة فى الصحافة المصرية بعد أسابيع قليلة من طعن محفوظ. وقد تم هذا العمل دون إذن منه وبدون إذن الأزهر أيضا. وهذا هو الشيء المستحسن فى الموضوع. كان محفوظ غاضبا وقال لأصدقائه إن النشر لتلك الرواية المحظورة عبارة عن « محاولة اغتيال ثانية».

بدأ الجدال عندما ظهر وزير الإعلام -مع كاميرا تليفزيونية محمولة- بجانب فراش نجيب محفوظ وأعلن أن الحكومة لم تدعم أى حظر أو منع لأى من أعماله. ولم يكن أحد متأكدا ساعتها -ولا حتى محفوظ نفسه- إذا كانت عبارة الوزير أنهت الحظر أم لا.

فى المساء الذى قمت فيه بزيارة محفوظ فى حجرته فى المستشفي، سألته عما يعتقد، هز رأسه فقط وقال: «أعتقد أن النشر قد جاء متأخرا إذا كان من المفترض أن يتم نشر الكتاب أصلا».

سألته: «على من تقع مسئولية الهجوم الذى تعرضت له»؟

أجاب بدون تردد: «النظام وليس هؤلاء الشباب. فهذا الشاب الذى هاجمنى لا يعرف شيئا عن «أولاد حارتنا». «إنه حتى لم يقرأ الرواية».

سألت محفوظ عن أكثر ما يزعجه فى المشهد المصرى الآن؟

أجاب قائلا: « هؤلاء الشبان جميعا أمثال هذا الشاب الذى هاجمني».

«إننا نخسر جيلا كاملا ونصرف النظر عنه- أغلى السلع التى نمتلكها، شبابنا هم أغلى ما نملك».

قلت له: « لقد قلت لأصدقائك إن الشباب فى هذه الأيام ليست لديهم الفرص التى كانت متاحة لك ولأبناء جيلك» ابتسم محفوظ بحزن وهز رأسه.

سألته: « هل يمكنك أن تشرح لى ذلك؟».

صمت للحظة واستدار نحوى قائلا: « لقد كنا نسهر الليالى على المقاهى نناقش أحوال العالم. لم نكن لنقلق عما يخفيه لنا الغد. كانت حالتنا الاقتصادية ووضعنا الاقتصادى أفضل بكثير، وكانت لدينا حقوق ديمقراطية أكثر بكثير. كان بإمكاننا اختيار أى حزب سياسى وأيضا كنا نختار حكومتنا. كان لدى البعض منا الأمل فى أن يصبح عضوا فى تلك الحكومة. كان لدينا الأمل فى الحكم وأن نملك الفرصة». توقف للحظة وقال: «ولكن هؤلاء الشباب ليست لديهم آمالنا ولا فرصنا وليس لديهم مثل أحلامنا أيضا».
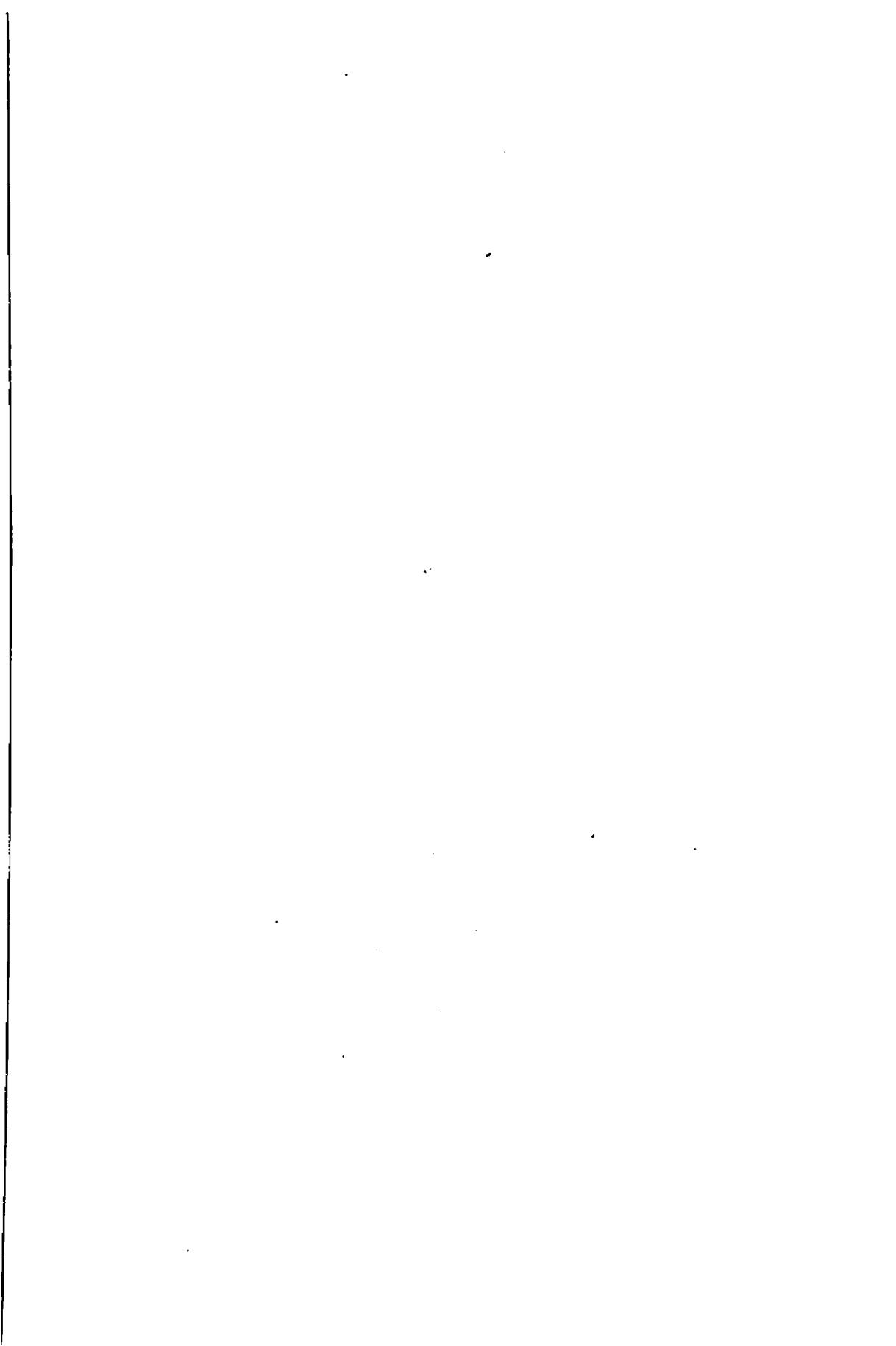
أطفال الجهاد

ذات مساء في يوم جمعة وبعد صلاة المغرب مباشرة صعد الشيخ عمر فى شاحنة مموهة فى بيشاور فى باكستان، وانطلق فى أول رحلة له داخل الأراضى الأفغانية. كان ذلك فى عام ١٩٨٥، كما أخبرنى أخيرًا، وكان قد خرج لتوه من السجن بعد قضائه ثلاث سنوات فى السجون المصرية، حيث تم تعذيبه بقسوة بينما كان ينتظر محاكمته على خلفية اتهامه بإصدار فتوى نتج عنها اغتيال الرئيس السادات، وعلى تهمة التآمر بالاشتراك مع ثلاثمائة آخرين من أجل قلب نظام الحكم فى مصر. بعد ن استقر الشيخ فى المقعد الخلفى لشاحنة إمدادات أمريكية، ساعده قائد المقاومة الأفغانية المتشدد جلبادين حكمتيار على ارتداء سترة واقية ضد المدفعية. كان الشيخ فى ذلك الوقت يبلغ السابعة والأربعين من العمر.

كان حكمتيار واحدا من أشد قادة المقاومة وأعنفها مناهضة للغرب من الذين كانوا يقومون على عملية تنسيق الجهاد المدعومة من قبل أمريكا ضد احتلال الاتحاد السوفيتى لأفغانستان، إلا أنه كان يتسلم نصف السلاح تقريبا الذى كانت تقدمه المخابرات الأمريكية لها. كان الشيخ قد قابل حكمتيار لأول مرة بالسعودية قبل عدة سنوات وأصبحا أصدقاء على الفور. فقد كانت لديهم أشياء كثيرة مشتركة: فكلاهما يمتلك شعبية دينية وله تأثير ساحر على الجماهير: وكان كل منهما قد وهب حياته للجهاد فى سبيل الله. كانا مولعين بالجدل والنقاش وعلى إلقاء الخطب الحماسية . وعلى الرغم من أنهما كانا يمتلكان القدرة على استخدام الرمز والإضمار فى خطبهما والقدرة على التلاعب بالعبارات فقد كانت رسالتهما المشتركة واضحة، تلك الرسالة المتمثلة في: حتمية الإطاحة بالحكومات العلمانية سواء فى مصر أو فى أفغانستان وتأسيس دولة ثيوقراطية إسلامية. كان الاحتلال السوفيتى لأفغانستان نقطة تحول فى حياة كل من رجل الدين المصرى على والمهندس الأفغاني.

كانت ممرات الجبال خارج بيشاور تعج بحركة الرجال. كان المجاهدون يحملون قوافلهم بمدافع الهاون أى كى ٤٧ والقنابل والألغام ليعودوا بها إلى داخل أفغانستان. كانت البغال والخيول القصيرة تئن تحت أحمالها من صناديق الشحن المربوطة فوق ظهورها. لم تكن هناك أية علامات مميزة أو ماركات تدل على بلد المنشأ ولا على ما تحتويه تلك الصناديق، ولكن كان كل شىء جزءا مما سيصبح أكبر برنامج لعملية سرية تمويلية تقوم بها واشنطن خارج حدودها بعد عملياتها فى فيتنام، عملية تجهيز ودعم مقاتلين فى آخر ساحة لمعارك الحرب الباردة. كانت الشاحنة التى يستقلها الشيخ عمر منطلقة ضمن ست أو سبع تشكل قافلة واستمروا فى سيرهم نحو ممر خيبر.

كان المجاهدون يفضلون نقل الإمدادات الأمريكية التى كانت تقدم عن طريق المخابرات المركزية الأمريكية فى ليال غير مقمرة، كما قال لى فيما بعد نواب ساليم وهو أحد مساعدى حكمتيار. عندما سرد لى قصة تلك الزيارة. كان ساليم، مصاحبا للشيخ عمر وحكمتيار فى تلك الزيارة: وكذلك كان معهما محمد شوقى الإسلامبولى وهو الأخ الأكبر لخالد الإسلامبولى الذى اغتال الرئيس أنور السادات. لم يقل الشيخ عمر إلا القليل بينما كانت السيارة تشق طريقها عبر ممر جبلى شديد الانحدار، كان الركب يمر بين الحين والآخر بمعسكرات اللاجئين الأفغان الموحشة حيث كان الناس يجلسون القرفصاء ملتفين حول قطع أخشاب مشتعلة صغيرة، وكانت تتناهى للأسماع أصوات مكتومة لآيات قرآنية مرتلة من مسجد قريب. كانت الشمس قد بدأت ترسل أول أشعتها عندما وصلت القافلة إلى بغيتها، وهى أحد المقرات الرئيسية لقيادة العمليات فى مقاطعة جلال آباد، والتى تبعد نحو خمسين ميلا إلى الشمال الشرقى من العاصمة الأفغانية كابول. كان كل شىء هناك يبدو وكأنه مرتجل وعشوائى، وكان المقر الرئيسى يتكون من مجموعة من المبانى المهدمة القديمة البالية التى تم بناؤها على جانب أحد التلال الإستراتيجية.

كان الشيخ عمر عبد الرحمن ولمدة عقدين من الزمان تقريبا يحث الناس على الجهاد عبر الشرق الأوسط كله.وها هو الآن فى داخل أفغانستان حيث يتم الجهاد الفعلى والحقيقي. قال لى الشيخ عمر فيما بعد واصفا مشاعره فى تلك اللحظة « كان شعورى

الأعظم هو شعور بالفخر والاعتزاز، شعرت بالفخر بدينى وبالقوة التى كان المسلمون يمتلكونها. وكنت أعلم علم اليقين أن الله سينصر الإسلام فى نهاية المطاف. كانت لدى مشاعر أخرى كثيرة مختلفة ومختلطة ومتداخلة، تلك المشاعر التى لم أستطع وصفها ساعتها ولا أستطيع أن أصفها الآن. فلسانى يعجز عن وصف مشاعرى حينذاك.

مشى الشيخ مع حكمتيار والإسلامبولى نحو موقع محاط بأكياس الرمل على قمة التل. كانت تتناهى للأسماع من أسفل التل أصوات متقطعة وأصداء أصوات متكسرة لقصف بالمدفعية. وقف الشيخ ساكنا هناك لما يقرب من خمس دقائق . وطبقا لرواية نواب ساليم « بدأ الشيخ فى البكاء» وبعد مرور عدة لحظات استدار الشيخ نحو حكمتيار وقال له « أنا لم أطلب شيئا من الله من قبل، ولكنى الآن أشعر بحرمان وظلم فظيعين. لكم أتمنى ان يهبنى الله بصرى الآن لسنتين أو حتى لساعتين حتى أتمكن من الجهاد فى سبيل الله».

مرت نحو ثمانية عشر عاما منذ أن بدأت عمليات الإمداد التى كانت تقوم بها المخابرات المركزية الأمريكية لتزويد المجاهدين فى أفغانستان بالمال والسلاح- تلك المساعدات التى قدرت فى إجمالها نحو ثلاثة بلايين دولار أمريكي- لتحالف السبع جماعات الأفغانية التى كانت تقود المقاومة، وكانوا إخوة مختلفين فيما بينهم. لم يكن أى من قادة تلك الجماعات ديوقراطيا بطبيعته وكانوا جميعا متشددين دينيا بدرجات أكثر أو أقل، وكانوا أيضا طغاة ومتعسفين سياسيا وحاقدين على أمريكا ويكرهونها بكل ما تعنيه الكلمة.

عندما اجتاح السوفييت أفغانستان لدعم نظام حاكم موالٍ للشيوعية فى الأيام الاخيرة من ديسمبر عام ١٩٧٩، فى نفس السنة التى استولى فيها آية الله الخومينى على السلطة فى إيران، كان صناع القرار والسياسة فى أمريكا غير معدين بصورة جيدة للتعامل مع كل من الحدثين. وجاءت ردود أفعالهم بطريقة خلّفت تبعات دائمة وثقيلة. فبالنسبة لإدارة الرئيس ريجان كان الجهاد معركة لكى « يتم فيها استنزاف الاتحاد السوفيتى وإلحاق أكبر الخسائر به» وكانت تلك الرغبة قد لقيت استحسانا وشعبية من البرلمان. وبدعم جارف من الحزبين قام الكونجرس المتحمس بمضاعفة المساعدات التى طلبتها إدارة الرئيس لأفغانستان بل وجعلها ثلاثة أضعاف. تم شراء أطنان من الأسلحة السوفيتية والصينية

من حكومات دول صديقة لأمريكا بما فيها حكومات مصر والصين وإسرائيل وجنوب أفريقيا، وتم إرسالها لساحة المعركة. كانت إمدادات السلاح من الدول الشيوعية تبغى أمريكا من ورائها التمويه على علاقتها المباشرة بالحرب، وكانت سياسيا قد اشارت إلى –ما لا يصدق – كإنكارها ظاهريا لعلاقتها بالحرب. إن الجهد الأمريكى لمعاقبة الاتحاد السوفيتى فى وقت كان يشعر فيه أنه امتد وتغلغل بصورة كبيرة وبقوة غير محصنة، قد تم إتمامه وإكماله بواسطة جهد إسلامى مناصر لإقامة «دولة إسلامية أصولية»– تعود فى مثلها وأحلامها للخلافة الإسلامية التى كانت قائمة فى القرن السابع. تلاقت النيّات والرغبات والأهداف واستمر الدعم بين الأجندتين لأكثر من عقد من الزمان.

كان لدى الإسلاميين والمخابرات المركزية الأمريكية والمملكة العربية السعودية هوس بإخراج الروس من أفغانستان، واستحوذت تلك الفكرة على عقول الثلاث وتملكتها. وكنتيجة لذلك فقد قامت المخابرات الأمريكية بتدريب وتمويل ما أصبح فيما بعد شبكة دولية عالية التنظيم والتأثير للمتشددين الإسلاميين، ومصنعا جديدا لتفريخ الإرهابيين أيضا. لذلك عندما غادر الاتحاد السوفيتى أفغانستان، وأغلقت أمريكا أنبوب المساعدات الذى كان متدفقا، تركت واشنطن خلفها عشرات الآلاف من الجنود المدربين على أعلى مستوى عال ومسلحين جيدا من العرب والآسيويين والأفغان جاهزين ومستعدين لجهادات أخرى جديدة فى أماكن جديدة.

تعتبر بيشاور – التى لا تبعد سوى ثلاثين ميلا جنوب شرق ممر خيبر، ومن خلفها أفغانستان– نوعا من الأماكن القاسية التى لا يوجد بها قانون. هى مكان زاخر بالحماس الدينى والعنف وبالمكائد السياسية. وقد كانت ساحة لمعارك الجيوش الاستعمارية وجنرالات الحرب العشائرية القبلية لقرون ماضية. ولكنها تحولت بعد الاجتياح السوفيتى لأفغانستان إلى منطقة لتجميع المجاهدين، أو منطقة تجمع استعدادا للعمليات. كانت المنطقة فى السابق بيئة خصبة زاخرة بروادها من تجار المخدرات والجواسيس، ولكن أثناء عمليات الجهاد حدث وأن تضخمت. والآن أصبح روادها هم مهربو الأسلحة والمجاهدون وضحايا الحرب، بالإضافة لروادها القدامى تجار المخدرات والجواسيس.

أصبحت بيوتها الطينية الكثيفة المتراصة وفيللها الرقيقة وشاحناتها وعربات الكارو مأوى مؤقتًا للآلاف من «العرب الأفغان» الذين كانوا يجاهدون. كان من السهل أن تجدهم فى الثمانينيات عندما كنت أغطى الحرب، فى منطقة راقية للمدينة الجامعية، أو من سلسلة الفنادق بطول واحد من شوارع المدينة الرئيسة هو شارع الجامعة. لأنه أثناء تلك السنوات وحتى ١٩٩٢ - أى بعد ثلاث سنوات من مغادرة السوفييت لأفغانستان وسقوط حكومتها الشيوعية أخيرا - كان يتجول فى شوارع بيشاور نحو خمسة وعشرين ألفًا من الإسلاميين ينتمون لنحو ثلاثين دولة من كل انحاء العالم ويحملون ثلاثين جنسية مختلفة، وطبعا كانوا فى طريقهم للجهاد وللحرب المقدسة. كان هؤلاء الإسلاميون قد أتوا إلى بيشاور بدون جوازات سفر ولا حتى أسماء من الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد من مصر، ومن منظمةحماس الفلسطينية، ومن الحركة الإسلامية من أجل التغيير السعودية، ومن جبهة الخلاص الإسلامية الجزائرية، ومن جبهة التحرير الموروية الإسلامية الفلبينية. وظل هناك فى بيشاور نحو ألف من هؤلاء المجاهدين بعد ست سنوات من انتهاء الحرب الجهادية بصورة رسمية. كان بعضهم فى بيشاور نفسها بينما عسكر آخرون فى الممرات الجبلية الخارجة عن سيطرة الحكومة فى المناطق القبلية، على جانبى الحدود الأفغانية كانوا يخططون وينفذون ما اتفق الباحثون على تسميته بالأعمال الإرهابية والتى انتشرت فى كل مكان حتى وصلت من باكستان إلى الفلبين ومن القاهرة إلى بانكوك، وبصورة أكثر بروزا ووضوحا فى شوارع الرياض وطهران ونيويورك.

عندما قمت بزيارة أخرى للمنطقة فى ربيع عام ١٩٩٥، كان أعضاء المباحث الأمريكية الذين وجدوا فى باكستان، فى محاولة لجمع معلومات وأدلة لحل لغز تفجير مركز التجارة العالمي، ومقتل اثنين من موظفى القنصلية الأمريكية فى كراتشى فى مارس، أخبرونى أنه يمكن تصنيف بيشاور الآن على أنها وأحدة من أهم الأراضى التى يتلقى فيها الإرهابيون تدريباتهم حول العالم، ويمكن إضافة طهران وطرابلس وبيروت إليها.

ألمح لى أيضا أحد الدبلوماسيين الغربيين بينما كنا نتحدث بشأن المجاهدين الأجانب الذين ظلوا فى بيشاور بعد مغادرة الروس لأفغانستان، وبعد أن أغلقت المخابرات المركزية

الأمريكية وضباط القوات الخاصة، التى كانت موجودة للإشراف على سير الجهاد، مراكزها التدريبة وأوقفت الإمدادات وعادت للوطن قائلا: «إنهم يشكلون بحق مشكلة مطروحة، فبعض هؤلاء الذين خلفتهم الحرب وراءها وظلوا هنا هم بالفعل متشددون إسلاميون وآخرون منهم لديهم ايدولوجيات مناهضة للشيوعية، ولكن لم يزل هناك آخرون ممن أتوا للقتال لأنهم آمنوا أنه من الجيد أن يفعلوا هذا وآخرون أتوا على أساس أنهم يبحثون عن المغامرة. وهم بالأساس متعلمون تعليما راقيا والكثير منهم خريجو جامعات ومعظمهم من كليات العلوم والصيدلة والطب والحقوق. هم بصورة أو بأخرى يشبهون تلك الفرقة «فرقة إبراهام لينكولن» التى ذهبت للقتال فى الحرب الأهلية الإسبانية. ولكن بعد انتهاء تلك الحرب ذهب هؤلاء المتطوعون إلى باريس للكتابة».

بينما كنت أسير متجولة فى الممرات والطرق الضيقة فى بيشاور، محاولة أن أتفادى الشاحنات الضخمة ذات الألوان الزاهية، وكنت أنظر إليها ويتم النظر إلى بعيون ملؤها الشك والريبة فى أمرى من رجال يرتدون عمامات عريضة – كان الكثير منهم ممن يحملون مدافع ال آى كى ٤٧ على أكتافهم أو فى وسطهم – تيقنت أنه هنا فى بيشاور أكثر من أى مكان آخر يمكنك أن ترى التركة التى خلفتها حرب المخابرات المركزية الأمريكية: التوتر فى البناء والتكوين الاقتصادى والاجتماعى الباكستاني، والذى كان سببه الرئيسى تدافع ملايين اللاجئين الأفغان وعشرات الآلاف من المجاهدين الأفغان والأجانب : ثقافة جديدة للمخدرات والكلاشينكوف نشأت نتيجة وجود فتحات كثيرة وثقوب فى أنبوب إمدادات السلاح الخاص بالمخابرات المركزية الأمريكية : وأيضا وجود «العرب الأفغان فى بيشاور الذين بقوا بعد انتهاء الحرب. كانوا جميعا مدربين على أعلى مستوى ومسلحين بصورة جيدة وكان الكثير منهم من أتباع الشيخ عمر عبد الرحمن».

أخبرنى ذات مرة أحد الدبلوماسيين الغربيين، وكنا نجلس فى شرفة منزله فى بيشاور قائلا: «حتى اليوم يمكنك الجلوس عند ممر خيبر لترى كل الألوان وكل العقائد وكل الجنسيات تمر من أمامك، ولا حتى فى أحلامهم الجامحة كان يمكن لكل تلك الجماعات أن تلتقى لو لم يكن هناك جهاد. من جماعة المورو الفلبينية إلى الإسلاميين من شمال أفريقيا،

أليس هذا غريبا! لقد خلقت الولايات المتحدة لهذه الجماعات مركزا لموسكو فى بيشاور وسوف تكون عواقبها علينا جميعا فادحة بدرجات فلكية»

استمر الدبلوماسى قائلا: إن الكثير من الجنود المدربين جيدا من عناصر الجهاد، قد أقاموا شبكات غير رسمية لخلايا صغيرة، سرية منظمة بطلاقة ومتصلة بمراكز دعم منتشرة حول العالم : فى الولايات المتحدة ودول الخليج الفارسى (العربي) وألمانيا وسويسرا وبريطانيا وإسكندنافيا وفى السودان وباكستان وأفغانستان. ولقد ولى عصر العربات التى تجرها البغال والآن نحن فى عصر البريد الإلكترونى والفاكس، وهى أدوات اتصال الجهاد الآن.

لم يكن هناك شيء غريب فى هؤلاء المسلحين، فقد كانوا أناسا عاديين ومبهمين لدرجة تجعلك من الصعب تذكرهم : فلم يكونوا بهذا الطول ولا بذاك القصر: بل متوسطى القامة. كان شعر رؤوسهم أسود بنيا وكانت عيونهم سوداء وخالية من كل تعبير. اعتقدت تلك السيدة التى كانت تقوم بتنظيف أحد البيوت الثلاثة التى استأجروها فى حى يقطنه سكان الطبقة الوسطي، والراقية فى أديس أبابا العاصمة الإثيوبية أنهم غرباء. فلم يسمحوا لها بدخول حجرات نومهم وكانوا لا يغادرون البيت أبدا سوى للذهاب للمطار، والذى كان قريبا من المنطقة،أو لقيادة سياراتهم جيئة وذهابا عبر طريق البول روود (Bole Road) وهو طريق تحده الأشجار على جانبيه ويمتد من المطار إلى مركز العاصمة. كانوا أيضا قد أزالوا الستائر من على النوافذ واستبدلوها بصفوف من القماش الأسود.

مكثوا فى بيوتهم منتظرين لأكثر من شهر. عندئذ وتحديدا فى السادس والعشرين من يونيه عام ١٩٩٥ قام عشرة من الغرباء ومعهم ثلاث سيارات مؤجرة تقودهم تويوتا لاند كروزر، بقيادة سياراتهم بشارع صغير جانبى متفرع من شارع بول (Bole Road) مكث أحد الرجال فى الخلف، وفى تمام الثامنة والربع كان يقوم بمسح للمطار عبر فتحة فى القماش الأسود، مستخدما منظارا قويا جدا ومثبتا على حامل ثلاثي. شاهد وزير الخارجية الإثيوبى ميليس ميناوى وهو يرحب بالرئيس مبارك، والذى كان قادما لإثيوبيا لحضور مؤتمر القمة لمنظمة الوحدة الأفريقية. عندئذ، وبينما كان موكب الرئيس المكون من أربع

سيارات يخرج من المطار إلى طريق بول (Bole Road) أرسل الرجل إشارة لاسلكية للرجال الذين كانوا ينتظرون فى السيارة التويوتا. شقت الثلاث سيارات طرقها ببطء نحو التقاطع، وعندما أصبح موكب الرئيس على مرمى البصر، انطلقت إحدى السيارات بسرعة وقطعت الطريق الرئيسى مانعة الموكب من الاستمرار. فى أقل من دقيقة بدأ إطلاق النار من مدفع آلى ٤٧ اى كي. تم إطلاق طلقات نارية من المسلحين الثلاثة من مدى قريب موجهة بصورة مباشرة لسيارة الرئيس الليموزين المصفحة. اخترقت إحدى الطلقات الزجاج الأمامى للسيارة تقريبا: انطلقت الطلقات الأخرى متطايرة بكثافة فوق سطح السيارات المرسيدس، بينما كان سائق الرئيس يستدير للخلف أطلق رجال الأمن المصرى المصاحب للرئيس ورجال الأمن الإثيوبى النار وقتلوا اثنين من المسلحين. أما الآخرون والذين تم قتل ثلاثة منهم فيما بعد فقد فروا هاربين.

كان الرئيس مبارك وعبر السنتين الماضيتين قبل هذا الاعتداء، قد اكتشف مؤامرتين لاغتياله، ولكن تم الاكتشاف قبل أن يقوم المتآمرون بالتنفيذ، أما مبارك فى هذه المرة فقد نجا من محاولة فعلية لاغتياله.

عثرت الشرطة الإثيوبية فيما بعد على السيارة التويوتا والسيارتين الأخريين، ولكن بدون منفذى محاولة الاغتيال. كانت السيارات تحوى أسلحة مختلفة ومتفجرات، وكان بها اثنتان من القنابل الصاروخية التى لو تم إطلاقها لدمرت سيارة الرئيس الليموزين تماما. وكما قال أحد المخبرين الإثيوبيين فيما بعد «إنه من أحد الأسرار الغريبة فى محاولة الاغتيال هى، لماذا لم يطلق المعتدون القنابل الصاروخية التى كانت بحوزتهم؟» . افترض المحققون والمتحررون أن رد الفعل السريع لسائق الرئيس مبارك ورجال أمن الرئيس قصّر وقت الهجوم ولم يعطهم الفرصة، وقد كان هذا هو الشىء الوحيد الذى أنقذ حياة الرئيس.

كان الرئيس السادات قد مات وسط جنوده وهو يحتفل بذكرى أفضل الأيام لديه ومات برصاص رجال من جنوده. كاد حسنى مبارك أن يلقى نفس المصير. فالأحد عشر شخصا منفذو محاولة الاغتيال، وما يقرب من مائة شخص خططوا للعملية ونسقوا لعملية

نقل الأسلحة وتوفير الدعم اللوجيستي، كل ذلك تم إنجازه وترتيبه فى ساحة المعركة بأفغانستان، تم التدريب والتسليح ليس فقط عن طريق المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة، ولكن أيضا جزئيا عن طريق حكومته، ومن قبله حكومة الرئيس السادات. لقد كان هؤلاء الشباب بحق جند الجهاد المصريين.

عقب أحد الدبلوماسيين الغربيين الذى كان معنيا بمتابعة التحريات بخصوص تلك المحاولة التى استهدفت حياة الرئيس قائلا: «لقد كانت عملية مخططة بصورة محكمة ومحنكة، فقد تم التخطيط للعملية لمدة سنتين كاملتين. هؤلاء الأشخاص ليسوا مجرد مجموعة من الهواة : على العكس تماما لقد كانوا محترفين ولديهم قدرات فائقة على التخطيط والتنفيذ. فهم يملكون شبكات واسعة وطرق للهروب وطرق للإمدادات ومعسكرات تدريب وأموالاً طائلة. إن الأمر يحتاج لبنية تحتية عالية المستوى وراسخة لإمكان تفعيل هذا الأمر: إنها تقدم خدمة مؤسساتية حقيقية للإرهابيين». توقف الدبلوماسى لحظة ثم واصل قائلا: «انظرى إننا نبتعد كثيرا عما كان يحدث قبل ثلاثة سنوات عندما قام ستة أشخاص باطلاق النار على حافلة مملوءة بالسائحين الأجانب واختبأوا فى زراعات قصب السكر. أصبح مثل هذا الأمر موضة عتيقة بالنسبة للمحترفين. إذا نظرت للسياق الدولي، يمكنك ملاحظة أشياء كثيرة كالارتباطات والمنازل الآمنة والدول الآمنة، إنه شىء مثير للخوف والرعب».

يوضح الهجوم على مبارك، ربما بنفس القوة التى يوضحها أى شىء آخر،العولمة التى كان يتحدث عنها الدبلوماسي. فالرجال الذين حاولوا اغتيال الرئيس ينتمون كلهم لصعيد مصر. ولقد أتى معظمهم من الأقصر بالقرب من وادى الملوك التى دفن فيها الفراعنة الذين مثلوا الفترة المزدهرة فى تاريخ مصر. كان هؤلاء الشباب قد تم استقطابهم وتحويلهم إلى قتلة – من خلال الإخوان المسلمين والعديد منهم من خلال المساجد. بعدها تم إرسالهم إلى التدريب بأفغانستان ومن هناك ذهبوا إلى إيران، حيث استقروا لبعض الوقت هناك، حيث كان يتم الإعداد للسوق. بعدها سافروا من إيران إلى اليمن فى البداية –حيث حصلوا على جوازات سفر يمنية– ثم سافروا إلى السودان حيث عاشوا فى «مزرعة آمنة» لفترة من الوقت ومن هناك عبروا الحدود إلى منطقة الاستعداد للعمليات واستأجروا بيوتا وسيارات كانت فى انتظارهم فى العاصمة الإثيوبية أديس أبابا.

فى سبتمبر من عام ١٩٩٦ تمت محاكمة ثلاثة من منفذى محاولة الاغتيال، الذين كان قد تم إلقاء القبض عليهم فى أديس أبابا، وتم إعدامهم. أما الآخرون فقد هربوا متخفين إلى السودان فى البداية ثم بعد ذلك إلى أفغانستان.

يقال إن محاولة اغتيال مبارك قد تم التخطيط لها وهندستها بواسطة مصطفى حمزة، وهو مهندس زراعى مصرى معسول الكلام وحلو اللسان كان يسافر مستخدما جواز سفر دبلوماسى سودانى فى صورة رجل أعمال ناجح. وهو أيضا قائد عسكرى للجماعة، وعضو قيادى فى مجلسها فى المنفى، وجندى متمرس من المجاهدين. وكالكثير من المصريين الذين حاربوا فى أفغانستان -الذين يقدر عددهم جميعا بألفى مقاتل- فقد كان حمزة واحدا من أقل المتهمين فى محاكمات اغتيال السادات. عندما انتهت تلك المحاكمات فى عام ١٩٩٤ غادر مصر المئات من الذين كانوا متهمين وتوجهوا للجهاد فى أفغانستان. وأيضا كالكثير من المصريين -بمن فيهم اثنان من أكبر أبناء الشيخ عمر- يتنقل حمزة جيئة وذهابا من أوربا إلى السودان إلى بيشاور ولكنه يقيم بصفة شبه دائمة فى جبال أفغانستان.

عاد مبارك بسرعة إلى القاهرة بعد محاولة الاغتيال الفاشلة، وكان الغضب الشديد هو الشعور المسيطر على الرئيس، وكان جل غضبه موجها إلى السودانيين الذين اتهمهم علانية بالمسئولية عن محاولة اغتياله. انكشفت أسطورة مبارك حول هدوئه وقدرته على التحكم فى انفعالاته، وبدأ فى جلد القادة السودانيين وعلى رأسهم حسن الترابى القائد السودانى الإسلامى ورئيس الدولة السودانية، ووصفهم بأنهم «بلطجية، ومجرمون، ومجانين». وطبقا لما قالته وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت والتى كانت فى ذلك الوقت ممثل أمريكا لدى الأمم المتحدة، إن الأسلحة التى تم استخدامها فى العملية تم شحنها من العاصمة السودانية الخرطوم على الخطوط الجوية السودانية، وهو ادعاء لم تؤكده الحكومة المصرية.

ولمدة أسبوع استمرت المناوشات بين القوات المصرية والسودانية فى النزاع على منطقة حلايب الحدودية الواقعة على البحر الأحمر. وكان هذا مدعاة لقلق الكثير من المصريين من مغبة دخول مصر مرة أخرى فى دوامة الحرب.

بينما كانت القوات تتبادل إطلاق النار، كان الرئيس مبارك مشغولا بجنى ثمار تلك المحاولة. فقد فتح حدائق قصره الرئاسى واستقبل آلاف المهنئين بنجاته كل يوم. كما قدم له جيشه فروض الولاء والطاعة. كذلك دعت له مؤسسته الدينية وامتدحته كثيرا واصفة إياه بأنه حاكم عادل وحام للدين وحافظ للإيمان.

وبعيدا عن القصر الرئاسي، هناك فى مناطق القبائل والبعيدة عن سلطة الحكومة على الحدود الباكستانية الأفغانية فى معسكرات التدريب خارج بيشاور فى أفغانستان، قامت جيوش الشيخ عمر ومصطفى حمزة والجماعة الإسلامية -ومؤسستهم الدينية- بإعادة تأكيد الولاء لهم.

بعد خمسة أشهر وتحديدا فى التاسع عشر من نوفمبر، لم يكن هناك ما ينذر بأن منتصف النهار سوف يتبدد سكونه وهدؤه فى منطقة الصفوة، الواقعة فى العاصمة الباكستانية إسلام أباد، حيث الحراسة المشددة وحيث الكثير من السفارات الأجنبية. وتحديدا خارج السفارة المصرية، حيث كان يقف فى باحة السفارة عشرات من الباكستانيين طالبى تأشيرات الدخول لمصر. لم يلاحظ إلا القليل منهم سيارة بيك أب داكنة اللون يقودها مصرى تتقدم نحو بوابة السفارة الحديدية وتصطدم بها. ويحدث انفجار هائل نجم عنه مقتل سبعة عشر شخصا بمن فيهم الانتحارى سائق السيارة وجرح ستين آخرين.

قبل ذلك بستة أيام تم قتل خمسة أمريكان فى العاصمة السعودية الرياض وجرح نحو أربعين، وذلك عندما قامت سيارة مفخخة مشابهة لتلك السيارة بصورة ملحوظة وانفجرت خارج مركز قيادة لقاعدة عسكرية أمريكية لتدريب الحرس الوطنى السعودى. وبعد ذلك بشهر، وفى سوق مزدحم فى بيشاور، حدث أيضا تفجير مشابه لسيارة مفخخة أودت بحياة ستة وثلاثين شخصا وجرح مائة وعشرين شخصا، حدثت تلك التفجيرات بعد تهديدات من ثلاث من الجماعات الإسلامية المصرية المتشددة، والتى طلبت من الحكومة الباكستانية بالكف عن تسليم أعضائها -والذين كانوا جميعا مجاهدين متمرسين- والذين بقوا بعد انتهاء الحرب واستخدموا بيشاور كمقر ومستقر لهم. وطالبت تلك الجماعات أيضا من الولايات المتحدة أن تقوم هى الأخرى من جانبها بإطلاق سراح الشيخ عمر

عبد الرحمن. وعلى ذلك فقد كان تفجير الرياض يستهدف كلا من الأسـرة الحاكمة فى السعودية والولايات المتحدة.

ادعت ثلاث من الجماعات الإسلامية السرية مسئوليتها عن أحداث التفجير، وهى الجماعة الإسلامية وجماعة الجـهاد من مصر، والحـركة الإسلامية مـن أجـل التغيير السعودية . وقد حذرت تلك الجماعات من أنه سكون هناك عمليات وتفجيرات أكثر فيما بعد. كل الجماعات التى شاركت فى الجهاد فى أفغانستان.

فى غمرة الحديث عن التفجيرات،أخبرنى دبلوماسى أمريكى سابق متخصص فى الشئون السعودية حينذاك «سواء كانت تلك التفجيرات قد تم تنفيذها بواسطة نفس تلك الجماعات الإسلامية المتشددة أو جماعات متحالفة معها فإنها ليست بالشـىء الأكثر أهمية. إنما الأكثر إزعاجا هو أن تلك التفجيرات تبين أن طبيعة الإرهـاب قد تغيرت عما كانت عليه الحال أيام الحرب الباردة. كان هناك انحسار ملحوظ وأفول واضح للجماعات المنظمة أيديولوجيا ضخمة التمويل مثل الألوية الحمراء. فها نحن نرى ونسمع كل يوم عن تكاثر وتوالد لجماعات إسلامية متشددة سرية ما كنا لنسمع بها من قبل». أضاف قائلا: إنه من أكثر الأشياء أهمية وخطورة هو تلك الأعداد الكبيرة الراغبة فى الانضمام إلى تلك الجماعات ذات الأسلوب الجديد فى استخدامها للعنف قائلا: «إن هذا بالنسبة لى يشكل القلق الأعظم». فعملياتهم من السهولة القيام بها. وهى عمليات تعتمد أساسا على تكنولوجيا بسيطة ومتدنية، ولكن المطلوب هو قدر جيد من التدريب – وبعدها تذهب إلى محل بقالة وكوخ لتصليح الراديو. العامل المشترك لكل تلك التفجيرات – سواء تلك التى تمت فى القاهرة أو الرياض أو إسلام أباد أو الجزائر أو أوربا أو نيويورك – هو أن جميع المنفذين كانوا مجاهدين فى الحرب الأفغانية.

لم يتم تجاوز الالتزام التمويلى الأمريكى لتلك الحرب سوى من المملكة العربية السعودية، لم تكن هناك حركات إسلامية مناهضة تذكر فى المملكة العربية السعودية، ومن الواضح أن هذا الأمر لم يخطر ببال أى من الحكام السعوديين، الذين كانوا يخشون من اتساع النفوذ الروسى بنفس القدر من الخوف الأمريكي، إن هؤلاء المتطوعين الذين قامت

بإرسالهم يمكن أن يتم استقطابهم عن طريق المجاهدين ويعتنقون الفكر الجهادي. ويكمن في تلك المسألة أعظم مفارقة لتفجيرات الرياض (وربما لتلك التفجيرات الأكثر دموية التى ظلت لغزا والتى حدثت فى يونيه ١٩٩٦ والتى استهدفت مجمع مبان عسكريًا أمريكًا فى مدينة الظهران السعودية والتى أسفرت عن جرح ٢٤٠ جنديًا تابعًا لسلاح الجو الأمريكى وعن مقتل تسعة عشر آخرين). لأن كلا من هذين التفجيرين والتفجيرين اللذين وقعا فى بيشاور وإسلام آباد قد أثبتا الآن أنهما كانا جزءا من سقطة سلبية –أو ضربة من الخلف قاصمة بلغة المخابرات– للتنسيق الأمريكى السعودى للجهاد فى أفغانستان.

كانت تلك التفجيرات– وهى الأولى من نوعها فى تاريخ المملكة العربية السعودية والأسوأ فى تاريخ باكستان– قد مثلت التحذيرات الأكثر وضوحا لتصاعد مشئوم فى الصراع بين الحكومات فى القاهرة والرياض وبين خصومهم الإسلاميين. والمذبحة فى إسلام آباد– كانت هى الهجوم الرابع ضد الحكومة المصرية فى شهور قليلة– أوضح هذا الهجوم أن الجماعات الإسلامية المتشددة المصرية، وهى تواجه انتقاما متصاعدا وصرامة داخل وطنها، قد قامت بنقل مواجهاتها إلى الجبهة الدولية (عولمة الصراع). وقد ذهل صناع القرار السياسى فى أمريكا. ففى أقل من أسبوع واحد بدا واضحا للعيان ان هناك ثلاث دول هى أهم محاور السياسة الأمريكية وأهم حلفاء أمريكا قد أخذت تتداعى للسقوط .

فقد كانت مصر والسعودية وباكستان قد قدمت خدمات جليلة للاهتمام الأمريكى خلال فترة الجهاد فى أفغانستان: ويبدو أنه ليس بمقدور أحد مجابهة تبعات ذلك.

كان غضب مبارك واضحا وملموسا وذلك عندما أخبرني، قبل شهور قليلة فقط من تفجير سفارته فى إسلام آباد، أنه يلقى بتبعة الإرهاب الإسلامى على باكستان أساسا حيث إنها تقاعست عن القيام بتطهير بيشاور وضواحيها. بعد التفجيرات كان غضب وزيرة الخارجية الباكستانية فى ذلك الوقت واضحا ومرة أخرى ألقت باللوم على الولايات المتحدة ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية، واتهمتهما بالاستمرار فى دعم وتمويل رجال الدين الباكستانيين الأصوليين والجماعات المتشددة. أما فيما يخص الحكام السعوديين– الذين ظل أمراؤهم ومؤسساتهم، ويا للسخرية، هم المتصدقون الرئيسيون والممولون للعديد من

الجماعات الإسلامية المتشددة فى محاولة ضيقة الأفق لاسترضاء جماهيرها المناصرين للتشدد والذين كانوا فى تزايد مستمر، فقد بدا واضحا أنهم اهتزوا وفقدوا سكينتهم وهدوءهم. وبدأت الأوساط الرسمية الحكومية فى الدول الثلاث تتساءل ما إذا كان من الممكن احتواء الإسلاميين.

لم يزل الناس فى أسواق بيشاور وفى معسكرات اللاجئين المزدحمة يتذكرون الشيخ عمر منذ سنوات الجهاد. كان رجلا قصيرا ممتلئ الجسم مرتديا جلباب رجال الدين الطويل الرمادي، وعلى رأسه الطربوش الأزهرى الأحمر بشريط أبيض عريض. كان مميزا جدا ومن السهل التعرف إليه لكونه فاقد البصر، وذو لحية طويلة بيضاء تسترخى فوق صدره. شهدت بيشاور أول لقاء جمع بين الشيخ عمر وعملاء المخابرات الأمريكية والباكستانية الذين كانوا يديرون الحرب فى أفغانستان، وينسقون فيما بينهم لعملياتها. وقد وجد فيه الستون عميلا للمخابرات المركزى الأمريكية، وضباط القوات الخاصة العاملون هناك ضالتهم، واعتبروه عظيم الفائدة، وذلك طبقا لوجهة نظر أحدهم، وتجاهلوا كراهيته للغرب وتحريضه على الحرب المقدسة لأنهم كانوا فى أمس الحاجة إليه للمساهمة فى توحيد جماعات المجاهدين.

ولكن توحيد تلك الجماعات والتى كانت متناحرة فيما بينها لسنين طويلة، ثبت استحالة تحقيقه حتى بجهود الشيخ عمر، ولكنه نجح فى تنسيق بعض من أنشطتها وعملياتها. وبينما كان يفعل ذلك أعجب باثنتين من أكثر الجماعات تعصبا وتشددا وكراهية للغرب، كانت إحداهما يقودها صديقه منذ رحلة عام ١٩٨٥، وهو جلبادين حكمتيار، أما الأخرى فكان يقودها زميل له كان قد حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة الأزهر، وكان من أكثر الكارهين لأمريكا وهو عبد رب الرسول سياف. كان سياف رجلا متهورا وكان دائما يرتدى ملابس بسيطة ويلف نفسه ببطانية أو رداء فضفاضًا. وقد كان سياف قائدا ومقاتلا له وجهة نظر قيمة ومعتبرة. فقد درس فى مكة وكان أيضا أستاذا جامعيا فى جامعة كابول، ولكن قوته وسلطته لم تكونا بتلك القوة داخل أفغانستان، بل كانت محدودة وكان ذلك راجعا لكونه وهابيا وهى الطائفة المسيطرة فى السعودية، ولذا فقد مولته الرياض بوفرة وسخاء.

ولكن كان أقرب الأصدقاء المقربين للشيخ عمر فى بيشاور هو رجل الدين الفلسطينى الجدير بالاحترام والتبجيل الشيخ عبد الله عزام. وقد كان رجلا واسع المعرفة ومهذبا ومثقفا وبليغا، وكان أيضا حاصلا على الدكتوراه من جامعة الأزهر، كان كل شىء لم يكنه سياف الذى كان قاسيا وصلفا ومتبجحا.

كان عزام يفضل ارتداء جلباب رجال الدين الفضفاض الطويل، وأيضا الكوفية الفلسطينية، وكان كالشيخ عمر مدرسا للشريعة الإسلامية فى جامعة الأردن قبل انضمامه للجهاد. أصبح عزام الشخصية المحورية فى العالم العربى فى الترويج للقضية. وقد كان «مكتب الخدمة» الذى كان يترأسه حتى ١٩٨٩، عندما تم اغتياله بواسطة قاتل مجهول الهوية إلى اليوم، من أكبر وأوسع المراكز تجنيدا للمجاهدين المتطوعين العرب فى بيشاور، وربما فى العالم أجمع. فقد أصبح، إلى حد ما، الرابط للجهد المناصر للإسلام فى داخل أفغانستان -وبعد انتهاء الاحتلال السوفيتى فى ١٩٨٩- فى خارج أفغانستان أيضا. وقد كان حكمتيار وعزام والسياف من المفضلين ليس فقط للولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية، ولكن أيضا من الحاكم العسكرى محمد ضياء الحق والذى كانت المخابرات الأمريكية تضخ الأسلحة للمجاهدين من خلال جهاز مخابراته ال (I S I) منظمة المخابرات الداخلية.

تدفقت الأموال على مكتب الخدمة من الإخوان المسلمين الذين كان عزام ينتمى إليهم. أما التمويل الأعظم والذى ربما يصل فى مجموعه إلى مئات الملايين من الدولارات، فكان ينهمر من المملكة العربية السعودية. كان بعض من التمويل السعودى يتم تقديمه بصورة علنية بينما كان من الصعب تتبع ومعرفة البعض الآخر: فقد كانت بعض الأموال تأتى من الحكومة مباشرة وبعضها من المساجد الرسمية والبعض من الأفراد كالأمراء وأعضاء من الصفوة ورجال الأعمال فى المملكة. فقد ترأس الأمير سلمان بن عبد العزيز، حاكم الرياض، لجنة لدعم وتمويل المجاهدين وكان من أكبر المساهمين والمتبرعين لتلك الجمعية. وكذلك كان مفتى السعودية الشيخ عبد العزيز بن باز، الذى كان يترأس رابطة العالم الإسلامى الهائلة القوية، والتى كانت تمثل الأنبوب الرئيسى فى السعودية، والتى

تضخ أموالها للقضايا الإسلامية ولنصرة الإسلام فى العالم كله عبره . حقيقة أن معظم التمويل السعودى المستتر غير المعلن للخارج، وكذلك أموال رابطة العالم الإسلامى كان يتم توزيعها بصورة عشوائية ودون تمييز كما هى الحال حتى الآن. لكون الحرب قد تطورت واستمرت فقد قام مكتب الخدمة بإنشاء فروع له فى أوربا والولايات المتحدة، وانتقى عزام إخوة ملازمين يثق بهم لتنفيذ أجندته فى الخارج . وتمركزت جهود الساحل الشرقى فى الولايات المتحدة فى مركز الكفاح للاجئين، والذى كان موجودا فى شارع أتلانتيك. تم تجنيد أكثر من مائتى عربى وعربى – أمريكى وتم إرسالهم إلى الجهاد فى أفغانستان.

كما كان الشيخ عزام يجند الجنود، كان الشيخ عمر يخطب فى الناس ويحضهم على الجهاد متنقلا بين قارات العالم الأربع، مستخدما تذاكر طائرات الدرجة الأولى، من معسكرات اللاجئين الأفغان إلى مدن الصعيد المصرى وفى داخل المساجد العربية السعودية وفى المراكز الإسلامية المنتشرة فى ألمانيا وإنجلترا وتركيا والولايات المتحدة.

كان الاختلاف واضحا تماما بين هذين الشخصين، الشيخ عمر والشيخ عزام، بينما كانا يجولان فى معسكرات اللاجئين فى بيشاور ويسافران معا داخل أفغانستان: أحدهما قصير وأعمى ويرتدى طربوش الأزهر الأحمر، وبسبب كونه مريضا طوال عمره بدا أكبر بكثير من سنى حياته: أما الآخر فقد كان طويلا وجذابا جدا وهو فى ردائه الأفغانى القبلى وكوفيته الفلسطينية، ولكن كلا الرجلين –اللذين سجلا وأنتجا مئات من شرائط الكاسيت وشرائط الفيديو التى تدعو للجهاد والترغيب فيه– كانا أكثر سحرا وجاذبية وشعبية فى أساليبهما المختلفة.

عندما كان الشيخ عمر يسافر متنقلا داخل وخارج بيشاور إلى ساحات المعارك كان يرافقه واحد من ولديه، اللذين كانا يقاتلان فى صفوف المجاهدين تحت قيادة جلبادين حكمتيار، واللذين كانا معروفين فى بيشاور باسميهما المستعارين أبو حامد وأبو ناصر . كان أبو حامد وأبو ناصر مراهقين فى عام ١٩٨٨، عندما توجها للجهاد فى أفغانستان من واحة الفيوم المصرية (حيث استمرت أسرة الشيخ عمر فى العيش هناك، وهما زوجتان وثمانية أبناء آخرون). عندما ودعهما والدهما الشيخ عمر فى مطار القاهرة، كانت كلمات

الوداع التى قالها الشيخ لأبنائه هى «إن كان نصرًا سألقاكم إن شاء الله فى أفغانستان وإن كانت شهادة سألقاكم فى الجنة إن شاء الله».

لقد كانت الشهادة من الموضوعات المهمة الدائمة فى حياة الشيخ عمر بل هى موضوع حياته. أخبرنى ذات مرة أحد الدبلوماسيين الغربيين الذين سمعوه يخطب فى الناس فى بيشاور خلال سنوات الحرب، أن الشيخ عمر ذكّره إلى حد ما بنبى كتابىٍّ (نبى من أنبياء الكتاب) كانت رسالته واضحة وبسيطة : إن الطريق للجنة يمر عبر الشهادة أو أن الشهادة هى الطريق الأوحد للجنة. « كان يلوح بيديه ويعلو صوته بينما يحض الجماهير ويحرضهم ويدفعهم ويرغبهم فى الجهاد مخبرا إياهم أنهم يجب أن يتشبهوا بالرسول محمد (ص) وأن يكونوا راغبين فى المعاناة وتحملها لنصرة الإسلام كما عانى هو وتحمل فى سبيل دعوته». كان بكل معنى الكلمة رجلاً ما قبل عصر النهضة. «رجل من عصر النبوة».

فى الحقيقة أنه كلما علمت الكثير عن الشيخ عمر، كلما بدا لى أنه كتابى بصورة أكبر. ففى خلال أيامه المبكرة فى الدراسة الأزهرية كان لديه ولع متزايد، وكان يشغل باله دائما بفكرتى الجهاد والاستشهاد. وفى أطروحته التى تقدم بها للحصول على الدكتوراه، والتى كانت نحو ألفى صفحة موضحة وموثقة بالآيات القرآنية والمعنونة «موقف الإسلام من خصومه كما جاء فى سورة التوبة» حيث حث الرسول محمد أتباعه على شن الحرب على القبائل غير المسلمة، يصف الشيخ «العنف والاضطهاد» اللذين واجههما الرسول على أيدى «الكفار» مستنتجا أن «الجهاد هو الطريق الوحيد لدحر أعداء الإسلام» . شارحا فى المقدمة سبب اختياره هذا العنوان لرسالة الدكتوراه قائلا: «إنه يقدم السياسة الخارجية والقضايا العسكرية للدولة الإسلامية لقد أحببتها منذ الطفولة». لم تكن تلك الرسالة تختلف عن رسالة الشيخ عمر فى كتابه «كلمة حق».

عندما سألت الدكتور كمال أبو المجد، وهو إسلامى مصرى معتدل وعالم فى القرآن «ما الذى تعنيه سورة التوبة (Repentance) له أجاب قائلا: «إنها عملية صعبة أن تحاول إعادة تفسير تلك الكلمة أو الآية، ولكن يجب أن يتم تفسيرها من خلال السياق العام للقرآن. ولكن لو أخذتها بمعزل عن السياق وترجمتها بصورة حرفية، فإنها تعنى أنه يجب عليك أن تبقى فى حالة حرب دائمة ومستمرة مع بقية العالم.

كانت رسالة الشيخ عمر فيما يخص الجهاد والاستشهاد واضحة وقوية لأنه بدا وكأنه يعيشهما بنفسه.

قبل سنوات قليلة مضت قمت بزيارة لنواب ساليم، وذلك بعد ظهر أحد الأيام، وكان نواب ساليم قد رافق الشيخ عمر عبد الرحمن خلال زيارته لأفغانستان عام ١٩٨٥، وسألته ما هو الشيء الذى شكل جاذبية الشيخ عمر. ارتشف رشفة من كوب الشاى للحظة وبعدها رد قائلا: «إن الشيخ عمر واحد من أعظم المجاهدين فى عصرنا هذا. ويقال فى القرآن إن الأعمى معفى من الجهاد ولا حرج عليه فى ذلك، ولكن الشيخ عمر كرس حياته كلها ووهبها للجهاد، وبتكلفة شخصية عالية جدا. فقد ساهم فى تحويل الجماعة الإسلامية إلى حركة عالمية دولية بينما تظل، جماعة الإخوان المسلمين سلبية وتزداد سلبية يوما بعد يوم. لقد أصبحت جماعة برجوازية بصورة كلية تشارك جالسة فى برلمان مزيف ومشاركة فى انتخابات مزيفة. إن الشيخ عمر يقود صراعا حقيقيا ومعركة حقيقية. إنه يرمز للحرب من أجل الإسلام».

كان الشيخ عمر ومبكرا جدا منذ السبعينيات، يحض الشباب على أداء الخدمة العسكرية الإلزامية للتدرب على المهارات العسكرية وتعلمها .أما فى الثمانينيات فقد كان يحثهم على اعتناق الجهاد . وقد صهرت الحرب الأمريكية فى أفغانستان هدفيه وجعلتهما هدفا واحدا.

فقد كان الشيخ عمر رمزا بالنسبة للشباب المتشدد الذى كان يجاهد فى أفغانستان، فقد كانت خطبه النارية منسجمة تماما مع دوره كمحارب إسلامى فى القرن العشرين.

كان الكثير من بين الالفى شاب المصريين الذين أتوا ورحلوا عن أفغانستان عبر السنين مثل الأخ الأكبر لخالد الإسلامبولي، محمد الإسلامبولى ومصطفى حمزة من بين المتهمين الذين كان قد تم تقديمهم للمحاكمات فى قضية اغتيال السادات : والآخرون كان قد تم اعتقالهم فى سجن طره مع الشيخ عمر : وكان لم يزل هناك آخرون فروا من مصر تحديدا فى الثمانينيات تجنبا لتلك المحاكمات. كان جميعهم تقريبا أعضاء فى الجماعة الإسلامية أو جماعة الجهاد، وعن طريق جناحها العسكرى هى التى خططت ونظمت محاولة اغتيال مبارك واغتيال السادات.

بالنظر إلى الوراء إلى سنوات الحرب الآن، فلم يزل الناس الذين التقوا الشيخ عمر فى بيشاور يتذكرونه ويتذكرون خطبه النارية وحماسه الشديد، ولكن القليل منهم شعروا أنهم تعرفوا إليه بصورة جيدة. لأن الشيخ فى هذا الأمر كالرئيس مبارك كان شحيحا فيما يخص العواطف التى تخلى عنها وكان لا يظهر إلا القليل جدا عن نفسه. فقد أتى إلى بيشاور بحثا عن الحلم الأفغاني، ذلك الحلم الذى ربطه بالرئيس المصرى بصورة تدعو للغرابة. لأن رجل الدين الخطيب البارع والجندى (الرئيس) – اللذين كانت حياتهما قد تم ربطهما عن طريق خالد الإسلامبولى فى الذكرى الثامنة لحرب أكتوبر عام ١٩٧٣– قد التقيا أخيرا، حتى ولو بصورة مجازية استعارية فقط فى ساحات المعارك فى أفغانستان. فقد كان كلاهما قد عاصر حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧، وقد تأثرا بشدة لهزيمة مصر المفجعة المدمرة :كان الشيخ وقت الهزيمة مرشحا من الأزهر لشهادة الدكتوراه، وأصبح بعدها وبسببها أصوليا متشددا : وكان مبارك وقتها فى منتصف حياته العملية كطيار مقاتل، وقد صار جزءا من عار الأمة وانكسارها. لذا فقد مثلت أفغانستان لكل من الرجلين وسيلة لطرد هذا العار والتخلص منه.

اعتنق كل منهما عقيدة الجهاد بنفس الحماس . فقد قام مبارك وجيشه بتأمين وضخ أطنان من الأسلحة، عبر خط الأنبوب الأمريكى الذى هندسته، بينما قامت مؤسسته الدينية بتعليق آلاف النشرات فى الكليات والمساجد التى تخضع لسيطرة الحكومة. كما تم تقديم تذاكر طيران حكومية مجانية لجنود الشيخ عمر ليتم إرسالهم ليحاربوا ضمن صفوف المجاهدين.

من جانبه استمر الشيخ عمر فى رسالته وفى الخطابة بحماس وقوة عن الجهاد والاستشهاد: وعن طرد الكفار : والتمسك بشريعة القرآن. كان يبدو أحيانا وكأنه يعظ بكلام ملغز مشفر . وقد وهبته لحيته البيضاء الرمادية وثوبه الواسع الفضفاض جلال رجال الدين فى العصور الوسطي، وفى بعض الأحيان كان يبدو وكأنه يستدعى هنرى الثانى متحسرا على توماس بيكيت (Tomas a Becket) قائلا: «من الذى سيخلصنى من هذا الكاهن المزعج ؟».

ولكن رغم التورية التى كانت دائما ما تغلف كلماته، فقد كان الشيخ ثابتا فى استناده على القرآن.

يتذكر ليكات بالوتش، وقد كان المتحدث البرلمانى باسم حزب الأصوليين الباكستانى (الجماعة الإسلامية) مقابلة له مع الشيخ عمر، وذلك فى خريف عام ١٩٨٨ فى إسلام آباد. كانت بناظير بوتو قد تم انتخابها للتو كأول امرأة لمنصب رئيس الوزراء فى بلد إسلامي، وكان قادة الجماعة فى فزع وهلع. ولأنهم كانوا فى حاجة للنصيحة فقد زاروا الشيخ عمر. قال لى بالوتش فيما بعد: «أخبرنا أنه أن تقودنا سيدة فإن هذا مناف تماما لتعاليم القرآن، وقام بتلاوة الحديث الذى يعضد وجهة نظره». بعد أن انتهى الشيخ من تلاوته، نظر حوله فى الحجرة، حيث كان الكثير من القادة الأصوليين المتشددين مصطفين وجالسين على كراسٍ مستقيمة الظهر. وقال «النتيجة الوحيدة التى يمكن أن أصل إليها هى أنه لم يبق رجال فى باكستان».

بينما كان الشيخ يسافر من وإلى بيشاور -لأكثر من خمس سنوات تقريبا- استمرت منزلة الشيخ ومكانته فى النمو والرقي، مما أسعد وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وضباط القوات الخاصة الذين كانوا متمركزين هناك. كان ذلك أيضا جالبا للسعادة والسرور للشيخ عمر نفسه الذى اكتسبت آراؤه مساحة دولية من القبول. وبعين ناظرة للمستقبل فقد قوى الشيخ عمر صداقاته القديمة، وكون صداقات جديدة عبر الطريق، ساعيا لصداقة رجال كانوا فى النهاية سيقودون إلى تكوين شبكة دعم دولية لأنشطته، ليشكل محورا نراه الآن يربط أوربا والولايات المتحدة بالسودان وباكستان وأفغانستان، لأنه كان دائما واضعا نصب عينيه هدفه الأساسى الجوهرى : إقامة دولة إسلامية أصولية فى مصر.

أثناء تلك السنوات كان الشيخ عمر يلتقى بصورة مستمرة السودانى الإسلامى الدكتور حسن الترابى فى لندن والخرطوم، والذى كان الدبلوماسيون الأمريكيون قد انسحبوا من بلاده عام ١٩٩٦، خوفا من هجوم يشنه الإرهابيون. تودد الشيخ عمر للجنرالات الباكستانيين والذين كان الكثير منهم إسلاميين أصوليين، وجميعهم كانوا منبهرين بعلم الشيخ الوافر الغزير ومعرفته غير العادية بعلوم القرآن. رجع الشيخ عمر

مرة أخرى إلى السعودية حيث كان يعيش، وقد أظهر براعة منقطعة النظير فى استغلال الانقسامات السياسية داخل المؤسسة الحاكمة. كان يتناول العشاء بصورة مستمرة مع الأمراء والأعضاء ومع الصفوة من رجال المال والأعمال السعوديين، بمن فيهم رجال كأسامة بن لادن وهو ملتيمليونير وسليل واحدة من أبرز الأسر السعودية، والذى جاء أخيرا إلى بيشاور كمجاهد بنفسه، والذى سيصبح فيما بعد منفذا وموافقا على أنشطة الشيخ عمر. صادق الشيخ عمر أيضا الأمير سلمان حاكم الرياض، ومفتى السعودية الشيخ عبد العزيز بن باز.

اثنان من أقرب أصدقائه الدائمين، اصطحباه فى رحلته عام ١٩٨٥. كان جلبادين حكمتيار قد أصبح رئيسا للوزراء فى أفغانستان عام ١٩٩٢، بعد انسحاب السوفييت بثلاث سنوات، وعندما سقطت الحكومة الشيوعية أخيرا. ولكن القتال لم ينته بل استمر بين الإخوة متخذا شكل الحرب الأهلية، حيث شن حكمتيار هجوما شرسا على الجماعات الأخرى من المجاهدين، مستخدما ترسانة هائلة من الأسلحة، كلها كانت من إمدادات الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية. ومما يدعو السخرية، أن حكمتيار والقادة السابقين الآخرين للحكومة الأفغانية، كانوا فيما بينهم قد خزنوا نحو خمسمائة صاروخ استنجر للطائرات (مفقودة) كانت قد أعطتها المخابرات الأمريكية للمجاهدين، والذين كانوا قد فقدوا السيطرة على نحو ٩٠٪ من مساحة الدولة لصالح ميليشيا الطلبة الأفغان أو حركة طالبان الأشد تطرفا، والتى نشأت بعد الفوضى التى أعقبت حرب المخابرات المركزية الأمريكية. واستطاعت بالدعم القوى من السعودية وباكستان أن تسيطر ليس فقط على معظم الأراضى الأفغانية، بل وانتزعت العديد من الصواريخ ماركة استنجر من قبضة قادة الجهاد. وقد حاولت الولايات المتحدة عن طريق جهاز مخابراتها أن تسترد تلك الصواريخ بشرائها، وقد أخبرنى جنرال متقاعد من المخابرات الباكستانية (I S I) والذى كان منغمسا بشدة فى الحرب ذات صباح، وكنا نتناول فنجانين من القهوة فى إسلام آباد. قال إنها كانت عملية مشتركة مع ال(I S I) سميت عملية حصان طروادة، ولكنها على حد قوله منيت بفشل ذريع. أضاف قائلا: «كانت المخابرات الأمريكية قد أخبرتنا أنه بإمكانها

أن تدفع مائة ألف دولار مقابل كل صاروخ، وهناك خمسة وسبعون مليون دولار تمت تنحيتها جانبا. كانت العملية سخيفة منذ البداية : لا تساوم لشراء صواريخ استنجر بأقل من سعرها فى السوق السوداء!» زايدت ال(ISI) وال(CIA) فى إصرار بعرض سعر أعلى، وتم شراء بعض الصواريخ القادرة على تدمير طائرة على بعد ثلاثة أميال بواسطة الحكومة الثورية فى إيران، وظهر البعض الآخر من تلك الصواريخ فى عرض عسكرى فى قطر. وعلى الأقل تم شراء اثنين من تلك الصواريخ عن طريق المقاتلين الإسلاميين فى طاجيكستان واثنين آخرين تم شراؤهما عن طريق جماعة انفصالية متشددة فى الفلبين تدعى جماعة أبو سياف، وهى جماعة نشأت أيضا تحت لواء الجهاد الأمريكى فى أفغانستان.

كان محمد الإسلامبولي، طالبا يتلقى العلم على يدٍ الشيخ عمر فى جامعة أسيوط بصعيد مصر، ومنذ تلك الزيارة التى قام بها الشيخ فى عام ١٩٨٥، صار شخصا بارزا فى قيادة الجماعة فى الخارج. وكعضو بارز فى جناحها العسكري، فقد كان معنيا بتوفير السلاح للمنظمة سواء فى باكستان أو فى الخارج . ورغم أنه محكوم عليه غيابيا بالإعدام من قبل الحكومة المصرية، مع ذلك استمر فى التنقل بحرية وسهولة ويسر بين أوربا، وبيشاور وجبال أفغانستان، والتى كانت جميعها تخدم كمراكز تنظيمية أو أراض لتدريب الجماعات الإسلامية المتشددة المصرية.

جاء الشيخ عمر لآخر مرة إلى بيشاور فى مايو عام ١٩٩٠ -عن طريق السعودية والسودان- ومكث شهرين، زار فيهما ما يقرب من دستين من معسكرات التدريب التى كانت تحتضن الحدود، خاطبا فى الناس ومسافرا مع الإسلامبولى وحكمتيار إلى داخل أفغانستان. كان خانعا بصورة أكبر والحراسة عليه لم تكن مشددة أحيانا، كما كانت من قبل، وكان الغضب واضحا عليه أكثر من المرات السابقة، وذلك طبقا لما قاله السيناتور خورشيد أحمد، وهو عضو فى حزب الجماعة الإسلامية الباكستاني. فقبل ستة أشهر من ذلك التاريخ وتحديدا فى نوفمبر ١٩٨٩، كان الشيخ عبد الله عزام قد قتل فى انفجار سيارة مفخخة، بينما كان يقود سيارته متوجها لمسجد سبع الليل فى بيشاور ليؤم صلاة الجمعة (وبعد سنة ونصف السنة من ذلك التاريخ فى مارس ١٩٩١، تم العثور على مصطفى شلبي،

وكان ممثل عزام فى الولايات المتحدة ورئيسا لمركز الكفاح للاجئين فى بروكلين، مقتولا فى شقته وعليه آثار طعنات متعددة وطلقة نارية فى رأسه. ورغم أن بعض الأوساط الرسمية الباكستانية أسرعت وألقت باللوم فى موت الشيخ عزام على الخدمات السرية الأفغانية (K H A D)، وكان جنرال ال (I S I) المتقاعد قد أخبرنى بالمزيد حديثا، من أنه لم تكن هناك أية تحريات ولا تحقيقات وإن الحكومة كانت تلقى بالتهم جزافا على ال(K H A D) فى كل شىء وذلك خلال سنوات الجهاد. كانت المصيبة الأخرى الناجمة عن تلك الحرب من نصيب الحاكم العسكرى الباكستاني، الرئيس ضياء الحق، الذى لقى حتفه ومعه تسعة وعشرون آخرون من بينهم السفير الأمريكي لدى باكستان السيد أرنولد رافيل (Arnold L Raphel) فى حادث تحطم طائرته للنقل الحربى التى لم تزل لغزا.

كان هناك المزيد والمزيد من مآدب الغداء على شرف الشيخ عمر أكثر من المعتاد خلال رحلته هذه. هذا ما يتذكره الباكستانيون والأفغان بما فى ذلك حفل الغداء الفخم فى مقر إقامة السفير السعودى فى إسلام آباد . كان حفلا واسعا وكان من بين الضيوف الكثير من عملاء المخابرات الأمريكيين والباكستانيين الذين كانوا يجاملون الشيخ ويغازلونه ويخطبون وده أثناء سنى الحرب.

غادر الشيخ عمر بيشاور لآخر مرة فى يوليو عام ١٩٩٠، بعد زيارته لقبر عزام. وطار أولا للمملكة العربية السعودية ثم للسودان وبعدها نحو نيويورك، وكانت آخر تأشيرة له للولايات المتحدة تم إصدارها تحت غطاء عميل للمخابرات الأمريكية (C I A) ظل الكثير من أتباعه فى بيشاور واستمروا فى العمل. وصاغ بعضهم علاقات مع الجماعات الإسلامية المتشددة الأخرى، بمن فيهم كوادر من خبراء الأسلحة والقنابل من أعضاء «الحركة الإسلامية السعودية من أجل التغيير» والتى كانت قد أعلنت مسئوليتها عن تفجير سيارة الرياض المفخخة.أما الآخرون فقد كانوا إما مدربين أو متدربين فى المعسكرات التى كانت تحتضن الحدود على كل من الجانبين الأفغانى والباكستاني. وكان لا يزال آخرون يسافرون منطلقين باحثين عن الجهاد فى أماكن أخرى فى طاجيكستان أو كشمير أو الانضمام إلى نحو ثلاثة آلاف مقاتل متمرس من مقاتلى الجهاد الذين ذهبوا كمتطوعين فى البوسنة،

والذين كان من السهولة بمكان تمييزهم بلحاهم السوداء الطويلة، وقد حاربوا جنبا إلى جنب مع الجيش البوسنى المسلم لمدة سنتين. وكان لا يزال آخرون يقاتلون ويعودون لأوطانهم -فى مصر أو الجزائر أو الضفة الغربية وقطاع غزة- حيث الكثير منهم الآن مرتبط فى صراع علنى مع الحكومات العلمانية فى بلادهم.

ومن مكان ما فى بيشاور، ربما عبر طريق الجامعة أو فى مخزن أمامى فى مسجد لا يستطيع أحد العثور عليه. استمر أتباع الشيخ عمر فى الادعاء أن اعتقاله فى عام ١٩٩٣، كان انتهاكا لعهد قطعه دبلوماسى أمريكى قبل سنة فى بيشاور للإسلامبولى وحكمتيار.

القليل يتم تذكره عن مصلح الشمرانى أحد العرب الأفغان فى بيشاور، وكان مقيما فى أحد الفنادق بمحاذاة طريق الجامعة. كان قصيرا وممتلئ الجسم وكان سنيا ذا لحية ويرتدى الزى الإسلامى السعودى الأبيض. كان قد وصل الثامنة والعشرين من عمره فى أبريل ١٩٩٦، عندما اعترف على شاشات التليفزيون السعودى مؤكدا دوره -كذلك فعل ثلاثة من أصدقاء طفولته- فى تفجير السيارة فى الرياض والتى خلفت خمسة قتلى أمريكان . كان يتحدث حينها بفخر واضح ودون مواربة عن كيف أن غيرته على الدين قادته للجهاد فى أراض إسلامية بعيدة للمشاركة فى الجهاد فى أفغانستان. ذكر أيضا فى اعترافه منشقين سعوديين قائلا: إن كتاباتهم أوحت إليه بالتخطيط لتفجير الرياض بما فيهم الملتيمليونير المحير أسامة بن لادن. تم قطع رأس مصلح الشمرانى وثلاثة معه فى ميدان عام فى الرياض، وكانوا جميعا عدا واحد من جند الجهاد فى أفغانستان. أغضبت تلك الإعدامات الأوساط الرسمية فى الولايات المتحدة، ليس فقط لأن السعوديين لم يسمحوا لمحققين أمريكان باستجواب الأربعة، ولكن لأن الإعدام اختصر الموضوع ومنع من الاستفسار عن الأبعاد العريضة للتفجير: المنظمة التى تقف خلفه: الأشخاص الذين قاموا بالتمويل: والقادة الآخرون الذين ربما تكون لهم علاقة أو صلة بالقضية. أيضا جاءت التفجيرات بعد تهديدات للولايات المتحدة بالانتقام منها لو تم تنفيذ الإعدام. وبعد أقل من شهر وفى الخامس والعشرين من يونيه ١٩٩٦، اندفعت سيارة مفخخة نحو أبراج الخبر الأمريكية التى كانت تضم مجمع مبان سكنيًا عسكريًا فى الظهران.

لا تعرف الولايات المتحدة سوى القليل عن الحركات المتشددة فى المملكة العربية السعودية، وهى واحدة من أكبر الدول غموضا فى العالم كله، وكان المحققون حتى عام ١٩٨٩، فى محاولات مستمرة لمعرفة ما إذا كانت هناك علاقة أو صلة أو رابطة ما بين التفجيرين. من المؤكد أن الدليل الظرفى كان يميل للاعتقاد بأن هناك علاقة، ولكن كان هناك اختلاف مهم وبارز بين الاثنين: فالرجال الأربعة الذين تم إعدامهم فى التفجير الأول كانوا من العرب السنة وينتمون للغالبية المسلمة فى السعودية، أما الأربعة الآخرون أو ما يقرب من هذا العدد الذين كانوا رهن الاعتقال منذ أكتوبر ١٩٩٦، على خلفية تفجيرات الخبر كانوا من الأقلية الشيعية. ولم تتم معرفة إن كان هناك أى تعاون بين الجماعتين من قبل إلا عندما قاتلا جنبا إلى جنب فى الجهاد.

وطبقا لما قاله المحققون الكنديون – الذين قاموا بترحيل منشق سعودى شيعى كان متهما بالتورط فى تفجير الظهران إلى الولايات المتحدة فى صيف عام ١٩٩٧ – إن تلك التفجيرات تمت بواسطة جماعة لم يسمع بها أحد من قبل، وهى جماعة سرية تطلق على نفسها حزب الله السعودي، والتى كما يدعون، كانت لها علاقات مع حزب الله المعروف جيدا فى لبنان والذى تدرب أعضاؤه وتموله إيران[٥]».(وهو حزب مشهور بخبرته فى التفجيرات وقد كان حزب الله اللبنانى مسئولا عن تفجير سيارتين فى عام ١٩٩٣، دمرا السفارة الأمريكية ومقر المارينز فى بيروت: وقد قتل فى هذين الهجومين نحو ثلاثمائة أمريكي). هذا وقد تضاعفت التأكيدات الكندية بحقيقة أنه قد تم العثور على كبسولة تفجير فى منطقة التفجير فى الظهران كانت متشابهة مع تلك التى اعتاد حزب الله اللبنانى استخدامها، وقد أثار هذا تساؤلات جديدة عما إذا كانت هناك ثمة علاقة إيرانية أو سورية بالتفجير، وهو اعتقاد كانت الأسرة المالكة فى السعودية تردده باستمرار ولكن سرا، إلا أن المحققين والمحررين الأمريكيين لم يقتنعوا بهذا الافتراض.

---

(٥) كان قد أظهر المشتبه به هانى عبد الرحيم الصايغ استعداده للتعاون مع السلطات الأمريكية لكى لا يتم تسليمه للسلطات السعودية . لكن بعد وصوله واشنطن تراجع عن تعهداته، معلنا أنه حتى لم يكن فى السعودية وقت وقوع التفجير. وتم ترحيله إلى الرياض فى عام ١٩٩٩.

ظلت الولايات المتحدة ولفترة طويلة تنتقد الحكومة السعودية على قصورها فى التعاون فى التحريات والتحقيقات فيما يخص كلا التفجيرين؛ اللذين نالا من المواقع العسكرية الأمريكية فى السعودية : فلم تسمح الحكومة السعودية لموظفين ولا لمحققين أمريكيين بمقابلة أى واحد من المتهمين فى السجون السعودية، ولم تطلع المباحث الفيدرالية ال (F B I) على نتائج التحقيقات ولا الاستنتاجات التى وصلوا إليها. وتحول الانتقاد إلى غضب، وذلك عندما أعلن وزير الداخلية السعودى فى ربيع عام ١٩٩٨، أن حكومته أكملت تحقيقاتها وتحرياتها فى تفجيرات أبراج الخبر، وأنها توصلت الى نتيجة مفادها أنه ليست هناك أية أدلة على تورط أياد خارجية فى تلك التفجيرات . وعلمت الأوساط الرسمية المنزعجة فى وزارة العدل -والتى كانت لم تنته من تحرياتها بعد فيما يخص التفجير- أن السلطات السعودية قد أغلقت تحقيقاتها عندما قرأوا عنها فى الصحافة.

لذلك، وكما حدث فى تفجير الرياض، فقد قامت السعودية فجاة بمنع وتحريم أى استفسار عن ماهية تلك العلاقات أو الارتباطات التى تربط بين التفجيرات الأربعة فى السعودية وباكستان، والتى لم تكلف الكثير، فقد تراوحت التكلفة ما بين مائتين إلى نحو خمسة آلاف جنيه من نيترات الصوديوم وزيت الوقود، وهى نفس الخليط سريع الاشتعال القوى المفعول الذى تم استخدامه فى تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك.

أخبرنى ذلك الدبلوماسى السابق المتخصص فى الشئون السعودية: «كانت التفجيرات السعودية مثيرة جدا لاهتمامي، بعكس تفجيرات باكستان التى كان لها ما يبررها، وكانت مفهومة ومتوقعة بصورة كبيرة. أما تفجيرات السعودية فلم تكن كذلك. فلم يحدث أبدا من قبل أن امتلك المعارضون الإسلاميون تلك الجرأة . ويمكنك القول إنهم إلى حد ما قد رفعوا الحجاب عن وجوههم».

كان الآلاف من السعوديين قد ذهبوا للجهاد فى أفغانستان. وكانت الحكومة السعودية تقوم بدعمهم وتمويلهم بصورة كبيرة إلى جانب كونهم ينتمون لأسر عريقة ومحترمة وكان بعضهم من الأثرياء جدا. سألت هذا الدبلوماسى عن الشىء الذى جعل السعوديين يختلفون عن الإسلاميين الآخرين الذين أتوا للجهاد فى أفغانستان، من وجهة نظره هو.

أجاب «لقد أرسلتهم حكومتهم، وكان بمثابة عمل وطنى تؤديه. ولكن عندما وصل هؤلاء الشباب إلى هناك قابلوا آخرين وبدأوا فى الارتباط بالشبكات الأخري: وجدوا عالما جديدا مغايرا بصورة كلية فى الخارج هناك. ورغم أنهم أثرياء لكن كان لديهم شعور بالفراغ وإحساس بالمهانة والدونية والإحباط، وكانوا ينتظرون حادثا يحدث وحدث. وخلافا للآخرين الذين ذهبوا للجهاد فى أفغانستان كأعضاء فى الجماعات الإسلامية، مثل الجماعة والجهاد وحماس وما شابه، فلم تكن هناك جماعات سعودية منظمة ولا تنظيمات إسلامية. وهذا هو العامل الذى جعل هؤلاء الأشخاص مختلفين تماما : لذا عند عودتهم بدأوا فى إقامة الشبكات وعمل التنظيمات.

يتفق بعض المسئولين الأمريكيين الآخرين ويحذرون من أنه رغم جهود الحكومة السعودية بإلقاء اللوم سرا على المتهمين المعتادين فى المنطقة -كإيران والعراق والسودان- فيما يخص تفجير السيارات فإن السخط الذى يعانيه الإسلاميون فى السعودية هو سخط حقيقى، ومثل الحركات الإسلامية فى مصر، فقد نمت تلك الحركات بمعزل عن الخارج ولكن داخل الوطن.

فأسامة بن لادن هو أحد أبطالهم الأقوياء ذو الشخصية الكاريزمية. وهو رجل طويل ذو لحية، زاهد فى الأربعين من عمره يرتدى أروابا مطرزة بالذهب، وهو السابع عشر بين عشرين ابنا لواحدة من أغنى العائلات السعودية. وهو شخصية انعزالية، شديدة الحماس، متفان، لقد وصفه أحد رجال المخابرات الأمريكية لى فقال: «إنه متعصب دينيا ولديه ثروة ضخمة، رجل ذو رؤية يعرف بدقة كيف يحول هذه الرؤية إلى واقع حقيقى». وطبقا لأحد البيانات الرسمية، فإن بن لادن «هو واحد من أكبر الداعمين ماليا لنشاط المتطرفين الإسلاميين فى العالم كله». وهذا التقرير يربطه بمعسكرات تدريب الإرهابيين فى السودان وأفغانستان.

فى بداية مساء يوم من ربيع ١٩٨٦- وهو مساء مبشر يلفه الغموض، كما وصفه أسامة بن لادن لبعض الأصدقاء فيما بعد- لف نفسه ببطانية من الصوف ووضع على رأسه كوفية مضلّعة وأخذ يقود عددا من الرجال (درزينات قليلة) خارجا من مجموعة

الكهوف المخبأة فى المنحدرات الجبلية التى تحيط قرية جادجي، وهى قرية صغيرة فى المقاطعة الأفغانية، باكتيا قرب الحدود الأفغانية. كان يعلق على كتفه أى كى ٤٧ ويغطى صدره بحزام حامل للبارود.

وأسامة بن لادن رجل طويل مهيب له لحية سوداء تماما تحيط وجهه. لا يتكلم إلا قليلا وهو يقود رجاله -وهم جماعة من السعوديين والمصريين والجزائريين والباكستانيين الذين تم تجنيدهم وتدريبهم- عبر الأودية الضيقة فى جبل هندو كوش (Hindu Kush) حيث كان قد قضى وقتا طويلا منذ وصوله لأفغانستان قبل سنتين من هذا التاريخ. كان قادما من جدة وكان قد تخرج حديثا فى الجامعة، وقرر أن يشارك الإسلاميين المجاهدين حماسهم الدينى وغيرتهم من أجل نصرته ومناهضتهم وكرههم الجارف للشيوعية. ومع ذلك ربما من الأهمية بمكان معرفة أنه فى بلده السعودية، كان الذهاب إلى الجهاد يعتبر موضة العصر وأفضل شيء يمكنك أن تفعله. كانت مهاراته الفائقة التى أخذها معه إلى هناك هى مقدرته الفائقة على جمع الأموال. فقد كان مهندسا معماريا ولديه خبرة فى الإدارة، ولكنه الآن وفى المقام الأول قد اعتاد على الكلاشينكوف ليقود أول وحدة عربية شكلها فى الكهوف المحيطة بقرية جادجى قبل شهور قليلة.

كانت الجبال خارج جادجى تفسح الطريق لهضبة واسعة يمكنك من فوقها رؤية وميض الأضواء فى القرية ساطعا فى الأفق وكأنها تحت قدميك. وأمر بن لادن رجاله أن يتفرقوا إلى مجموعات صغيرة.

كان آلاف المجاهدين منتشرين فى أعماق الجبال وفى الأودية العميقة التى يبلغ عمقها ميلا فى باكتيا. وخاصة فى وحول العاصمة الإقليمية الداعمة للسوفييت خوست (Khost) ولكن قرية جادجى بصورة خاصة كانت شديدة القسوة فى طبيعتها ومهجورة وعبارة عن قفر موحش.

قال لى ميلت بيردن، وكان رئيس محطة ال (C I A) للمخابرات المركزية الأمريكية الذى أدار الجانب المسئولة عنه الوكالة فى الحرب الأفغانية من ١٩٨٦ وحتى ١٩٨٩، واصفا المكان «كانت المنطقة كلها من أكثر المناطق بؤسا وقسوة فى أفغانستان الشرقية،

كانت المنطقة مكسوة بمعسكرات الثوار، معسكرات كبيرة وصغيرة، تتفاوت من الحصون الصغيرة إلى الخنادق المحصنة ومستودعات الذخيرة».

ولكن معسكر بن لادن كان هو المعسكر العربى الوحيد المعزول فى تلك المنطقة. والآن، ولأول مرة -يقاتل تحت اسم مستعار كُنيته أبو عبد الله- كان على وشك الاشتباك مع السوفييت. لم تكن معركة شرسة ولا مذهلة كما تسير المعارك. فقد كانت تلك أول تجربة لتلك الوحدة فى ساحة القتال، وكان بن لادن ورفاقه يدافعون عن قرية ليست مهمة ولا إستراتيجية ضد هجوم سوفيتي، وكانت تجربتهم مبنية بصورة واسعة على فكرة المحاولة والخطأ. كانت الطائرات الهيلوكبتر تقصف بشدة ووحشية فى قتال مبنى على قاعدة -اضرب واهرب- حصد الكثير وخلف وراءه مصابين من كلا الجانبين، ولكن ولأكثر من شهر ظل بن لادن ووحدته ثابتين ومتمسكين بموقعهما ولم يتراجعا عنه.

تحدث بن لادن فيما بعد عن تلك المعركة قائلا «قبل المعركة أرسل الله سكينته علينا، كنت تحت وابل من القنابل ولكنى كنت أشعر بسلام داخلى فى قلبى لدرجة أننى نمت، رأيت قنبلة من مدفع هاون تسقط أمامى ولكنها لم تنفجر. ثم سقطت أربع قنابل أخرى تم إسقاطها من طائرة روسية على المقر الرئيسى لنا ولكنها لم تنفجر جميعا». تلك كانت طبيعة أسطورة بن لادن.

اندلعت أخبار تلك المعركة كالنار فى الهشيم وانتشرت أسطورتها عبر الجبال، والأودية الضيقة وبخاصة بين «العرب الافغان» من كل انحاء العالم الذين تدفقوا إلى أفغانستان للقتال والجهاد فى سبيل الله. حيث قامت جماعة غير مجهزة بما يكفى من العتاد ومتنافرة بصد هجوم سوفيتى فعلي. واستطاع بن لادن بدهاء وعبر زخرفة لأهمية المعركة من أن يضمن لنفسه مكانا فى تاريخ الجهاد.

أربعة عشر عاما قد مرت منذ أن قاد أسامة بن لادن رجاله خارج أكواخ جادجي، وبعبارته ارتدى عباءة السياسى الإسلامى المقاتل. منذ ذلك الحين، وضد المنطق والإمكانيات نجح أسامة بن لادن -حتى الآن، على الأقل- أن ينجو من صواريخ الولايات المتحدة العابرة للقارات، وأن يقود سلسلة من الأزمات السياسية والمؤامرات ومحاولات اغتيال

استهدفت قتله . ففى أغسطس عام ١٩٩٨، أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية أن الملتيمليونير السعودى الغامض من أهم المتهمين الهاربين المطلوبين لديها. كان أسامة بن لادن فى فبراير السابق على هذا التاريخ قد دعى أتباعه لقتل الأمريكان فى أى مكان فى العالم، وها هو الآن متهم بتفجير سفارتين للولايات المتحدة فى نيروبى ودار السلام. بعد الهجوم على السفارة بفترة ليست بالطويلة ضربت الصواريخ الأمريكية هدفا فى أفغانستان إيمانا منها أنه معسكرات تدريب خاصة بن لادن، وتم قتل بعض الأشخاص ولكن ليس بينهم بن لادن الذى كان قد بلغ ساعتها الثالثة والأربعين من العمر. واليوم بعد عام ونصف العام بعد واحدة من أكثر العمليات تكلفة وتعقيدا تمت للبحث والتحرى عن متهم أو مجرم فى تاريخ الولايات المتحدة، يبدو أن الحكومة منقسمة بشأن كيفية التعامل معه. فكل إستراتيجية تم اتباعها أتت بنتائج عكسية من العمليات السرية إلى ما يتم الإطلاق عليه الآن وبصورة مؤكدة « جلب بن لادن ومثوله للمحاكمة» إلى هجومنا بالصواريخ عابرة القارات والتى كان الهدف منها واضحا، ولكنه غير معلن وهو قتل بن لادن ومساعديه المهمين. اعترف لى بعض المسئولين الأمريكيين الذين كنت قد تحدثت معهم فى هذا الأمر بأنهم كانوا يأملون فقط أن تكون التقارير التى تفيد أن بن لادن فى حالة مرضية سيئة تقارير صحيحة، ولكن أسامة نفى تلك التقارير.

ربما كان صمت بن لادن خلال السنة الماضية شيئا معذبا ومتعبا كأى شىء آخر . فقد اختفى فى فبراير ١٩٩٩، فى مكان ما فى جبال أفغانستان . عندئذ، فى ذلك الصيف أصدرت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية سلسلة من التقارير المخابراتية محذرة أن هناك دلائل على أن بن لادن على وشك القيام بأعمال إرهابية مرة أخري. كانت تلك الاستنتاجات، التى كانت قد بنيت على تتبع مكالمات هاتفية، قوبلت بشكوك عن طريق بعض من عملاء المخابرات الأمريكية. وجاءت تحذيرات وغدت تحذيرات أخري، وكان هناك العشرات من الاعتقالات حول العالم، أحدثها كان فى عشية كريسماس الألفية الثالثة عندما تم اعتقال عراقى وجزائرى وأحد عشر أردنيا فى عمان بعد دخولهم الأردن قادمين من أفغانستان. كان كل هؤلاء الرجال قد تدربوا على التفجيرات فى واحد من معسكرات التدريب الخاصة

بن لادن، وطبقا لمسئولين أردنيين كانوا يخططون للقيام بأعمال إرهابية ضد الكتابيين والمواقع السياحية. بعد ذلك بعدة أيام تم احتجاز جزائرى يدعى أحمد رسام، بينما كان فى طريقه لدخول الولايات المتحدة وبحوزته ترسانة من مكونات تستخدم لصنع القنابل كانت فى صندوق سيارته: وبسرعة تم اعتقال جزائريين آخرين فى داخل، وفى المنطقة المحيطة سياتل فى فيرمونت ونيويورك. وطبقا لمعلومات من مسئولين موثوق بهم بالمخابرات المركزية الأمريكية، أن رسامًا ومعه عدد آخر وجميعهم رهن الاعتقال الآن كانوا أعضاء ولهم صلات بالجماعة الإسلامية المسلحة المتطرفة الجزائرية، والتى كان بن لادن يمولها منذ عدد من السنوات.

وكنتيجة لتحذير المخابرات، قام وزير الدفاع بإلغاء رحلة كانت مقررة إلى الخارج. فى الذكرى السنوية لتفجيرات السفارة وأثناء الاحتفالات بالالفية تم التنبيه على كل الأمريكان فى الخارج أن يكونوا حذرين. كما أصدرت المباحث الفيدرالية من مقرها الرئيسى فى واشنطن قرارا مفاجئا بتعليق الرحلات العامة.

لذا فقد أخفت تلك التطورات السؤال الأكبر الذى يواجه الحكومة : كيف يمكنك التجاوب والرد على عدو وهو مجرد رجل وليس دولة : شخص لا يملك منظمة ولا مقرا رئيسيا ولا حتى عنوانا محددا : والذى يعيش أتباعه فى دول مختلفة ويشعرون بإخلاص عميق ليس لهذا الرجل بقدر ما هو لأيديولوجية الإسلام المتشدد المسلح. وطبقا للعديد من المسئولين فى جهاز المخابرات فإن إجابة إدارة الرئيس الأمريكي، إلى حد بعيد، كانت أن تفعل ما فعله ويفعله أسامة بن لادن نفسه عبر السنين: لقد جعلته أسطورة.

فى نوفمبر من عام ١٩٩٨، بعد ثلاثة أشهر من تفجيرات السفارة أصدرت مصلحة العدل عريضة اتهام تتكون من ٢٣٨ فقرة تتهم بن لادن بالتآمر لقتل أمريكيين وبالتورط (بدون تحديد دوره بالتفصيل) فيما هو أكثر من الهجوم على السفارة، اتهمته بأنه كقائد للتمرد الإرهابى لعشر سنين تقريبا، فقد حاول بن لادن جاهدا أن يحصل على أسلحة نووية وكيميائية. وطبقا لعريضة الاتهام فقد كان لبن لادن دور لوجيستى وتدريبى فى مجزرة عام ١٩٩٣، فى الصومال والتى قتل فيها نحو ثمانية عشر فردا من أفراد الخدمة

الأمريكيين، وتم عرض جثة أحدهم فى التليفزيون بينما كانت الجماهير تسحلها مبتهجة فى الشوارع. (وفى مقابلة أذاعتها ال C N N فى مايو ١٩٩٧ تفاخر بن لادن نفسه بأن أتباعه لعبوا دورا فى تلك المجزرة).

ومع ذلك لم تقدم عريضة الاتهام دليلا مقنعا أن بن لادن شخصيا أصدر أمرا بتفجير سفارتينا فى شرق أفريقيا، ولم تقدم الحكومة هذا الدليل حتى الآن. أطلق روبرت بى أوكلى (Robert B Oakley) الذى ترأس مكتب مكافحة الإرهاب بوزارة الخارجية على تفاخر بن لادن بعلاقته بالقتلى فى الصومال « بالوقاحة». وعندما قال الرئيس كلينتون إن بن لادن مسئول عن محاولة الاغتيال التى استهدفت حياة الرئيس مبارك عام ١٩٩٥، فى أديس أبابا، علق على ذلك واحد من الجماعة كنت قد تحدثت إليه وكان غاضبا جدا وقال : لقد عملت الجماعة بجد لما يزيد على العام من أجل التخطيط والتنفيذ لتلك المحاولة. عطاء عبقرية بن لادن للارتقاء الذاتي، أخبرنى أحد المسئولين الأمريكيين الذى كان قلقا، أن محاولات الإدارة الأمريكية البريئة البسيطة فى الدوران والتشويش الدولى تساعده فقط. فى الواقع أن بن لادن الحقيقى أكثر أهمية وربما أكثر خطورة حتى من الخيالات والأوهام التى أحاطت به.

ولد أسامة بن محمد بن عواد بن لادن فى عام ١٩٥٥، وكان الأصغر من بين نحو عشرين أخا على قيد الحياة لأسرة ثرية ولعائلة مرموقة بل تعد من أبرز العائلات فى السعودية. والمفارقة أن يقوم أحد أبناء النبلاء بالدعوة للسياسات الإسلامية على نطاق واسع ثم يفشل فى التعلق بها. لقد كانت تلك المفارقة واحدة من مفارقات عديدة وانحرافات فى حياته، فهو شرقى وقدرى بالولادة، وغربى بالتعليم فهو مهندس تكنولوجيا، الذى اختار أن يحتذى بالقائد الأسطورى صلاح الدين الأيوبى الذى عاش فى القرن الثانى عشر. كان انطوائيا يحب الوحدة ويحب الوضوح. وهو رجل مغرور لا يظهر إلا القليل عن نفسه. إنه لمن الصعوبة بمكان أن تقول من هو أسامة بن لادن.

فهو من ناحية وهابى المذهب متزمت، والوهابية هى المذهب السائد فى السعودية . ومع ذلك ربما عاش حياة اجتماعية ليبرالية. فهو من ناحية ينتمى للنظام الإقطاعى

السعودي، وهو أيضا أرستقراطى حيث كان من وقت لآخر يترك الحياة المدنية، ويعتزل مع والده فى الصحراء حيث يعيشون فى خيمة. وهو من ناحية أخرى ينتمى لذلك الجيل السعودى الذى نما وعيه على بزوغ منظمة الأوبك، وما صاحبها من الثراء الفاحش الذى أصابته الدول النفطية: هو نفس هذا الجيل الذى تمت حماسته الدينية وغيرته السياسية ببطاقات سفر حكومية، قاد الآلاف لمقاومة الاحتلال السوفيتى لأفغانستان.

كان محمد والد أسامة يمنيا قد هاجر إلى السعودية، وكون ثروة طائلة (بفضل حماية الملك عبد العزيز ورعايته) حيث أقام شركة إنشاءات ليتحول إلى إمبراطورية مالية كبري. كانت والدة أسامة ذات «الجمال السوري» الزوجة الرابعة والأخيرة لوالد أسامة (الثلاثة الأخريات كن سعوديات) وكانت تعتبر بالنسبة لعائلة بن لادن المحافظة، سابقة لعصرها بخطوات كبيرة جدا.

(فعلى سبيل المثال فكانت ترفض أن ترتدى البرقع فوق أثوابها الشانيل عندما تسافر للخارج). وكان أسامة هو ابنها الوحيد.

شكل المدرسون الخصوصيون والمربيات والعمال والشيالون والسقاة الجزء الأعظم من حياة بن لادن. وقد كان هو وإخوته غير الأشقاء -وإلى حد أقل أخواته غير الشقيقات الثلاثون- أصدقاء اللعب واللهو لأولاد أبرز العائلات فى المملكة بمن فيهم مختلف الأمراء فى المملكة والأميرات.ومع ذلك كانت طفولته تتسم بالوحدة والعزلة. قال لى صديق لعائلته ذات مرة: « من المؤكد أن الأمر كان شديد الصعوبة عليه، ففى بلد لديه هوس غير طبيعى بمسألة الأنساب والعائلات وتاريخ الأسر، يسألون ويتحدثون عمن يكون جدك الأعظم، كانت غربة بن لادن مضاعفة. فجذور أسرته ترجع إلى اليمن، وفى داخل الأسرة كانت غربة والدته أيضا مضاعفة، فلم تكن لا يمنية ولا سعودية بل سورية».

فى عام ١٩٦٨ مات والد أسامة مع طياره الأمريكى فى حادث تحطم طائرة هيلوكبتر وورث أسامة وهو فى الثالثة عشر من عمره ثمانين مليون دولار. عندما وصل الخامسة عشرة كان لديه اسطبل خيل خاص به، وعندما بلغ التاسعة عشر التحق بجامعة الملك عبد العزيز ليحصل على بكالوريوس الهندسة، ويصبح مهندسا مدنيا فى عام ١٩٧٩.

روى الحلاق الذى كان يراه بصورة مستمرة فى أوائل السبعينيات لجريدة ميدإيست ميرور (Mideast Mirror) أن زبونه كان مشهورا ومعروفا فى الملاهى الليلية والبارات فى بيروت، ومعروفًا عنه الإنفاق ببذخ، وأنه شاب باحث عن المتعة - «كان سكيرا ينهى أمسياته بمشاجرة سواء بالصياح فى أقرانه أو بالاشتباك معهم بالأيدى وذلك من أجل راقصة أو فتاة ليل من العاملات بالملهي».

ليس هناك ما يدل على أن أسامة بن لادن أظهر أى اهتمام بالسياسة قبل عام ١٩٧٩، ومع الاجتياح الروسى لأفغانستان. بعد ذلك بسنوات يسترجع أسامة تلك الأيام ، فأخبر صحفيا لجريدة القدس العربي: « كنت فى حالة ثورة وغضب شديدين، وذهبت إلى هناك على الفور».

أخبرنى أصدقاء لأسرة بن لادن أن الحقيقة لم تكن درامية بهذا الشكل. فقد قضى أسامة السنوات الأولى للحرب متنقلا من السعودية إلى الخليج العربى (الفارسي) جامعا ملايين الدولارات لدعم الجهاد والمجاهدين. بعضا من هذه الأموال قدمتها الحكومة السعودية بصورة مباشرة وبعضها من المساجد الرسمية وبعضها من رجال الأعمال والنبلاء فى المملكة العربية السعودية، بما فيها إمبراطورية والده الإنشائية المسماة مجموعة بن لادن والتى كانت فى ذلك الوقت متسعة الأعمال ولديها مصالح فى ثلاث قارات حول العالم.

انتقل أسامة بن لادن إلى بيشاور عام ١٩٨٤، حيث علمت عنه لاول مرة. لم أكن أعرف اسمه ولكن بدأ الصحافيون فى المنطقة يسمعون عن شخص متقشف عرف باسم « السامرى الصالح» أو «الأمير السعودي». فقد كان يصل للمستشفيات بدون مقدمات ولا إعلان عن زيارته حيث المقاتلين الافغان والعرب المصابين الذين تم إحضارهم إلى هناك. كان رجلا نحيلا وأنيقا ويرتدى الملابس التقليدية التى يرتديها سكان القبائل الأفغانية وهى الشالوار كامييز، وهى عبارة عن سترة تصل للركبة وسروال من القماش الصوفى الإنجليزى، وكان دائما ينتعل حذاء إنجليزيا برقبة يصنع فى إنجلترا حسب الطلب. وطبقا للروايات التى سمعناها -وما أكثرها- فقد كان أسامة رقيق الصوت حسن اللسان يتنقل

بين المرضى يوزع النقود والشيكولاته الإنجليزية للجرحى ويقوم بتسجيل اسم وعنوان كل رجل. بعد أسابيع كانت أسرة الرجل تتلقى شيكا بمبلغ محترم.

وبسرعة بدأت تتوالى علينا القصص والحكايات عن أسامة بن لادن. فى المنطقة الجبلية التى لا تخضع للسيطرة الحكومية على الحدود الباكستانية الأفغانية، وفى معسكرات التدريب خارج بيشاور، وفى أفغانستان بدأت عناصر الجهاد الذين كانوا يتدربون ورجال الدين فى الحديث عن لغز سعودى آخر. كان أسامة قد وصل على متن طائرة نقل عسكرية غير لافتة للنظر، وجلب معه بلدوزرات ومعدات ثقيلة أخري، تلك المعدات التى قام بنشرها لتصميم وبناء خنادق وأنفاق دفاعية ومخازن للسلاح والعتاد، ولشق طرق عبر الأودية المنخفضة العميقة فى أفغانستان. وطبقا لإحدى الروايات فقد كان الرجل يقود أحد البلدوزرات بنفسه عبر قمم الجبال شديدة الانحدار، مظهرا نفسه ليكون هدفا سهل المنال للقصف السوفيتى من الطائرات الهيلوكبتر. تحول هذا الرجل اللغز إلى أسطورة، أما تلك المعدات التى جلبها معه كانت مجهزة من مجموعة بن لادن. تلك كانت الطريقة التى بدأ بها بن لادن فى اختراع نفسه، وخط طريقا خاصا به.

عمل بن لادن عن كثب مع المخابرات السعودية، ومع الأمير سلمان على توفير الأموال اللازمة لتنظيم الجهاد، قبل أن يأتى إلى بيشاور كمجاهد بنفسه. وهناك وطد صداقته مع جلبادين حكمتيار والشيخ عمر، وقاتل مع قوات الأستاذ الجامعى عبد رب الرسول سياف. ولكنه لم يكن مختلفا عن الشيخ عمر، فقد اعتبر رجل الدين الفلسطينى عبد الله عزام (الذى كان من قبل أستاذا له فى الشريعة الإسلامية ومعلما لأصول الدين) واحدا من أقرب الأصدقاء إليه. وقد كان من خلال مكتب الخدمة الذى ترأسه عزام حيث استطاع بن لادن عمل علاقات مع قادة وجنود المشاة الإسلاميين المتشددين. ضمن الآلاف التى مرت ببيشاور، تدرب الكثير فى معسكر بن لادن الضخم والذى أطلق عليه بدهاء وذكاء اسم «عرين الأسد»، فى عام ١٩٨٩ دمج بن لادن معسكرات تدريبه الأفغانية، ومختلف الجمعيات الخيرية الإسلامية التى كان يسيطر عليها تحت مظلة منظمة واحدة أطلق عليها اسم «تنظيم القاعدة» التى كانت متورطة ومنغمسة فى جمع الأموال وفى تجنيد وتدريب

المقاتلين من أجل الجهاد. (بعد عقد من الزمان شكل مقاتلون بدعم وتمويل من القادة جزءا من مجموعات متفرقة ومنتشرة من الجماعات الإسلامية المتشددة العسكرية التى تتسلم دعما ومناصرة من بن لادن فى أربع قارات).

كان أسامة بن لادن فى أثناء وبعد الجهاد فى أفغانستان يلتقى وبصورة مستمرة بالدكتور حسن الترابى المثقف الإسلامى السوداني. وكان يتناول العشاء بصورة مستمرة مع الحاكم العسكرى الباكستانى ضياء الحق والذى مثل الأنبوب الذى من خلاله كانت ال (CIA) تضخ مساعداتها من الأسلحة لعناصر الجهاد. سعى أيضا بن لادن لعقد صداقات مع جنرالات وكالة المخابرات الباكستانية، كما صادق أيضا قادة المقاومة الأفغان الذين كانوا يضمرون كراهية شديدة للغرب والذين كانوا يقاتلون فى معركة الجهاد.

كان ميلت بيردن التابع للمخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، وهو رجل حنون وعطوف مستدير الصدر له ابتسامة مريحة، قد وصل إلى باكستان مع أول شحنة للقنابل الصاروخية التى أرسلتها الولايات المتحدة للمجاهدين، وقضى فترة طويلة فى الجبال مع جماعات المقاومة. قبل وقت ليس بالطويل كنت قد سألته، حيث إنه متقاعد الآن، إذا كان قد تعرف إلى بن لادن خلال سنوات الحرب.

رد قائلا «لا. ولكن أكنت أعلم أنه هناك؟ بلي، كنت أعلم بوجوده ولكن هل قلت إن هذا الرجل الطويل الرشيق السعودى المتقشف كان مساعدا أو مفيدا؟ لا،لم أقل ذلك. كان هناك الكثير مثل بن لادن الذين أتوا للجهاد فى أفغانستان وخففوا عنا أعباء كثيرة. وقد كان هؤلاء الرجال يجلبون مبالغ تتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين مليون دولار شهريا من السعوديين الآخرين ومن عرب الخليج لتأمين نفقات الحرب. وتلك أموال كثيرة ومبالغ طائلة، كانت تزيد على ثلاثة بلايين من الدولارات سنويا. وكان هذا ما فعله بن لادن أيضا. فقد قضى معظم الحرب فى جمع الأموال اللازمة فى بيشاور. لم يكن ذلك المحارب الشجاع فى ساحة المعركة.

وطبقا لوجهة نظر بيردن فإن المعركة الوحيدة المهمة التى يعرفها والتى خاضها بن لادن والفرقة السعودية التى كانت بصحبته: هى معركة «على خيل» فى مقاطعة باكتيا، التى

لا تبعد كثيرا عن جادجي، وقد تم قصف المنطقة بالصواريخ الأمريكية فى أغسطس ١٩٩٨. وأضاف قائلا: « لقد خارت قوة السوفيت قبل أن تنضب إمداداتنا. واستشهد فى هذه المعركة ما يقرب من عشرين إلى خمسة وعشرين سعوديا».

استمر بيردن قائلا: «بمرور الوقت تضخمت وكبرت قصة معركة «على خيل» وتضخم معها الدور الذى لعبه السعوديون فيها. وقد برز من هناك الجزء الأعظم من أسطورة بن لادن والمقاتلين السعوديين. وغنت الحكومة الأمريكية، كما غنى الآخرون نشيد الشهداء السعوديين، وكان الملك فهد ينفق بنفس القدر الذى كانت تنفق به الولايات المتحدة إن دفعت أمريكا دولارا يدفع هو دولارا. كنا قد دفعنا للحرب فى أفغانستان خمسمائة مليون من الدولارات فى عام ١٩٨٧، فقط وكانت السعودية تماثلنا فاتورة بفاتورة».

عندما انسحبت القوات السوفيتية من أفغانستان فى عام ١٩٨٩، عاد بن لادن إلى جدة وإلى مكانه فى إمبراطورية بن لادن التجارية. ولكن مع انهيار الازدهار النفطى واجهت السعودية تفاقما اقتصاديا ومشكلات اجتماعية. وطبقا لتقارير وزارة الخارجية السنوى عن حقوق الإنسان فقد ظهرت الحكومة السعودية كحكومة قمعية وفاسدة بصورة متزايدة. بدأ بن لادن يوجه انتقادات لاذعة للحكم الإقطاعى السعودى وبصورة علنية، ويقوم بدعم الجماعات المناهضة للحكومة. حاول إخوة أسامة غير الأشقاء وبعض أصدقائه من الأسرة الملكية أمثال الأمير سلمان والأمير تركى بن عبد العزيز، رئيس جهاز المخابرات السعودي، والذين كان بن لادن يعمل معهم خلال سنوات الجهاد فى أفغانستان، أن يمنعوه، قضى بعض الوقت لترتيب أموره الشخصية: ووسع فى أعماله (والتى كانت ترتكز على أكثر من ستين شركة وكان الكثير منها فى الغرب) وفى إنجاب الأبناء (الورثة). ولديه الآن أربع زوجات تم اختيارهن بعناية فائقة على اساس علاقاتهن السياسية أو النسب والأصل المعروف ونحو عشرة أولاد.

رغم ذلك لم يستمر هدوء بن لادن طويلا حيث وقع تحت تأثير اثنين من أكثر رجال الدين المتشددين هما الشيخ صفر هوالي، وسلمان عودة - والتى اتسمت رؤاهما بالثورية من وجهة نظر الحكم السعودي، وأصحاب الفتاوى التى لم يزل يبشر بها بن لادن. فى

عام ١٩٩١ قامت الأسرة الملكية بطرده من السعودية بسبب نشاطاته السياسية وتبرأت منه أسرته علانية. وطلب هو اللجوء للسودان.

بعد ذلك، تسارع التطور السياسى لبن لادن. فقد توافق رحيله عن بلده مع وصول آلاف من القوات الأمريكية استعدادا لحرب الخليج.وعنما سمح النظام السعودى ليس فقط باحتلال هذه القوات لأرضه بل وأن تبقى بعد الانتصار، ازداد نفور بن لادن من النظام السعودى والولايات المتحدة اشتعالا، فى الحديث عن بن لادن، يشعر الشخص أنه بالنسبة لذلك الملتيمليونير السعودى الملغز، فقد أصبحت الولايات المتحدة للسعودية ما كانه الاتحاد السوفيتى لأفغانستان: قوات محتلة كافرة تعيث فى الأرض فسادا، وحكومة قمعية ليست إسلامية. عندما اجتاح صدام حسين الكويت ورحبت الأسرة المالكة فى السعودية بقوات أمريكية على أراضيها، رأى بن لادن أن آل سعود قد خسروا البقية الباقية من شرعيتهم. وقد مثل حضور ووجود نحو خمسة ألاف مجند ومجندة أمريكية بالقرب من أقدس الأماكن الإسلامية -بمكة والمدينة- إضافة لأكثر من عشرين ألفًا متمركزين فى منطقة قريبة، خروجا نهائيا عن الإسلام .

خلال السنوات الخمس التى قضاها بن لادن منفيا فى السودان،من عام ١٩٩١ وحتى ربيع عام ١٩٩٦، قسم بن لادن وقته بين الخرطوم ولندن (حيث كان يمتلك ضياعا واسعة ثرية) ووضع ثروته- ثروة شخصية تقدر الآن بنحو ٢٥٠ مليون دولار، معظمها فى حسابات بنكية أجنبية- تحت أمر وتصرف الجماعات الإسلامية المتطرفة حول العالم. أما مسألة ما إذا كان بن لادن قد تمكن من الحصول على أموال أسرته- والتى تقدر بنحو خمسة مليارات من الدولارات فهذا محل جدال. لأنه ورغم أن الأسرة قد أعلنت وبصورة علنية أنها تبرأت من أنشطة ابنها المسرف المبذر، فقد ظل الكثير يعتقدون أنها استمرت فى دعمه ماليا .وقد ظلت علاقة أسامة ببعض أفراد أسرته بمن فيهم أحد إخوته غير الأشقاء ويدعى محمد جمال خليفة وهو ممول سعودى علاقة وثيقة .

كان خليفة هو القناة الأولى التى يتم عبرها تمويل الجماعات الإسلامية المسلحة فى الفلبين، كما تؤكد الأوساط الرسمية الفلبينية. وطبقا للمحللين الأمريكان، يوجد دليل على

ذلك أثناء التسعينيات، عندما كان يترأس وكالة الغوث الإسلامية – وهى منظمة خيرية سعودية شبه حكومية– فى الفلبين، كان لدى خليفة اتصال برجل يعرف باسم رمزى أحمد يوسف، وهو العقل المدبر المدان فى تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك.فى السنوات التى سبقت تسليمه للولايات المتحدة فى فبراير ١٩٩٥، كان يوسف يقسم وقته بين الفلبين وباكستان وبيشاور، حيث كان يعيش بصفة دائمة فى بيت الشهداء، وقد كان بيت ضيافة يموله بن لادن. لابد أن تكون مساراتهم قد تقاطعت خلال تلك الفترة والتقيا معا، لأن بن لادن أيضا كان كثيرا ما يسافر لتلك الأماكن الثلاثة من مقر إقامته فى الخرطوم.

بينما كان بن لادن مقيما فى السودان، حذره النظام الحاكم السعودى أكثر من مرة من تشجيع أية أعمال ضد التاج السعودي. بيد أن بن لادن تجاهل كل التحذيرات. فى أوائل التسعينيات، وخلال إدارة الرئيس بوش –وبعلم الولايات المتحدة تقريبا– أرسل السعوديون سرا فرقا لاغتيال بن لادن. وفى عام ١٩٩٢ ونتيجة للإلحاح الأمريكى اتخذت الأسرة المالكة السعودية، الحذرة والمحتاطة بطبيعتها، خطوة وصفها لى خبير سعودى بأنها مثيرة للدهشة : لأنها أثارت المجتمع الأصولى المتشدد بإعلانها تجريد بن لادن من جنسيته السعودية، بالنظر إلى «تصرفاته غير المسئولة ورفضه طاعة الأوامر الصادرة له». وقد جردته المملكة من ممتلكاته السعودية فى الكثير من أصوله المالية.

بعد ذلك اتخذت الأسرة الحاكمة فى السعودية خطوة يصعب تفسيرها بدعوتها بن لادن بالعودة للسعودية. أو هكذا ادعى هو فى مقابلة له مع صحيفة القدس العربية، وأضاف بن لادن فى نفس المقابلة أن السلطة الحاكمة فى السعودية عرضت عليه استرداد كل أملاكه وأصوله المصادَرة . فى مقابل أن يقوم بن لادن بحلف يمين الولاء والطاعة للملك فهد. ولكن بن لادن رفض. لم تؤكد الأوساط السعودية ولم تنف تلك الادعاءات وتلك هى طبيعة الحكام فى السعودية التى ترفض دائما وبإصرار التعليق على أى شىء يخص بن لادن.ربما بسبب حيرتهم وارتباكهم المستمرين عن كيفية التعامل معه.

طبقا لتقرير تم رفع السرية عنه من وزارة الخارجية، فإن أسامة بن لادن أثناء إقامته فى السودان أنشأ ثلاثة معسكرات لتدريب الإرهابيين وتمويلهم فى شمال القطر؛ حيث

اشترى مزرعتين فى الشرق: ودفع تكاليف نقل نحو خمسمائة من «العرب الأفغان»من باكستان إلى السودان بعد أن هددت السلطات الباكستانية بطردهم. مزج بن لادن الحرب بالربح مقيما شركات جديدة ودخل فى مغامرات مشتركة مع الحكومة السودانية. (كانت شركة «وادى العقيق المتحدة» واحدة من تلك الشركات التى كانت تحتكر تقريبا كل الصادرات الزراعية السودانية بما فيها الصمغ العربى الذى يدخل فى صناعة المشروبات المنعشة، والذى كانت الولايات المتحدة أكبر وأول مستورديه). بمرور السنوات قدم إلى السودان الكثير والكثير من العرب الافغان لدعم عمليات بن لادن هناك. كان بعضهم يعملون كمعلمين ومدربين فى معسكراته: بينما كان الآخرون، وهم خبراء إدارة أعمال وخبراء اقتصاديون يديرون أعماله. وكان لم يزل هناك آخرون يخدمون كحلقة اتصال بين بن لادن وبين الجماعات الإسلامية المسلحة، والتى كان يصل عددها إلى ما يقرب من اثنتى عشرة جماعة.

مع ذلك يتساءل ويجيب دافيد لونج وهو موظف سابق فى وزارة الخارجية، والذى كان يعتبر خبيرا فى الشئون السعودية والارهاب قائلا: «هل بن لادن هو المصدر الوحيد للشر الإرهابي؟ لا. تلك أخوة غير رسمية التى نراها الآن، التى يستطيع أعضاؤها أن يجذبوا بعضهم البعض: ليست شبكة أصيلة وواضحة. فمنظمة القاعدة الخاصة بن لادن ليست منظمة إرهابية بالمعنى التقليدي. . إنها مجرد غرفة مقاصة أو محاسبة والتى تحصل من خلالها الجماعات الأخرى على التمويل والتدريب والدعم اللوجيستى (السوقي). إنها متقلبة كالأميبا التى تغير شكلها باستمرار طبقا لنزوات وأهواء قادتها، وهذا القائد هو أسامة بن لادن. إنها شخصنة للأمر بصورة كبيرة». استمر لونج فى كلامه قائلا: « بن لادن مجرد مشهلاتى، ممارس ماهر لأقدم الطرق المستخدمة فى عمل أى شىء فى الشرق الأوسط. فهو لا يملك الذكاء ولا الألمعية التى امتلكها أبو نضال- المناضل (الإرهابي) الفلسطينى فى السبعينيات والثمانينيات- « لو تم قتل أسامة بن لادن لاختفت المنظمة ولكن ستبقى الشبكات كلها هناك». يعتقد لونج أن التهديد الأخطر الذى يمثله بن لادن على المصالح الأمريكية يكمن فى قدرته على زعزعة الاستقرار لحكومات عربية صديقة للولايات المتحدة كالمملكة العربية السعودية، التى يشكل دعمها أهمية جيوبوليتيكية لنا.

هذا الرأى يتفق عليه المسئولون الأمريكيون الآخرون، ويحذرون من أن الدعم والتمويل المادى لبن لادن كان قد وصل من مصر -حيث دعّم بعضا من أنشطة الشيخ عمر عبد الرحمن وجماعة الجهاد- فى الجزائر: ومن اليمن إلى الصومال ومن المملكة العربية السعودية إلى الفلبين. فقد كان يدعم المقاتلين الإسلاميين ليس فقط فى أفغانستان ولكن فى الشيشان وكوسوفو وكشمير والبوسنة وطاجيكستان أيضا. وتلك الجماعات التى تتمتع بدعمه ومناصرته لا تشبه القاعدة فى أى شىء : فبناؤهم وتنظيمهم على مستوى عال: ولدى الكثير منها تاريخ نضالى طويل وشكاوى محددة (غالبا ما تكون شرعية) واهتمامات. تلك الجماعات ليست تحت سيطرة بن لادن ومع ذلك قام بن لادن باحتضانهم ودعمهم.

فى مايو عام ١٩٩٦ طالبت الحكومة السودانية بن لادن بالرحيل، وذلك بسبب ضغوط أمريكية سعودية، وعاد بن لادن إلى أفغانستان عودة أبدية، مصحوبا بطائرتين عسكريتين على متنهما بعض ثروته وأكثر من مائة مقاتل من المقاتلين العرب الأفغان وزوجاته الأربع. انتشر نحو من ألفين إلى ثلاثة آلاف من أنصاره والموالين له فى أوربا وشرق أفريقيا. وقد عبر دبلوماسى أمريكى عن هذا الحدث قائلا لى «كان الأمر وكأنك أعدت لينين لروسيا مرة أخري، فقد كان بمقدورنا على الأقل مراقبة أنشطته وهو فى السودان».

عندما عاد بن لادن إلى أفغانستان كانت الحكومة التى تسلمت السلطة محاصرة بالأصوليين المتشددين، وهم حزب أصحاب العمم السوداء والمعروف باسم حركة طالبان. كان قائد طالبان هو الملا محمد عمر، والذى كان مثل بن لادن قد قاتل فى معركة الجهاد. كان لكلا الرجلين نفس الأيديولوجية والاحتياجات المراد إتمامها وتكميلها: كان بن لادن فى حاجة إلى ملجأ آمن وكانت طالبان الوليدة فى حاجة للتمويل. دفع بن لادن للملا عمر ثلاثة ملايين دولار كدفعة أولى من أجل القضية، ومن جانبها استطاعت طالبان أن تبسط سيطرتها وتحكمها على المركز الرئيسى لجلال آباد فى سبتمبر عام ١٩٩٦. وبعدها بعشرة أيام سقطت كابول. وطبقا لأوساط رسمية أمريكية، تزوج الملا عمر بابنة أسامة بن لادن بعد ذلك بوقت قصير ليصبحا أسرة واحدة. وظلا صديقين حميمين. وبينما كان بن لادن يتنقل بين مزرعة يمتلكها فى شرق مدينة جلال آباد، ومن معسكر إلى معسكر قرب الحدود

الباكستانية الأفغانية، كانت حماية الملا عمر هي التي تمكنه من الاستمرار في إشعال الحرب التي كانت الأكثر أهمية له: فعبر العقد الماضي كانت معركة بن لادن الأساسية قد تمحورت حول بيت سعود. ومن منظوره الخاص كانت معركته التالية ضد الولايات المتحدة.

كانت الجهود لاحتواء ظهور وتنامي الإسلام المتشدد المسلح في المملكة العربية السعودية -وهي مستودع لأكبر مخزون نفطي في العالم- تتطلب دقة متناهية وحكمة من جانبنا نحن ومن جانب الحكام في السعودية. ولكن حتى الآن فإن تصرفات الحكومة كانت دائما تتسم بالحيرة والارتباك والتشوش والتناقض وكانت دائما عصية على التفسير.

إن التردد السعودي ومحاولات السعوديين الدائمة من أجل استرضاء بن لادن، -والتي بنيت في جزء كبير منها ليس فقط من خوفهم منه، ولكن خوفا من الأساطير التي يتم نسجها حوله كل يوم، بصورة مزعجة. لأنه لو حدث وأرادت أمريكا أن تقدم بن لادن للمحاكمة فهي تحتاج دعما إما من السعودية أو باكستان لاعتقاله أو لاستمالته للخروج من مخبئه أو ملجئه الجبلي. فأمريكا لا تعرف طالبان والتي تبسط سيطرتها الآن على ٩٠٪ من الأراضي الأفغانية، ومن مفارقات القدر أن طالبان يتم دعمها وتمويلها عن طريق بيت سعود. وباستثناء السعوديين فتعتبر باكستان هي الممول الوحيد لطالبان فقد كان جهاز المخابرات الباكستاني ال (I S I) قد ساعد على إقامتها.

لقد أثرت الحرب التي شنتها الولايات المتحدة على بن لادن على سياسة الولايات المتحدة في الكثير من مناطق العالم الإسلامي، وخاصة في جنوب آسيا والشرق الأوسط. ومن الجدير بالذكر هنا أنه في الثاني من أغسطس عام ١٩٩٨، كان رئيس الأركان الباكستاني، الجنرال جيهانجير كارامات يقوم بواجبات الضيافة نحو نظيره الأمريكي، الجنرال جوزيف رالستون (Joseph Ralston) نائب رئيس أركان حرب القوات المشتركة، وفي نحو الساعة العاشرة وبينما كان الرجلان يتناولان عشاءهما، نظر رالستون من فوق الدجاج المشوي الذي كان يتناوله وتفقد ساعته وقام بإعلام مضيفه، أنه في غضون عشر دقائق سيدخل المجال الجوي الباكستاني ستون صاروخا توم هوك . أما عن وجهة تلك الصواريخ فقال إنها موجهة إلى أفغانستان، حيث يعتقد أن بن لادن يقوم على إدارة أربعة

معسكرات للتدريب. كان لهذا الخبر وقع الصاعقة على الجنرال كارامات الذى بدا عليه الفزع والرعب والاندهاش.

أخبرنى موظف بالمخابرات الأمريكية قائلا: «كانت نوعا من المحادثة، فقد كان رالستون هناك على أرض الواقع، لكى يتأكد تماما أنه عندما تدخل الصواريخ المجال الجوى الباكستانى وتظهر على شاشات الرادار لا يحدث سوء فهم، ويعتقد أنها قادمة من الهند، وبالنتيجة يتم التعامل معها وإسقاطها». صمت عميل المخابرات للحظة وأردف قائلا، «إنه شيء فظ وفظيع أن نتعامل بتلك الطريقة مع أصدقائنا. بحلول اليوم التالى كان فزع الجنرال كارامات –والحكومة التى يخدمها– قد تحول إلى غضب وغيظ. كان عدد من تلك الصواريخ التوم هوك إما لم يتم توجيهها بصورة دقيقة أو أنها أخطأت أهدافها وسقطت بعيدا عن الأماكن المستهدفة. تم استهداف معسكرين من المعسكرات الأربعة وتم تدميرهما فى منطقة زاوار كيلى فى المقاطعة الأفغانية باكتيا، وتم قتل خمسة عملاء للمخابرات الباكستانية وعشرين متدربا، وذلك طبقا لرواية موظف باكستانى رفيع المستوي.لم تكن الحكومة الباكستانية غاضبة فقط ولكنها كانت محرجة، لأن واشنطن لم تثق فيها ولم تحترمها. ولماذا يتم الإفصاح قبلها بعشر دقائق فقط؟ ولماذا يتم إعلام الجنرال كارامات بدلا من إعلام رئيس الوزراء؟

لم تكن باكستان الدولة الوحيدة التى شعرت بالإهانة. فقد عبرت السعودية ومصر والأردن والسلطة الفلسطينية والكثير من دول العام الإسلامى عن هلعها وفزعها. ولكن لدى الولايات المتحدة من الأسباب ما يجعلها تشعر بالحرج أيضا. لأنه ورغم ادعاء الرئيس كلينتون فى خطاب تم بثه على الهواء بعد ساعات قلائل من توجيه الضربة أن «اجتماعا لقادة الإرهاب الرئيسيين» كان من المقرر انعقاده فى واحد من المواقع المستهدفة، أما بن لادن وكبار مرافقيه فقد كانا وقت الضربة بعيدين عن المكان بأكثر من مائة ميل. أما الاجتماع الذى أشار إليه كلينتون فقد كان قد تم قبل شهر فى جلال آباد.

لقد أنفقت الولايات المتحدة فى تلك العملية ٧٩ مليون دولار، فى عملية إطلاق صواريخ وتوجيهها بالأقمار الصناعية فقط من أجل تدمير ما يساوى آلافًا قليلة من الدولارات،

عبارة عن حواجز ممرات وثكنات ميدان وخيام . كان واحد فقط من المنشآت التى تم قصفها معسكرا تدريبيا تابعا لبن لادن. قال لى أحد عملاء المخابرات السابقين معلقا على المسألة: «إن الأمر برمته كان كتابيا وقد كان الرئيس محددا جدا، كان يريد ضرب هدفين كرد على تفجير السفارتين» (كان الهدف الثانى مصنع الشفاء للأدوية فى السودان والذى ادعت الإدارة أنه يتم استخدامه بواسطة بن لادن لإنتاج وتوزيع أسلحة كيماوية. وتراجعت الإدارة عن تلك النظرية فى مايو من عام ١٩٩٩، عندما قامت فى معرض رفضها تلبية الادعاء أفرجت عن الأصول المجمدة لمالك المصنع). وتساءل عميل المخابرات السابق فيما يخص الهجوم الصاروخى «هل كان فشلا مخابراتيا أم فشلا سياسيا أم كليهما؟»

فى السنة التالية تم إغلاق سبعين سفارة وقنصلية أمريكية إغلاقا مؤقتا، وذلك بناء على تحذيرات من المخابرات المركزية الأمريكية ال (CIA) عن خطط جديدة وعمليات متقدمة يستهدف فيها بن لادن ضرب منشآت أمريكية فى الخارج. ولكن الوكالة اعترفت بقصورها وعدم دقة معلوماتها فيما يخص الأماكن الممكن استهدافها وموعد هذا الاستهداف. ويمكن القول إن بن لادن إلى حد ما لم يكن فى حاجة للقيام بعمليات أو استهداف منشآت لأنه ، حتى وبدون تفجيرات أخري، كان يمسك بالحكومة الأمريكية كرهينة.

قبل أن يتم عزل رئيس الوزراء الباكستانى نواز شريف بانقلاب عسكرى فى أكتوبر عام ١٩٩٩، قال لى أحد المسئولين البارزين فى حكومته: «أعتقد أن ما تريد الولايات المتحدة أن تقوله لنا هو، لماذا لا تقومون بعمل قذر بأن تمسكوا بن لادن وتسلموه لنا أو أن تقتلوه؟ لقد طلبنا من الأمريكان أن يقدموا دليل إدانة بن لادن لطالبان ويتركوا طالبان هى التى تحاكمه هناك». وكانت طالبان قد وعدت بفعل ذلك فور قيام أمريكا بتقديم الدليل، ولكن الولايات المتحدة لم تأخذ هذا العرض بجدية. (وصف لى أحد المسئولين الأمريكيين العرض قائلا «إنه خداع بل مثير للضحك أيضا»). بعد ذلك فى نوفمبر من عام ١٩٩٩، وبينما كانت طالبان تتدافع مهرولة لتتجنب عقوبات اقتصادية شاملة يتم فرضها عن طريق الأمم المتحدة تحت إصرار وإلحاح من الولايات المتحدة، تقدمت طالبان بعرض مفاده؛ أن تقوم هيئة من القضاة المسلمين بعقد محاكمة لبن لادن فى أفغانستان، لتقرر ما إذا كان سيتم تسليمه

لدولة ثالثة لمحاكمته أو تبرئته. كان المسئولون الأمريكيون منقسمين بخصوص تفسيرهم للعرض بعضهم رأى أن طالبان تحاول أن تجد طريقة لطرد بن لادن وتحفظ ماء وجهها، وآخرون رأوا أنها مجرد محاولة لكسب الوقت. رفضت إدارة كلينتون هذا العرض رفضا قاطعا. كانت الولايات المتحدة مرتبكة بنفس القدر بسبب رسالة زعم أنها كتبت بواسطة بن لادن للملا محمد عمر - وتم تسريبها عن طريق الصحف الرسمية الأفغانية فى أواخر أكتوبر من عام ١٩٩٩ - والتى عرض فيها بن لادن أن يغادر أفغانستان فى مقابل ضمان ألا يتم معرفة محل إقامته الجديد إلا لاثنين من المسئولين الأفغان (من عناصر طالبان) بمن فيهم زوج ابنته.

بينما كنت أفكر فى الخيارات الأخرى تذكرت شيئا آخر قاله لى أحد المسئولين الباكستانيين قال: «بأمانة شديدة جدا، ما الذى كانت ستستفيده باكستان بدخولها أفغانستان وخطف بن لادن وتسليمه لكم؟ إننا من أكثر المؤيدين للولايات المتحدة وأخلص الحلفاء لها. لقد ساعدناها فى القبض على رمزى يوسف. كما ساعدنا فى القبض على مير أمال كانسى - والذى تم الحكم عليه بالإعدام لقتله اثنين من عملاء المخابرات المركزية الأمريكية خارج مقر الوكالة عام ١٩٩٣- وكل ما حصلنا عليه هو خطاب شكر. قمتم بإطلاق صواريخكم منتهكة أجواءنا دون علم مسبق! وأذللتم بهذا العمل حكومتنا! كما قتلتم ضباط مخابرات باكستانيين! والآن تأتون إلينا قائلين، إنها مشكلتكم. يجب أن تقبضوا على بن لادن وتقدموه لنا».

استمرت الحكومة السعودية من جانبها بالسماح للقوات الأمريكية بالبقاء فى أراضيها ولكنها منعت تلك القوات من القيام بقصف العراق من أراضيها. وعلى الرغم من الوجود الأمريكى أو ربما بسبب الوجود الأمريكى، ظل الأمراء السعوديون والمؤسسات السعودية ورجال الأعمال ومن بينهم أصدقاء لأسامة بن لادن هم الممولين الأساسيين للكثير من الجماعات الإسلامية المسلحة. وفى محاولة مقنعة كان هدفها عدم إغاظة أو إغضاب بن لادن وأتباعه، لدرجة أن الأسرة المالكة فى السعودية رفضت السماح لعملاء مكتب التحقيق الفيدرالى ال (F B I) باستجواب أى من المتهمين فى تفجيرات الرياض أو الظهران كما

رفضت أيضا أن تسمح للمحققين الأمريكان باستجواب أحد مساعدى بن لادن ومموليه المهمين وهو سيدى طيب، وهو رجل ذو نفوذ والذى اعتقلته عناصر المخابرات السعودية (بإلحاح قوى من واشنطن) أو جنحت لاستمالته لتبادل الأطراف . ولكن السعوديين وطبقا لتحرياتهم وتحقيقاتهم أخبروا نظراءهم فى المخابرات الأمريكية أنه ليس هناك أساس يمكن عن طريقه معاملة طيب «كمجرم» ربما كان الطيب والذى كان متزوجا من ابنة أخى بن لادن يعرف ما يعرفه أى شخص آخر عن إمبراطورية بن لادن المالية المتشابكة.

أما بالنسبة لبن لادن نفسه فقد اعتبر تلك التفجيرات علامة «لبداية الحرب بين المسلمين والولايات المتحدة». ففى مقابلة له مع صحيفة الإندبندنت اللندنية تمت فى يوليو عام ١٩٩٦ فى معسكر محصن تحصينا منيعا فى منطقة جبلية نائية فى أفغانستان، لم يعلن تحمله لاية مسئولية عن أى من التفجيرين، ولكنه أوضح أنه يتفهم الظروف والأحوال والدوافع لمن قاموا بتلك العمليات ويقرها، كما حذر من أعمال أخرى ليست ضد قوات الولايات المتحدة فقط وإنما أيضا ضد القوات البريطانية والفرنسية.الشىء المثير للسخرية أو هكذا بدا لى أن الذى قام بأعمال الإنشاءات للمقر الرئيسى للقوات الأمريكية الجديدة فى الصحراء المعزولة فى المملكة العربية السعودية -قاعدة الأمير سلطان الجوية- كانت مجموعة بن لادن عندما رأت السعودية أن الأمريكان ليسوا فى مأمن وهم داخل المدن السعودية، وذلك بعد تفجيرات الرياض والظهران.

كان بن لادن يبتسم برقة للكاميرا خلال مقابلته مع مراسل الإندبندنت روبرت فيسك (Robert Fisk) وهو محاط بعشرات الحراس -مصريين وجزائريين وأردنيين وسعوديين- جميعهم من العناصر المتمرسة التى حاربت وخاضت معارك الجهاد وأصبحوا مرفوضين ومدانين بواسطة ملوك ورؤساء نصف العالم العربي. ما كان مثيرا للخوف والهلع كأى شىء مخيف آخر هو تخمين أو تقدير حديث لوكالة المخابرات (CIA) أن بن لادن وعن طريق التكنولوجيا المتقدمة -والذى يمتلك موقعا على شبكة الإنترنت ومراكز أقمار صناعية فى أوربا وعبر كل الخليج الفارسي- يسيطر الآن على نحو ثلاثة آلاف مقاتل متمرس يدينون له بالولاء والطاعة.

بينما تتحسن صورة بن لادن وتزداد مكانته -جنبا إلى جنب مع أيديولوجيته ودعمه المالى بين بعض أعضاء النخبة فى المملكة وفى باقى دول الخليج الفارسى (العربي)- فإن أية آمال سعودية فى حل مشكلة بن لادن بالقوة تصبح ذات فائدة وغير محبذة وغير مفضلة. وفى كل مرة ترفع إدارة الرئيس كلينتون مراهناتها وتزيد من ضغوطها كانت تعزز شهرة بن لادن، ويزداد بالتالى عدد المنشقين السعوديين الذين ينضمون للجماعة السعودية السرية المتشددة التى تظل تدور فى فلك بن لادن ويظل هو محورها المركزي.

لذا فعندما اتهمت الحكومة الأمريكية بن لادن بالتآمر على خلفية التفجيرات التى حدثت لمنشآت عسكرية أمريكية فى المملكة العربية السعودية، سارع وزير الداخلية السعودى معلنا أنه ليس لدى السعودية أية معلومات تدعم القول: إن بن لادن قد تورط فى القيام بأعمال إرهابية فى داخل المملكة. وعندما اتفق الرئيس كلينتون والرئيس الروسى بوريس يلسين -الذى أدرك ولمس الدور الذى يلعبه بن لادن فى مشاكل روسيا الشخصية مع الإسلاميين المسلحين فى الشيشان- فى استعراض نادر للقوة فى الأمم المتحدة عام ١٩٩٩ لفرض عقوبات على طالبان، حينها أبعد الحكام السعوديون بوضوح وثبات نفسيهما عن كلا الرجلين.

كان أسامة بن لادن، ولمدة عشرين عاما، يطور ويحدث نفسه ببراعة عالية ومهارة فائقة. يظهر الآن بيت سعود، وخوفا من تحدى الإسلاميين المتشددين المسلحين للعرش، عزم على التحول وتغيير نفسه- لتحويل ما كان دائما معركة معقدة للإرادات بين الأسرة المالكة السعودية وابنها الضال إلى صراع أكثر هولا . صراع يحرض بن لادن وأتباعه ضد الولايات المتحدة.

ربما لا يكون مفاجأة، أن المسئولين الأمريكان يعتقدون أن بن لادن قد ساعد فى تمويل واحدة على الأقل وربما اثنتين من محاولات الاغتيال التى استهدفت حياة الرئيس المصري. عندما سألت الرئيس مبارك عن بن لادن جفل وانتفض قائلا: «إنه يريد أن يسيطر على العالم. إنه مصاب بجنون العظمة». عبر مبارك حينها عن اهتمامه المتزايد -المشوب بغضب شديد- عن بيشاور والجنود المتمرسين مقاتلى الجهاد.

أخبرنى عن مقابلة له مع رئيس الوزراء الباكستانى نواز شريف فى بون فى أبريل عام ١٩٩٣، قال الرئيس «كان لقاء صعبا وقاسيا، ولم أستطع أن أصدق أذنى وأنا أسمعه يقول لى بوضوح وصراحة وهو قائد وزعيم باكستان»: إننا لا نستطيع السيطرة على بيشاور. لا لا نستطيع بسبب هؤلاء الناس من الفرار والتحرك بحرية. «سألته حينها إذا كان يريد منى أن أرسل له قوات مسلحة مصرية إلى بيشاور للقضاء على الفوضى هناك».

كان مبارك يطالب بإعادة كل المجاهدين المصريين وتسليمهم لمصر: كان شريف مترددا ومعترضا قليلا. إلا أنه وعند عودته لباكستان أصدر تعليمات على كره منه إلى قوات أمنه الكارهة أيضا «بالتحرى عن بيشاور».

لقد سألت دبلوماسيا غربيا كان مقيما هناك عما حدث وقتها؟

أجاب قائلا: «كانت فوضى عارمة، المدينة تحولت إلى متجر ضخم منذ سنوات الحرب: فهناك وكالات الأنباء وتجار السلاح وتجار المخدرات والمساجد. وبدأت الحكومة فى مراجعة كل المنظمات غير الحكومية، وكل العمال المغتربين هنا. ولكن عندما وصلوا إلى المنظمات الخمس والثلاثين العربية الهامشية، لم يستطيعوا العثور على مكاتبها ولا مبانيها ولا رجالها! وفى تلك السنة قادوا عدة غزوات بالفعل ولم يستطيعوا سوى العثور على نحو مائتى عربي، ورغم أنه كان قد تم إصدار بطاقات هوية وإقامة لأكثر من خمسمائة فرد قبل شهر واحد. فقد حددوا لهم موعدا نهائيا حيث ينبغى على كل عربى بدون أوراق رسمية صحيحة مغادرة باكستان بحلول هذا الوقت. وأظن أننا الآن عند سادس أو سابع موعد نهائى، والمهلة المعطاة على وشك الانتهاء ولم يزد عدد الذين غادروا بالفعل على عشرين شخصا».

بدا أكثر جدية ثم أردف قائلا: «إنها مشكلة هائلة لباكستان. فلم تكن لدى الحكومة رغبة فى ترحيل هؤلاء الناس إلى بلادهم لمحاكمتهم أو لإعدامهم. فإلى أين يمكنك طردهم من باكستان؟ فليس من المعقول أبدا أن تأخذهم إلى الحدود الأفغانية وإطلاقهم هكذا بدون ضوابط.

لم تأخذ باكستان الأمر بجدية إلا بعد تفجير السفارة المصرية فى إسلام آباد حينها وحينها فقط بدأت قوات الأمن الباكستانية فى الانتشار والبحث فى باكستان كلها، واعتقلت أكثر من ثلاثمائة شخص: منهم من كانوا من علماء الدين الباكستانيين المتشددين المسلحين والأصوليين: نحو ستين أفغانيا ونحو دستتين (٢٤) من العرب، ومنهم أيضا شخص سعودى كان قد وصل لبيشاور أيام الجهاد وتم ترحيله للمملكة العربية السعودية بتهمة تورطه فى تفجير الرياض. قامت قوات الأمن بعدة اعتقالات فى أوساط الجامعة الإسلامية الدولية فى كابول التى وصفها وزير الداخلية الأفغانى بأنها «وكر للإرهابيين الإسلاميين». قضى رمزى أحمد يوسف وقتا طويلا بالجامعة قبل تسليمه للولايات المتحدة : وكان الشيخ عمر يحاضر هناك وكذلك الشيخ عزام. كان الممولون الأساسيون للجامعة هم السعوديين. الذين، وطبقا للأوساط الرسمية الباكستانية، استخدموا الجامعة كغطاء يمولون من خلاله المجاهدين ويرسلون للجهاد المقاتلين والأموال والسلاح عبر ذلك الغطاء.

بينما كنت أقود سيارتى فى الطريق المؤدى إلى جامعة الدعوة والجهاد فى ضواحى بوبى (Pobby) وهى مدينة تجارية ترابية الطرق وتبعد نحو ثلاثين ميلا شرقى بيشاور، كان كل شىء طبيعيا، أو على الأقل بدا كذلك فى البداية. على جانبى أحد الطرق المتعرجة كان هناك صبية يلعبون الكرة فى ساحة وعلى الجانب الآخر كان هناك راع يجلس وحيدا يرعى قطيعا من الأغنام بينما هو يعزف مزمارا. خارج أكشاك الشاى كان الرجال يجلسون على أرائك مصنوعة من الحبال واضعين قدما على الأخرى ومنغمسين فى نقاش حاد وهم يدخنون الأفيون.

لم أكن أتوقع رؤية تلك الجدران الشاهقة ذات اللون القاتم الكئيب والأسلاك الشائكة من فوقها وما بدا لى ساعتها وكأنه مخابئ للسلاح الآلي. يختفى خلف تلك الجدران معسكر جالوزيا للاجئين وجامعة الدعوة والجهاد تلك الجامعة القابعة فى منتصف المكان. اصطفت بعض المحلات عند مدخل الجامعة، حيث يتم إخفاء القنابل والكلاشينكوف بين أكوام الحطب والخضراوات والكباب أيضا. كان المعسكر هو الملجأ والمأوى الباكستانى للتحالف الإسلامى، وهم مجموعة من المتشددين المتطرفين تحت قيادة عبد رب الرسول سياف، وهو واحد من

أشد المتطرفين ومن أقوى جنرالات الحرب الأفغان. كان هناك اعتقاد أيضا أنها كانت المكان الذى تدرب فيه ذلك الغريب الغامض المبهم المدعو رمزى أحمد يوسف والذى تم الحكم عليه فى نيويورك بالسجن مدى الحياة، وذلك فى يناير عام ١٩٩٩ لإدانته بأنه كان العقل المدبر لتفجير مركز التجارة العالمى والتخطيط لنسف طائرات جامبو جيت كثيرة يصل عددها إلى اثنتى عشرة طائرة، فيما كان يمكن أن يكون مشهدا رائعا ليومين من المتعة والفرفشة .

كان يوسف لغزا محيرا، وكانت التقارير المتضاربة حوله قد أثارت حيرة وارتباك ممثلى الادعاء الفيدراليين ورجال المخابرات فى ثلاث قارات.

كنت قد ذهبت إلى بوبى فى ربيع عام ١٩٩٥، لأنه كانت هناك أسباب تدل على أن مفتاح حل لغز تفجير مركز التجارة العالمى يمكن أن يكون بين أبناء الجهاد المجاهدين فى أفغانستان. سافرت إلى هناك بتوصية من جنرال باكستانى متقاعد كان فى السابق عضوا فى المخابرات الباكستانية ال (ISI) وترك أثرا وانطباعا جيدين لدى المجاهدين. لذا فقد تم السماح لى بالمرور وتجمع الكثير من الطلاب حول سيارتى عند البوابة الرئيسية، وانهال صوت غاضب بالشتائم على السائق وأشهر أحدهم فى وجهه الكلاشينكوف. لكن تطوع اثنان من الطلاب باصطحابى لقائد المعسكر، الحاج دوستى محمد والذى كان قائدا فى حرب الجهاد، وابن عم عبد رب الرسول سياف.

على بعد نحو عشرين دقيقة بالسيارة الجيب من البوابة. كان هناك بيت من طابق واحد مقام فى وسط ميدان مفتوح ،أمرنى بعض الجنود، وكانوا جميعا شبابا أكفاء تنطق وجوههم بالنشاط والثقة ويعلقون على أكتافهم أسلحة آلية وعلى صدورهم أحزمة الذخيرة، أن أغطى رأسى وأن أخلع حذائي. كان الحاج دوستى، مشغولا، لذا فقد كان عليّ أن أنتظر لبعض الوقت، ولكن بعد وقت قصير تم اصطحابى لمقابلته فى غرفة العمليات الخاصة بعبد رب الرسول سياف. كانت لدى الحاج دوستى، الذى بدا وكأنه فى أواخر الستينيات من عمره، لحية بيضاء تصل إلى وسطه ووجه ذابل ضعيف. كان يلف نفسه فى بطانية وعلى رأسه قبعة الباشتون. كان رجلا قليل الكلام وتلك الكلمات القليلة التى قالها كانت بلغة الباشتون، ولكنه كان ودودا وقدم لى شايا وبعض الكعك بينما كنا مستمرين فى حوارنا.

أجاب الحاج دوستى على أول أسئلتى قائلا: «لم أسمع من قبل عن رمزى يوسف».

وسألني: «ما هو مركز التجارة العالمي؟ أثار هذا التساؤل ضحك الطالب الذى رافقنى وعدد من أفراد طاقمه».

قلت له: «إنه لدى جامعتك تلك التى أسسها السياف عام ١٩٨٥ شهرة واسعة على أنها الأرض التى يتدرب عليها الإسلاميون المتشددون».

ابتسم ولم يعلق بالتأكيد أو الإنكار ولكن بدا أنه يومئ برأسه.

بعد أن تملكنى اليأس من الحصول على أية معلومات من الحاج دوستى، رميت ببصرى عبر النافذة فرأيت شبابا يتدربون فى ساحة ترابية كانوا فى التحام بالأيدى بينما كان بعضهم يتدربون على الرمي.

سألت الحاج دوستى: «من الذى يدعم هذه الجامعة»؟

أجاب: «المملكة العربية السعودية».

بينما كنت متوجهة لأستقل سيارتى عائدة بعد جلسة الشاى مع الحاج دوستى سألت الشاب الذى كان يرافقنى ومعه سلاحه الكلاشينكوف وحزام ذخيرته فوق صدره: كيف يصفون جامعتهم؟

أجاب إنها قلعة إسلامية.

بدا التشبيه صحيحا.

إن رمزى يوسف، الذى استخدم فى حياته نحو أربعة عشر اسما مستعارا واستخدم فى أسفاره وتنقلاته نفس العدد تقريبا من جوازات السفر، يعد واحدا من الجنود الذين أفرختهم سنوات الجهاد فى ساحات المعارك فى أفغانستان، وهو شاب متشدد ومتعصب فى الثلاثين من العمر، ومن أشد الكارهين لأمريكا وقد بلغ رشده فى غضون الحرب الأفغانية. قام برحلته الأولى إلى أمريكا فى سبتمبر عام ١٩٩٢، ستة أشهر قبل تفجير مركز التجارة العالمى بقنبلة وزنها ١٢٠٠ رطل. أصيب من جراء ذلك الانفجار ألف شخص وتم قتل ستة وبلغت الخسائر نصف مليار دولار.

كان يوسف قد وصل لمطار جون كنيدى فى نيويورك قادما من بيشاور وكان بصحبته مسافر آخر هو أحمد محمد حجاج، وهو أحد مقاتلى الجهاد أيضا وهناك اعتقاد بأنه تلقى تدريبه فى جامعة الدعوة والجهاد. افترق الاثنان عن بعضهما قبل مغادرة أماكنهما فى مقاعد الدرجة الأولى على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية الدولية الباكستانية، وعندما وصلا لصالة الجوازات والهجرة، شرع حجاج فى القيام بما وصفه المحققون على أنه «عرض لم يكن به ما يدعو لعدم التصديق» والاحتمال الأعظم الكامن خلف هذا العرض هو أنه كان يهدف لصرف الانتباه عن صديقه ورفيق رحلته -وربما عن ركاب آخرين- بينما كانوا فى طريقهم لدخول الولايات المتحدة.

كان حجاج فلسطينيا أسمر ذا لحية، وقد قدم لموظف مكتب الهجرة والجنسية جوازا سويديا . كان يحمل فى حقيبته الصغيرة جواز سفر أردنيًا ومعه أيضا جواز بريطانى وآخر سعودي. كانت الجوازات الأربعة لأسماء مختلفة جميعها. نظر موظف مصلحة الجنسية والهجرة إلى جواز سفره الأول بشك وريبة. فقد كانت الصورة سميكة جدا واستطاع ضابط الجوازات بأظافره من رفع صورته ليجد تحتها صورة شخص آخر.

انتابت حجاج حالة من الغضب والضيق، وبدأ فى الصراخ «كانت أمى سيدة سويدية. إذا لم تصدقنى يمكنك التأكد عن طريق الكمبيوتر (الحاسب الآلي)». عندما قام المفتشون بفتح حقائبه وجدوا ما أدهشهم جدا، فقد وجدوا شرائط فيديو لسيارات مفخخة انتحارية، وإرشادات عن كيفية زرع الألغام، وتعليمات عن طرق وكيفية تزييف الأوراق والوثائق وكيفية صنع قنابل غير محضرة وارتجالية.

بالقرب من هذا المكتب وأمام مكتب آخر لشئون الهجرة والجنسية كان المدعو يوسف رمزى يقدم لموظف الجوازات جوازا عراقيا: لم تكن لديه تأشيرة دخول للولايات المتحدة ولكن كانت لديه بطاقة هوية مضغوطة عليها صورته وصادرة عن مركز البنيان الإسلامى فى توكسون (Tucson) أريزونا (Arizona). كانت البطاقة صادرة باسم شخص آخر يدعى خرام خان -وهو نفس الاسم صاحب الجواز السويدى الذى كان بحوزة حجاج- ولم يكن موظف الجنسية مقتنعا. ولكن يوسف على عكس حجاج، لم يقم بعمل ضجة، ولكن بهدوء طلب منحه اللجوء السياسى للولايات المتحدة.

يتذكر رجال الهجرة والجنسية رجلا رقيقا ملتحيا بعيون سوداء ثاقبة وأنف منقارى الشكل. يرتدى شالوار كامييز من الحرير وسروالا أفغانيا فضفاضا. رفع يده اليمنى بتقديس وأقسم إنه سيتعرض للاضطهاد إذا لم يسمح له بالإقامة فى الولايات المتحدة.

سألته موظفة الهجرة مارثا مورالیز (Martha Morales) «ما هو اسمك الحقيقى بالكامل؟».

أجاب الرجل الملتحى «رمزى أحمد يوسف»- رغم أن تذكرة الخطوط الجوية التى دخل بها للولايات المتحدة وجواز سفره العراقى الذى غادر به باكستان كانا باسم آخر يدعى عزان محمد. وطبقا للشهادة التى أدلت بها مورالیز فى المحكمة فيما بعد، أنها اقترحت أن يتم حجز رمزى، إلا أن رأيها تم إهماله عن طريق رئيسها. كان مكتب الهجرة مملوءا وتم إخبار الرجل الملتحى بالمثول أمام قاضى شئون الهجرة والجنسية فى غضون ثلاثة أشهر للنظر فى طلبه للجوء السياسي. شكر رمزى مورالیز واختفى فى شوارع نيويورك.

تم إرسال حجاج من المطار إلى السجن مباشرة، وظل هناك حتى بعد أن تم تفجير مركز التجارة العالمى بيومين. أعيد القبض عليه فيما بعد وتمت محاكمته عام ١٩٩٤، مع ثلاثة آخرين من المتآمرين، بسبب دوره فى عملية التفجير. وقد تمت إدانة الأربعة جميعا وحكم على كل واحد منهم بالسجن لمدة ٢٤٠ عاما.

وطبقا لمصادر استخباراتية باكستانية، تقول إن المدعو رمزى أحمد يوسف رجل قبلى (من سكان القبائل) من مقاطعة بالوخيستان الواقعة فى الجنوب الغربى . كان اسمه الحقيقى عبد الباسط محمد عبد الكريم. وكان والده قد هاجر إلى الكويت حيث عمل مهندسًا هناك، وهناك أيضا ولد عبد الباسط من أم فلسطينية فى المدينة النفطية فوهايهل فى أبريل عام ١٩٦٨. كان الفلسطينيون يمثلون نحو ٤٠٪ من سكان فوهايهل، كان عبد الباسط، هو وأحد إخوته على الأقل يتحدثان العربية بلكنة فلسطينية مميزة. عندما سألت صديقا فلسطينيا من فوهايهل عن تقديره لأكثر الجماعات السياسية التى بحثت عن اللجوء فى فوهايهل -بما فيها الأصوليون الفلسطينيون والشيوعيون العراقيون والإخوان المسلمون المصريون- أى هذه الجماعات كان لها التأثير الأكبر فى مجتمع الهجرة الواسع هناك؟ أجاب قائلا: «الماركسيون الفلسطينيون والإسلاميون ولدى كل منهما ارتباطات دولية».

القليل من سكان فوهايهل يتذكرون والد عبد الباسط، محمد محمود عبد الكريم، ولكن طبقا لهؤلاء الذين يعرفونه من بالوخيستان فلم تكن له اهتمامات دينية خاصة ولم يكن مثقفا سياسيا. ولكن يقال إنه كان لديه عشقان وعاطفتان- قوميته البالوخيستانية وكراهيته للمسلمين الشيعة. تم إدخال محمد فى المدرسة الوهابية المتزمتة السنية (والوهابية هى المذهب الذى يتبعه الغالبية العظمى من السعوديين بمن فيهم الأسرة المالكة) وإلى جماعة أصولية متشددة مرتبطة بها ارتباطا وثيقا تعرف باسم السلفية. وطبقا لمذهبهم يعتبر الشيعة كفارا. ويؤمن المتطرفون من تلك الجماعة أن الشيعة لا يجب أن يتم تركهم والتخلى عنهم أو استتابتهم بل يجب أن يتم قتلهم جميعا.

تلك هى الرؤى التى تشرَّبها رمزى يوسف فيما بعد. كان صبيا لامعا وكان أداؤه رائعا فى المدرسة وخاصة فى الفيزياء والكيمياء والرياضيات. كانت لديه أيضا كفاءة عالية فى اللغات الأجنبية. وعندما بلغ سن المراهقة كان شابا وسيما بشعر أسود وبدأ فى إطلاق لحيته، ليس لأسباب دينية، كما كان يفعل الكثير من أترابه، ولكن لأنها تجعله يبدو أكبر وأكثر كياسة. فى أكتوبر عام ١٩٨٤ استلم ما يعتقد الكثير من المسئولين الآن أنه كان أول جواز سفر ضمن جوازات سفر كثيرة، سيستخدمها فيما بعد للسفر عبر ثلاث قارات فى العالم- أحيانا متنكرا وأحيانا بلا تنكر، ولكنها كانت كلها على الدرجة الأولي. كان أول جواز سفر صدر له باسمه الحقيقي. كان عمره وقتها ستة عشر عاما فقط، ورغم أنه كان بالفعل قد تشرب من والده كراهيته للشيعة ونقده اللاذع لهم وحماس وثورية أصدقائه الفلسطينيين، فلم يكن لديه سبب يجعله يخفى شخصيته.

بحلول عام ١٩٨٧، التحق عبد الباسط بدورة لدراسة الهندسة الكهربية فى معهد ويست جلامورجان للتعليم العالى (The West Glamorgan Of Higher Education) — معهد سوانسى الآن (Swansea Institute) فى جنوب ويلز. وفى عام ١٩٨٩ حصل على شهادته هناك. تمكن خلال هاتين السنتين من إتقان اللغة الإنجليزية، وأعطته خبرة عن كيفية وأساليب الحياة فى العالم الغربي، فيما عدا تلك الأشهر القليلة التى قضاها فى نيويورك فى شتاء عام ١٩٩٢ .

عندما أكمل عبد الباسط دراسته كان والده قد انتقل عائدا إلى توربات فى بلوخيستان مع أسرته. كانت بلوخيستان قد أصبحت المركز الثانى بعد بيشاور كمنطقة تجميع للعمليات من أجل القتال فى معارك الجهاد فى أفغانستان. وكانت المخابرات المركزية الأمريكية تستخدم رجال القبائل من سكان بلوخيستان كمرشدين وسائقين ومقتفى أثر وفى الدعم اللوجستي. ولسنين طويلة كانوا يسافرون ويتنقلون ذهابا وعودة دون وثائق وبدون جوازات سفر، عبر حدود مخترقة مصطنعة قسمت أراضيهم التقليدية فى باكستان وإيران وأفغانستان- أحيانا لتهريب السلاح والمخدرات، وأحيانا لتفجير خطوط السكك الحديدية ومصانع الطاقة فى إيران الخومينية الشيعية.

عندما عاد إلى باكستان فى عام ١٩٨٩، توجه عبد الباسط مع والده وأحد أعمامه واثنين من إخوته على الأقل إلى بيشاور فى رغبة شديدة منهم للتجنيد والقتال فى الجهاد. انحصرت اتصالاتهم فى البداية مع التحالف الإسلامى والأستاذ الجامعى عبد رب الرسول سياف الذي، كان وهابيا مثل والد عبد الباسط، ونتيجة لذلك انهمرت عليه الأموال السعودية. قاتل العدد الأعظم من بين الخمسة والعشرين ألفًا من المسلمين المسلحين، من غير الأفغان الذين قاتلوا فى الجهاد تحت قيادة السياف بمن فيهم أسامة بن لادن. ومعهم تحول عبد الباسط إلى مقاتل موسمى وقضى هناك سنيَّه الأولى. تبنى عبد الباسط اسما مستعارا وأطلق على نفسه اسم يوسف ولكن بعض زملائه فى القتال عرفوه باسم راشد. ساعدته خلفيته فى الهندسة الكهربائية وخدمته كثيرا وأصبح صانعا ماهرا بصورة تبعث على الاندهاش لقنابل جديدة وإبداعية. وطبقا للمحققين الأمريكان كانت خصوصيته فى قدرته على صنع قنابل من مواد تبدو بريئة لا تثير شكوكا، ومن الصعب كشفها تقريبا مثل، ساعة يد رقمية كان يستطيع تطويرها وتحويلها إلى جهاز ضابط للوقت (عدسات لاصقة بلاستيكية وزجاجة بها محلول مملوءة بسائل النتروجلسرين وهو سائل شديد الانفجار). كانت أساليبه ووسائله هى التى جعلت منه شخصا فريدا متفردا.

وطبقا لهؤلاء الذين يعرفونه فهو يحمل جروحا وندبات وآثارا من تصنيعه للقنابل. فهو يوصف، بصورة متعددة ومختلفة، بأنه كان أعمى بصورة جزئية أو على الأقل

كانت لديه حساسية ضد الضوء فى عينه اليمني: وكانت لديه أيضا آثار حروق فى أقدامه وكانت أصابعه وأظافره مشوهة- كل هذه الأشياء كانت هى الضريبة التى دفعها لأجل مهارة أتقنها وأبدع فيها خلال سنوات الجهاد.

بعد مغادرة عملاء المخابرات الأمريكية وضباط القوات الخاصة الذين كانوا يشرفون على الحرب فى بيشاور بوقت طويل، استمر عبد الباسط وأصدقاؤه فى العمل، مستخدمين بيت الشهداء وخيبر بلازا، وهى عبارة عن عمارة قشدية اللون على طريق الجامعة، كمركز ومقر رئيسى لهم.

بعد أن خرج عبد الباسط من مطار جون كنيدى فى سبتمبر من عام ١٩٩٢، ظهر بسرعة فى بروكلين فى المنطقة العربية التى تسير عبر شارع أتلانتيك. أخبر معظم الناس أن اسمه راشد، وأنه من العراق، ولكن لم يصدقه أحد من سكان الحي. فالعراقيون لم يصدقوا روايته (بالتأكيد ليس فقط بسبب لهجته الفلسطينية الواضحة عندما يتحدث العربية واعتبروه هنديا أو باكستانيا حسب لهجته عندما يتحدث الإنجليزية). بل لأنه لم يكن يعرف شيئا عن بغداد. تشككت فى كلامه سيدة عراقية صاحبة فندق منذ البداية. حاولت جاهدة أن تعثر على جواز سفره ولكن حقيبته الصغيرة كان يخفيها وكانت دائما مغلقة.

كانت لدى عبد الباسط مهمة كما قال المحققون الأمريكان: وهو جمع فريق من الإسلاميين المتطرفين من بروكلين ومدينة جيرسى معا، كلهم ممن كانوا على علاقة بالجهاد ومن شاركوا فى الحرب الأفغانية، وتحويل نزواتهم وميولهم العنيفة حول الحرب المقدسة إلى حقيقة قاتمة وكابوس مزعج على التراب الأمريكي. يعتقد المحققون الأمريكيون أنه قد تم إرساله إلى أمريكا بناء على توصية من شخص ما، لم تكن لديه أية معرفة مسبقة بالرجال الذين تم تجنيدهم للقيام بعملية التفجير. ربما كان هذا ما أغضب أنصار السيد نصير، الذى تم اتهامه بقتل رابى مير كاهان، وتمت تبرئته، وبعدها تم الحكم عليه بالسجن من سبع سنوات إلى اثنين وعشرين عاما فى تهم بحيازة أسلحة متعلقة بالجريمة، كان لديه شيء ما يفعله بها. (فى عام ١٩٩٦ تمت إدانة نصير بارتكابه جريمة القتل وتم الحكم عليه بالسجن مدى الحياة.

قال لى أحد المحققين «إن السيد نصير كان بالنسبة لهؤلاء الناس قديسا، ونعتقد أن الحكم عليه بلور المشكلة كلها. فقد أراد هؤلاء الأشخاص أن يفعلوا شيئا كرد فعل موجع. أشك أنهم كانوا يعرفون ما هو، ولكنهم بدأوا بعمل مسح شامل للشبكة الخاصة بهم. سافر أحدهم، وهو محمد أبو حليمة، وهو مصرى كان يعمل سائقا للتاكسى فى بروكلين، وكان أيضا قد حارب في الجهاد وهو عضو فى الجماعة الإسلامية، وكان سائقا للشيخ عمر حتى حدث بينهما خلاف، إلى الشرق الأوسط ثم إلى باكستان. وهناك احتمال قوى أن العملية كلها اجتمعت خيوطها وأدواتها فى ربيع ١٩٩٢، فى بيشاور. ربما لم يكن من المدهش أن تكون محطة عبد الباسط الأولى فى بروكلين هى مركز الكفاح للاجئين، والذى كان قد تم إنشاؤه من بيشاور بواسطة الشيخ عبد الله عزام كجزء من الجهد المبذول لتدويل وعولمة الجهاد. فقد أصبح هذا المركز بالنسبة للمسلمين فى الولايات المتحدة، حلقة اتصال للجهد المبذول لنصرة الإسلام داخل أفغانستان. ربما كانت أيضا كما أخبرنى أحد مستشارى الرئيس مبارك، منظمة متقدمة أمامية للمخابرات المركزية الأمريكية خلال الجهاد: فقد كان ضخ وغسيل الأموال يتم عن طريقها، ويتم أيضا نقل الأسلحة وتجنيد العرب الأمريكان وتدريبهم. كان يتم إرسال نحو ٢ مليون دولار، سنويا من مركز الكفاح إلى ساحات القتال فى أفغانستان.

تردد أيضا عبد الباسط على المساجد فى بروكلين وجيرسى سيتي، حيث كان الشيخ عمر عبد الرحمن يلقى خطبه الملتهبة للجهاد فى سبيل الله. وقد كان من بين أتباع وأنصار الشيخ، كل من كانوا نشطاء فى مركز الكفاح، الذين جندهم كأعضاء للمستوى الأقل فى فريقه لمركز التجارة العالمي: وكانوا عبارة عن اثنين من الفلسطينيين ومحمد أبو حليمة، سائق التاكسى المصري، وربما يكون هو من نظم الشبكة الأصلية وثلاثة أو أربعة آخرون ممن لم يتم تقديمهم للمحاكمة، ما لأنهم غادروا الولايات المتحدة أو لأن محاميهم عقدوا اتفاقيات لصالحهم أو لأنهم ظلوا مجهولين.

ظهر منذ البداية أن المؤامرة والمتآمريين ممن تمت إدانتهم لم يكونوا على نفس المستوى. فقد كانت المؤامرة طموحًا، أما المنفذون فقد كانوا هواة ويفتقرون للبراعة.

فقد كانت هناك أخطاء فى صناعة القنبلة وانفجار مبكر وكان محمد سلامة، والذى تمت إدانته بتهمة القيام بتأجير الشاحنة التى حملت القنبلة إلى مرآب البرجين التوأم، صدم سيارته، وكان عبد الباسط يجلس بمقعد السائق مما أدى إلى بقاء عبد الباسط لمدة أسبوع فى المستشفي.

قال لى أحد المحققين الأمريكان: «لم يكن ليحدث كل ما حدث لولا رمزى يوسف، لقد جمع وصنع القنبلة ونظم العملية كلها بتفصيلاتها الدقيقة». وهرب خارجا من البلاد تاركا خلفة الكثير من الأسئلة دون إجابة. حيث إن كل المحاكمات التى تمت للمتآمرين المدانين الأربعة فى بداية عام ١٩٩٤ –ونفس السيناريو كان سيتم تكراره فيما بعد عندما تتم محاكمته هو شخصيا– لم تُسفر عن حل أى من الألغاز الغامضة : من الذى أمر بالتفجير؟ ماذا كانت دوافعه؟ من الذى مول العملية ؟ هل تم استدعاء عبد الباسط إلى بروكلين أم تم إرساله إليها؟ طار عبد الباسط مغادرا نيويورك فى السادس والعشرين من فبراير عام ١٩٩٣، وهو نفس اليوم الذى انفجرت فيه القنبلة. ربما تكون الطائرة التى سافر على متنها قد حلقت فوق مركز التجارة العالمى والغيوم الناجمة عن الدخان الأسود الحمضى الذى ظلل وحجب السماء فوق القلب المالى لنيويورك.

سألت أحد المحققين: «هل كان شريرا عبقريا أم أنه مجرد طفل من حكماء الشوارع وعاش فى بالوخيستان وكان محظوظا جدا»؟

أجاب: «إننى مع نظرية العبقرية الشريرة، ففى المرات التى تعثر فيها أو زلّت قدمه – بما فيها تلك المرة التى تم اعتقاله فيها – كلها كانت بالمصادفة. كان يفلت دائما بفعلته وينجو بلا عقاب . والإغراء الملح لديه هو أن يرى تحققا لنبوءته لمركز التجارة العالمي، لقد كان فى الطائرة تلك الليلة. لو كان مجرد طفل ذكى بطريقة عابرة، فلست متأكدا من أن تكون لديه كل تلك العبقرية فى التنظيم» يظل الكثير عن عبد الباسط مثيرًا للتساؤل. فبعض شركائه فى الجريمة كانوا إسلاميين متشددين وبعضهم كانوا علمانيين. بعضهم عرب، وبعضهم من الفلبين وباكستان. وبعضهم كان يقيم داخل الولايات المتحدة وبعضهم فى الخارج. بعض الجماعات اتحدت معا لفترة تكفى لإنجاز عملية إرهابية واحدة وبعدها تفرقت. ورغم أن

الكثير من قضاياه كانت إسلامية، فإن عبد الباسط نفسه لم يكن إسلاميا بصورة واضحة. فهو نادرا ما كان يحضر صلوات الجمع، وقد قال أحد زملائه فى القتال أيام الجهاد، إنه لم يصم رمضان أبدا. بدا أنه يتلذذ بالانغماس فى ملذات الحياة الليلية فى مانيلا، حيث قضى وقتا ليس بالقليل قبل اعتقاله فى عام ١٩٩٥، وكان دائما مع رجال جماعة أبو سياف الذين تعرف إلى بعضهم جيدا خلال معارك الجهاد عندما كانوا يقاتلون جنبا إلى جنب مع الأستاذ الجامعى عبد رب الرسول سياف.

ولأنه قام بزركشة مزيج من مرارة كراهيته لأمريكا ونضاله الفلسطينى، مما ساعده كثيرا على العثور على مجندين متحمسين وراغبين للقتال فى جهاده الجديد. وقد كانت مانيلا هى الأرض التى شهدت التخطيط لتنفيذ أقصى الجرائم العقابية ضد الولايات المتحدة: فقد كان يخطط لتفجير اثنتى عشرة طائرة من الطائرات التجارية الأمريكية التى كانت تقلع من مدن شرق آسيا وتطير فوق المحيط الهادى فى يناير ١٩٩٥، مستهدفا قتل عدة آلاف مؤلفة من الأشخاص معظمهم من الأمريكيين. وقد تم إجهاض تلك المحاولة قبل التنفيذ بأسبوعين فقط، وذلك عندما قام عبد الباسط وبعض من أصدقائه من جماعة أبو سياف بخلط خلطات سحرية مخمرة من المادة الكيميائية فى حوض المطبخ فى شقة مؤجرة، مما تسبب عنه انفجار صغير وأشعل حريقا فى الشقة. هرب عبد الباسط من المكان، ولكنه ترك وراءه كل الخطط المحكمة المعدة بعناية فائقة ودليل تليفونه على ديسك الكمبيوتر. أظهر الديسك خططا لعمليات إرهابية منها اغتيال البابا يوحنا بولس الثانى بابا روما أثناء زيارته لمانيلا، والقيام بتنفيذ عملية باستخدام طائرة انتحارية لتفجير المقر الرئيسى لمبنى المخابرات المركزية الأمريكية. كل تلك الاعتداءات الفظيعة كان يمكن أن تحدث، كما قال عبد الباسط فيما بعد، إنها كانت بسبب الدعم الذى تقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل على حساب الفلسطينيين .

قام عبد الباسط برحلات مكوكية بين مانيلا وأفغانستان مقيما فترات طويلة فى بلده الأم باكستان، وخلال تلك الفترة التقى فى عام ١٩٩٠ بعدد من المقاتلين الذين سبق أن تعرف إليهم خلال معارك الجهاد، وجميعم كانوا يقاتلون مع قوات الأستاذ الجامعى عبد رب الرسول سياف. اثناء السنوات التى تلت المعارك أصبح المقاتلون المرتبطون بسياف

يقومون بنشاط متزايد فى باكستان، وخاصة فى المدينة الساحلية كراتشى وهى المدينة التى تمثل مركز الحياة السياسية والتجارية والمالية فى باكستان، والتى بدت وكأنها تشبه بيروت أثناء حربها. تم إطلاق النار على آلاف الأشخاص فى الشوارع بسبب خلافات دينية أو صراعات عرقية أو فى معارك بين بارونات تجار المخدرات وتجار السوق السوداء، أو فى الحرب الانتقامية، متزايدة، الحدة نيابة عن الخلاف العقائدى بين إيران والسعودية.
كان تحالف عبد الباسط الرئيسى فى كراتشى مع جماعة تمول من السعودية وأطلق عليها «إس إس بي» (S S P) أو (Sipah–e– Sahab Pakistan) وهى جماعة سنية مسلحة ترفض الآخرين رفضا باتا ولديها أكداس من الأسلحة ومعسكرات التدريب الخاصة بها، ونصيبها الذى حصلت عليه من تركة الجهاد. كانت الأيديولوجية الأساسية لتلك الجماعة تؤكد على القضاء على الشيعة، وكان هذا الهدف بالنسبة لعبد الباسط كما روى أحد أصدقائه من أكثر الأشياء جاذبية فى تلك الجماعة. الشىء الجاذب الآخر، كما روى لى أحد عملاء المخابرات الباكستانية، هو أن والد عبد الباسط، محمد عبد الكريم، كان أحد قادتها السريين.

كان الأخ الأكبر عبد الكريم،البالغ من العمر ستين عاما الآن، يتنقل فى السنوات الأخيرة بين باكستان وإيران عابرا الحدود القبلية فى بالوخيستان إما كمخرب أو مهرب للمخدرات أو لكليهما وهو أمر غير واضح . يبدو أن عبد الباسط كان يسافر بصحبته أحيانا، وأوكلت إليه صحيفة باكستانية باسم – رمزى يوسف – مسئولية تفجير مزار شيعى فى مدينة مشهد (Meshed) الإيرانية فى يونيه عام ١٩٩٤. وأسفر التفجير وقتها عن جرح نحو سبعين شخصا وقتل أربعة وعشرين شخصا على الأقل.

وكما بدأت قصة عبد الباسط فجأة كواحد من أهم المطلوبين فى أمريكا انتهت فجأة. فقد اعترف شركاؤه فى التآمر بتفجير مركز التجارة العالمى عندما تم القبض عليهم باشتراكه معهم، وقام أيضا عملاء إل إف بى آى (F B I) بوضع خطط محكمة للغاية للإيقاع به فى باكستان، إلا أنه يبلغ قبل إتمام الخطة ويختفى إما بين الجماعات السرية فى كراتشى أو عبر الحدود إلى أفغانستان. لم يكن هناك من يعتقد بجدية فى إمكانية أن يقوم واحد من دائرة عبد الباسط بخيانته أو الوشاية به، ولكن هذا ما حدث فى النهاية. فقد قام

عضو آخر من جماعة أبو سياف بخيانته والإيقاع به، وهذا العضو هو طالب دراسات عليا مسلم من جنوب أفريقيا ويدعى اشتياك باركر.

ففى مساء السادس من فبراير عام ١٩٩٥، كانت آخر ليلة قضاها عبد الباسط حرا، فى تلك الليلة قضى عبد الباسط معظم وقته فى غرفته، كان يقوم بصبغ شعره أو فى عمل قنبلتين على الأقل. لو حدث ساعتها ونظر من النافذة لكان من الممكن أن يلاحظ دستة من عملاء ال إف بى آى ومن عناصر الأمن الدبلوماسى التابع لوزارة الخارجية الأمريكية والمخابرات الباكستانية (ISI). كانوا يأملون أن يقودهم عبد الباسط للقبض على باقى أصدقائه. وأخيرا فعل. فعندما كان لا يعمل فى صبغ شعره أو وضع متفجرات فى اثنتين من لعب الأطفال كتدريب لمهارته، كان يتحدث فى التليفون– وكان التليفون الذى بحوزته ليس مجهزا للقيام بمكالمات لمسافات طويلة، لذا فكان عليه أن يتم ذلك عبر استعلامات الفندق، وبمجرد أن يتم الاتصال بالأرقام التى يطلبها عبد الباسط حتى ينطلق واحد من عملاء المخابرات الموجودين بالخارج إلى رواق الفندق والقيام بتسجيل الأرقام. ثلاث من تلك المكالمات التى أجراها عبد الباسط كانت للمدينة الجامعية المجاورة لبيشاور.

فى الوقت الذى وصلت فيه إلى بيشاور، كان خبر اعتقال عبد الباسط والمكالمات التليفونية قد هز المسلحين الإسلاميين المتشددين الذين يعملون تحت الأرض بشدة. أصدرت أوامر بالقبض على اثنين من إخوة عبد الباسط وهما عبد المنعم وعبد الكريم وعلى عمه والذى تعرف إليه البوليس فى بيشاور باسم زاهد شيخ والمدير الإقليمى لوكالة خيرية سويسرية اسمها الرحمة العالمية (Mercy International) والشىء المثير للدهشة أنه لم يأت أحد على ذكر والد عبد الباسط، محمد عبد الكريم، وبدا كأنه قد اختفى فى ضباب الجماعات السرية فى كراتشي.

هكذا انتهت آخر الفصول وأقواها فى محاكمات قضية برج التجارة العالمي، فقد أصدر القاضى كيفن تى دوفى (Kevin T. Duffy)،فى أوائل يناير من عام ١٩٩٨ فى نيويورك، حكما بسجن المدعو رمزى يوسف مدى الحياة فى حبس انفرادى بدون إمكانية احتمال إطلاق سراحه ولو مشروطا. كما تم الحكم على اثنين من معاونيه المتآمرين معه–

وهم باكستانيان وثالث أردنى -فلسطيني- بالسجن مدى الحياة أيضا على دورهم فى تفجير مركز التجارة العالمي، ومؤامرة مانيلا الخاصة بتفجير طائرات أمريكية. أما الثالث وهو والى خان أمين شاه من مقاتلى الجهاد المتمرسين والذى كان قد وصف نفسه بأنه ملازم بن لادن المهم الجاهز للعمليات،فلم يتم الحكم عليه فى ذلك الوقت، لأنه كان قد وافق على التعاون مع المباحث الفيدرالية . فقد كانت لدى رجال المباحث الفيدرالية شكوك بقيام رجال أعمال أغنياء من المملكة العربية السعودية بتمويل بعض أعمال يوسف الإرهابية، ولذا كانوا يأملون أن يكون شاه قادرا على تزويدهم بأدلة وإيجاد رابطة ما بين رمزى يوسف وأسامة بن لادن وتفجير مركز التجارة العالمى[٦]

لمدة أكثر من خمس سنوات فى السجن يظل عبد الباسط لغزا كبيرا مليئا بالغموض والأسرار، فلم يبد ندما على ما فعل وظل جريئا حتى النهاية. وطبقا لشهادة عميل للبوليس السرى بأن عبد الباسط تفاخر أمام رجال المباحث الفيدرالية الأمريكية على متن الطائرة التى أعادته من باكستان إلى الولايات المتحدة بأنه كان يأمل أن يتحقق من تفجير مركز التجارة العالمى : كان يأمل أن يتسبب الانفجار فى انهيار أحد التوأمين على الآخر، وأن ينجم عنه مقتل ما يقرب من مائتى وخمسين ألف شخص- ليجعل الأمريكيين يعرفون أنهم فى حالة حرب وليعاقب الحكومة الأمريكية على دعمها لإسرائيل.

خاطب القاضى دوفى عبد الباسط فى محاكمته قائلا «إنك لست مؤهلا للحفاظ على الإسلام ولست الشخص المناسب للدفاع عن الإسلام» بعد أن قرأ القاضى آيات من القرآن بصوت عال. ثم أضاف القاضى قائلا له: «الموت هو إلهك الحقيقى، وسيدك هو دينك الأوحد، والوحيد، والشىء الشجاع الوحيد الذى فعلته فى حياتك كلها هو القتال فى الحرب الأفغانية».

رفض عبد الباسط أن يدلى بشهادته على عكس شركائه المتهمين أثناء المحاكمات التى دامت لمدة سنة، وكان جالسا وحيدا فى قاعة المحكمة الكائنة فى وسط مانهاتن دون

---

(٦) مسألة إن كان قد قام أسامة بن لادن بضخ أموال للجماعات الإسلامية المسلحة من عدمه، تظل رهن التحقيق من قبل المحكمة الفيدرالية العليا فى نيويورك.

أسرَّة أو أصدقاء. ولم يفصح عن هويته الحقيقية حتى النهاية. ولم يعط أبدا لرجال المباحث الأمريكيين أية توضيحات أو ردود على تساؤلات غاية فى الأهمية عن الذى أرسله من بيشاور إلى الولايات المتحدة عام ١٩٩٢، ومن الذى مول عملياته عندما كان هنا (فى نيويورك). كانت هناك إشارات وتلميحات نحو روابط مع العراق : فقد كان عبد الباسط يحمل جوازى سفر من العراق وادعي، فى نفس الوقت، أنه عراقى الجنسية، وحقيقة أن أحد المشتبه بهم فى عملية التفجير قد «هرب» إلى بغداد، وتاريخ صدام حسين فى تمويل الشبكات السرية غير معروف. وقد كان لدى صدام حسين دافع قوى للتفجير، ألا وهو الانتقام. فقد حدث الهجوم على مركز التجارة العالمى فى الذكرى السنوية الثانية لهزيمته فى حرب الخليج.

بالطبع لم يكن عبد الباسط عراقيا، والرحلات المشكوك فى أن يكون قد قام بها للعراق ليست بالضرورة «رحلات جوية» فعبد الرحمن ياسين، رفيق عبد الباسط وشريكه فى الحجرة فى بروكلين، والذى تم اتهامه بالمساعدة فى خلط المواد الكيماوية المستخدمة فى القنبلة، قد تعاون مع رجال المباحث الفيدرالية الأمريكية إلى حد أنه رافق عملاءها فى رحلة للجراج المحول الذى تم فيه صنع القنبلة، وحتى لو كان مطلوبا الآن من قبل المباحث الفيدرالية فإنها لم تطلب استعادته من بغداد حيث يعيش حرا طليقا فى منزل أسرته.

وماذا عن الذكرى السنوية الثانية لحرب الخليج؟ لقد تم التخطيط لتفجير مركز التجارة العالمى قبل تلك الذكرى بوقت كبير، ولكن مع كل الحوادث المتعثرة التى حدثت لتلك المجموعة المختلفة المتنافرة، بما فيها اصطدام سيارة سلامة وتحطمها، فقد عطلت تلك الحادثة تنفيذ العملية لأكثر من أسبوعين على الأقل، مما خيّب أمل رجال المباحث وجعلهم يعترفون أنه ليس ثمة علاقة بين التفجير والذكرى السنوية. وتبدو العلاقة العراقية بالموضوع مجرد شكوك ليس لها ما يدعمها، وكان هذا اعتقاد المباحث الفيدرالية على أساس أن مفتاح اللغز الأهم فى ذلك التفجير يقع فى بيشاور، وبين الجماعات السرية الإسلامية المسلحة المتشددة من أولاد الجهاد. كان صدام حسين، وهو واحد من أكثر القادة العرب علمانية، قد نأى بنفسه عن تلك الحرب بوضوح وجلاء.

وحيث إن كلا من الجماعتين التى ارتبط بهما عبد الباسط ووالده -وهما التحالف الإسلامى تحت قيادة سياف وجماعة ال (SSP) الكارهة للشيعة-حاربت فى معارك الجهاد وتلقت أموالا طائلة من السعودية، لذا فقد سألت أحد القيادات فى المباحث الفيدرالية ما إذا كان يعتبر أنه صحيح أن التمويل السعودي، حتى ولو كان غير مباشر، قد مكن عبد الباسط من تصنيع قنبلة مركز التجارة العالمي؟ تجهم قليلا ثم أجاب: « لو حدث وأن ووجد هناك دليل على أن واحدة من أكبر حلفائنا، التى من أجلها ذهبنا بجنودنا وخضنا حروبا وضحينا بأرواح أبنائنا، لو وجدت ثمة علاقة ولو طفيفة بين تلك الحكومة وما حدث، فأستطيع فقط أن أخبرك أنها ستدفع ثمنا غاليا».

فى يناير من عام ١٩٩٦، تم الحكم على الشيخ عمر عبد الرحمن بالسجن مدى الحياة بسبب التآمر والتحريض على شن «حرب إرهاب المدن ضد الولايات المتحدة»، والتحريض على اغتيال الرئيس مبارك أثناء زيارته نيويورك وتفجير معالم نيويورك البارزة. لم يتم تقديم الشيخ للمحاكمة على خلفية تفجير مركز التجارة العالمى على الرغم من تشديد ممثلى الادعاء أن التفجير كان جزءا من المؤامرة. ولكن بدلا من ذلك تمت محاكمة الشيخ تحت قانون نادرا ما يتم استخدامه وكان قد تم تشريعه بعد الحرب الأهلية: وقد بنى ممثلو الادعاء قضيتهم حول النية لشن حملة عامة من الرعب والإرهاب ضد الحكومة الأمريكية. قال لى أحد المحققين الأمريكيين فى ذلك الوقت: إنه ربما كان من المستحيل إدانته سوى بهذا التكييف القانوني. فلمدة ثلاث سنوات من التحريات فشلت المباحث فى إيجاد الدليل على وجود علاقة أو رابطة بين الشيخ عمر، وذلك الغريب الملغز الذى وصل من بيشاور ليقوم بصنع القنبلة التى فجرت مركز التجارة العالمي، فيما عدا حقيقة أن عبد الباسط جند أتباع الشيخ عمر، وأن كلا الرجلين قدم خدمات لمصالح الولايات المتحدة خلال الجهاد فى أفغانستان.

بعد إدانة الشيخ والحكم عليه بعدة شهور، قام محامو الشيخ باستئناف الحكم. وبعد ذلك أقاموا دعوى ضد حكومة الولايات المتحدة على الظروف التى تم احتجاز الشيخ فيها. فمنذ ربيع عام ١٩٩٧، يقبع المرشد الروحى للجماعة عمليا وواقعيا فى محبسه الانفرادى

لمنعه من الاتصال بأتباعه وأنصاره. من بين الشكاوى المحددة التى أوردها الفريق القانونى المدافع عن الشيخ بأن المسئولين فى السجن جردوا الشيخ من بوصلته العربية (يقرأها بطريقة برايل) ومن ساعته. ونتيجة لذلك لم يتمكن الشيخ الضرير من معرفة توقيتات اليوم ولا وجهة مكة التى يجب أن يولى وجهه نحوها للصلاة.

كان الشيخ عمر قد أخبرنى قبل بدء محاكمته بيوم قائلا: «لست متآمرا وليس من المعقول إطلاقا أن أتآمر لتفجير مدينة قد اخترت أن أعيش فيها. سأخبرك من هو المتآمر الحقيقي: إنه الحكومة الأمريكية وخاصة جانيت رينو (Janet Reno). يجب أن تخجل من نفسها. فهى تعرف حق المعرفة أنه عندما ذهب السيناتور ألفونس ديماتو (Alfons D.Amato) قبل أن تحتجزنى بثمان وأربعين ساعة، فى صيف عام ١٩٩٣، وطلب منها توجيه اتهام لى ومقاضاتى ردت عليه قائلة: إنها لاتجد ما يكفى من الأدلة لاعتقالى، دعك من توجيه تهم أو مقاضاة».

لوَّح الشيخ بيديه فى الهواء. وقد كان جالسا على كرسى معدنى فى حجرة صغيرة مخصصة للزيارة فى مركز العاصمة الإصلاحى فى مانهاتن. كان بصحبتى فى الزيارة وليام كونستلر، وهو أحد محاميه ومترجمى الصبور أحمد ستار، كان الشيخ يرتدى قميص السجن الأخضر وسروالا من نفس اللون. كان يضع على رأسه غطاء الرأس الأبيض وكانت تغطى عينيه نظارة سوداء سميكة كعادته. كانت تحيته لى حارة وودودًا، ولكنه أوضح منذ البداية أنه لن يتطرق فى حواره معى لا إلى التسجيلات التى قام بها مخبر سرى للمباحث الفيدرالية على هاتفه، والتى كانت محور وبؤرة قضية الحكومة ضده ولا أى دليل يمكن أن يقدم فى محاكمته.

شرب الشيخ مشروبه وهو (كوكاكولا دايت) وأردف قائلا: إنه فى الأيام التى سبقت توجيه الاتهام إليه فى أغسطس من عام ١٩٩٣، كان محاميه لشئون الهجرة يتفاوض مع مكتب المدعى العام الأمريكي: إذا تم إطلاق سراح الشيخ وخرج من السجن، حيث إنه كان محتجزا بسبب قضية تخص شئون الهجرة من النواحى الفنية، وتم السماح له بالمغادرة إلى أفغانستان، سيقوم بإسقاط طلب اللجوء السياسى الذى كان قد تقدم به ويعيد الجرين

كارد (تصريح الإقامة الدائم فى الولايات المتحدة) الذى سمح له بالبقاء فى الولايات المتحدة. ولكن عندما علمت الحكومة المصرية بأمر المفاوضات، قام المسئولون فى القاهرة «بممارسة الضغط على واشنطن وخضعت السيدة رينو لتلك الضغوط ببساطة شديدة».

ولأننى لم أكن أعرف ما إذا كنت سألتقى والشيخ مرة أخرى أم لا، أو متى سأراه مرة أخرى، فقد سألته عن أهم شيء كان بالنسبة له فيما يخص الجهاد فى أفغانستان. كان بعض من أصدقائه قد أخبرونى أن الأمر كان بمثابة تنفيس له. « قال الشيخ» عندما نهض الأفغان وأعلنوا الجهاد -وكان الجهاد ميتا لفترة طويلة- لا أستطيع أن أخبرك كم كنت فخورا . فلم يعد الجهاد فى القرآن فقط. بل كان هناك فى ساحات القتال. وكم كان إحساسى بالفخر والاعتزاز عندما استطاع المجاهدون إخراج السوفييت خارج أفغانستان». وابتسم الشيخ.

عندما وصل الشيخ عمر عبد الرحمن إلى أمريكا كان مصطفى شلبى هو الذى يقوم على رعايته، ومصطفى شلبى هو الذى كان يترأس مجهود الجهاد الخاص بالشيخ عزام فى الولايات المتحدة من مركز الكفاح للاجئين فى شارع أتلانتيك فى بروكلين. ولكن الرجلين اختلفا بعد أن تم اتهام شلبي، بواسطة مسئولين فى مسجد الفاروق فى بروكلين، بقيامه باختلاس نحو مليونى دولار كان قد جمعها لمتطوعين عرب كانوا يقاتلون فى أفغانستان. (فى مارس ١٩٩١ تم العثور على شلبى مقتولا فى شقته فى بروكلين، وظل مقتله جريمة غامضة حتى الآن). سألت الشيخ ما إذا كان قد أدان شلبى واعتبره مسلما سيئا. استنفر سؤالى الشيخ بوضوح ورد قائلا «لا. لم أفعل».

سألته « هل تم قول ملاحظات أو تعليق ملصقات بشأنه فى المساجد؟ هل تم إصدار فتوي»؟

أجاب الشيخ «لا. لم يكن هناك أى شيء على الإطلاق». ولم تكن لدى الشيخ رغبة أن يقول شيئا بخصوص مصطفى شلبي، لذا انتقلت إلى أرض أكثر أمنا.

سألته «ما الذى جعلك أصوليا متطرفا؟».

بدا سؤالى وكأنه أراحه إلى حد ما وأجاب قائلا: «أخمن أن هذا بدأ عندما رأيت الظلم يحيطنى فى مصر أيام حكم عبد الناصر، بما فيها محاولات النظام لمنعى من الحصول على

درجة الدكتوراه. بعدها أتت فترات الاحتجاز والاعتقال والسجن» – أطولها من ١٩٨١ وحتى ١٩٨٤عندما تم اتهامه بالتآمر للإطاحة بالحكومة وإصداره فتوى نجم عنها اغتيال الرئيس السادات.

سألت الشيخ عمر ما إذا كان قد تم تعذيبه خلال سنوات السجن؟

أجاب «بطرق كثيرة، على الأقل تم استخدام عشر طرق مختلفة لتعذيبي، من بينها تعليقي فى سقف الحجرة من كاحل القدم والضرب بالعصى والصعق بالكهرباء . وهناك أشياء أخرى من غير المستحب ولا اللائق عندى أن أناقشها فى حضور سيدة. الشيء المهم هنا هو فى كل من القاضيين (فى محاكمات الاغتيال والتآمر) كانا قادرين على إثبات أن التعذيب قد وقع بالفعل، وأدان القاضى، الذى حاكمنى بتهمة التآمر على الحكومة المصرية، التعذيب الذى لاقيته على يديها».

فكر للحظة واستمر قائلا: «ومع ذلك، ورغم كل هذا –وكل تلك الوثائق القضائية المصرية التى بحوزة مصلحة شئون الهجرة الأمريكية الآن– فلم تزل الحكومة الأمريكية لا تصدق أنه سيتم اضطهادى لو عدت إلى مصر ولا أننى أستحق اللجوء السياسى للولايات المتحدة[٧]».

وللحظة لم ينبت أى من الموجودين ببنت شفة.

لم أكن متأكدة على الإطلاق عما أتوقعه من زيارتى للشيخ عمر فى محبسه هذه المرة. كنت قد علمت أن الشيخ عمر يعانى مزاجا متقلبا بصورة مأساوية فى الشهور التى تمهد لمحاكمته، وكان مبعث ذلك الإجراءات، وحقيقة أنه، رغم كونه معتادا على الحياة وراء القضبان، حيث إنه قضى نحو سبع سنوات إما داخل السجون المصرية أو رهن الإقامة

---

(٧) من بين الوثائق التى كانت بحوزة مصلحة شئون الهجرة الأمريكية، حكم محكمة القاهرة بتعويض الشيخ عمر بمبلغ سبعة عشر ألف جنيه مصرى عن فترة سجنه، والتعذيب الذى تعرض له. فى عام ١٩٩١، فى القضية رقم١٠٥٠٥ / ١٠٣٨٦– ١٠٥، ضاعفت محكمة استئنافية هذا المبلغ. كان حكم المحكمة هذا والشهادات التى تم الإدلاء بها فى محاكمات الشيخ بحوزة الحكومة الأمريكية.

الجبرية، فإنه لم يحدث مرة أن تم حبسه انفراديا من قبل أو أن تم حجزه فى مكان لا يتحدث فيه اللغة أو حيث يتم منعه بصورة صارمة من تناول أية حلوى، كما فعل معه رجال المباحث الفيدرالية، حيث أصدروا أوامر مشددة للمسئولين فى السجن بعدم السماح له بأكل الحلوي. (وقد كانت لدى الشيخ عادة قاتلة فى كونه كان محبا جدا لأكل الشيكولاته رغم أنه مريض بداء السكري، مما كان يجعله مريضا بصورة متزايدة، كل ذلك لم يمنعه من تناولها بأى شكل).

ولكن بينما كان حديثنا يتطور ويأخذ أبعادا أخرى كان الشيخ كعادته دائما ما يثبت أنه خبيث وماكر.

وحيث إنه لم يتم السماح لى منذ البداية فى الخوض فى الحديث عن أى شىء له علاقة بمحاكمته بتهمة التآمر، لذا فقد سألت الشيخ عمر ما إذا كانت هناك ثمة علاقة بين الجهاد فى أفغانستان وما يحدث الآن فى مصر والجزائر، حيث تكثف الجماعات الإسلامية المسلحة من حملتها للسيطرة على الحكم فى تلك البلاد التى يقوم الجيش فيها بدعم الحكومة.

أجاب الشيخ دون تردد قائلا: «بالتأكيد، تلك الأعمال مرتبطة تماما بلا أدنى شك». مال الشيخ بكرسيه إلى الوراء وبدأ يتأرجح ويهتز قليلا، كانت لحيته البيضاء تستريح على صدره.

وعندما هممت بالمغادرة، سألت الشيخ عمر كيف يشعر الآن بعد كونه قد عمل بجانب حكومات مصر والولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية فى أفغانستان، وها هو يواجه الآن تهما فى الولايات المتحدة يمكن أن تنتهى به للسجن مدى الحياة. كما أن الكثير من أتباعه فى مصر والسعودية، ممن قاتلوا فى الجهاد تمت محاكمتهم وتم إيداعهم السجون وتم إعدام عدد منهم فى مصر لا لشىء سوى أنهم شاركوا فى هذه الحرب.

رد الشيخ قائلا: «لدينا مقولة فى مصر تقول: كل يغنى على ليلاه، ومعنى المثل أن كل شخص يغنى على شىء مختلف عن الآخر. وهذا هو ما حدث فى أفغانستان. هل تعتقدين أننا سذج بدرجة كافية لنصدق أن الولايات المتحدة كانت تساعد الأفغان، لأنها كانت تؤمن

بقضيتهم وعدالتها، لترفع راية الجهاد وراية الإسلام؟ إنهم كانوا يساعدون الناس والدولة لتحرر نفسها؟ بالتأكيد لا. فقد كان الأمريكان هناك لمعاقبة الاتحاد السوفيتى وعندما أيقنوا وتأكدوا أن الاتحاد السوفيتى كان يعانى وأنه أوشك على الانهيار، توقفوا عن كل شىء، كل المساعدات والمعدات والتجهيزات، تماما هكذا». وطرقع بأصابعه وبدأ صوته يعلو: « لم يهتموا بأنه كانت لم تزل هناك حكومة شيوعية فى السلطة فى أفغانستان. ولكنهم ببساطة أداروا ظهورهم وابتعدوا. والسعوديون وآه من السعوديين، والمصريون فعلوا نفس الشىء بدقة متناهية. وقد أخذ الأمر من المجاهدين ثلاث سنوات للإطاحة بنظام حكم نجيب الله. وتم فقدان آلاف الأرواح: وتم تدمير المحاصيل والرزق والمعيشة. ولكن كل هذا لايمثل شيئا ولا يعنى شيئا لا للسعوديين ولا للمصريين ولا للولايات المتحدة».

وضع يديه على الطاولة التى كنا نجلس حولها، كما لو كان يريد تثبيت وتقوية ودعم نفسه وقال: «يجب أن تفهمى أن المصريين والسعوديين استخدموا تلك الحرب للتخلص من مشاكلهم الخاصة داخل بلادهم. كانوا يرسلون هؤلاء الشباب للحرب كحطب للنيران بدون تدريب وبدون فهم لما كانت تعنيه الحرب . لقد قالوا فى أنفسهم دعنا نتخلص من هذا الصداع ونرسلهم للجهاد ليتم قتلهم هناك».

صمت الشيخ كما لو كان يفكر ما إذا كان عليه التوقف أم الاستمرار. ثم قال: « لذا فإن ما تفعله الآن الحكومة الأمريكية والمصرية والسعودية لا يوجد به ما يثير الدهشة. ففى الواقع هذا ما كنا نتوقعه. ولكن ما يزعجنى ويجعلنى أشعر بالمرارة نحو الموضوع برمته هو عندما يكون هناك شخص قد قام عن طيب خاطر، وبرغبة جارفة بالتضحية بنفسه وسفك دمه من أجل الحق والحرية، ويطلق عليه اسم مجاهد، وعندما تنتهى الحرب يتم وصمه بالإرهابي.

المـــرتد

الدكتور نصر حامد أبو زيد، أستاذ جامعي أصلع في منتصف العمر، خجول ومنطو على نفسه أيضا. لا يبدى الدكتور نصر حامد أبو زيد اهتماما كبيرا بصحته ولا بمظهره، فهو شخص متواضع وبسيط جدا في كل شيء إلا فيما يخص علمه وثقافته. والأستاذية هي اللقب الإجمالي الذي تمت نسبته إليه من أصدقائه المصريين. كانت حياته جيدة التنظيم، لاتنبىء إلا بالقليل. فقد قضى الدكتور الخمس والعشرين سنة الأخيرة من حياته، كطالب في البداية، ثم كأستاذ للدراسات الإسلامية في جامعة القاهرة، التي يذهب إليها كل يوم في سيارته الفولكس فاجن البالية من شقته الصغيرة التي تحوى غرفة نوم واحدة في الضواحي على بعد نحو ساعة. كان نصر حامد أبو زيد قد تزوج، متأخرا الى حد ما، من زميلته ابتهال يونس وهي استاذة جامعية – في أبريل من عام ١٩٩٢، وكان عمره يناهز التاسعة والأربعين. كانت زوجته تصغره بخمسة عشر عاما وهي سيدة رشيقة وجذابة وحادة في الرأى وصريحة: وقد كانت كثيرة السفر والترحال لأنها ابنة دبلوماسي مصرى وهي أستاذة للأدب الفرنسي والإسباني وكاتبة ومناضلة نسائية. عاش الزوجان في هدوء في شقتهما التي تملؤها الفوضى وعدم الترتيب، تلك الشقة العامرة بالكتب والأثاث والآنية الخزفية والسجاد والصور العائلية. ملصقا على باب الثلاجة رسما لدون كيشوت محملقا لأسفل وأمامه مباشرة نقوش قرآنية من أيام طفولته في إحدى قرى الدلتا معلقة بعشوائية إلى حد ما على الحائط.

على مر السنين، كانت دراسات أبو زيد المتعمقة والمتبحرة في الإسلام والقرآن، حيث يتجادل ويتباحث ويري، لم يختلف في ذلك عن مفكرى الإسلام العقلانيين في القرن التاسع عشر. إن النصوص الإسلامية المقدسة يجب أن يتم تفسيرها في السياق التاريخي

واللغوى للعصر التى نزلت فيه، وأنه يجب على التفسير أن يأخذ التغير الاجتماعى بعين الاعتبار، وقد تم نشر هذه الأفكار فى اثنى عشر كتابا، كأبحاث ورسائل جامعية لا تتم قراءتها على نطاق واسع خارج النطاق الأكاديمي. وكان الرجل ليبراليا سياسيا رغم أنه ليس من النوع المتحمس فى هذا الاتجاه. فقد كان قد قرأ أرسطو وابن رشد و«كانت: Kant» وماركس وأنجلز، ولكنه كأستاذ وباحث إسلامى فقد قضى معظم حياته تقريبا فى دراسة القرآن الذى كان قد أتم حفظه عندما كان طفلا فى كتاب القرية. كل ما يحيط بشخصيته ليس فيه شيء غير عادى مما يلفت النظر.

فلم يكن نصر حامد أبو زيد معروفا خارج الدائرة الأكاديمية حتى محاكمته.

وقد بدأت الحكاية برمتها فى عام ١٩٩٣- ثلاث محاكمات فى محاكم عليا، بلغت ذروتها، قبل أن يبدأ الاستئناف، فى أغسطس عام ١٩٩٦ أمام محكمة النقض. وهى محكمة مصرية تعادل المحكمة العليا (the Supreme Court) فى الولايات المتحدة.

وكعادته دائما استيقظ أبو زيد مبكرا هذا اليوم: كان ذلك فى مايو من عام ١٩٩٣، كما أخبرنى فيما بعد، ولا يتذكر أن هناك شيئا له أهمية خاصة يفترض حدوثه ذلك اليوم. جلس يطالع الصحف بينما كان يرتشف كوبا من الشاى كعادته كل صباح. وفجأة توقف، كما قال «مصدوما مذهولا مرتابا» بدأ يقرأ فى البداية عن دعوة مقامة ضده تطالب بتكفيره واعتباره خارجا عن الدين، وكانت بارزة ومفصلة فى الصحف المؤيدة للإسلاميين. قال أبو زيد : ببساطة لم أستطع أن أصدق أى شيء من ذلك: ولم يستطع أحد منا تصديق ذلك. ذهب أحد أصدقائى إلى المحكمة لتحرى الأمر والاستفسار عنه. وعاد مشدوها ومذهولا وقال لى «إن الموضوع حقيقة والأمر جد خطير وما يجب عليك فعله الآن هو أن تبحث لك عن محام».

بعد أسابيع قليلة وأمام محكمة الجيزة الابتدائية، وهى محكمة مدنية على الضفة الغربية من نهر النيل، لا تبعد كثيرا عن جامعة القاهرة وتحت ظلال مسجد يرجع للقرن الثالث عشر، بدأت محاكمة نصر حامد أبو زيد. وهناك تم إجباره على الدفاع عن براءته ضد اتهام كاسح لم يكن باستطاعته ولا بقدرة محاميه أن يفهمه أو يستوعبه. فقد بدا الأمر وكأنه ضد كل القوانين المصرية والسوابق القانونية. فهناك تمت مواجهته بأناس

لم يعرفهم من قبل، يوجهون إليه تهما، أناس لم يقرأوا كتبه ولكنهم ورغم ذلك فهم يتهمونه بأنه صار مرتدا وأنه خرج عن إيمانه بالإسلام. هناك حضرته ذكرى مناقشة وجدال أكاديمى قبل عقد من الزمان مع خصم مجادل ومفكر عنيد وناقد لاذع، هو الدكتور عبد الصبور شاهين، المدعى الرئيسى فى القضية، الذى كان يطالب بطرده من الجامعة ومنعه من التدريس وحرق كتاباته. ومن هناك أصبح سجينا فعليا فى شقته الصغيرة حيث إن الحكومة وضعت حراسة مسلحة تمركزت فى محيط المنطقة التى يقطنها .

لأنه وبعيدا عن قاعة المحكمة والمحاكمة فقد طالب خطباء المساجد المعينون من قبل الحكومة والمساجد الأهلية بقتل الدكتور نصر حامد أبو زيد، وذلك عبر القاهرة كلها فى صلاة الجمعة. كان أعداؤه يصرخون «مرتد»، مدعومين من قبل المؤسسة الحكومية الأقوى وهى الأزهر، الذى كان رجاله بجببهم وقفاطينهم وطرابيشهم وخلال أيام المحاكمة يدخلون ويخرجون إلى قاعات القضاة ويمشون فى صمت فى صفوف وجماعات، كما لو كانوا يؤدون تدريبا عسكريا سريًا»، «Repent استتب!، استتب!، استتب!» أخبرنى أبو زيد أن تلك الكلمات ظلت ترن فى أذنيه.

وبينما كان أبو زيد فى انتظار حكم المحكمة، فقد كان من أكثر المظاهر المحيرة فى قضيته هو أنه لا يوجد فى مصر قانون للردة، لذلك جرت محاكمته فى محكمة الأحوال الشخصية المختصة بشئون الميراث والنفقة والطلاق وحضانة الأطفال وما شابه ذلك من القضايا التى يتم البت فيها طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية. ومن المعروف أن الإسلام لا يبيح للمسلمة الزواج بمن يخالف دينها وعقيدتها . ومعنى هذا إذا تمت إدانة كتاباته، من قبل المحكمة وتم الحكم بتكفيره فسيكون زواجه باطلا أو يتم الحكم بالتفريق بينه وبين زوجته.

وقد وضع هذا الأمر موضع التطبيق حين تم رفع قضية التفريق بين أبو زيد وزوجته. لم تكن الزوجة هى صاحبة الدعوي، تلك الزوجة التى ظلت مخلصة له، ولكن عن طريق مجموعة من الإسلاميين المتشددين الذين أقاموا الدعوى لصالحها وبدلا عنها، بدون علمها فى البداية وبدون موافقتها فيما بعد. (دافع المحامون بأنه وحيث إن ابتهال امرأة مسلمة، فمن واجبهم الدينى الدفاع عنها، حتى ولو كان هذا الدفاع ضد رغبتها). كان المحامون-

وجميعهم تقريبا من الإسلاميين تلاميذ الشيخ عبد الصبور شاهين - يقودهم شيخ متزمت ومتشدد وعضو برلماني سابق هو يوسف البدري، الذي كان إماما لمسجد باترسون في نيو جيرسي في الفترة ما بين ١٩٩٢ وبداية ١٩٩٣. بنى المحامون دعواهم على أساس مبدأ مبهم وغامض ونادرا ما يتم استخدامه منذ القرن التاسع، وهو مبدأ في الشريعة الإسلامية يسمى الحسبة. (وطبقا لقانون الحسبة يمكن لأي مسلم أن يقيم دعوى إذا رأى أن الإسلام يتعرض لأي أذى حتى ولو لم تكن له شخصيا علاقة مباشرة بالموضوع) دافع محامو أبو زيد أنه منذ أن تم إلغاء المحاكم الشرعية سنة ١٩٥٥، لم يعد للحسبة وجود في القانون المصري. هذا بالرغم من الجدال والخلاف على التعديلات الدستورية ١٩٨٠، التي لم يتم اختبارها وفحصها على نطاق واسع -بخصوص التنازل الذي قدمته حكومة السادات للإسلاميين- الذي جعل الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع. كان الدفاع واثقا جدا من النصر وكسب القضية لصالحه. فقد كان قد مرت عشرات السنين، منذ أن تمت إثارة قضية الحسبة في محكمة مصرية، وقد اعترف بعض محاميي الدفاع أنه قبل تلك القضية لم يسبق لهم أن سمعوا بكلمة الحسبة. وبالفعل أيدت المحكمة الابتدائية موقفهم في يناير ١٩٩٤. وتم إنقاذ أبو زيد ولو بصورة مؤقتة، لأن هذا الإنقاذ لم يدم طويلا.

حيث قام فريق شاهين والبدري باستئناف القضية، وفي يونيه عام ١٩٩٣ تحققت أسوأ أحلام أبو زيد. ففي حكم غير مسبوق ارتأت محكمة استئناف القاهرة أن نصر حامد أبو زيد بنشره لوجهة نظره من أن الدلالات القرآنية المؤكدة عن الملائكة والشياطين، وعن عرش الله لا يجب أن يتم النظر إليها والتعامل معها بصورة حرفية، ولكن على سبيل المجاز والاستعارة، يكون قد أنكر بذلك حقيقة أن القرآن كلام الله المنزل على رسوله: وأنه بتحديه ومحاولته نقض أساس عقائدي مؤكد في الشريعة الإسلامية -بصورة خاصة- حقيقة أن للذكر مثل حظ الأنثيين سواء فيما يخص الشهادة في المحكمة أو في الميراث -فإنه يكون أبو زيد قد دعى بالفعل المسلمين وحرضهم على الابتعاد عن صحيح دينهم وهجر شريعتهم الدينية الإسلامية. وتجاهلت المحكمة تماما حقيقة أنه ليس لديها تشريع أو قانون للحكم بردة أي شخص، ولكن بصورة مخالفة للقانون، رأى القضاة الثلاثة أن كتابات أبو زيد

وحدها وبما تحمله وتحويه تدل بما يدع مجالا للشك أنه مرتد. وأعلنوا أنه قد أدان نفسه وحكم على نفسه. وأعلنت المحكمة فوق كل ذلك أنه فقد الحق بالزواج من امرأة مسلمة وأمرت المحكمة أبو زيد بتطليق زوجته السيدة ابتهال.

فى أغسطس من عام ١٩٩٦ أيدت محكمة النقض، وهى أعلى محكمة فى مصر، هذا العبث رغم كون أبو زيد وإبتهال يعيشان معا حياة زوجية سعيدة، فى حكم غير مسبوق فى العالم العربى أيدت محكمة النقض ما حكمت به محكمة الاستئناف. وقد ذهبت المحكمة لأبعد ما يمكن أن تذهب إليه محكمة دينية إسلامية، وتجاوزت اختصاصاتها فى الحكم من حيث الشكل وليس المضمون، فقد حكم خمسة مستشارين؛ أنه على الرغم من أن الدستور قد كفل حرية العقيدة، فإن هناك فرقا بين الإيمان فى القلب والإيمان الذى تتم المجاهرة به. وأن أبو زيد فى كتاباته كان قد عبر هذا الخط، تلك الكتابات التى تم حظر تدريسها فى جامعة القاهرة الآن.

مكث حامد أبو زيد وزوجته السيدة إبتهال حبيسيْن فى منزلهما ولمدة أربعين يوما بعد صدور الحكم: فلم يكن مسموحا لهما بالخروج وذلك بأمر من حراسهم الأمنيين. ولكن ذات يوم أصر أبو زيد على الخروج وأن يتم السماح له بالذهاب إلى جامعة القاهرة ليترأس لجنة مناقشة رسالة أحد الطلاب . وكانت تلك هى المرة الأولى والاخيرة.

قال لى أبو زيد واصفا ذلك اليوم عندما التقيته: «كنت محاطا بسيارات الشرطة طول الطريق. وكان معى حارس شخصى فى سيارتي.عندما وصلنا إلى الجامعة تم إغلاق الحرم الجامعى كله. كانت الكلاب البوليسية فى كل ركن. شعرت وكأنى أدخل إلى قبرى وليس لجامعتي. كان هناك تفتيش وفحص إلكترونى عند البوابة الرئيسية وتم تفتيش الداخلين جميعا وبدون استثناء. لا أستطيع أن أصف لك كم كنت مستاء، وكم شعرت بالفظاعة والخوف». حينها أدرك أنه لن يستطيع العودة مرة أخرى إلى جامعة القاهرة».

وأدرك جيدا المخاطر التى تنطوى على إثارة أو إغضاب المؤسسة الدينية المصرية القوية. فبعد ستة أيام من حكم محكمة الاستئناف تقدم مجموعة من علماء الأزهر بطلب للحكومة من أجل تنفيذ «العقاب الشرعى على الردة» لإجبار أبو زيد على الاستتابة. هذه العقوبة طبقا للمذهب الأصولى للشريعة الإسلامية هى القتل.

وهكذا من الواضح أنه بين عشية وضحاها أصبح الأستاذ الجامعى المقل بطبيعته فى السفر الذى لم يغادر مصر سوى مرتين طوال حياته، أحدث ضحايا عدم التسامح الديني، مهددا ليس فقط من جانب الإسلاميين المتشددين ولكن يأسا من حكومة مدنية فشلت فى أن تتحرك وتقول ما تود حقا قوله. وأثناء الليل هرب أبو زيد وزوجته إلى هولندا للتدريس فى جامعة ليدن خوفا على حياتيهما.

بحلول مايو عام ١٩٩٨، كان الإسلاميون قد أقاموا ثمانين دعوة قضائية ضد الحكومة المصرية والفنانين والمفكرين والأكاديميين ورجال الصحافة، فى لهاثهم خلف تطبيق الشريعة الإسلامية. لم تكن القضايا فى حد ذاتها مثيرة للخوف والقلق، ولكن المثير كان الأحكام : فقد كسب الإسلاميون معظم القضايا التى أقاموها رغم نظرها جميعا أمام محاكم مدنية، فإنهم ربحوا القضية تلو الأخري. فقد نجحوا فى حظر عرض أفلام، ومراقبة الكتب والمناهج الدراسية ورفض ونقض حظر حكومى لختان الإناث مدعين أن هذا الحظر مناف للإسلام. ورغم أن حكمها تم إلغاؤه وإسقاطه فى الاستئناف فإن محكمة مدنية فى القاهرة وافقت عليه. وقتها شعر الجميع -الحكومة والمحامون العلمانيون والقضاة وحتى الإسلاميون المعتدلون- بصدمة شديدة.

ظهر واضحا وجليا لكل ذى عين تبصر ولكل أذن تسمع، أنه قد تم تحويل ساحات المحاكم المصرية إلى ساحات قتال جديدة بين الإسلاميين والدولة، واتفق كل من تحدثت إليهم خلال صيف عام ١٩٩٧، أنه ما كان لكل ذلك أن يحدث لولا محاكمات أبو زيد. كانت الدعاوى القضائية الثلاث التى أعقبت ذلك تمثل نقطة تحول كبيرة. لم يكن هذا لكونها أسست سوابق قانونية أو أنها جعلت إمكانية تقديم الكتاب والمفكرين والمخرجين والوزراء للمحاكمة شيئا عاديا ومقبولا، بل لأن ساحات المحاكم المصرية قد تحولت إلى محكمة تفتيش إسلامية جديدة، تلك الإمكانية التى كانت صادمة لحسنى مبارك وحكمه المدعوم من الجيش. ولكن ربما كان المثير للمخاوف الكثيرة هو أن محاكمات أبو زيد لم يتم البدء فيها ولا التخطيط لها وهندستها عن طريق الإسلاميين المتشددين المسلحين الذين أقاموا فى بيشاور وأفغانستان، ولكن عن طريق الإسلاميين المعتدلين بمن فيهم أحد كبار المستشارين

الدينيين للرئاسة، وعن طريق شيوخ معينين من قبل الحكومة فى الأزهر الذى يدار من قبل الدولة.

وجد الكتاب والمخرجون والروائيون والشعراء، الذين لا حول لهم ولا قوة، أنفسهم محصورين بين مطرقة الإسلاميين من جانب وسندان الحكومة من الجانب الآخر، وخاصة من شيوخ الأزهر، الذين كانت آراؤهم الغاضبة عالية الصوت، بينما حاولوا توجيه الإبداع الفكرى والفنى. مما يثبت أنهم كانوا متساوين فى وحشيتهم مع الكثير من الإسلاميين المتشددين . كانت معركة أكثر خبثا وبراعة من تلك المعارك الطاحنة التى تم خوضها بين جيوش مبارك وجيوش الشيخ عمر عبد الرحمن، ولكنها كانت مثلها، معركة بلا خطوط أمامية، حيث يمكن أن يتم استهداف أى شخص فى أى وقت.

ومع ذلك بدت حكومة مبارك –التى كانت بالفعل قد خصت الأزهر بسلطة واسعة لم يتمتع بها فى أى وقت مضى من هذا القرن– أكثر رغبة للخضوع للمشايخ، فبينما استمرت فى تغيير الاتجاه بين قمع الإسلاميين وبين حملتها المنظمة والقصيرة النظر جدا لكى تبدو هذه الحكومة وكأنها أكثر إسلاما من النشطاء الإسلاميين أنفسهم.

تم الزج بالآلاف من الإسلاميين فى السجون –طبقا لمعظم التقديرات يزيد عددهم على عشرين ألفا– بعضهم ليسوا من المسلحين،حيث يتم تعذيبهم فى السجن وقد لقى ثلاثون منهم على الأقل حتفهم: وكانت دائرة الاعتقالات قد اتسعت لتشمل نحو ألف من المهنيين من جماعة الإخوان المسلمين، بالإضافة إلى القادة المؤسسين والمناصرين لحزب الوسط الوليد والذى تم حظره، وهم جماعة من المهنيين الشباب الذين انشقوا عن جماعة الإخوان. (كان حزبا حديثا حيث لم يكن أعضاؤه من الإسلاميين فقط ولكن كان من بينهم يساريون وأقباط مسيحيون أيضا). تم القبض عليهم جميعا فى التمهيد للانتخابات البرلمانية التى شهدتها البلاد عام ١٩٩٥، والتى كانوا ينوونُ التنافس فيها، تلك الانتخابات التى أدانتها منظمات حقوق الإنسان ووصفتها بأنها انتخابات «مزورة وغير عادلة بصورة كبيرة»، وهو رأى اتفقت معها فيه المحاكم المصرية التى أصدرت أحكاما ببطلان أكثر من خمسين بالمائة من نتائجها. كانت المحاكم العسكرية السرية الخاصة (التى وصفتها منظمة العفو

الدولية بأنها محاكم غير عادلة بالمرة والتى ليس هناك استئناف لأحكامها) قد أصدرت أحكاما على مائة شخص تقريبا بالإعدام شنقا وتم شنقهم جميعا تقريبا. وطبقا للمحامين الإسلاميين فقد تم انتزاع اعترافات منهم بقيامهم بأنشطة وأعمال مسلحة تحت التعذيب، الذى يمثل الآن جزءا لا يتجزأ من السياسة الرسمية.

ولكن بنفس القسوة التى انتهجها حكم الرئيس مبارك فى التعامل مع الإسلاميين المسلحين، فإنه استمر فى تجاهل التأثير الإسلامى فى تلك الأماكن التى ربما كان له الأثر الأعظم على المجتمع. فعجز النظام أو عدم رغبته فى التعامل بجدية مع التحديات الهائلة التى كان يمثلها الإسلاميون أو التى فرضوها: ورفضه أن يفتح الساحة السياسية لأصوات أخرى غير صوته: فتجاهله للقيم الأخلاقية الأساسية وبصورة صارخة لحقوق الإنسان، اتحدت تلك الأشياء جميعها لخلق جو جعل محاكمة أبو زيد ليست ممكنة فقط بل وحتمية.

لم تكن تلك المحاكمات صادمة للمفكرين المحاصرين بصورة متزايدة فقط، ولكنها أزعجت الإسلاميين المعتدلين أيضا. وقد كتب فهمى هويدى فى جريدة الأهرام، شبه الرسمية، معلقا على ذلك ومعبرا عن استيائه قائلا: «إن هذا المدعي، محام إسلامى مغمور، أن يجبر على أن يأخذ قضية فكرية ويذهب بها إلى محكمة الأحوال الشخصية ليس إلا عرضا على انهيار المجتمع المصري. لن يجرؤ أحد على الحوار بعد. وبالتبعية لم يبق سوى قناتين. القضاء والبنادق».

حتى بداية عام ١٩٩٧، سكتت المدافع بفضل التعامل الوحشى للحكومة ضد خصومها من الإسلاميين المتشددين المسلحين. ولم يستمر التمرد والعصيان سوى فى الجبال وفى حفنة من المدن فى وسط وصعيد مصر. ولكن كما هى الحال دائما فلدى الجماعات الإسلامية والإسلاميين المصريين طريقة للظهور مرة أخرى فى أشكال وصور وتحولات جديدة، وذلك رغم ضربها وقمعها وربما هزيمتها عسكريا، وكل الدلائل على أن تلك الجماعات أعادت اكتشاف نفسها تحت قناع آخر. فرغم أن خلاياها العسكرية كانت قد ضعفت بما لايمكن إنكاره خلال السنة الماضية، فقد استمر المحافظون الإسلاميون فى التسلل إلى المدارس والجامعات والمؤسسات الحكومية ووسائل الإعلام والفنون بصورة كبيرة، وبنفس القدر

الذى اخترقوا به القضاء فى مصر الذى كان دائما وأبدا الملاذ والملجأ الآمن الذى يلجأ إليه العلمانيون المصريون لحماية القيم والفكر الليبرالي. إلا أن تلك الثقة اهتزت بصورة كبيرة كنتيجة طبيعية لمحاكمات أبو زيد. لأنها وأكثر من أية معركة قانونية فى الذاكرة القريبة، كانت تلك المحاكمات اختبارا حقيقيا وواضحا لقوة الإسلاميين ونيتهم فى تطبيق الشريعة الإسلامية، كما أثارت مخاوف العلمانيين من فقدان الحريات الأساسية مثل حرية التعبير وحرية الاعتقاد.

قمت ذات صباح بزيارة لكاتبين كانا قد تلقيا تهديدات بالقتل من الإسلاميين ووجدتهم مختبئين بعيدا -أحدهم فى شقة مغلقة والآخر فى مكتب تغلفه ستائر سميكة. وفى كلتا الحالتين كان هناك حراس مسلحون بأسلحة ثقيلة وفى حالة من الاستنفار الشديد. وكان شيوخ الأزهر أيضا مستائين من هذين الكاتبين.

وقد أخبرونى بأنهم لم يتلقوا أى دعم، حتى ولو كان رمزيا، من حكومة الرئيس مبارك التى كانت مستمرة فى الانسحاب من السياسات العلمانية والثقافية وبخطى متسارعة.

لا يستطيع المرء أن يهرب من انطباع يساوره وإحساس يراوده بأن مصر العلمانية القديمة متعددة الثقافات وعالمية الثقافة والفكر تنزوى بعيدا منكفئة على ذاتها. ففى العهد القريب وقبل عشرين عاما على الأكثر، أيام كنت أدرس فى القاهرة كان كتاب مصر العظام ورجال الأدب فيها، قاطنو المبنى البارز ذى الستة طوابق الذى كان يحتضن الجريدة المصرية الرائدة «الأهرام» منذ عصر الرئيس عبد الناصر، كانوا يسيطرون على ساحة الفكر، مقدمين البديل العلمانى الأكثر ملاءمة للحياة وللتطبيق لتعاليم الأزهر. كان الكاتب الروائى المسرحى الجليل توفيق الحكيم يجلس على مكتبه كالعادة فى ركن مشمس مرتديا قبعته السوداء المميزة. وبجواره تماما كان الأستاذ نجيب محفوظ على مكتب آخر، وفى الدور الأدنى كان فطاحل الأدباء: يوسف إدريس كاتب القصة القصيرة المبدع والناقد الأدبى البارع لويس عوض. ولكن عندما زرت الأهرام عصر يوم قريب، وجدت أنه مازال هناك شىء من تلك الذكريات القديمة التى كانت تميز المشهد الأدبي. ولم يزل هناك بعض التذكارات، فى صحيفة الأهرام نفسها، من التاريخ المتميز والاستثنائى الذى كان لتلك

الصحيفة فى يوم ما. حقا إنها لم تعد تقدم التحليلات الفكرية العميقة، ولا الصحافة الباحثة المنقِّبة ولا التعليقات السياسية الفطنة والذكية كما كانت تفعل من قبل. كنت أجلس والكاتب اليسارى المعروف محمد سيد أحمد على طعام الغداء فى كافيتريا الأهرام حين أخبرنى أن المفكرين المصريين يقرأون الصحيفة الآن «ليعرفوا من مات فقط» بمعنى أن الصفحة المقروءة فى جريدة الأهرام هى صفحة الوفيات وفقط.

فالضغوط من قبل الإسلاميين ومن النظام، الذى شرع فى ربيع عام ١٩٩٨ فى اتخاذ أكثر الإجراءات قسوة ضد حرية الصحافة منذ سنين، قد اتحدت كلها لضمان تطبيق قيود حكومية واسعة النطاق على الصحافة الرسمية.. هذا -باجتماعه مع الفساد والفقر، ومع خيبة الأمل الحادة فى اعتدال الحياة العامة فى أمة محشورة بين الماضى والحاضر- كان قد بدأ يأخذ ضريبته -على الحياة الفكرية والثقافية التى كانت لامعة ورنانة ذات يوم سواء القاهرية أو المصرية بالتبعية والامتداد. فدخْل الأستاذ الجامعى اليوم أقل من دخل خادمة فى البيوت، نحو ثلاثمائة دولار فى الشهر. كانت مصر فى الثلاثينيات تنتج أفلاما أفضل وأكثر حرية مما تفعله الآن. وفى دولة نشرت آلاف الكتب قبل ثلاثة أرباع قرن ونحو مائتى صحيفة بالكاد تم نشر نحو ٣٧٥ كتابا السنة الماضية. بدا الأمر وكأن تلك المدينة القديمة، التى تحوى بداخلها مدنا كثيرة، عادت عصورا للوراء، بتعبير السفير المتقاعد تحسين بشير عادت «للعقلية المملوكية والعصر المملوكي»، تلك الحقبة البيروقراطية المستبدة الظالمة، والمتسمة بالاضمحلال الثقافى التدريجى، الوقت الذى حكم فيه المماليك مصر من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر. لم ينتج عصر مبارك وجنرالاته أندادا ولا أترابا من رجال الأدب يضارعون هؤلاء الرجال العظام الذين أفرزتهم ثورة ١٩١٩ والعصر الليبرالي. وبدلا من ثلاثى الحكم - الملك والجيش والمؤسسة الدينية - استتر خلف ستاره المملوكي، تخلى واستمر فى التخلى عن أراض مهمة، بل وأكثر أهمية لأصوات ولقوى التيارات الإسلامية المعادية للعلمانية. كان الأمر وكأن مصر كانت ولا تزال تصارع من أجل التعرف على هويتها .

بينما كنت أتجول فى القاهرة ذات مساء، وأنا أرتشف الشاى فى بازارات خان الخليلي، وأتعثر عبر حارات وشوارع إمبابة المظلمة الضيقة، أو أتنقل بين عدد من محلات الزمالك ومعروضاتها مرتفعة الأسعار بصورة مثيرة، بدا لى واضحا أن رقائق مصر وطبقاتها الثقافية فى حالة مشوشة بصورة أكثر وضوحا. فقد كانت هناك رقيقة (حقبة) محمد على.فلم يزل لدى مصر إلى حد ما شعور القاعدة الاستعمارية المتقدمة التى كان محمد علي، هذا الجندى صاحب الثروة وأحفاده من بعده عازمين على نقل مصر إلى العالم الحديث فى القرن التاسع عشر. تلك السياسات التى أنتجت نخبة فكرية مثقفين بثقافة غربية، وقناة السويس وبيوتا أحادية الطابق أوربية الطراز، وحدائق واسعة ودارا أنيقة للأوبرا. ولكن الناس وهم العنصر الأهم بل والأكثر أهمية الآن، نادرا ما كانوا يتحدثون الإنجليزية أو الفرنسية. كانوا لا يعرفون إلا لغة القرآن،العربية.

هناك حقبة ناصر وزملائه ضباط الجيش الشباب الذين قاموا بثورة يوليو عام ١٩٥٢ : لم يبق منها سوى أصوات خافتة تحررت بصورة واسعة من عروبيتها وماركسيتها وميولها الاشتراكية التى كانت موضة تلك الأيام، ومن لحظة الوعد التى حملها الضباط الأحرار قبل أن تتحطم تجربتهم الثورية فى الخمسينيات والستينيات وترتطم بالأرض .

وهناك أيضا الحقبة الإسلامية غير المحددة بصورة كاملة إلا أنها تحاصرك فى كل مكان –المساجد والمنارات وأصوات الأذان– لديها نفوذ وقوة وهى تكتسح البلد كما تكتسح العاصفة الصحراوية رمال الصحراء.وهذه هى الرقيقة التى يتراقص على أنغامها حكم الأقلية رقصة كلاسيكية شديدة الصعوبة.

أخيرا شققت طريقى متجهة نحو ضفة النيل والمقاهى المطلة عليه، حيث كنت أقضى صباح الكثير من الأيام مع السيدة بينيبيكر قبل عشرين عاما. كانت الشمس قد بدأت لتوها فى الإشراق وكنت أستمتع بمراقبة المراكب الشراعية وهى تنساب بلا جهد تجوب النهر جيئة وذهابا، كما كانت تفعل منذ أيام كليوباترا متفاخرة بأشرعتها التى تطاول عنان السماء. رميت ببصرى للجهة الأخري من النهر فوقع بصرى على مطعم ماكدونالد بعلامته المميزة الحمراء والصفراء، المقام على ربوة معشوشبة خلف بحر من النساء المحجبات اللواتى كن يقمن بنزهات فى أثوابهن الطويلة الإسلامية الفضفاضة.

كانت هناك أيضا السفن تجوب النهر مصحوبة بقارب للشرطة صغير محمل بحراس الأمن الذين كانوا يقفون دون ترتيب . كان من الصعب رؤية وجوههم بصورة كاملة بسبب الخوذات التى يرتدونها لذا كان من الصعب التعرف إليهم.

كلفت الحملة التى قادها الإسلاميون المتشددون المسلحون،من أجل إعاقة وتعطيل الاقتصاد المصرى عبر الهجوم على المنشآت السياحية والسياح، الحكومة المصرية أربعة مليارات دولار أمريكي، وأهلكت القسم الأعظم من الصناعة حتى بدأ إحياؤها لأول مرة عام ١٩٩٦. مع ذلك كان هناك شك فى المدة الزمنية التى يمكن أن يستمر فيها هذا الإحياء. خاصة لأن شيوخ الأزهر، أصحاب القوة والنفوذ، كانوا بالفعل قد نجحوا فى منع وحظر المشروبات الروحية المسكرة فى النوادى الخاصة، حيث قام مجموعة من الشباب المتشدد المسلح بقتل ثمانية عشر سائحا يونانيا فى أبريل ١٩٩٦ بالقرب من أهرامات الجيزة القديمة. ومع ذلك وعلى الرغم من تلك الاعتداءات،فقد قالت لى صحفية مصرية ذات مساء إن قلقها الأساسى ليس بشأن الجماعات الإسلامية المتشددة، ولكن من التسلل الإسلامى الذى بات يغلف الحياة المصرية، ومن الثورة الإسلامية التى تتغلغل خلسة. كانت تلك الصحفية قد اعتادت فيما سبق أن تقوم بإحصاء عدد المذيعات اللائى يرتدين الحجاب فى التليفزيون الرسمى المصري، أما الآن فتحصى عدد اللائى لا يرتدين الحجاب. ما يمكن قوله الآن هو: إن الإسلاميين قد نجحوا فى فرض شريعتهم فيما يخص الثياب أو الشفرة السرية للأزياء الإسلامية.

علق لى أحد الأساتذة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة قائلا: إن أكثر ما يثير قلقه هو تزايد عدد المخبرين السريين الذين لا يرتدون زى الشرطة، ولكنهم يرتدون الجينز مستعرضين سلاحهم المعلق فوق جيوبهم الخلفية بوضوح وجلاء، ويتمركزون داخل حرم الجامعات وفى الأحياء الشعبية، حيث يطوّقون مناطق بأكملها. قال إنهم ذكروه ب (Haitian Tontons Macoutes) ولكنها كانت تلك السوابق التى حدثت فى محاكمات قضية نصر حامد أبو زيد، هى التى سببت معظم القلق فى نفوس المفكرين المصريين، وذلك فى صيف عام١٩٩٧. ربما لأن تلك المحاكمات كان من المحتم ألا تتم أساسا، حيث إن الخلاف كان خلافا أكاديميا، وكان

يفترض حله داخل الجامعة في المكان الذى نشأ فيه، وليس فى ساحات المحاكم. لقد تم إقحام المحاكم والقضاء المصرى فى قضية نصر حامد أبى زيد ومحاكماته. وقد نال هذا الإقحام كثيرا من سمعة المحاكم المصرية وألحق بها أذى جسيما.

كانت أول سابقة لحامد أبو زيد مع الإسلاميين وأول معرفتهم به فى ديسمبر من عام ١٩٩٢، عندما تم حجب ترقيته لدرجة الأستاذية فى جامعة القاهرة الحكومية على خلفية تقرير كتبه ثلاثة من الخبراء الأكاديميين. كان اثنان منهم قد امتدحا بحثه القرآنى ولكن الثالث فتح النار على تلك الأبحاث وهاجم بشدة كل الأفكار التى تبناها نصر حامد أبو زيد. لم يكن ذلك الأكاديمى سوى رجل الدين ذى الشخصية المؤثرة الدكتور عبد الصبور شاهين.

والدكتور عبد الصبور شاهين هو أستاذ لغة بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، وهو رجل صعب المراس ورقيب مذهبى متعصب. وهو يرى أن القرآن ككتاب أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله محمد ثم للأمة، وإنه حرفيا كلام الله ولا يجوز تفسيره بعيدا عن هذا السياق. وظل لعدد من السنوات فى جدال صاخب مع أبى زيد، الذى دخل منطقة الخطر بمحاولته تحطيم الجوامد الدينية ومحاولة البحث والتمحيص والاجتهاد فى تفسيرات النصوص الإسلامية المقدسة، تلك التفسيرات التى رفضها شاهين وقاومها واعتبرها بدعة وضلالة.

يبدو أن شاهين لم يهتم بحقيقة أن أبا زيد لم يكن الوحيد الذى يحمل وجهة النظر هذه، فقد كان هناك فى القاهرة مدرسة للمفسرين الليبراليين للنصوص القرآنية. ولكن لم يجرؤ أى منهم على تحدى شاهين مباشرة كما فعل أبو زيد. واستمرت الحال بينهما فى جدال حاد يعقبه جدال أحد، واستمر كل منهما فى نقد الآخر نقدا لاذعا فى الجامعة والمنتديات الدينية وفى المؤتمرات العامة المفتوحة. عندما تم حجب ترقية أبى زيد لم يسكت ولكنه حث زملاءه أساتذة الجامعة على مناشدة وزير التعليم وشرح الأمر له، وقد فعل ذلك أكثر من خمسين أستاذا. كما قام نحو خمسمائة من طلابه بمسيرة احتجاج على قرار الحجب وللتعبير عن وقوفهم بجانبه كما جمعوا توقيعات، ورفعوا الأمر للرئيس مبارك طالبين سرعة تدخله ومراجعة موقف شاهين، دافعين بأن الأمر ليس له أية علاقة بالشئون

الأكاديمية، وأنه ليس سوى موضوع سياسي. ومما لا يثير الدهشة أن تلك الأشياء أثارت غضب شاهين. بعدها قدم أبو زيد قضيته للصحافة وتحول غضب شاهين إلى ثورة شديدة- لأن أبا زيد أعاد إحياء هجومه على شركات توظيف الأموال الإسلامية المصرية والتى كانت حسابات مودعيها سرية فى أفضل الحالات وكيفما اتفق فى أسوئها. وقد خسر مئات الآلاف من أفراد الطبقة الوسطى المصرية مدخراتهم حينما انهارت تلك الشركات فى عام ١٩٨٨، وكانت بمثابة أكبر فضيحة مالية فى التاريخ الإسلامي. تضاعف غضب شاهين من التلميحات التى كان يلمح إليها أبو زيد فى كتاباته عن هذا الأمر، لأنه من المعروف جيدا أن شاهين كان مستشارا شرعيا لأكبر شركة من شركات توظيف الأموال تلك.

وكإمام للفضائيات كان يطلق عليه أبو زيد لقب «شيخ التكفير» لدوره الذى خصصه لنفسه باستهدافه «لغير المؤمنين» إذا ما رأى عدم احترام أو استخفاف بالنصوص القرآنية. ولكن فى السنوات الحالية فقط، أقدم رجل الدين على النقد الأدبى اللاذع والشديد. عمل شاهين ببراعة ومن خلف الستار يسانده فى هذا التوجه مجموعة من الشيوخ المعينين من قبل الحكومة الذين يماثلونه فى الفكر والرأي، مطلقا التحريات عن البدع والهرطقات المزعومة للكتاب والشعراء والممثلين والممثلات والأكاديميين ورجال الصحافة، لاعبا دور المحقق والقاضى فى نفس الوقت.

كان واضحا وجليا أن لعناته الدينية قد تم التغاضى عنها وقوبلت باستحسان مستتر من قبل حكومة مبارك- تلك الحكومة التى عمل فيها شاهين كمستشار دينى مهم للرئاسة. فى بداية عام ١٩٨٠، تم تخصيص برنامج اسبوعى فى التليفزيون المصرى الحكومى لشاهين وبرنامج إذاعى آخر نصف أسبوعي. كان عطوفا ولكنه مدافع قوى عن التقوى والطاعة الإسلامية، وعلى ذلك فقد كانت لديه القدرة على مخاطبة القرويين البسطاء والفقراء سكان المدن الذين اعتادوا على الالتفاف حول أجهزة التلفاز والراديو فى المقاهى والأسواق. اتسعت شهرته لدرجة أن الوجهاء كانوا يزورونه طالبين الفتوى والمشورة الدينية. كان متحدثا ناريا وكانت آراؤه من الوزن الثقيل كما قيل لي، وكان يؤم المسلمين لصلاة الجمعة بمسجد عمرو بن العاص العريق العتيق. لذلك ومن الجدير بالذكر

أنه ولأكثر من عقد من الزمان- من ١٩٨٦ وحتى صيف ١٩٩٦- كان شاهين المستشار الدينى الرسمى للرئيس مبارك كرئيس للجنة الشئون الدينية بالحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم، وتبعا لذلك كان الرئيس يستمع إليه ويأخذ بآرائه. يمكن القول إلى حد ما: إن عبد الصبور شاهين هو نتاج رئيسى لحكم مبارك.

بنى جامع عمرو بن العاص فى القاهرة فى القرن السابع الميلادي. وهو أقدم مسجد فى مصر وأحد أقدم المساجد فى العالم الإسلامي. ومن على منبر هذا المسجد فى أبريل من عام ١٩٩٣، اتهم شاهين أبا زيد لأول مرة وعلى الملأ بالردة. وكما أخبرنى شاهين بعد ذلك أن عدد المصلين الذين كانوا بالمسجد وقتها نصف مليون شخص، وانتشر الخبر كالنار فى الهشيم عبر المساجد والصحافة الإسلامية. فى الأسبوع التالى تم إعلان أبا زيد فى مساجد مصر كلها كمهرطق.

حدث هذا حتى فى قريته بالقرب من طنطا حيث حفظ أبو زيد القرآن مع، أحد أقرانه، والذى أصبح الآن إماما لمسجد القرية. بعد الصلاة سأل شقيق أبى زيد الشيخ كيف يمكنك أن تتهم نصر بالهرطقة وتدعوه مهر طقًا؟ هل قرأت أيا من كتبه؟

أجاب الإمام «لا. ولكن عبد الصبور شاهين قال إنه مرتد وعبد الصبور لا يكذب».

من غير المدهش أن أحدا من حكومة مبارك أو من مؤسسته الدينية قد راقب شاهين أو حتى علق على ما كان يقوله شاهين أو يفعله، ولم يبد أحد منهم اعتراضا فى الشهر التالى حيث أقام شاهين وتلاميذه دعوى التفريق.

اتخذ الحصار الذى تم فرضه على العلمانيين المصريين أشكالا عدة. وقد كان، فقد تمت زعزعة أبى زيد بشدة فى يونيه عام ١٩٩٢، وذلك قبل أن تبدأ محنته بستة أشهر، وذلك عندما تم إطلاق النار على صديقه فرج فودة وقتله خارج بيته فى القاهرة،وذلك بعد أن تم اتهامه بالردة. كان هذا الاغتيال هو أول اغتيال لمفكر مصري، وقد مثل للكثيرين منهم بداية الحصار الفكري.

بالتمعن فى أحداث الماضى واستعادتها نجد أنه من الصعب تحديد أى من المحاكمات كان لها الأثر الأعظم، هل هى محاكمات نصر أبو زيد أم القتلة الذين تم اتهامهم بقتل فودة

من الجماعة الإسلامية، وكلتا القضيتين تم فتحهما فى صيف ١٩٩٣. من الناحية العملية يمكن القول إن كلا منهما قد غذت الأخرى. وقد اتفق كل المصريين الذين تحدثت إليهم فى هذا الشأن على أنه فى كلتا المحاكمتين فإن شيوخ الأزهر قد صعَّدوا من رهاناتهم بطريقة ملموسة.

إن الذى أذهل كلا من الدبلوماسيين الغربيين والعلمانيين المصريين المحاصرين بصورة متزايدة، ليس فقط أن الشيخ الأزهرى محمد الغزالى قد أدلى بشهادته مدافعا عمن قتلوا فرج فودة ومباركا قتل المرتدين أو أى شخص يعارض أو يناهض تطبيق الشريعة الإسلامية، ولكن لأن الشيخ كان يدلى بشهادته كواحد من أهم رجال الدين الفقهاء المعتدلين – ذلك الفقيه الذي، لم يكن مختلفا عن عبد الصبور شاهين، وكان دائما ما يتم أخذ مشورته عن طريق حكم مبارك. فقد كان يمثل النظام فى الخارج فى المؤتمرات الدولية والندوات والمنتديات، بينما كان فى الداخل – ولا يختلف فى ذلك عن شاهين– قد تم منحه ظهورا واسعا فى الإذاعة والتليفزيون الحكوميين، لمناهضة الفكر الإسلامى المتشدد والإسلاميين المسلحين.

ولكن بالنسبة لعدد متزايد من العلمانيين فقد ظهر أن الغزالى وشاهين يمثلان تقاربا خطيرا بين الاتجاهات السياسية للإسلاميين الأصوليين والمعتدلين فى مصر. ومن وجهة نظرهم فإن الفصل بين الإسلاميين المسلحين الذين كانوا يتعرضون للقمع من قبل الحكومة ورجال الدين، الذين كثيرا ما تسامحت الحكومة معهم، لم يحدث بصورة كاملة.

ذهبت فى صباح يوم جمعة مع صديق لي، وهو محام إسلامى هارب الآن ويعيش تحت الأرض، ذهبنا إلى جامعة الأزهر، حيث كنا نأمل من تلك الزيارة مقابلة واحد من الاثنى عشر شيخا الذين كانوا قد قدموا فتاوى أو نصائح دينية من خلف الستار وذلك أثناء محاكمات أبى زيد.

عندما اقتربنا من بوابة الجامعة، شاهدت مجموعة من الرجال الملتحين فى الزى الإسلامي، الجلباب الأبيض والطاقية البيضاء، يقومون بفرش ميدان قريب مجاور بالحصر استعدادا لصلاة الظهر. أما السيدات القلائل اللائى شاهدتهن، فقد

كن ملتفات بعباءات سوداء تغطيهن من الوجه حتى القدم، وكن أشكالا مجهولة تتحرك دخولا وخروجا من وإلى المحلات. كل ما حولنا هو القاهرة الجديدة تعبر عن نفسها وتحدد هويتها: المبانى المتداعية المتهالكة والأرصفة المتآكلة المهدمة والمجارى فى الشوارع. وكلما تهالكت المدينة كلما تضخم عدد سكانها، كلما ظهر بحدة ووضوح الخط الفاصل بين الأقلية المسلمة الغنية والأكثرية المسلمة الفقيرة. هنا قلب مصر جديدة مختلفة، لم تعد هى مصر النخبة الفكرية المتغربة ولا مصر البيوت الأنيقة أحادية الطابق المتسعة الحدائق ذات الطراز الأوربى. ولكنها أيضا ليست مصر المداسة المنسحقة التى رأيتها فى الأزهر. حيث اكتسبت الطموحات الثيوقراطية للشيوخ قوة وزخما على مدى السنوات الأخيرة، ليس فقط بفضل تسامح حكومة مبارك، ولكن من خلال الدعم السخى والأموال الطائلة التى تقدمها المملكة العربية السعودية.

كان السفير المتقاعد والمفكر الكبير حسين أمين، قد أخبرنى ذات مرة قبل سنوات قليلة أن آلافًا من الشباب كانوا ينضمون كمجندين جدد للحركة الإسلامية، الشباب اليائس الذى لا يستطيع الحصول على شقة . الذى لا يمكنه الزواج أو الحصول على وظيفة. لذا فعندما زرته فى الصيف الماضى سألته إذا كان هذا لم يزل حقيقة؟

أجاب قائلا: «إن ثورتهم تستمر خلسة وهذا شيء طبيعي، فهم يحكمون السيطرة على المؤسسات والمصالح الحكومية والنقابات المهنية والجامعات والمحاكم. وهم أيضا يسيطرون على الكتاب ورجال الصحافة ليس فقط عن طريق الأموال السعودية، ولكن الخليجية أيضا. فإنك على سبيل المثال لو كتبت مقالا فى جريدة مصرية ستحصل على ما يعادل ثمانية دولارات للمقالة : أما لو كتبت نفس المقال لجريدة سعودية ستحصل على ما يعادل مائتى دولار. ليس لدى السعودية من الكتّاب والمفكرين ما يكفى لكتابة صحيفة واحدة، لذا ستجد كتابا مصريين أكثر وأكثر يكتبون لصحف سعودية ويتبنون الخط والنهج والفكر السعودي».

سألت السفير عن أكثر المظاهر المخيفة التى يراها فى محاكمات أبى زيد؟

أجاب بدون تردد: «إن الفكر المتأسلم قد تمكن من اختراق أعلى المستويات فى النظام القضائى المصري». وأضاف قائلا: إن ما أزعجه بنفس الصورة هو أنه وجد أن الغالبية العظمى من المصريين، حتى بين المتعلمين والمثقفين، كانوا بالفعل ضد أبى زيد. وأردف قائلا: « إن الكثير من المفكرين غير المتدينين أصلا وربما حتى الملحدين منهم يميلون الآن إلى الاعتقاد أن الإسلام ربما يكون هو الطريق الوحيد لمقاومة التأثير الغربى فى حياتنا».

فكرت فيما كان قد قاله السفير بينما كنت أدخل إلى حرم جامعة الأزهر، وأنا أشق طريقى عبر ساحته مارة بمسجده المذهل الرائع، الذى يرجع للقرن العاشر بمناراته الشاهقة التى يقوم المؤذن من فوقها بدعوة المؤمنين للصلاة خمس مرات فى اليوم. لأنه كان من هناك، إلى حد ما، فى قاعات المحاضرات والمساجد الملحقة بأقدم جامعة فى العالم، كانت تدار أصعب وأهم معركة لم تطل مصر وحدها بل العالم العربى كله. ولم تكن مجرد معركة بين بين الإسلام السياسى وحكومة فاشستية، أو بين ورثة خالد الإسلامبولى وورثة السادات، لقد كانت معركة حول الفكر العلمانى لنصوص إسلامية، معركة ستشكل نتائجها مستقبل شمال أفريقيا والشرق الأوسط كله.

فقد كان الأزهر ولعصور طويلة الأرض الخصبة التى يتم عليها تجنيد عناصر جديدة للإخوان المسلمين، لذا فقد كان خريجوها بالمقابل يقومون بإعادة تصدير النزعة الإخوانية للاسلام المتشدد عبر العالم الإسلامى كله. ومع ذلك فالشىء المقلق جدا، من وجهة نظر العلمانيين المصريين، هو نجاح الإخوان الراهن -بفضل التمويل السعودى الهائل- فى تجنيد شيوخ ورجال دين وعلماء بارزين من داخل الأزهر نفسه. وبالمقابل يقوم هؤلاء الشيوخ بالتسلل والتغلغل واختراق المحاكم والقضاء المصرى فى لهاثهم لتطبيق الشريعة الإسلامية.

بمرور السنين تمكن الإسلاميون المصريون من شق طريقهم ببطء، وبصورة غير محسوسة تقريبا، إلى قلب وعقل مؤسسات أكبر وأوسع وأهم دولة فى العالم العربي. ويبدو لى أن الخطر الأكبر المحدق بمصر القديمة، متعددة الثقافات العلمانية التى عرفتها وخبرتها أيام دراستي، وبمصالح الولايات المتحدة، تكمن ليس فى تلك المعارك التى تدور

رحاها الآن فى وسط وصعيد مصر بين جيوش مبارك والإسلاميين والشيخ عمر عبد الرحمن -تلك المعركة التى حصدت أرواح نحو ألفين فى السنوات الخمس الماضية- ولكنها تكمن فى الخوف من أن تكلل ثورة الإسلاميين الأخري، تلك الثورة الخفية التى تدار خلسة، بالنجاح.

كان العلمانيون المصريون، الذين تراجع دورهم وتخلفوا عن مسايرة الركب بصورة واضحة ومتزايدة كنتيجة طبيعية للأحادية القطبية فى الحياة السياسية، قد تخلوا عن الوسطية. وقد آمن الكثير من المفكرين ومن بينهم حسين أمين، أن قيام الدولة الإسلامية فى مصر الآن يبدو وكأنه أمر حتمي. وفى حال حدوث ذلك فإن تأثيرها، على عكس الثورة الشيعية فى إيران التى فشلت فى تصدير نفسها، سيكون كبيرا وعميقا على العالم الإسلامى وعلى الشرق الأوسط الغنى بالبترول. لأنه حتى بين الفقهاء الذين يبتعدون بصورة طبيعية عن نظريات لعبة الدومينو التاريخية، فهناك اهتمام متزايد وشعور عام بأنه لو تأسلمت مصر ستنتقل التجربة المصرية للكثير من بلدان العالم العربي.

بينما كنت أجول ببصرى حول الحرم الجامعى لجامعة الأزهر الناطق بما لا يدع مجالا للشك بالغنى السعودي، تحيرت فيما يخص الدور الذى يلعبه بيت آل سعود، أمراؤه ومؤسساته المالية ورجال أعماله الأغنياء، بمن فيهم عدد من أصدقاء أسامة بن لادن المقيم فى أفغانستان، الذين كانوا ومازالوا هم المولين الأساسيين للجماعات الإسلامية المتشددة والمتطرفة فى العالم. إن الدور السعودي الرسمي، علنيا وسريا، فى الثورة الإسلامية المصرية، إن لم يكن مزدوجا، فهو بالتأكيد دور غريب ومريب. حيث يستمر فى كونه مبنيا بصورة جزئية على الاعتبارات الجيوبولوتيكية (الجغرافية السياسية) للمملكة وتعارضها مع آيات الله الشيعة الحاكمين فى إيران.هو أيضا يمثل جزئيا محاولة لشراء الحماية لحكمها المحاصر، وذلك عن طريق استرضاء وتسكين جمهور المتشددين المتزايد فى السعودية، تلك الفكرة التى تم نقضها بقوة فى تفجيرات الظهران والرياض عام ١٩٩٥ و١٩٩٦، التى استهدفت وطالت منشآت عسكرية أمريكية. ولكن ربما يكون من الأهمية بمكان أن نذكر أن الدور السعودى بالتأكيد قد نشأ تركة من تركات الجهاد فى أفغانستان.

أخبرنى أحد الدبلوماسيين المتمرسين ذات مساء أن « الأيدى السعودية لا يتم رؤيتها بوضوح فى الأزهر فقط بل فى صناعة السينما المصرية ودور نشرها ومساجدها وفى قاعات محاكمها أيضا، وقد كان هناك بعض أعضاء من حكومة مبارك ممن عزوا الأحكام التى صدرت ضد أبى زيد للمكافآت والأموال السعودية. بالطبع ليست هناك أدلة مؤكدة وملموسة تدعم هذا الكلام لكنه يتردد على الألسنة. ولكن هناك أعدادًا متزايدة من القضاة المصريين الذين يريدون أن يظهروا بمظهر الطهارة والنقاء فى أعين السعودية، والذين يرغبون فى العمل بالسعودية أو بالخليج. ولتلك الأسباب فإن سيطرة السعودية على المحاكم ليست بحاجة أن يأخذ شكلا صاخبا كالرشاوى مثلا». عندها شرح لى كيف تسير الأمور قائلا: «يتم وعد القضاة المصريين بالعمل فى السعودية– حيث يحصل على ثلاثة أضعاف ما يحصل عليه فى مصر – إذا حافظ على ثيابه نظيفة وبريئة. وهناك أيضا قسم كامل من القضاة ممن يتم السيطرة عليهم وتوجيههم من الأزهر.إنها دورة: تتدفق الأموال السعودية على الأزهر لدراسة أحكام الشريعة الإسلامية، وبالمقابل يجلس خريجو الأزهر على المنصة المصرية وهم فى حالة ازدراء كامل للقانون المدنى العلماني. وهناك قضاة بالفعل يبدأون إجراءات التقاضى فى محاكمهم بالتعبير عن امتعاضهم واستيائهم وأسفهم، بأنهم سيضطرون إلى تطبيق قوانين صنعها الإنسان بدلا من الشريعة الإلهية المنزلة من قبل الله سبحانه وتعالي».

سألته: «هل حدث هذا فى محاكمة أبى زيد» ؟

أجاب: «لا». ثم ابتسم «لأنه فى قضية أبى زيد كانوا يطبقون القانون الإلهى».

يوسف شاهين، المخرج العبقرى المصري،أعظم مخرجى السينما فى مصر إن لم يكن فى العالم العربي، نظر من شرفة شقته الكائنة فى الطابق العاشر فى الزمالك إلى الشارع وقال: «الجو مكهرب تماما، وأصبح فاسدا جدا».

شاهين ذلك الرجل الطويل الأشعث البالغ من العمر سبعين عاما، والذى يمتلك روح الدعابة الساخرة،ذو التعليم الفرنسى والخلفية الهوليوودية –والذى تسلم جائزة مهرجان «كان» عن أعماله الكاملة السنة الماضية– كان يمثل الولد الشقى فى السينما المصرية لأكثر من أربعين عاما. أخبرنى قائلا: «إنه لم يعرف فى حياته ولم ير شيئا كهذا». وبدأ صوته يعلو

«كيف واتتهم تلك الجرأة؟ وكيف يجرؤون على فعل ذلك؟ لا أعتقد أنه من حق أى شخص أن يحتكر الله ولا رسالته سواء كانت فى الإنجيل أم التوراة أو القرآن. وأين المجتمع الدولي؟ هناك المئات منا ممن تم إعلانهم ملحدين وكفارا ومرتدين ومهرطقين –سلمان رشدى ونسرين تسليمة (Taslima Nasreen) (الكاتبة البنجلاديشية) وطاهر دجاوت (Tahar Djaout) (وهو كاتب ومحرر صحفى تم اغتياله فى الجزائر)– ولم يتحرك أحدًا من المجتمع الدولى ليدين أو يعر الأمر أدنى اهتمام.

لربما بدا علاء حامد، الأصلع الذى فى منتصف عمره وهو مفتش ضرائب يمارس الكتابة فى وقت فراغه، أنه مرشح غير محتمل لنيل نصيبه من التوبيخ والتشهير من جانب الإسلاميين. ففى خلال السنوات القليلة الماضية كان قد كتب روايتين، «مسافة فى عقل رجُل» و«الفراش»، وكما قال لى عندما قمت بزيارته كان المقصود منهما أن تكونا ليس أكثر من فانتازيا بريئة وغير ضارة، ولكن أيضا تم الحكم عليهما بأنهما دعوة للكفر والإلحاد عن طريق لجنة من من شيوخ الأزهر، وتم الحكم عليه من قبل محكمة أمن دولة خاصة بالسجن لثمانى سنوات، وهو حكم غير مسبوق. عندما قابلته عام ١٩٩٦ كان خارج السجن ينتظر حكم الاستئناف، ولكن بسبب الشهرة التى كانت تحيط قضيته ومحاكمته، هذا الكاتب غير المعروف الذى لم يبع من كتبه سوى تسع وثمانين نسخة قبل أن يتم منعها وحظر بيعها، تم طرده من وظيفته وتهديده بالقتل من قبل الإسلاميين المتطرفين المتشددين.

بحلول عام ١٩٩٧ كان قد تم الحكم على حامد بالسجن سنة واحدة مع الأشغال الشاقة. وكان أيضا يتم تهديد يوسف شاهين بجره للمحاكم مرة أخرى، وذلك عن طريق شيوخ الأزهر وبسبب فيلمه الأخير، الذى يقدم معالجة رمزية وشبيهة بالاضطهاد الذى واجهه المفكر الإسلامى ابن رشد فى القرن الثانى عشر.

ورغم أن محكمة أخرى قامت فى شهر سبتمبر ذاك بنقض مصادرة كتاب آخر تم منعه من قبل الأزهر وأجازته –وكان هذا الكتاب هو أحدث كتب المؤرخ الإسلامى الدكتور السيد القمني– فإن هذا الحكم لم يكن له سوى أثر ضئيل لتهدئة العلمانيين والتفريج عنهم. لأنه وفى ذلك الوقت كان هناك توجيه لأخطر التهم ضد مفكر مصرى آخر هو الدكتور

حسن حنفي، الذى كان ناصحا ومرشدا لنصر حامد أبى زيد، وهو أستاذ للفلسفة فى جامعة القاهرة ويحظى بسمعة واحترام من الأوساط الأكاديمية فى الخارج. وقد اتهمت رابطة علماء الأزهر حنفي، البالغ من العمر ثلاثة وستين عاما، «بإنكاره آيات قرآنية عن المعجزات، وأنه نقض وخالف التعاليم الواضحة والصريحة للقرآن» لم يطالب رجال الدين فقط بفصله من الجامعة ومنعه من التدريس ولكنهم لوحوا بإمكانية تقديمه لمحاكمة أخرى مبنية على قانون الحسبة – بالرغم من ذلك قامت الحكومة بمحاولة خرقاء للحد من استخدام الحسبة وذلك من خلال قانونين تم سنهما قبل الحكم النهائى على أبى زيد بوقت قصير– تلك القوانين التى تم تجاهلها ببساطة من قبل محكمة النقض.

يتم استخدام المحاكم المصرية الآن ضد نفسها وضد رجالها المميزين. فها هو القاضى المتقاعد سيد العشماوى، وهو واحد من أعظم الباحثين الإسلاميين البارزين، قد تم تهديده فى مناسبات عديدة بالقتل بتهمة الردة. ما ذنبه وما هى خطيئته؟ لقد كان ضد التطبيق المزمع للشريعة الإسلامية وتساءل فى كتاباته ما إذا كان الإسلام قد قدم أساسا راسخا ومتينا يمكن عليه بناء دولة. وهو الآن يعيش منزويا فى شقة مغلقة النوافذ ولها ستائر سميكة مغلقة دائما: ومن أجل حمايته فقد تم وضع حراسة مكونة من ثلاثة حراس مسلحين ومعهم أجهزة اللاسلكى يقفون خارج شقته أو أسفلها .

أخبرنى العشماوى ذات صباح عندما قمت بزيارته أن «الإمام الأكبر شيخ الأزهر» -جاد الحق على جاد الحق- أنفق العديد من السنوات والملايين من الدولارات النفطية، جاهدا من أجل بناء إقطاعية مستقلة، سلطة ثيوقراطية على غرار دولة الفاتيكان. وقبل وفاته بوقت قصير كان قد أصدر فتوى شرعية أن كل من هو غير مسلم فهو كافر. وهذا محال تماما ومناف للطبيعة ويعد دعوة صريحة للحرب. هز عشماوى رأسه فى حزن وأردف قائلا: «ولم تفعل الحكومة أى شيء إطلاقا لانتقاده أو استهجان فتواه أو حتى مراجعته فيها».

«تلك الفتاوى اليومية الحائزة على إعجاب وموافقة السعودية، والتى تنساب من الأزهر تتهمنا بالهرطقة. وهذا غير قانونى وغير شرعي». بدأ صوته فى الارتفاع: «لجنة

الفتوى نفسها غير شرعية : إنها ببساطة شديدة لجنة داخلية للأزهر. وأين بحق الله ذهبت حكومتنا، من كل هذا الجنون؟ لقد منعتنى أنا وآخرين من المثقفين المسلمين والمستنيرين من الظهور فى التلفاز للدفاع عن وجهة نظرنا. إن الحكومة المصرية تسد كل الطرق من أمامى بينما يقوم الأزهر والمتشددون بضربى من الخلف».

عندما أدرنا دفة حوارنا نحو قضية أبى زيد، بدا الضيق واضحا على وجه القاضى العشماوى وأوضح قائلا: «لقد رفضت محكمة النقض ببساطة تطبيق القانون، وهذا يعد تمردا! إن ما يفترض أن تفعله المحكمة هو التمسك بتطبيق نص القانون لا أن تتجاهله». ثم فكر للحظة وأضاف قائلا: « ولكن بالنسبة لى أنا، إن أكثر ما يخيفنى فى سابقة أبى زيد هو أنه ليست لدى المحاكم سلطة قضائية ولا اختصاص للحكم ما إذا كان الشخص مؤمنا أم لا، هم يستطيعون الحكم فقط على القضايا الملموسة المادية وليس الأفكار. ولكن فى محاكمة أبى زيد، كانت الأفكار هى التى يتم محاكمتها. تلك هى المرة الأولى فى التاريخ الحديث التى تقوم فيها المحاكم بالحكم على شخص بأنه مرتد. إننا نعود إلى محاكم التفتيش. لقد رجعنا بهذا القرار خمسة قرون إلى الوراء.

وافق الدكتور عبد الصبور شاهين، أهم من وجهوا الاتهامات لنصر أبو زيد، على مقابلتى فى صباح يوم خريفى وذلك فى مكتبه بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وهى عبارة عن مجمع مبان ترابية اللون بها بقع خضرة مهملة. وكلية دار العلوم تشبه بالفعل جامعة الأزهر، حيث تعلم الكثير من أساتذتها، أكثر جامعة القاهرة: وهى جامعة لا تقبل إلا الطلاب المسلمين فقط وتركز فى مناهجها على الدراسات الإسلامية. كل الطلاب الذين تصادف ورأيتهم فى الكلية كانوا ملتحين وكل الطالبات كن محجبات.

ذهبت بحثا عن الدكتور شاهين وتم إيقافى عدة مرات عن طريق طلاب بدوا غير ودودين إطلاقا وكانوا يسألون عن سبب وجودى هناك. كان شاهين قد خسر مكانته والنعم التى كانت ممنوحة له من قبل الحكومة فى منتصف عام ١٩٩٦، جزئيا نتيجة لإدراك الحكومة المتأخر بالسوابق المشئومة التى حدثت فى محاكمات أبى زيد. وفى استعراض استثنائى نادر لاستقلالها عن شيوخها المعتدلين، قامت الحكومة بحرمانه من الوعظ فى جامع

عمرو بن العاص وأجبرته على التخلى عن مناصبه السياسية . مع ذلك بدا واضحا لى بسرعة ومنذ البداية أن شاهين احتفظ بمتابعة مخلصة.

وجدته محاطا بمجموعة من الطلبة الذين بدا عليهم الاهتمام البالغ والنشوة بكل كلمة يتفوّه بها. كان جذابا فى حديثه وسعة معرفته، وهذا ما لم أكن أتوقع أن أجده، تلك البلاغة وسعة الاطلاع والمعرفة التى سرعان ما تبخرت فى اللحظة التى ذكرت فيها أبا زيد. ولكن ما أدهشنى أكثر هو مظهره وطلعته اللتين وجدته عليهما: فقد بدا أبعد ما يكون عن الشيخ الذى توقعته، وبدا أكثر شبها بالدبلوماسيين. كان يرتدى جاكتة زرقاء وبنطلونا رماديا، كان مهندما بصورة واضحة، فواحا بعطر الأناقة فى ملبسه. رباط عنقه الملون الحريرى كان ملائما لمنديله الملون.

كان صوته مفعما بالحيوية وانطلق بفيض من الكلمات قائلا: «الفرنسية هى اللغة التى أجيد التحدث بها وكأنها لغتى الأصلية». وأشار لى بالجلوس. وعندما غادر الطلاب حجرته، أفضى لى بسر قائلا: «يعتقد طلابى أننى قادر على فعل أى شيء. بل وحتى يعتقدون أننى قادر على تفسير أحلامهم . بالطبع أنا أعرف تفسير القرآن جيدا». وأردف قائلا فى صوت منخفض: «ومهما يقل أى شخص عنى فأنا مازلت شيخا وإماما للعديد من المساجد الأهلية . لقد أجبرتنى الحكومة على ترك مسجد عمرو بن العاص ولكنى لم أزل ألقى خطبة الجمعة فى أماكن أخرى، متنقلا من مسجد إلى مسجد. وبالطبع فأنا ألقى ترحيبا دائما من شيوخ الأزهر».

«ولكن الحكومة لم تأخذ منى مسجدى فقط ولكنها ألغت برنامجى التليفزيونى وحرمتنى من الكتابة فى الصحف الرسمية. لقد توقفت الموسيقى وصمت العزف وانفض الحفل». توقف لحظة وهز رأسه. عندئذ مال نحوي: «ولكن ما يهمنى ويعنينى أكثر من الحكومة هو الناس، الذين ما إن يروننى فى الشارع حتى يتزاحموا لكى يقبّلوا يدى ورأسي». بدا واضحا استمتاعه وتلذذه بجذب الانتباه. لايمكن اعتباره رجلا متواضعا.

سألته: «لماذا أقمت دعوى ضد نصر أبو زيد؟».

تصلب وجهه واختفت ابتسامته بينما كان يميل على مكتبه مقتربا أكثر منى وقال: «لأنه ماركسى وملحد».

قلت له: «ولكن كل ما فعله هو أنه كان يفسر القرآن بصورة تختلف اختلافا طفيفا عنك.....».

قاطعنى قائلا: «اختلافا طفيفا! إن نصر أبو زيد لا يتحدث عن الاجتهاد فى المناطق التى يكون فيها الاجتهاد ممكنا. إنه يقول إن القرآن ليس من وحى الله سبحانه وتعالى ولكنه فكر بشري، وليس تنزيلا إلهيا».

مضت لحظات قليلة لم ينطق فيها أى منا ببنت شفه. نظرت إلى خارج الحجرة فلمحت مجموعة من الطالبات يمررن من المدخل وكن كلهن منقبات. كان من خلفهن تماما خمسة أو ستة من رجال الأمن يسيرون فى أحد الأركان ومسدساتهم بارزة ومعلقة على جيوب بنطلوناتهم الخلفية.

كان الدكتور رفعت السعيد، وهو يسارى بارز من حزب التجمع وكاتب وسياسى وعضو فى البرلمان المصري، قد أخبرنى من قبل أن الأجهزة الأمنية قد اكتشفت حديثا، مما يضيف الكثير لهلع وخوف الحكومة، أن الإسلاميين المتشددين كانوا يستخدمون كلية دار العلوم ليختبروا مدى قدرتهم على التسلل واختراق مؤسسة ثقافية وعلمية ذات مستوى رفيع، وأن كل أساتذة اللغة العربية تقريبا هم أعضاء فى جماعة الإخوان المسلمين الآن. بعضهم يعمل علانية. والآخرون سرا فى الخفاء.

استمر شاهين فى كلامه عائدا إلى موضوع أبى زيد قائلا: «لم تكن هناك حاجة لأن يحدث أى شىء من هذا». استعاد ضبط صوته وأصبح كلامه موزونا بمقياس دقيق: « لقد اندفع نصر حامد أبو زيد إلى إصدار أحكام. فلو أنه كان قد تقبل نقدى بصورة أكاديمية واضعا إياه فى موضعه الصحيح على أنه خلاف أكاديمى ليس أكثر، ولو بتصحيح دراساته وتصويب أخطائه، لما تعدى هذا الأمر أسوار جامعة القاهرة. ولكنه حمل قضيته وذهب بها للصحافة، ووقف معه كل الصحفيين الماركسيين. وصرخوا ضد الإسلام وأهانوه، وصرخوا ضدى وأهانونى بصفة شخصية».

سألته: « هل هذا هو السبب الذى من أجله أجبرت أبا زيد على تطليق زوجته؟».

أجاب شاهين: «إن زواجه لا يعنينى فى شىء، ولم يكن موضوعنا فى تلك القضية. وليعش أبو زيد وزوجته حياة زوجية سعيدة كملك وملكة فى هولندا طالما لن تطأ قدماه جامعة القاهرة مرة أخري».

تفحصنى من خلف مكتبه وقد بدا عليه القليل من الحيرة والارتباك وقال: «أنت لا تصدقين جديا بأننى لا أهتم بزواج أبى زيد. كل ما كنت أريده هو إخراج أبى زيد من جامعة القاهرة. إذ كيف يمكن لمرتد أن يقوم بتدريس القرآن؟ ثم بدأ يصرخ مرة أخري. كيف يمكن لمجرم أن يقوم بتدريس كلام الله؟ لقد تم إجبارنا على رفع هذه الدعوى والحكم فيها. لم يكن هناك داع للذهاب للمحاكم لو كان أبو زيد قد قبل تقريرى الأصلى فيما يخص ترقيته».

قلت له: «إن أبا زيد يتم تهديده الآن بالقتل».

أجاب بلا عواطف ولا تعاطف «نعم، القتل هو العقوبة الشرعية للمرتد».

فكر للحظة واستمر قائلا: «ولكن يجب أن يتم منح المرتد الفرصة للاستتابة. دعى نصر أبا زيد يأتى أمام محكمة النقض ويرد على اتهامها له، نقطة بنقطة. دعيه يتخلى عن أفكاره ويتوب عن تلك المعاصي. وهذا شىء ضرورى ولازم لا مفر منه إطلاقا. يجب عليه التوبة! وإلا» -مال برأسه وابتسم- « دع أبا زيد ينعم بالجنة فى هولندا، وربما يسلم جسده من أى اعتداء. أما عن روحه، فلندع هذا الأمر وهذا القرار من الله وإلى الله».

عندما رتبت الأمر لمقابلة نصر حامد أبى زيد فى مساء يوم من أيام نوفمبر فى أمستردام، لم تكن لدى أدنى فكرة عما أتوقع أن أراه. هل سألتقى برجل خجول وأستاذ حذر خائف أم مناضل ومدافع جرىء عن أفكاره؟ عندما التقينا فى حجرة الشاى بالفندق الذى كنت أنزل فيه، أثبت أنه كلا الشخصين، ينزلق، ظاهريا دون أدنى جهد،ليدخل هذا الدور أو يخرج منه. كان يرتدى بدلة زرقاء قاتمة اللون وقميصا أبيض ورباط عنق أسود اللون. تخلى عن جاكتته الثقيلة التى بدت غير مريحة على هيئته القصيرة المستديرة . كان يحمل معه حقيبة بنية اللون، متآكلة وبالية بفعل الزمن ومن طول العمر، التى بدت وكأنها ترمز بطريقة ما لتجوال إنسان منفى بعيدا عن الوطن، والذى أضحى كبش فداء لأسباب لم تزل

تغيب عن باله. أكثر الملامح التى كانت تميزه هما عينان ثاقبتان بنيتان ولحية سوداء مرقطة بخصلات رمادية والتى أطلقها منذ أيام محاكماته. أخبرته عن كلمات عبد الصبور شاهين الأخيرة لى وسألته ما إذا كان ينوى التوبة أم لا.

أجاب قائلا: «أتوب عن ماذا؟ هذا جنون مطبق! إننى أشعر بالذل والمهانة، لأنه يتوجب عليّ دائما أن أقول إننى مسلم. إن تلك إهانة لمعتقداتى وإيمانى وكبريائي. لقد كرست حياتى جلها للفكر الإسلامي، وليس هناك من شخص -أتحداهم- يمكنه أن يجد كلمة واحدة من كتاباتى تبين كونى مرتدا أو ملحدا. وإذا كانت المحاكم قد فكرت أن من اختصاصاتها الحكم على معتقداتى عندئذ كان يجب عليهم قراءة كل كتبى الاثنى عشر؛ ولكن كل ما قرأوه هى تلك الوريقات التى تم رفعها من قبل المحامين الموكلين من قبل هؤلاء الذين يريدون إسكاتي».

سألت أبو زيد عن إبتهال التى كانت قد رفضت مقابلتى فرد قائلا: «إن الأمر إلى حد ما صعب جدا عليها. لقد عاملوها وكأنها مراهقة، ليست ناضجة بما يكفى وليست إنسانة وكأنها بلا عقل وبلا صواب.لقد عاملوها وكأنها لعبة يمكن بسهولة أخذها من بين يدي. لقد استخدموا إبتهال للانتقام منى ومعاقبتي.إنها إنسانة قوية جدا ومستقلة جدا ولكنها تتأذى وتتألم لما حدث. وهى أيضا تصغرنى سنا بصورة ملحوظة، وهى فى بداية مشوارها المهنى وها هى تخاطر بكل شيء، لا يمكنها تجديد إجازتها من جامعة القاهرة لأنها فى إجازة معى. وقلت لها ارجعى أنت. لا تتركى كل شيء من أجلى. ولكنها رفضت بإصرار بالغ». ثم فكر للحظة وأضاف: «بعد الحكم وعندما صرحت إبتهال للصحافة بأنها لن تتخلى عنى أبدا قال شاهين: إن ذلك بسبب صعوبة أن تجد زوجا آخر غيري». وأضاف قائلا: إنه ليس عليها أن تقلق : وأنه سيجد لها زوجا آخر غيرى وعرض عليها مهرا من أموال المسجد. ابن ال......!».

صمت أبو زيد قليلا ثم استدار نحوى سائلا « لماذا أنا؟ لم جرونى للمحاكم؟ إن الأمر كله لم يكن سوى ورقة وقلم. فلم أكن ممثلا لحزب سياسي؛ لم أكن لأطبق تفسيراتى ولا أجبر أحدا على الأخذ بها وتنفيذها. لماذا يظهرون كل هذا الخوف من أفكاري»؟

كان قد أخبرنى محام إسلامى معتدل من قبل أن المحاكم المصرية استغلت محاكمات أبى زيد لتسوية نزاع كان من الضرورى حسمه داخل الجامعة . سألت أبا زيد إن كان يتفق وهذا الرأي؟

رد قائلا: «أتفق تماما» واستمر قائلا: «إن إنكار حقه فى الحصول على الأستاذية يمكن أن يتم تفسيره فقط فى سياق الأحداث التى وقعت عامى١٩٩٢ و١٩٩٣. فقد كانت الأعمال الإرهابية على أشدها وكانت قاسية فى ذلك الوقت: كان يتم تهديد السياح؛ تم اغتيال فرج فودة؛ وكذلك رئيس مجلس الشعب؛ كانت القنابل تنفجر فى كل شهر. كنا نعلم أن عبد الحليم موسى، وزير الداخلية الأسبق، يقوم بسلسلة من المفاوضات السرية مع قادة الجماعات المتشددة المتطرفة داخل السجون. وقد شكل لجنة من الوسطاء المعتدلين وكان من بينهم الشيخ الغزالى وعبد الصبور شاهين. وقد وضع الإرهابيون عددا من الشروط ليوقفوا هجماتهم التى كانت تهدد الاقتصاد المصري. وكنت أنا واحد ممن تقرر التضحية بهم لاتباعه منهجا تنويريا فى الفكر الإسلامي. أما بالنسبة للحكومة فقد وجدت إحدى الإجابات فى الجامعة. لماذا يجب على الجامعة ترقية أستاذ أعلن شاهين على منبر المسجد أنه كافر؟ ربما يقوم الطلاب بأعمال شغب ويسببون متاعب للحكومة، وهى فى غنى عن أى مشاكل جديدة. لذا فكر الجميع: يمكن أن تتم ترقية أبى زيد فيما بعد عندما تهدأ الأمور. ولكن كما ترين لم يكن هذا كافيًا لشاهين. أراد توبيخى وإذلالي؛ أراد طردى من جامعة القاهرة. لذا فقد وجدوا ضالتهم ومخرجهم فى قانون الحسبة، وهو قانون للأحوال الشخصية وهو الطريق الأوحد والوحيد لجعل المحكمة تنظر فى قضية الردة. لقد استخدموه كأداة –واستخدموا المحاكم واستغلوها– للتفريق بينى وبين إبتهال[٨]».

توقف أبو زيد لحظة عن الكلام وجال بعينيه مستكشفا الحجرة ثم استدار نحوى وأردف قائلا: «لقد كان الإسكات هو جوهر قضيتي، وما حدث لى يمثل خطرا محدقا بمصر

(٨) بعد حملة دامت سنتين من طلاب أبى زيد ومريديه من الأساتذة تم إبطال القرار السابق، والذى كان قد بنى على تقرير شاهين، وتم منح أبا زيد الأستاذية الكاملة وذلك فى مايو ١٩٩٥. بعد أسبوعين فقط –وبناء على طلب من شاهين– حكمت محكمة الاستئناف على كتاباته أنها تدعو للكفر.

أكثر من أشياء كثيرة قد فعلها المتطرفون المتشددون، كإطلاق النار على حافلة مملوءة بالسائحين والهروب والاختباء فى حقول القصب. لأن الحكم عليّ كان يعنى التسلط على الفكر وقمع العقل. مثله مثل اغتيال فرج فودة، فقد كان إرهابا فكريا من أسوأ الأنواع».

سألته عما شعر به عندما سمع بالأحكام التى صدرت ضده من المحاكم. أجاب قائلا: «كان يجب أن تكون هناك كلمة أكبر من كلمة صدمة، لقد كان الأمر سيئا بصورة كبيرة فى البداية، مع حكم محكمة الاستئناف (فى يونيه ١٩٩٥). كنت، وإبتهال فى المنزل عندما وصلتنا الأخبار. نظر أحدنا إلى الآخر ولم ننطق ببنت شفة. كنت أعمل طوال اليوم فى مكتبى ولم أكن قد حلقت ذقني. لا أتذكر إن كنت قد تحركت من مكانى ساعتها أم لا، ولكن من الواضح أننى فعلت. ذهبت إلى الحمام وحلقت ذقنى وأخذت دشا. بعدها وصل الأصدقاء؛ وضاعفت الحكومة من الحراسة المخصصة لحمايتى».

فى غضون ساعات من الحكم، وصل فاكس من جماعة الجهاد لمنظمات ووسائل الأخبار الأجنبية عن طريق سويسرا، تلك الجماعة التى قام جناحها العسكرى باغتيال الرئيس السادات. «كانت رسالة جماعة الجهاد بسيطة وواضحة» ومضى أبو زيد فى سرد القصة: «كانت تقول إنه واجب إسلامى أن يتم قتلى».

توقف أبو زيد لحظة عن الكلام، بينما كنا نراقب شابين ملتحيين قادمين نحونا تشير طلعتهما أنهما إسلاميان؛ توقفا لحظة ثم اتجها نحو طاولة خلفنا وجلسا عليها.

سألته: «ما هو أفظع الأشياء فيما يخص محاكماتك؟».

رد قائلا: « لقد كان كل شيء فظيعا ومرعبا، لقد كانت مخالفة لقوانينا بصورة مطلقة. وهناك أشياء كثيرة لم أستطع فهمها حتى الآن. فقد كان هناك العديد من الدوائر المختلفة فى المحاكم المصرية، ولكن فجأة تمت إحالة قضية الاستئناف إلى دائرة مختلفة، وقد كان هذا مثار دهشة واستغراب،حتى للمحامين المدافعين عني. لم نستطع أن نكتشف من الذى أحال قضيتى إلى هذا القاضى بالذات -فاروق عبد العليم- والذى كانت سمعته كإسلامى متطرف معروفة جيدا للجميع».

قبل أن يسمع بالقضية بفترة قصيرة كان عبد العليم -الذى كان قد تسلم وظيفة قضائية فى المملكة العربية السعودية، وهجر ارتداء أرواب القضاة وظهر فى المحكمة بدلا من ذلك فى الرداء الإسلامى التقليدى (الجلباب الأبيض والطاقية البيضاء)- قد نشر مقالا مثيرا للدهشة والغرابة فى آن يصدر من قاض وقام فيه بتوجيه انتقادات حادة للقانون المصرى لأنه مخالف للشريعة الإسلامية ولا يسايرها.

فحص أبو زيد الرجلين اللذين جلسا خلفنا بعينيه واستمر قائلا: «كنت مؤمنا بكل صدق أنه وبمعنى أوسع لم أكن أنا المقصود بتلك المحاكمة، ولم أكن أنا من تتم محاكمته. فقد أقام الإسلاميون تلك الدعوى لوضع النظام السياسى الحاكم فى مأزق. فعندما كسبوا القضية طالبوا الحكومة بقتلى على اعتبار أننى مهرطق. ولو قامت الحكومة برفض ذلك عندها يمكنهم القول إن تلك الحكومة غير مسلمة وغير إسلامية».

سألت أبا زيد: كيف يقارن ما حدث له بما حدث مع آخرين فى العالم -كانت قضية الكاتب البريطاني- الهندى سلمان رشدى من أكثر القضايا المطروحة - الذين تم الحكم عليهم بالموت من قبل الإسلاميين المتطرفين؟ أجاب: «لو نظرت لكلتا القضيتين بصورة محايدة وكشخص غير معني، سأقول إن حالتى أكثر خطورة بكثير فى تأسيسها من قضية سلمان رشدى . فما صدر ضد سلمان رشدى كانت مجرد فتوى ولكن الفتوى يمكن إبطالها بفتوى أخري، فهى مجرد رأى ديني. أما الحكم القضائى فهو وجه للحقيقة. إنه أكثر حسما». توقف برهة وقال: «والاختلاف الأعظم الآخر هو أن سلمان رشدى لم يتم أخذ بلده بعيدا عنه ولم يتم إبعاده عن وطنه».

لقد بقى أبو زيد وإبتهال زوجا وزوجة ولم يفترقا. حيث قامت محكمة إدارية بتعليق إجراءات الطلاق لأجل غير مسمي. ومع ذلك لم يبطل حكمها حكم محكمة النقض وظل حكم الردة قائما لم يمس. وما يفعله محامو أبو زيد الآن هو الطعن فى دستورية الحكم وهم يحاولون جاهدين أيضا إثبات وجود «خطأ قضائى وقانونى فادح» من جانب المحكمة- وهى خطوة شجاعة وغير مسبوقة. صحة الطعن على دستورية الحكم، الذى اعتبرها العديد من محامى حقوق الإنسان شكليا فى الغالب، تم قبولها رغم ذلك فى أواخر مايو عام ١٩٩٨ فى محكمة أدنى درجة، ثم تمت إحالتها على المحكمة الدستورية.

عندما سألت أبا زيد عما يشعر به الآن، فى مساء ذلك اليوم فى أمستردام، رد على الفور دون أدنى تردد قائلا: «بالغضب، لا أعرف إن كنت سأستعيد مشاعرى بالحنين نحو بلدى مرة أخرى أم لا، وأنا مصرى حتى النخاع وأحب بلدي. لقد عشت فى الولايات المتحدة لسنتين، كنت كل يوم أتوق للعودة لمصر. ولكنى الآن، لقد أخبرت زوجتى إبتهال بأن لا تقوم بدفنى فى مصر لو مت خارجها، رغم أن حلم كل مصرى أن يتم دفنه فى ترابها».

نظر من النافذة إلى حبات المطر المتقاطرة على رصيف المشاة وإلى سماء الشتاء التى كانت قد أخذت فى الإظلام. وبعد بضع لحظات، التفت إليّ قائلا: «فى البداية، عندما قدمنا إلى هنا، كان قد مر وقت طويل عليّ دون عمل لدرجة أننى كنت أخشى على عقلى من العطب. كنت خائفا جدا من أن أبدا العمل. اعتقدت أنه قد أصاب عقلى دمار من جراء كل تلك الأحداث. وفى يوم ذهبت إلى المكتبة وبدأت فى قراءة نسخة مترجمة من القرآن . قرأت إلى أن حل الظلام. بعد يومين استعدت نشاطى وحيويتي. فقد كنت قادرا على القراءة. شعرت بأننى ولدت من جديد. لأنه لو كان قد حدث وأثر أى شىء على عقلي: لكانو قد نالوا مني! ولكن –ابتسم وأكمل – ما زال بإمكانى التفكير؛ ولم أزل أستطيع العمل؛ ولم أزل أستطيع الكتابة. وطالما لدى تلك القدرات وتلك القوي، لن ينالوا منى أبدا، بمن فيهم أنت يا عبد الصبور يا شاهين».

نقطة التحول

أول من شاهدهم هو سعيد أحمد قاسم: كانوا ستة من الشباب ذوى البشرة السمراء، متوسطى الطول، متوسطى البنية أيضا .كانوا يرتدون قمصانات سوداء وبنطلونات أشبه بزى الشرطة ويحاملون حقائب سوداء. البعض منهم يضع عصابة حمراء على رأسه، وهو شيء غريب على المصريين، تفكّر فى نفسه. ولكن كحارس لمعبد حتشبسوت الرائع الذى يرجع عمره إلى ثلاثة آلاف وأربعمائة عام –والقابع على الجهة الأخرى من النيل فى الأقصر فى صعيد مصر بوادى الملوك،الموقع الذى يحوى مئات المقابر الملكية، بما فيها مقبرة الملك الشاب توت عنخ آمون– فقد رأى قاسم أشكالا مختلفة الأزياء، ولكن عصابات حمراء حول الرؤوس، قال لنفسه فيما بعد، يمكن أن تكون طبيعية لو ارتداها سائحون أجانب، وبصفة خاصة اليابانيون منهم. كانت الساعة الثامنة وخمس وأربعون دقيقة فى صباح السابع عشر من نوفمبر ١٩٩٧، وكان المئات من السياح يتجولون عبر المعبد الهائل الضخامة وفى أفنيته الثلاثة، بينما كان آخرون يسرعون مغادرين الحافلات فى موقف قريب؛ وكان لم يزل هناك آخرون يساومون ويقايضون التجار فى دستة من محلات التحف الموجودة بالقرب من المعبد.

من أفضل الأوقات التى يمكنك فيها رؤية معبد تلك السيدة الوحيدة التى حكمت مصر قبل ألف وأربعمائة سنة من ميلاد المسيح، ومن أنسب الأوقات لمشاهدته دائما هى عند الفجر، عندما تتساقط عليه أشعة الشمس الأولى فى الصباح الباكر: تنساب الألوان البنفسجية الحمراء عبر أروقة المعبد وجروف الحجر الجيرى شديدة الانحراف فى المكان المقام فيه المعبد، ويبدو بطريقة ما وبصورة سحرية أنها ترفع المعبد أعلى وأعلى فوق الصمت المطبق والفراغ القاتل اللذين يغلفان الصحراء المترامية وراءه.

عندما مر الرجال الستة من أمامه متجهين نحو مقبرة حتشبسوت استوقفهم قاسم طالبا منهم إبراز تذاكر الدخول. يعتقد قاسم أنها معجزة أن تلك الكلمات لم تكن آخر كلمات نطق بها. فتح أحد الأشخاص الستة جاكتته السوداء وقال «ها هى بطاقتي». وأخرج مسدسا آليا إى كى ٤٧، وأطلق النار على قاسم وثلاثة من زملائه. تفرق أربعة من هؤلاء الشباب بعيدا وتسابقوا متسلقين الطريق المنحدر للمعبد. بقى الرجل المسلح الذى أطلق النار على قاسم ومعه أحد رفاقه فى الخلف، بالقرب من المنطقة التى سقط فيها قاسم، عند مدخل منصة حتشبسوت المثلثة الطبقات كتحفة فنية. أخرجوا علبا من الكوكاكولا من حقائبهم السوداء، وأشعل أحدهم سيجارة وانخرطوا فى الحديث معا بينما كانوا فى انتظار هجوم مضاد من الشرطة، ذلك الهجوم الذى لم يأت أبدا.

فى تلك الأثناء قام الرجال الأربعة الآخرون -ربما بدعم من آخرين كانوا مختبئين بين أروقة المعبد- بفتح النيران بكفاءة لا تعرف الرحمة. كان هجوما محكم التخطيط. ركضوا فى البداية عبر الرواق الأول، بعدها تسلقوا منحدره اثنين اثنين. وبمنهجية وحرفية عالية كانوا يتنقلون من جانب إلى آخر، أطلقوا الرصاص بكثافة وغزارة من مسدساتهم الآلية إى كى ٤٧ على السائحين المتحركين فى أسراب بصورة مباشرة ومن مدى قريب. تم فصل الأمهات عن أطفالهن؛ وأخذ الناس فى الصراخ والعويل، كان منظرا تقشعر له الأبدان وتشيب من هوله الولدان؛ قتل فيه أربعة أزواج يابانيين كانوا يقضون شهر العسل، ماتوا بين أحضان بعضهم البعض بينما كانوا يحاولون يائسين العثورعلى مأوى لهم خلف صف أعمدة الميلاد. كانت تلك المذبحة من أكثر المذابح دموية ومن أقسى العمليات الإرهابية فى التاريخ المصرى الحديث، ومن أكثرها دمارا وتحطيما منذ مقتل أنور السادات على أيدى جنوده فى العرض العسكرى عام ١٩٨١، قبل ذلك بستة عشر عاما .

تم قتل اثنين وستين شخصا فى تلك المذبحة جميعهم من السائحين الأجانب عدا أربعة. لم يلق الرجال المسلحون أية مقاومة. لأنه لم يكن هناك سوى اثنين من رجال الشرطة (وتم إطلاق النار عليهما) يقومون على حراسة معبد حتشبسوت فى ذلك اليوم، وذلك رغم أنه واحد من أهم المواقع السياحية المشهورة فى مصر، وكان ينبغى على المسئولين أن يعرفوا

إمكانية أن يكون هدفا واضحا للجماعات الإسلامية المسلحة. استمر القتلة يطاردون فريستهم لمدة خمس وأربعين دقيقة. ويطلقون عليهم النار حيث يرقدون أو يزحفون فى خوف ورعب. لم يرحموهم أبدا. بحث العديد منهم عن ملاذ آمن هناك خلف رواق الميلاد، وهو عبارة عن ملاذ صغير خلف شرفة واسعة، حيث تصور الجداريات تناسل وميلاد الملكة الفرعونية، تلك الملكة التى حكمت مصر زهاء عشرين عاما فى أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد، لكن دون جدوي، لم يكن الأمان سوى سراب. ولم يكن هناك من مأمن فالموت فى كل مكان هو الحقيقة الوحيدة، إذ لم يمنحهم الرواق طريقا للهرب. وخضب الدم أرضية المعبد الرملية وتناثرت أجزاء من اللحم البشرى على الجدران بما فيها أجزاء من فروة الرأس وكان لم يزل الشعر عالقا بها . كان الدم يخضب المكان كله وآثار الأصابع الدامية واضحة على الأعمدة الصخرية. وتحتها قرط ذهبى يتدلى من أذن سيدة فى وسط الرمال.

أخيرا وبعد أن تحرك المسلحون مبتعدين، وعم الصمت المكان الذى يحوى جثمان الملكة حتشبسوت، تم إخراج جثث السائحين. حيث جثث الألمان مختلطة مع السويسريين مع البريطانيين مع اليابانيين : رجالا ونساء وأطفالا؛ صغارا وكبارا؛ أزواجا متقاعدين وأطفالا فى السادسة من العمر.

كان من الصعب أن يفهم الناس معنى للوحشية المفرطة فى هذا الهجوم، وحشية وصلت حد الشذوذ. فقد كان من بين الضحايا من تم تقطيعهم بالساطور، وآخرون تم ذبحهم وتم تمزيق حناجرهم. وقد قال أحمد يوسف علي، وهو صحفى مقيم بالأقصر: إنه وفى أثناء زيارته لمشرحة الأقصر فى تلك الليلة رأى جثة سويسرى مقطوعة الأنف وأخرى لسيدة يابانية مقطوعة الأذن. كما أنه كان قد شاهد طبيبا يخرج منشورا مخضبا بالدماء كان محشوا فى أمعاء جثة لعجوز يابانى . كانت الرسالة التى حواها المنشور بسيطة كما قال أحمد «لا للسياح فى مصر» وكان التوقيع « سرية عمر عبد الرحمن للدمار والخراب- الجماعة الإسلامية».

عندما قمت بزيارة المعبد مرة أخرى بعد شهرين من المذبحة، كانت الصحراء المحيطة بالمكان قد بدأت فى إصلاح الموقع بطريقة غريبة ومخيفة. فقد كانت الرمال والأتربة تتراقص

فى أروقتها الممتدة الخالية من كل شىء تقريبا، وكانت شمس الغروب فى شهر يناير تنساب عبر بواكيها الحجرية، التى كانت آثار المذبحة حيث مازالت تلوثها بقع الدم. كان هناك نلك الظل الذى يميز الإيقاع المتواصل للزمن المصري. لم يكن هناك من شىء ليكسر هذا الصمت المطبق سوى رياح الصحراء. هناك تمثالان لرجلين من حكماء مصر، يمسك كل منهما بمفتاح الحياة، واقفين كحراس، كما كانا يفعلان منذ آلاف السنين، عند مدخل غرفة دفن الملكة حتشبسوت، شرنقتها للخلود.

كان عدد رجال الأمن فى المعبد عصر ذلك اليوم يماثل عدد السائحين، نحو أربعة وعشرين فردا تقريبا. وكان جميع الزائريين الذين أتوا للاحتفال بعيد الفطر من المصريين . بالإضافة إلى قلة من الروس الذين قدموا من منتجع الغردقة الكائن على البحر الأحمر ولكنهم كما قالوا لى سيغادرون الأقصر قبل حلول الظلام.

أما عن الستة رجال المسلحين الذين بدا وكأنهم أشخاص عاديون جدا عندما وصلوا، فقد غادروا المعبد ببطء وبهدوء وبلا رعب ولا ألم كما أخبرنى أصحاب المحلات عصر ذلك اليوم. فقد كانوا يختالون ويتبخترون ويضحكون ويصرخون مهللين: «الله أكبر!، لقد قتلنا كل السياح!».

بينما كان الرجال المسلحون يقومون بحشو بنادقهم الآلية الـ إى كى ٤٧، بأمشاط ذخيرة جديدة لإنهاء مهمتهم- أطلقوا النار على سائح تصادف وجوده فى أحد البازارات أو فى باحة وقوف السيارات المجاورة للمكان—كان حجاج النحَّاس فى طريقه بحافلته السياحية التى كان يقودها عائدا متوجها نحو المدخل الرئيسى لمجمع مبانى المعبد. ففى نحو الساعة الثامنة والنصف، أى قبل بدء المذبحة بخمس عشرة دقيقة كان قد قام بتوصيل مجموعة من السياح السويسريين الذين وصل عددهم ثلاثين، وكان قد عاد لتوه ليقلهم فى رحلة العودة بعد زيارتهم للمعبد. لقى جميعهم حتفهم فى المذبحة ما عدا ثمانية منهم. ولكن حجاج النحاس لم يكن ليعرف أن هناك شيئا ولم يعلم شيئا عما حدث حتى أوقفه المهاجمون وأمروه أن يقلهم بحافلته إلى مكان آخر « ليتمكنوا من قتل آخرين» هذا ما قاله النحاس فيما بعد. قاد النحاس الحافلة بهم تحت التهديد محاولا تضليلهم وتضييع الوقت والفرصة عليهم ودار

بهم حول المنطقة المحيطة وعبر القرى المبنية بالطوب اللبن وحول البازارات التذكارية ونحو المقابر القديمة الأخرى آملا ومصلّيا أن تظهر الشرطة وتأتى . استمر النحاس فى القيادة بهم لنحو ثلاثين دقيقة تقريبا فى دوائر أكثر اتساعا ولكن دون فائدة. فلم تصل الشرطة إلى المعبد إلا بعد ساعة من انتهاء المذبحة.

فجأة خطر ببال النحاس أن هناك نقطة تفتيش يوجد بها اثنان أو ثلاثة من الحراس بالقرب من طريق فرعى يؤدى إلى وادى الملكات، وهى تبعد نحو نصف ميل تقريبا عن مقبرة حتشبسوت. انطلق النحاس بحافلته مسابقا الريح فى الطريق الصحراوى المنحدر. عندما وصل النحاس لنقطة التفتيش ضغط بقوة على الكابح فأوقف الحافلة واندفع المسلحون خارج الحافلة، وقام أحدهم بضربه على صدره بقوة بمؤخرة بندقيته. ثم حدث تبادل لإطلاق النار بين المسلحين ورجال الشرطة. جرح أحد المسلحين (كما أصيب أيضا اثنان من الحراس الثلاثة). وقبل أن يهرب رفاقه على الأقدام إلى التلال الصحراوية القريبة أطلق أحدهم الرصاص على رفيقهم المصاب فأرداه قتيلا برصاصة فى رأسه.

آخر مرة شوهد فيها المسلحون الخمسة بزيهم الأسود أحياء، كان بواسطة عشرات من القرويين الغاضبين من قرية الجرنة القريبة الذين كانوا قد تتبعوا حافلة النحاس -كان بعضهم راكبا دراجات نارية والبعض دراجات، وآخرون على ظهور البغال أو الحمير- كانوا يركضون عبر التلال، أشكال غير مميزة ظلت تتضاءل وتتضاءل حتى اختفت وابتلعتها الجدران العالية الحجرية فى الصحراء.

ما حدث فيما بعد يظل أحد الأسرار والألغاز الرئيسية فى المذبحة: فما زال الأمر يخلو من معلومات مؤكدة عن الكيفية التى تم بها قتل المسلحين!. فقد أسرعت حكومة مبارك لتعلن أنهم قتلوا برصاص رجال الشرطة المصرية بعد معركة مطولة تم فيها تبادل إطلاق النار فى وادى الملكات. ولكن طبقا لنتائج تحريات أمنية لا تزال سرية، يبدو هذا الأمر مستحيلا أن يكون قد حدث، حيث إن حفنة رجال الأمن الذين طاردوهم (طبقا لما قاله القرويون كان هناك واحد فقط، رجل الشرطة الذى بقى على قيد الحياة من الثلاثة الذين كانوا فى نقطة التفتيش التى وقف عندها النحاس) لم تكن لديهم أسلحة بمدى يكفى لضرب الرجال فى الزى الأسود الذين ماتوا فى دائرة داخل كهف عميق.

وطبقا لتقارير صحفية مصرية رأت أن المسلحين تم قتلهم بواسطة القرويين الذين طاردوهم على ظهور البغال والحمير. ولكن القرويين أخبرونى أن هذا مستحيل: ففيما عدا العصى والصخور والسكاكين فلم تكن لدى القرويين أية أسلحة.

الشيء المؤكد تقريبا أن المسلحين قد لقوا حتفهم متأثرين بجراحهم التى سببوها لأنفسهم. ولكن هل قتل بعضهم البعض؟ أم هل مارسوا انتحارا شعائريا طقسيا؟ أم، كما ادعت الجماعة فيما بعد، أن هناك أكثر من ستة متورطين فى المذبحة؟ (قالت الجماعة إنه يوجد خمسة عشر مسلحا). فإذا كان الأمر كذلك، هل قام قاتل غير معروف من الجماعات الإسلامية السرية بقتل الرجال الخمسة الذين كانوا قد وصلوا لمقبرة حتشبسوت مستقلين سيارة بيجو تاكسى زرقاء اللون، وكانوا يشربون الكوكا الأمريكية ويدخنون السجائر الأمريكية أيضا؟

كانت الأسئلة أكثر من الأجوبة فى مساء ذلك اليوم من شهر يناير. بينما كنت أتجول حول المعبد والمحلات المحيطة به وجلست مع مجموعة من القرويين بالجرنة، وذلك فى مقهى صغير. أقسم لى اثنان من أصحاب البازارات التى حدثت أمام محلاتهم الصغيرة المذبحة الكبري، أن المهاجمين الذين أطلقوا النار على رجال الشرطة على بعد أقدام قليلة من محلاتهم كانوا يرتدون سترات من قماش الدنيم الأزرق الباهت، وبنطلونات من الجينز ولم يكونوا فى ملابس سوداء. عندما وصلت المذبحة إلى نهايتها لم ير أحد هذين الشابين بأزيائهما القطنية الزرقاء.

ادعى القرويون وأصحاب المحلات أن كل واحد من المسلحين بملابسهم السوداء، كان يحمل جهازا لاسلكيا، وكان اثنان على الأقل يتحدثان فيه وهما يعبران أمام المحلات فى طريقهما لموقف السيارات حيث قاموا باختطاف النحاس وحافلته.

وتساءلت « من هم؟ ومن كانوا؟ ولم قاموا بتلك المذبحة؟».

وبعد حوارات كثيرة ونقاش عقلاني، استدار لى أحد القرويين المسنين وقال إنه أثناء مذبحة المعبد، كان من وقت لآخر يتم إصدار أوامر باللغة العربية بالطبع ولكن بلهجة قاهرية مميزة لا تخطئها أذن، على الرغم من أن خمسة من الرجال المسلحين بالزى الأسود كانوا

من القرى والمدن الصغيرة الموجودة فى صعيد مصر، من مناطق ليست بعيدة عن الأقصر ووادى الملوك والمقابر الفرعونية التى تنتمى لآخر فترة مزدهرة فى التاريخ المصري.

وحتى وقت قريب جدا كانت لدى الرئيس حسنى مبارك قناعة مفادها، أن حكمه استطاع أن يقوض ظهر التمرد الإسلامى الذى دام ست سنوات. وإلى حد ما ربما يكون محقا. فكل القادة الأصليين للجماعات السرية إما فى السجون أو فى المنفى أو موتي. كان قد تم كسر سلاسل وحلقات إصدار الأوامر، وكانت الجماعة الإسلامية أو جماعة الجهاد -صاحبة التنظيم عالى التقنية- قد صارت خاضعة لجماعات أو خلايا سرية مفككة. بسبب إجبار الجماعة الإسلامية على التراجع إلى القرى والمدن الصغيرة فى صعيد مصر حيث جذور الحركة: وهى المناطق التى تئن من الفقر المدقع؛ حيث العداوات الدامية ومشاكل الثأر؛ وحيث الصحراء بقسوتها والجبال بصمتها؛ والمجتمعات المغلقة. إنها منطقة لا تختلف عن إمبابة، الحى القاهرى الفقير المزدحم بالسكان، والذى انسحبت منه الحكومات المصرية المتعاقبة، وحيث كان المتطرفون الإسلاميون قد خسروا أرضا مهمة إلى حد بعيد.

فمن الصعوبة بمكان أن تعرف من هم هؤلاء وما هى هويتهم، حيث إن الكثير من الحركات ترتدى أقنعة الآن. هؤلاء الرجال بسيماهم العادية الصارخة، فى زيهم الأسود الذين ارتكبوا مذبحة معبد حتشبسوت، بلا ندم ولا تأنيب للضمير، والرجال الذين أصدروا لهم الأوامر -هم نفس الرجال الذين خططوا لمحاولة اغتيال الرئيس مبارك فى أديس أبابا- لم يختلفوا كثيرا عن تلك المرأة الفرعونية الوحيدة التى حكمت مصر القديمة، والتى من مقبرتها قاموا بإرسال رسالتهم للعالم. كانت حتشبسوت قد خبأت نفسها وتخفَّت خلف لحية مستعارة لكى تتمكن من حكم البلاد. والغالبية العظمى من الرجال المسلحين، شأنهم شأن معلميهم ومرشديهم فى أفغانستان قبل جيل مضي، كانوا طلابا لامعين متميزين فى الدراسة، وفى كليات القمة كما يطلق عليها، أكثر الكليات طلبا وأعلاها مكانة.

ومع ذلك كانت تلك العملية التى نفذها هؤلاء المتطرفون المصريون مخيفة حتى بالمقاييس الجزائرية، فى الجزائر حيث راح ضحية الإرهاب فيها نحو سبعين ألفا، تم

ذبح الكثير منهم، فى الحرب الانتقامية المتصاعدة فى ذلك البلد بين قوات الأمن والجماعات الإسلامية المتطرفة .

كانت تلك الحرب قد تزامنت فى بدايتها مع الحرب فى مصر. فقد بدأت عام ١٩٩٢ بعد أن قامت الحكومة العسكرية بإلغاء الانتخابات عندما بدا واضحا ومؤكدا أن الإسلاميين سيفوزون بنتيجتها. مصر ليست كالجزائر . ولكن من الواضح أنها ستلحق بها .

أسرعت حكومة مبارك لتعلن نتائج تحليلاتها ومناقشاتها مستنتجة أن الوحشية المتضمنة فى عملية الأقصر ليست إلا دليلا على يأس الجماعات الإسلامية المتشددة وإفلاسها وافتقارهم للقوة. تكمن المغالطة الواضحة فى هذا الاستنتاج فى أن العمليات الإرهابية التى اعتاد الإسلاميون فى مصر ارتكابها كانت تأتى دائما فى موجات، وأن انحسار أحد الأجيال يكون دائما مبشرا بميلاد جيل آخر يكون أكثر عنفا.

أبناء الجهاد الذين ظلوا فى الخلفية بعد أن انتهت الحرب وصمتت قعقعة الأسلحة، رجال من أمثال المنظِّر المصرى المهندس مصطفى حمزة؛ والمحاسب الرقيق معسول الكلام رفاعى طه: وقائد تنظيم الجهاد الطبيب أيمن الظواهرى – كل الذين شملتهم الاتهامات فى محاكمات اغتيال الرئيس السادات– وأسامة بن لادن، المليتيمليونير السعودى والممول الذى ظل أحد أهم الممولين لهم، أرسلوا رسالة واضحة فى عملية وادى الملوك مفادها أنهم يملكون الآن أجندة خطيرة بل وأخطر مما قاموا به من قبل.

بالنسبة لى أنا فإن من أكثر المظاهر المخيفة والمرعبة فى مذبحة الأقصر هو، أن قائد الخلية التى نفذت الهجوم المدعو مدحت عبد الرحمن، يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاما ولم ينه سوى دراسته الثانوية، وكان جنديا متمرسا من جنود الجهاد. لم يجد صعوبة فى تجنيد شباب من أفضل الكليات فى صعيد مصر، وممن تلقوا تعليما أفضل منه، ومن عائلات بارزة ومحترمة أكثر وأفضل من عائلته هو.

فى القرى والمدن المصرية الصغيرة فى صعيد مصر والتى غالبا ما تكون أماكن منعزلة تحتضن ضفاف النيل، اتخذ العنف والعنف المضاد الذى انغمست فيه أجهزة أمن مبارك

والجماعات الإسلامية المتطرفة شكلا خاصا بها. فمن ناحية، تعتبر تلك الأماكن بسيطة جدا فكريا وسياسيا، ولكنها أكثر وأكثر عنفا ودموية. ومع استمرار العملية فإن القيادة التقليدية يتم تحديها ومقاومتها بصورة متزايدة وتصبح الولاءات التقليدية أكثر وأكثر غموضا وتشوشا .

بينما كنت أشاهد حسنى مبارك فى الأقصر فى اليوم التالى للمذبحة، قد أخفى غضبه الشديد، ظننت أنه يبدو وكأنه لم يكن يدرى حقا ما الذى كانت تفعله قوات أمنه فى صعيد مصر، رغم أن فظائعهم ترتكب باسمه. ومن الواضح أن الشيخ عمر كذلك وهو فى محبسه الانفرادى فى سجنه بالولايات المتحدة لم يكن يدرك أيضا المدى البعيد الذى وصلت إليه الجماعة الكبيرة التى وضع بذرتها، وأصبحت خارج سيطرته . فكل من الجندى والخطيب اللذين هجرا قراهما الواقعة فى دلتا النيل مقتفين أحدهما لخطى الآخر، لذلك العدد الكبير من السنوات بدا أنهما الآن معزولان ومهمشان بصورة متساوية خارج المعركة التى تدور رحاها بين جيشهما وباسميهما.

قبل ستة أشهر من مذبحة الأقصر صرخ متهم إسلامى من داخل قفصه فى قاعة من قاعات المحاكم المصرية بإعلان، لم يكن فقط فريدا وغير مسبوق بل ومدهش أيضا : قال إن أعضاء الجماعات الإسلامية المسجونين أعلنت وقفا غير مشروط لإطلاق النار. ولقد تجاهل نظام مبارك تلك الرسالة التى تم تسليمها مبكرا فى يوليو.

جميع قادة الجماعة وهم ستة من الأعضاء المؤسسين (وانضم إليهم أخيرًا اثنان من الجهاد) يقضون عقوبة السجن مدى الحياة على خلفية دورهم فى اغتيال الرئيس السادات. بينهم العقيد عبود الزمر الضابط السابق فى المخابرات العسكرية، والقائد العسكرى لتنظيم الجهاد. وفى غضون أسابيع قليلة صادق الشيخ عمر عبد الحمن على مبادرة وقف إطلاق النار. وبذلك يكون قد تم دعم تلك الدعوة بواسطة اثنين من الثالوث المتشدد. فقد تعب القادة العسكريون من قتالهم ضد الدولة، والذين أدركوا، بعد النجاحات التى حققتها الدولة عبر السنتين الماضيتين، أنهم لن ينتصروا أبدا. فقد تم إبعادهم خارج القاهرة. وقد بلغ عدد الإسلاميين المسجونين عشرين ألفا. ومال ميزان الإصابات فى صالح قوات

الأمن ضد المتطرفين بنسبة اثنين إلى واحد. كذلك تم تفكيك مؤسساتهم الاجتماعية المؤثرة من مستشفيات ودور أيتام ومدارس عن طريق نظام الحكم كما تم إغلاق مساجدهم . كانت نداءاتهم لوقف إطلاق النار بتعبير صحيفة القدس العربى التى تصدر فى لندن، «واحدا من أهم التطورات فى المشهد العربي» فى السنوات الأخيرة، إلا أن الأعضاء الستة المنفيين من أعضاء المجلس التنفيذى للجماعة رفضوا هذه المبادرة وتنصلوا منها.وبدا واضحا أن تلك الحركة، التى تبعثر قادتها فى ثلاث قارات من العالم، أصبحت منقسمة على نفسها.

على أية حال، لم تكن هناك أية ردود فعل إيجابية من الحكومة تجاه تلك المبادرة: فلا مفاوضات؛ ولا إطلاق سراح لسجناء كان قد تم القبض عليهم دون تهم وصدرت أحكام من المحاكم بإطلاق سراحهم؛ كذلك لم تتم أى تحسينات على أحوال السجون؛ ولم تسرع الحكومة فى عملية التقاضى أو تقديم الإسلاميين لمحاكمتهم أمام محاكم مدنية بدلا من المحاكم العسكرية.. وبدلا من ذلك سخرت الحكومة من المبادرة ومن الدعوة لوقف إطلاق النار واستمرت فى غزواتها على مدن وقرى صعيد مصر واستمرت كذلك اعتقالاتها. وزاد عدد الإسلاميين الذين تم قتلهم برصاص قوات الأمن أثناء الاشتباكات بينهم.

كان المحامى الإسلامى منتصر الزيات، وهو رجل ضخم ثقيل الحركة، من أكثر الناس المهتمين والمعنيين بالتفاوض من أجل وقف إطلاق النار. كنت قد تعرفت إلى منتصر الزيات منذ عام ١٩٩٣، حينما بدأت الكتابة عن الشيخ عمر الذى كان منتصر يمثله فى القاهرة. ولما كان حرا خارج الأسوار، كنت قد قضيت معه العديد من الليالى الطويلة فى شقته المكونة من أربعة مكاتب فى الطابق الخامس من مبنى متداع للسقوط فى وسط القاهرة. عندما قابلته كان بالفعل المتحدث غير الرسمى باسم الجماعة، التى كان قد انضم إليها عندما كان طالبا فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة فى السبعينيات عندما تم إنشاؤها. وعلى مر السنين أصبح منتصر الزيات، ربما أكثر من أى شخص آخر، عينى وأذنى إلى العالم المغلق للجماعات الإسلامية المتطرفة.

ونتيجة لذلك فقد بحثت عنه والتقيته قبل أن آتِ إلى صعيد مصر. كان منتصر الزيات قبل أسابيع قليلة قد أعلن اعتزاله عن الجماعة متأثرا ويائسا من فشله فى تفعيل وقف إطلاق النار وفزعا من مذبحة الأقصر. وبالتبعية تخلى أيضا عن دوره كأهم المحامين المدافعين الذين يمثلون الإسلاميين المتطرفين أمام المحاكم العسكرية.

بينما كنت جالسة فى مكتبه أنتظر حضوره عدت بذاكرتى إلى الوراء، وتعجبت فقد كان مكتبه مختلفا كلية عن الحال التى صار عليها قبل شهور قليلة، عندما زرته، فى تلك الليالى التى أتاحها لي، كن عشرات من المحجبات يزحمن حجرات الانتظار الخاصة بمكتبه، ومن لا تجد مكانا تنتظر فى الصالة، كن يبحثن عن معلومات عن ذويهن سواء كانوا أبناء أم أزواجا أم آباء. فقد كن زوجات وبنات وأمهات المصريين المختفين. (الذين تم إلقاء القبض عليهم وانقطعت أخبارهم).

أتذكر أمسية محددة من تلك الأمسيات، كان ذلك قبل عام أو ما يقرب من عام، وذلك عندما وصلت النسوة وكن أربعًا فى تلك الليلة. كانت تتراوح أعمارهن بين الثلاثين والستين وكن جميعا منقبات.كن بصحبة رجل نحيل مسن ينطق وجهه بالحكمة وله لحية بيضاء. عندما لحقن بى فى حجرة الانتظار أدخل الرجل بهدوء وعناية سماعات فى أذنيه.

لم أكن قد ذهبت بحثا عن هؤلاء السيدات، ولكنى فقط اصطدمت فقط بحكاياتهن فى تلك الليلة.

كن جميعا من إمبابة وكن أميات (لا يعرفن القراءة ولا الكتابة) ولم يكن يعرفن بعضهن البعض من قبل حتى التقين فى أحد مراكز الشرطة المحلية. وكن يبحثن عن أبنائهن. كان سعد فى الثامنة عشر من عمره وحسين فى الثالثة والعشرين وأحمد فى الخامسة والثلاثين عندما أتى ضباط مباحث أمن الدولة واصطحبوا أولادهن وأخذوهم بعيدا عنهن.

قالت والدة سعد فى البداية: «لقد كانوا يجمعون كل الشباب فى المنطقة (إمبابة). فقد أتوا كما كانوا يفعلون دائما، فى المساء بعد أن أظلمت الدنيا بقليل. حاول ابنى الاختباء ونجح فى ذلك لمدة أسبوع واحد، ولكنهم استمروا فى العودة بحثا عنه. وأخيرا وعندما يئسوا من العثور عليه، أخذونى أنا ووالده وأخويه الصغيرين اللذين كانا فى العاشرة والثانية عشرة من العمر، بدلا منه. أخذونا الى قسم الشرطة فى إمبابة وقاموا بضرب الولدين الصغيرين بقسوة بالغة وبصفة مستمرة لتسعة أيام: قاموا بصب ماء يغلى عليهما وعذبوهما بالصدمات الكهربائية. استمر أولادى فى الإنكار بأنهما لا يعرفان أى شيء عن مكان اختباء سعد ولا يدريان أين هو ولكن دون جدوي.

كنت أجلس فى حجرة مجاورة أسمع صراخهما يصم أذنى ويحترق قلبي، ولكن ما الذى فى يدى لأفعله؟ كنت بلا حول ولا قوة. عندئذ أدخلونى إلى الحجرة فى اليوم الرابع وربطوا ابنى الأكبر فى كرسي ووصلوا سلكا كهربائيا لكعب قدمه. وقاموا بإعطائه صدمات كهربائية وهم يضربونه بالسوط فى نفس الوقت حتى سقط فاقدًا الوعي». نظرت حولها متفحصة المكتب واستمرت قائلة: « كان ابنى طفلا فى الثانية عشرة من عمره فقط».

فى مساء اليوم التاسع قام سعد، وقد كان طالبا فى كلية الطب، بتسليم نفسه. لم يتم توجيه أية تهمة له ولم يتم تقديمه لمحاكمة. وقد مر على ذلك أكثر من عام ولم تزل والدته تجهل سبب اعتقاله ومكانه.

حل علينا جميعا صمت ووجوم لدقائق قليلة بعدها استدار نحوى الرجل العجوز والذى كان والد سعد وقال: « كان من المنطقى والطبيعى أن يتم تركنا وشأننا بعد أن سلم سعد نفسه، ولكن ما حدث هو العكس، فقد استمر رجال مباحث أمن الدولة فى القدوم ليلا من وقت لآخر. كانوا يريدون معرفة من كان يزورنا، لم يكن ليتركونا فى حالنا. كانوا يأتون أحيانا فى الواحدة صباحا أو فى الثالثة صباحا أو فى الرابعة يطرقون بقوة على الباب. ذات ليلة عندما جاءوا قاموا بنزع الباب!».

سألته « لماذا؟»

أجاب: «إنهم يقومون بذلك طوال الوقت، لقد سبق ونزعوا أبوابا كثيرة. وهى طريق للضغط على مالك العقار حتى يقوم هو بدوره بالضغط علينا من أجل منع أبنائنا من الذهاب للمسجد».

بدأ الرجل يهتز فى كرسيه للخلف والأمام، كان رجلا عجوزا نحيلا ضعيفا ضئيلا، وكان يرتدى جلبابا بنيا ويضع كوفية حول رقبته، يبدو مغمورا بين السيدات الأربع اللائى كن يحطنه فى أثوابهن الطويلة السوداء.

بعد دقائق قليلة استمر قائلا: «بصفة خاصة، أتذكر ليلة عندما قاموا باقتحام شقتى من الشرفة ومسدساتهم مصوبة إلينا. بدا الأمر وكأن أناسا هبطوا علينا من السماء بأسلحتهم الآلية».

جـاءت نسوة أخريات وذهـبن بينما كنا نحن منخرطين فى حديثنا. وجوه كثيرة مخططة. كن جميعا فى أثواب طويلة سوداء. وقد تمت تنشئتهن من أجل هدف واحد هو الزواج وتكوين أسرة ورعايتها، لقد ربطن حياتهن بالأسرة وعشن من أجلها، وفجأة تسرب الحلم وانتهى كل شيء. ويقدر عدد الأمهات اللائى فقدن أولادهن نحو ست إلى سبعة آلاف أم مصرية.

كانت تجلس بجوارى سيدة ضخمة فوق أريكة ضعيفة مزعزعة عتيقة، وكانت تدعى أم محمد، أخبرتنى أنها كانت قد تطلقت من زوجها حين عرفت أنه يعمل مرشدا للبوليس. التزم الأخريات الصمت عندما بدأت تتحدث.

قـالت: «إن صـراخ ابنتهـا آمال فاروق البالغة من العمر ثمانية وعشرين عاما جعلها لا تقوى على النوم، وتبقى ساهرة طوال الليل لشهور كثيرة. وقد كان الكابوس دائما واحدا منذ أن تم اعتقال آمال عن طريق مباحث أمن الدولة، الذين اتخذوها رهينة واحتجزوها فى حجرة رطبة ومظلمة، بينما كانوا يحاولون جمع أدلة ضد زوجها، أحمد، وهو زوج ابنتها المحبب إلى قلبها». إن إستراتيجية الحكومة الجديدة فى استهداف السيدات فى حربها المتزايدة القذارة، حتى إن بعضا من مصادرها الرسمية يعترف بذلك، تعد شيئا سيئا وتجاوزا غير مقبـول، ولكنه يهدف بالدرجة الأولى إلى كسر الروح المعنوية لدى المتطرفين الإرهابيين من الذكور.

كان قد تم القبض على آمال بعد ساعات فقط من القبض على أحمد (الذى يقضى الآن عقوبة السجن لخمسة وعشرين عاما على خلفية دوره المزعوم فى محاولة اغتيال وزير الإعلام). أراد رجال مباحث أمن الدولة من آمال أن تخبرهم عن أصدقاء أحمد وأن تدينه وتدين أعماله فى التليفزيون الحكومى وتعلن أنه إرهابي. لكن آمال رفضت. عندها وببطء وبمرور الأيام بدأوا ضربها وتطور التعذيب إلى ماهو أسوأ.

قالت أم محمد: «مزقوا حجابها ونزعوه عنها وعصبوا عينيها، بعدها نزعوا عنها ملابسها عدا الداخلية منها وعلقوها بخطاف فى سقف الحجرة عن طريق ربط يديها فيه. ثم بدأوا فى السخرية منها وقذفها بأقذع الألفاظ؛ ثم جلدوها بالسياط؛ وركلوها بأقدامهم

في بطنها؛ ثم شرطوا ظهرها باستخدام شفرات حادة. قالت آمال كان هناك نحو سبعة أشخاص على الأقل في الحجرة، وكان بعضهم يغنون فرحا وهم يضربونها ولكم كانوا سيستمتعون لو قاموا باغتصابها».

من حجرة مجاورة تناهى صراخ أحمد إلى آذان آمال متألما «يا أولاد الحرام ! اتركوها وشأنها فأنا لا أعرف شيئا».

بقيت آمال رهن الاعتقال وفي عزلة تامة عن العالم عشرة أيام.

وفي صباح اليوم الأخير أخذها ضابط يدعى محمود حسني وأدخلها إلى حجرة صغيرة ونزع عنها ملابسها كلها وأبقاها أمامه عارية. وبينما كانت ملقاة على الأرض مرتعشة ومرتعدة تحاول جاهدة أن تستر نفسها، كان هو يعدها بمنحها حريتها وبمبلغ كبير من المال إذا وقّعت اعترافا بخط يدها تعترف فيه أن أحمد إرهابي. وعندما رفضت آمال استدعى حسني رجلا آخر إلى الحجرة وقال له: « هذه العاهرة ملكك، هيا اغتصبها». عندما بدأ الرجل في نزع ملابسه فزعت آمال وصرخت قائلة: «وهو كذلك سأوقع على ما تريد». تم إطلاق سراحها في تلك الليلة دون توجيه أية تهم إليها.

بعد أسابيع من ذلك، تقدمت آمال بطلب للسماح لها بحضور محاكمة أحمد المنعقدة أمام محكمة عسكرية، وذلك لتقديم شهادتها بأن الاعتراف الذى وقعته ضد زوجها كان قد تم انتزاعه منها تحت التعذيب. وقد رفضت الحكومة طلبها لدواع أمنية. بعد ذلك تقدم أحمد بشكوى لصالح آمال لوزارة الداخلية ضد محمود حسني والآخرين الذين كانوا قد تورطوا في موضوعها. ردت السلطات باعتقال آمال مرة أخري.

قطعت السكرتيرة حبل أفكاري الذى كان شاردا متفكرا في تلكم السيدات في ثيابهن السوداء قائلة: إن منتصر الزيات قد وصل. بدا منتصر متثاقل الخطى أكثر من المعتاد وأكثر من آخر مرة التقينا فيها، كما بدت لحيته أكثر بياضا. كانت عيناه شديدتي الاحمرار ومتورمتين، كان التحرر من الوهم يحيط بجسده الضخم. حياني منتصر بحرارة رغم أنه لم يسلم عليّ بيده (كما لم يفعل ذلك أبدا). فقد كان ذلك لا يجوز في الإسلام. ومع ذلك كان هناك أمر يثير فضولي دائما وما زال وهو، أنه لا منتصر الزيات، ولا أى شخص ممن

قابلتهم ممن ينتمون للجماعة، كان قد طلب منى أن أخلع حذائى فى حضورهم أو أن أضع حجابا، الشىء الذى كان يطلبه منى دائما قادة الإخوان المسلمين الأكثر اعتدالا وانتشارا.

بينما كنا نتخذ مجلسنا فى مكتب منتصر الزيات بادرته بسؤالي، لماذا قرر التقاعد والانزواء وهو لم يبلغ سوى السادسة والأربعين من عمره.

أجاب ببساطة شديدة: «إننى متعب ومرهق، لقد تم إحباطى منهم جميعا: وقد سئمت من التعامل مع الإخوة قادة الجماعة فى الداخل والخارج؛ ومن الحكومة ومن مؤسسات المجتمع المدني. فقادة الجماعة الإسلامية فى مصر كلها — فى السجون – كانوا قد بدأوا نقاشا فى محاولة لانتهاج إستراتيجية جديدة رأوا أنهم فى حاجة ضرورية لها: إستراتيجية تقوم أساسا على اللاعنف والسعى وراء نتائج سياسية بالوسائل السلمية والانخراط فى الحوار المجتمعى، وفى الحياة السياسية المصرية بصورة قانونية. فلم يحقق لهم العنف أيا من أهدافهم عبر الست عشرة سنة الماضية، وكان على القادة المبعدين فى المنفى أن يدركوا حجم القبضة الحديدية التى تسيطر بها الدولة على مصر، وقوة الدولة وسطوتها ودفاعها بشراسة عن هيبتها. ولكنهم رفضوا عرضين لوقف إطلاق النار فور إعلانهم. أما فيما يخص الحكومة فقد كان لدينا اعتقاد راسخ أنه وفور أن تم الإعلان عن وقف إطلاق النار ستتولى هى زمام المبادرة وتقوم باتخاذ خطوات مهمة؛ ولكنها على العكس لم تفعل شيئا بل قامت بكل بساطة باحتقار تلك المبادرة . والمنظمات المدنية: ما الذى فعلته منظمات المجتمع المدني: النقابات؟ الاتحادات العمالية؟ منظمات حقوق الإنسان؟ الأحزاب السياسية؟، وحتى جماعة الإخوان المسلمين؟ لم يبذل أى من تلك المؤسسات جهدا يذكر لوقف العنف الذى ما فتئ يمزق الأمة، ويجعل من هذا البلد فريقين متقاتلين. قامت مؤسسة الأهرام فقط بعقد ندوة، وقد شاركت فيها، لمناقشة طلب وقف إطلاق النار، ولكن للأسف حتى اليوم لم تنشر شيئا على الإطلاق.

توقف لحظة ممسكا بلحيته ثم أضاف: « كانت أحداث الأقصر هى القشة التى قصمت ظهر البعير. هل من الإسلام فى شىء أن نقتل الأطفال والنساء ونبقر بطونهن؟ كنت دائما أحذر من جعل مصر جزائر أخري، ومن أن يأخذ الصراع فى مصر الشكل الجزائرى

العنيف. كنت دائما أخشى العواقب والتبعات وكنت أخشى من إمكانية تواردها فهناك شعور متزايد ومتصاعد من الكراهية مستشريا بين هؤلاء المطاردين الهاربين، سواء بين هؤلاء الموجودين داخل مصر أو القادة فى الخارج المسئولين عن الأعمال العسكرية وعن العنف الآن.فهم يتدبرون موقفهم فلا يجدون أمامهم سوى خيارين محددين: إما أن يتم أسرهم واعتقالهم وتقديمهم للمحاكمة أو أن يتم قتلهم على أيدى رجال الشرطة. هذا بالإضافة إلى التعذيب فى السجون» لم يقل أكثر من ذلك.

كان منتصر الزيات قد تم تعذيبه بقسوة وذلك قبل قضية اغتيال الرئيس السادات، والتى كان منتصر فيها واحدا من الثلاثمائة شخص الذين تم اتهامهم بالقيام بتشكيل تنظيم الجهاد والتآمر لقلب نظام الحكم. (وقد برَّأته المحكمة من تلك التهم). وقد كان فى السجن حين التقى منتصر الشيخ عمر لأول مرة. كان وقتها محاميًا شابا، وكان على وشك الانهيار العصبي، كما قال لى فيما بعد، كان قد تعرض للتعذيب لاثنتى عسرة ساعة متواصلة دون توقف.وجده الشيخ عمر منزويا فى ركن من أركان زنزاتهم فهمس الشيخ فى أذنه قائلا: «اعتمد على الله؛ لا تكن مهزوما». كان لتلك الكلمات القليلة مفعول السحر فى شد أزره.

أضاف منتصر قائلا: «يبدو أنهم لا يفهمون عقيدة الألم وعبادته التى يخلقونها».

سألت عن السيدات، من أمثال آمال فاروق والأربع الأخريات اللائى كن قد مثلن للمحاكمة أمام محكمة عسكرية، حيث ولأول مرة فى مصر تتم محاكمة سيدات أمام محاكم عسكرية أو توجه إليهن تهم ممارسة «أنشطة إرهابية» متصله بالإسلام السياسي». (تم الحكم على ثلاث من الأربع بينهن جدة، بالسجن لخمسة عشر عاما، لإدانتهن بتهمة تهريب السلاح تحت عباءاتهن ؛ والقيام بتوصيل الرسائل من وإلى القادة داخل السجون وأتباعهم فى الخارج). وقد تمت الدعوة لوقف إطلاق النار فى أثناء محاكمتهن.

قبل لقائى بمنتصر الزيات،كنت قد قمت بزيارة مهمة للدكتور سعد الدين إبراهيم، أستاذى السابق فى علم الاجتماع فى الجامعة الأمريكية، والذى قام بدراسة الحركة الإسلامية لأكثر من عشرين عاما، وسألته عن الأسباب التى أدت إلى مذبحة الأقصر، هل اليأس؟ التصعيد؟ رد الحكومة الساخر وانصرافها عن الدعوة لوقف إطلاق النار؟

أجاب الدكتور سعد: «كل الأسباب الواردة أعلاه، يضاف إليها الانقسام الحادث في داخل الجماعة نفسها: الانقسام بين المعتدلين -من شيوخ الحركة وهم الآن في أواخر الثلاثينيات والأربعينيات من العمر في السجن هنا- والمتشددين، القادة في الخارج وأتباعهم الذين يعملون تحت الأرض هنا. فمن الواضح أن المتشددين، الذين أدانوا الدعوة لوقف إطلاق النار ورفضوها وصوّتوا من أجل القتال حتى النهاية، قد وصلوا إلى نتيجة مفادها أن الطريق الوحيد والأوحد لمنع الحوار ووقف العداوات بين الجماعة وبين النظام هو ارتكاب هذا العمل الدرامي وتلك المذبحة القاسية، والتي ستجعل الحكومة في حالة غضب شديد وبالتالي ترفض دعوة إيقاف النار وأية مفاوضات للسلام. كان المتشددون يرغبون أساسا في توصيل ثلاث رسائل؛ إننا ما زلنا أحياء؛ وإننا نرفض الدعوة لوقف إطلاق النار؛ وأن هذا نظام لا يفهم لغة الحوار».

سألت منتصر الزيات إن كان يتفق ووجهة النظر تلك؟

أجاب قائلا: «أنا لست متشائما بصورة كلية بأن مبادرة وقف إطلاق النار قد ماتت وتم دفنها». ثم أردف قائلا: «إنه وبالرغم من أن تلك المبادرة قد تم رفضها من قبل القادة الفعليين للجماعة في أفغانستان،فقد كانت لديه اتصالات منذ حادث الأقصر مع رفاعي طه، ذلك المحاسب رقيق الكلام ومعسوله الذي كان يتبوؤ منصب أمير الجماعة في الخارج.

وقد وعدني بإصدار دعوة لوقف الأعمال المسلحة، بدون شروط مسبقة، ولمدة ستة أشهر،من أجل إعطائنا الفرصة لاستمرار مشاوراتنا غير الرسمية مع الحكومة».

سألته مفزوعة: «أية مشاورات؟».

وللمرة الوحيدة خلال حوارنا رد منتصر قائلا: «لا تعليق».

(علمت فيما بعد، أن تلك المشاورات -كما تسمى قضائيا تتعارض مع المحادثات الرسمية- التي كانت قد استمرت لعدد من الشهور ونتيجة لتلك المشاورات تم منح منتصر الزيات وصلاح هاشم، وهو مهندس كان أحد مؤسسي الجماعة، ليس فقط زيارات غير محددة للسجن من أجل التفاوض مع قادة الجماعة في الداخل، بل أيضا تم منحهم تأشيرات للسفر للخارج. وقد التقوا في لندن وهولندا بقادة الجماعة في الخارج بمن فيهم طه).

كانت آخر مرة تحدث فيها منتصر إلى طه فى يناير، وقد مر شهر على ذلك، ولم يصدر قادة الجماعة المقيمون فى أفغانستان أية دعوة لوقف إطلاق النار. ولكن ظل لدى منتصر أمل فى أن يقوم طه، صديق الزنزانة القديم، فى الرد وبصورة حتمية. قال منتصر « لم يزل الباب مفتوحا، لم يزل هناك أمل».

لقد بدأ بعض أعضاء الجماعة فى تحدى عناد طه وقائده العسكري، مصطفى حمزة، لم يقم أى منهما بزيارة مصر لأكثر من عشر سنوات. فمنذ اللحظة التى رحلا فيها للقتال فى أفغانستان، لم يعودا أبدا لمصر.

قبل مغادرتى سألت منتصر الزيات كيف سيمكنه شرح وتوضيح التصريح الذى كان قد صدر باسم طه وحمزة، والذى ادعيا فيه أن مذبحة الأقصر كانت قد بدأت كمحاولة لأخذ رهائن بغرض المساومة لإطلاق سراح الشيخ عمر والسجناء الآخرين من قادة الجماعة. إن الطبيعة المنهجية للقتل توحى بعكس ذلك تماما.

أطرق بوجهه وأراح لحيته بين يديه وتفكر للحظة. ثم رد قائلا: «كانت الأوامر الأصلية على حد علمى هى القيام بعملية من أجل أخذ رهائن خلال عرض (أوبرا فيردي) أوبرا عايدة فى الشهر الماضي». (فى عرض على ضوء القمر، استضافه الرئيس مبارك عند مقبرة حتشبسوت، وكان من بين الحضور مئات الشخصيات البارزة والمهمة، ذلك العرض الذى تم تحت حراسة ثلاثة آلاف رجل أمن).

استمر منتصر قائلا: «ولكن تلك العملية فشلت بسبب الإجراءات الأمنية المشددة. بعد ذلك، أنا لا أعرف ما الذى حدث. استنتاجي الوحيد هو أنهم ارتجلوا وقتلوا السياح بدلا من ذلك». توقف لبرهة وكأنه يريد انتقاء ألفاظه بعناية، ثم أردف قائلا: «إن هؤلاء الذين نفذوا عملية الأقصر قد قاموا بها كعمل انتقامي، ثارى ردا على قتل أستاذهم، المهندس سمير عبد المعطى والذى يوجد اعتقاد قوى أنه مات تحت التعذيب . وكان قد تم اعتقاله فى عام ١٩٩٦، وفى آخر مرة شوهد حيا كان يتم تعذيبه فى أحد أقسام الشرطة بواسطة رجال مباحث أمن الدولة فى الأقصر. جاءت أسرته إلى هنا وطلبت منى أن أجده وأعرف أين هو. وعندما استعلمت عنه من وزارة الداخلية تم إخبارى أنه قد تم إطلاق سراحه. ولكن لم يره أحد بعد ذلك. لذا لم يكن أمامنا الا افتراض واحد وهو أن يكون قد مات».

سألته: «من يكون سمير عبد العاطى هذا؟».

«مهندس ومعلم للقرآن. كان جنديا فى القوات المسلحة فى قوات الدفاع الجوي»- فى نفس المطار الذى أمر حسنى مبارك طياريه بالطيران إليه خوفا من تدميرهم من قبل اسرائيل إبان حرب عام ١٩٦٧ .

بينما هممت بمغادرة مكتب منتصر هابطة درجات السلم المتداعية المتآكلة ومنطلقة إلى الشارع، خطر ببالى أن المهندس سمير عبد العاطى كان جنديا وخطيبا فى نفس الوقت، ومحاربا ورجل دين.

كان محمود أحمد عبد الكريم شابا لامعا وذكيا: وكان فى الثالثة والعشرين من عمره، طالبا بكلية الطب جامعة أسيوط؛ كان نابغا ونابها فى دراسته وابن بلد كأهل جلدته، حيث إنه من أبناء محافظة قنا فى صعيد مصر- آخر منطقة خطرة عبر الطريق البالغ طوله خمسمائة ميل الذى يربط القاهرة بالأقصر، والذى كان مسرحا للمواجهات بين جيوش حسنى مبارك والشيخ عمر عبد الرحمن. المثير جدا للخوف فيما يخص عبد الكريم هو أنه كان شخصا عاديا جدا، وذلك طبقا لما قاله زملاء دراسته وأصدقاؤه. فلم تكن لديه أية اهتمامات سياسية؛ ولم يحدث أبدا أن تم استجوابه عن طريق الشرطة، كما حدث للآلاف من الشباب الملتحين فى أسيوط أو قنا عبر تلك السنوات. الشيء الوحيد الذى بدا أنه يحتل الأهمية الأولى عنده، على أساس الجدارة والعقلانية فقد حققه فى جامعة أسيوط تاركا قنا وراءه. ومثل الكثيرين من الطلاب الوافدين من القرى والنجوع البعيدة المنعزلة المجهولة الذين لديهم نفس الخلفية الاجتماعية، كان إحساس عبد الكريم بالألقاب عميقا.

أما عن الجامعة التى كان قد التحق بها قبل ثلاث سنوات، فهى أكبر وأقدم جامعة فى صعيد مصر، وهى أيضا الجامعة الأرفع مكانة بين جامعات الصعيد. تلك الجامعة المختبئة خلف جدران مجصصة عالية فى المدينة الصناعية التى تحوى مصانع للأسمنت ومنتجات الأغذية فى أسيوط، والتى كانت وللعشرين سنة الماضية المركز العصبى للجماعات الإسلامية المتطرفة المسلحة. وعندما قمت بزيارتها فى بداية عام ١٩٩٨، اكتشفت أنها لم تزل كذلك.

بينما كنت أتجول داخل الحرم المزود بإمكانيات جيدة عبر المروج الخضراء الخصبة كثيرة الشجر، شردت بفكرى إلى أيام دراستى عندما تم تحويلها بواسطة أنور السادات فى حملته الشعواء لتقويض اليسار. لأنه كان هنا فى جامعة أسيوط- على بعد مائتى ميل جنوب القاهرة، وعلى الجانب الغربى من نهر النيل- حيث ولدت تلك الجماعات الإسلامية المتطرفة التى نراها اليوم. فقد كان الشيخ عمر أستاذا هنا فى السبعينيات، عندما تم ولأول مرة تشكيل الجماعة الإسلامية. أيضا كان رفاعى طه ومصطفى حمزة ومحمد الإسلامبولى، وهم أسماء قليلة من كثير، جميعم كانوا تلاميذ للشيخ عمر وقادة طلاب الجماعة فى بداية تكوينها - ولم يكونوا ليختلفوا عن محمد عبد الكريم- كانوا من النجباء اللامعين فى تحصيلهم الدراسى فى أرقى الكليات وأعلاها مكانة وجذبا للطلاب. لقد كان فى جامعة أسيوط أكثر من أى مكان آخر حيث نشأ الإرث السياسى للجماعة الإسلامية.

لقد أتيت إلى هنا فى محاولة منى لاكتشاف محمد عبد الكريم واثنان آخران من أصدقائه من أيام دراسته الثانوية -عصمت عريان، وكان طالبا فى كلية الطب البيطرى عمره أربعة وعشرون عاما، وسعيد محمد شوقى فى الثالثة والعشرين من عمره، وكان يحضر دورات فى الجامعة كدارس للزراعة فى إحدى المؤسسات القريبة . فى صباح السابع عشر من نوفمبر كانوا قد ارتدوا القمصان والبنطلونات السوداء وحشدوا حقائبهم السوداء بالأسلحة البيضاء والذخيرة وأمشاط الأسلحة الآلية. بعدها ركبوا سيارة وساروا بمحاذاة النيل لما يقرب من ثلاثين دقيقة، من مسقط رأسهم فى مدينة قفط- تلك المدينة الصغيرة التى تتوسط المسافة بين قنا والأقصر- إلى مقبرة حتشبسوت. لقد دفنت أسرارهم والأسباب التى دفعتهم للقيام بهذا فى كهف بالصحراء.

أثمرت جميع المقابلات مع أصدقائهم ورفاقهم عن عدم التصديق .

عندما سألت سعد الدين إبراهيم عن اعتقاده ولماذا دائما صعيد مصر؟ ولماذا جامعة أسيوط بالذات ؟ أجاب بلا تردد: « الألم. إنه جرح مفتوح». ثم فكر للحظة وأردف قائلا: إن أكثر ما أربكه وزاد حيرته هو أن عبد الكريم وأصدقاءه لا ينطبق عليهم شكل ولا صورة المتطرف النمطى القياسية، الذى دائما ما ينشأ كنتيجة لليأس الاقتصادى والعوز والفقر

أو بإحساس أنه مهمش. فهم لم يكونوا أبدا جزءا من جيوش الخريجين العاطلين، ولم يكونوا حتى فى سن العمل أو من الذين واجهوا إحباطا فى بداية عملهم ممن كانوا يعتقدون أنهم نجحوا فى حياتهم نجاحا باهرا بدخولهم كلية من كليات القمة، ثم اكتشفوا بعد إكمال دراستهم أنهم لم يحققوا شيئا. لقد كان عبد الكريم ورفاقه فى ملابسهم السوداء لا يزالون يتقدمون للأمام ولم يرفضهم المجتمع بعد.

قال لى أحد الدبلوماسيين الغربيين: «هذا يجعلنى أتساءل، ماهى ديناميكية الجماعة؟ نحن ببساطة لا نعرف كيف تقوم بعملية التجنيد؟ ما هى مطالبها؟ فالشىء الذى كشفت عنه مذبحة الأقصر هو، أنه حتى هؤلاء الناس الذين لم يعرف عنهم أنهم أعضاء فى الجماعة المتطرفة قد يكونون متحمسين ومستعدين للتضحية بحياتهم فى سبيل إنجاز مشهد درامي. وهذا بالطبع شىء مخيف ومرعب».

فكرت فيما قاله الدبلوماسى الغربى وما قاله سعد الدين إبراهيم بينما كنت أغادر أسيوط فى تاكسى محلى، أكل عليه الزمان وشرب متوجهة إلى الأقصر ووادى الملوك، تلك المسافة التى تستغرق أربع ساعات بالسيارة . كنت أود التوقف وأنا فى طريقى فى القرى والمدن الصغيرة، ولكن لم يكن ممكنا. فقد تم السماح لى من الشرطة بالسفر عبر الطريق فقط لو وافقت على أن يتم اصطحابى باثنى عشر من الحراس المسلحين، الذين كانوا قد تكوموا بصورة عشوائية فى سيارتين من سيارات الأمن، واحدة فى الأمام وأخرى فى الخلف. كنت غاضبة. ولكن ومنذ لحظة وصولى من القاهرة إلى مطار أسيوط، وهم يحيطون بي. من الواضح أن شخصا ما قد أخبرهم أننى على متن الطائرة فأخذوا حذرهم. لم أكتشف أبدا من هو.

بينما كنا نسير بالقرب من الصحراء، سائرين بمحاذاة النيل على ضفته الغربية، كنت أتتبع طريقنا على خريطة كانت معي. تقريبا كل مدينة أو قرية مررنا بها أو- تجنبناها، طبقا لتعليمات الحراس – كانت مسرحا لمذبحة أو لاشتباكات أو أعمال وحشية عبر السنين القليلة الماضية، فى المعركة المستمرة التى لا يستحق أن يكسبها رجال الأمن أو المتطرفون.

كان يتم قتل الأقباط المسيحيين وذبحهم داخل الكنائس بواسطة المتطرفين المسلحين، كما كان يتم قتل الإسلاميين برصاص رجال الأمن داخل المساجد. والنسوة اللاتى لا يختلفن عن آمال فاروق تم اعتقالهن وتعذيبهن لإجبار أزواجهن على تسليم أنفسهم.كما اختفى المئات وربما الآلاف. أخْذ الرهائن أصبح هو القاعدة، حيث كان يتم اعتقال خمسين شخصا من أجل القبض على شخص واحد فقط. كما كان يتم فرض حصار على قرى بأكملها لأيام وأسابيع فى المرة الواحدة. تم وضع حقول قصب السكر تحت الأضواء الكاشفة أو إزالتها لمنع الإرهابيين الفارين من إيجاد مكان يأويهم.

قبل شهور قليلة فقط أصدرت الحكومة قرارا ألغت بموجبه سيطرة المستأجرين للأراضى الزراعية على تلك الأراضي، والذى كان الوسيلة التى استخدمها ناصر للقيام بإصلاحات واسعة النطاق. سمح هذا القانون أيضا لملاك الأراضى باسترداد أملاكهم المؤجرة وطرد الفلاحين منها، تلك الأراضى التى كانت فى السابق تبقى تحت يد المستأجر إلى الأبد، ويقوم بتوريثها لأولاده وأحفاده من بعده. تم وقتها التنبؤ بانتفاضة لم تحدث من جانب الفلاحين حتى الآن.بينما كنت أرمى ببصرى عبر الحقول من نافذة التاكسى الذى كنت أستقله. كان من السهل أن أعرف لماذا تظل الأرض فى قلب سياسات مصر واقتصادها: إنها الثروة والغنى والكرامة والكبرياء والسمعة والصيت. وبحلول وقت سريان هذا القانون فمن المتوقع أن يتأثر فدان من كل خمسة أفدنة منزرعة. وستتأثر سلبا الموارد الرئيسية، وتتعرض لخطر كبير أرزاق مليونين من الفلاحين المؤجرين لتلك الأراضى، الذين يمثلون وعائلاتهم عشرة بالمائة من سكان مصر.

اندلعت بالفعل الاحتجاجات العنيفة عبر صعيد مصر فى الجنوب وفى الشمال أيضا: وتم وضع الجمعيات التعاونية تحت الأضواء الكاشفة؛ وتم إغلاق الطرق؛ وتم منع القطارات من المرور حيث أشعل الفلاحون النيران فى السكك الحديدية. وبنهاية عام ١٩٩٧ كان قد تم قتل أكثر من عشرين فلاحا -البعض منهم لقى حتفه فى الاحتجاجات وآخرون فى سجون الشرطة- وتم اعتقال نحو الألف من الفلاحين الذين رفضوا تسليم أراضيهم.

وطبقا لوجهة نظر الناشط الحقوقى عبد المولى إسماعيل من مركز الأرض لحقوق الإنسان، وهى مؤسسة تؤيد المؤجرين ومقرها فى القاهرة، حيث قال إن المستفيد الأخير من هذا القانون المثير للجدل لايمكن أن يكون سوى المتطرفين الإسلاميين، لأنه عندما يتم طرد الريفى أو الفلاح المصرى من أرضه ولا يمكنه إيجاد فرصة عمل فلن يكون أمامه سوى الانضمام لصفوف أعداء الحكومة. أما الشىء المساوى فى الأهمية هو أنه وفى غمرة المشاركة فى معارضة القانون الجديد، تحالف اليساريون والناصريون مع الإسلاميين واتحدوا معا مرة أخري.

استمرت مسيرتنا على الطريق السريع، تسلمنا الحقول والمزارع والصحارى للقرى والمدن الصغيرة ببيوتها وجدرانها المبنية من الطوب اللبن، ومن ثم إلى تمدد حضرى لشبكة من العمارات بلون ورق السنفرة مصممة على الطراز الستاليني. تنتشر القمامة فى شوارعها المخددة المشققة والوحل الذى يتميز به شهر يناير تم امتصاصه أو هزمته السحب الترابية المتلاطمة. إضافة إلى الأسلاك الكهربائية وأعمدة الإنارة، لم تكن هناك أية إشارات أو دلالات أن المنطقة قد مسها شىء من مظاهر القرن العشرين وأحدث أى تغير فيها .

الصعايدة أو الجنوبيون، وهم سكان مصر العليا أو صعيد مصر الذين يعيشون على ذلك الشريط الأخضر الضيق الذى يحتضن النيل، والممتد من القاهرة فى الشمال إلى أسوان فى الجنوب، هم أفقر الفقراء فى مصر وأقل المصريين فى نسبة التعليم وأعلاهم فى نسبة الأمية،بل وأبعدهم عن سيطرة الدولة . والصعايدة أناس قساة متصلبو الرأى يعيشون طبقا لتقاليد راسخة مبنية على الثأر وعدم احترام القانون والعداوات الدامية. ومثل حى القاهرة الناطق بالفقر، مثل إمبابة، أحد أحياء القاهرة، فصعيد مصر –حيث يعيش ثلث سكان مصر– منطقة مهملة وتم تجاهلها من قبل الحكومات المصرية المتعاقبة. فهى لا تقدم سوى القليل من الوظائف والأقل من الخدمات وتتحرك الحياة فيها بنفس الإيقاع الذى كان موجودا منذ خمسة آلاف سنة فى العصور الفرعونية.

فى طريقى رأيت جاموسا مرقطًا (وأسود) يقوم برفع مياه النيل عن طريق إدارة رافعة خشبية غليظة (السواقى) كما كانوا يفعلون منذ آلاف السنين. كانت تلك الحيوانات تدور معصوبة العينين فى دوائر لا نهائية كما لو كانت فى غيبوبة أو فى حالة من النشوة. شاهدت أيضا رجلا أحدب يجر محراثا عبر حقول عطشى وجافة. كان يتحدث معه أحد تجار السلاح بحدة -على الأقل قال سائقى إنه تاجر سلاح يطل من سيارته المرسيدس بينز المكيفة الهواء. كان الطلاب يعلقون ملصقات معادية لأمريكا وصور صدام حسين على الجدران المبنية بالطوب الأحمر. شاهدتُ نسوة عائدات من الحقول حاملات حزما من الحطب أو الغلال أو منتجات الحقول الزراعية أو جرار الماء فوق رؤوسهن.

عندما وصلنا إلى محافظة قنا حيث مسقط رأس محمود عبد الكريم وأصدقائه، لم أكن مندهشة على الإطلاق، لأنها ليست الزيارة الأولى، أو على الأقل الأسرع عبر المدن والقرى المصرية، التى توفر التربة الخصبة لتزويد الجماعات الإسلامية المسلحة التى تعمل تحت الأرض بمجندين من الشباب المتقدى الحماس .

توقفنا للمرة التاسعة أو العاشرة عبر رحلتنا، فى قنا، حيث كان حراسى يتجادلون فيما بينهم عمن كان سيقوم باصطحابى فى الجزء الباقى من رحلتى إلى الجنوب. ولأنى كنت قد تعبت من الجلوس فى باحات الوقوف الكئيبة فى أقسام الشرطة الأكثر كآبة فى وسط المدينة، لذا فقد غادرت التاكسى وذهبت للتجول عبر بعض البازارات المفتوحة فى الناحية الأخرى من الشارع. كانت وجوه التجار والمتسوقين قد تصلبت وذبلت من تأثير الشمس الملتهبة، وتساءلت: ترى أى واحد من هؤلاء ينتمى للجماعة. ربما يكونون جميعا منتمين بصورة أو بأخرى.

تعتبر قنا بكل الحسابات من أكثر المحافظات تجاهلا من الحكومة، ومن أكثر المحافظات المنسية فى صعيد مصر- فهى مكان ينطق بالحزن والكآبة، وتقع فى وسط الصحراء حيث تعيش الأسر فى وحدات ممتدة واسعة محاطة بصورة مستمرة بمناظر الأسلحة : حيث يكون ملاك الأراضى دائما (الإقطاعيون) قساة متحجرين ومتوحشين، والفلاحون البسطاء مجرد عبيد؛ وحيث تحيا النساء حياة مهمشة خلف الحرملك ومن خلف حجاب،

بينما الرجال فى الحقول يكدون ويتعبون ويسافرون إلى الأسواق القريبة لبيع محاصيلهم من الحنطة والبطاطس وقصب السكر على ظهور جمالهم وبغالهم.

لم أكن بحال من الأحوال أول رحالة أجنبى يتجول عبرالمدينة. فقد سبقنى إلى هنا فلوبير (Flaubert) فى خمسينيات القرن التاسع عشر لمشاهدة معبد قريب وبدلا من ذلك وجد ماخورا. ولكنه أبى وتمنع وكما كتب فيما بعد لكى «أحافظ على الحزن الجميل الذى كان يغلف المشهد وأحفره بعمق فى ذاكرتي». كذلك قد أتت إلى هنا فلورانس نايتنجيل (Florence Nightengale) والتى قامت بزيارة المعبد بالفعل، ولكنها كتبت فيما بعد أن «معبد دندرة معبد مبتذل داعر ومغرور وتغطيه أفدنة من النقوش ضئيلة البروز، تلك التى لا يجد أحد الرغبة فى فحصها ولمسها». تساءلت ما هو شعور القرويين أهالى قنا الذين ينتمون لهذا القرن حين يحملقون فى السياح الأجانب من خلف جدرانهم الطينية.

ومع ذلك كان هناك شيء آخر كتبته فلورانس نايتنجيل بعد أن شقت طريقها ببطء عبر المعبد، وهو من أكثر الاشياء التى بهرتنى . لأنه كان ملائما فى وقته كملاءمته الآن: « من الواضح جدا أن تلك القوة التى كانت للكهنوت المصرى قد تم منحها لهم عن طريق الروح الكامنة فى الناس، الذين يمثل الدين كل شيء لهم». لم يكن بعيدا عن معبد دندرة، وفى أحد مساجد مدينة قنا حيث التقى عبد الكريم وأصحابه بمعلمهم سمير عبد المعطى رجل الدين العسكرى. بدأنا ونحن تحت الحراسة الأمنية المشددة فى السير فى الطريق الصحراوي. حاولت استدعاء كل تلك التأملات العشوائية العرضية التى سبق وسمعتها عن المسلحين الثلاثة أصحاب الملابس السوداء. فقد كانوا بالطبع قد تلقوا دروسهم فى القرآن على يدى نفس المعلم، كما أنهم كانوا أصدقاء منذ دراستهم الثانوية. كانوا جميعا ينحدرون من أسر تنتمى للطبقات المتوسطة أو الدنيا. كان قد تم شنق واحد من أصدقائهم فى عام ١٩٩٣، وذلك بعد محاكمة عسكرية روتينية. تم فرض حظر التجوال على قريتهم كنتيجة لهذا الاعتقال لشهور عدة، كما تم اعتقال العشرات من سكانها من الشيوخ والنساء والأطفال فيما أطلق عليه بصورة معبرة «العقاب الجماعي».

تم القبض على بسطاوى عبد المجيد وهو يمسك ببندقية آلية فى يده فى مسرح الأحداث عام ١٩٩٢، فى كمين تم نصبه فى قنا لحافلة سائحين من الألمان. ولم يكن لدى أحد من ققط الرغبة فى القول، عندما وصل رجال المباحث، ما إذا كان بسطاوى صديقا للثلاثة رجال المسلحين أصحاب الملابس السوداء أم لا. جرح فى هذا الحادث خمسة من الألمان بجروح طفيفة وساد الرعب والهلع. بعد ثمانية أشهر من تلك العملية، كان عمر بسطاوى قد بلغ الثمانية عشر، واحد من سبعة شبان -كانوا جميعا من قنا تقريبا- الذين قام عشماوى بشنقهم واحدا تلو الآخر، وتم تنفيذ الحكم بعد الفجر بقليل.كانت أكبر عملية إعدام جماعية فى الذاكرة المصرية. فعندما قام خالد الإسلامبولى باغتيال الرئيس السادات فى العرض العسكري، مصعِّدا من المخاوف من قيام ثورة على الطراز الإيرانى على ضفاف النيل، تم إعدام خمسة فقط. خمسة فقط فى اغتيال رأس الدولة ورمزها! لم يقم عبد الكريم ولا أحد من أصدقائه بقتل أحد بصورة فعلية.

تلك هى قنا، حيث قضى عبد الكريم وأصدقاؤه وآلاف آخرون مثلهم فى المحافظة كلها سنواتهم الأولى.

إنه لمن المستحيل أن تعرف ما الذى شاهدوه أو فعلوه. فقنا ليست بالمكان الذى يرحب بالغرباء أو الأجانب. فلديها سمعة لشريعة حاسمة من الكبرياء والشرف اللذين يقضيان بأن الانتقام يكون على قدر ما اقترف من أذى أو خطأ. لديها شعور بأنها مكان ضئيل صغير لا يوجد به سوى ثلاث أو أربع حدائق حزينة بائسة، وحيث لايوجد مكان آمن للاختباء. ومنذ عام ١٩٩٣ كانت قنا، عل نحو متقطع ولمدة خمس سنوات -مثل الكثير من مناطق صعيد مصر- مع كل القرى والمدن المحيطة بجدرانها المبنية من الطوب اللبن، مكانا تحت الحصار. وكان الجنود المسلحون يطوفون شوارعها الترابية الضيقة بحاملة الجنود المصفحة الأمريكية، كما أن مبانيها الحكومية كانت تحت حراسة الشرطة يرتدون خوذات من القصدير، ومسلحين تسليحا جيدا ومعزولين عن عالم قنا خلف سواتر مرتفعة من أجولة الرمل .

علقت فيرجينيا شيرى (Virginia Sherry) وهى عضو فى منظمة هيومان ريتس ووتش متسائلة «ما الذى يجعل قنا مختلفة، هل لأن الغلاف القمعى سميك جدا لدرجة تمكنك من تحسسه وقطْعه بسكين. فقد تم وضع قرى بأكملها تحت حصار مع تكرار الاجتياحات الأمنية، تم أيضا هدم صفوف كاملة من البيوت ليست أكثر من أكواخ طينية. تم حرق الفدادين من حقول القصب. وبالطبع لم يتم صرف أية تعويضات للفلاحين، تم تدمير أرزاق الناس». فكرت للحظة ثم أضافت قائلة: «إن المثال الأقرب الذى يخطر ببال المرء هو سياسة الأرض المحروقة الفيتنامية».

فكرت فيما قالته بينما كنا نغادر قنا تاركين حدودها وراءنا منطلقين عبر الطريق الصحراوى نحو وادى الملوك والأقصر. هل تم تجنيد عبد الكريم وأصحابه فى جامعة أسيوط بواسطة قائد خليتهم مدحت عبد الرحمن الذى كان حديث العودة من أفغانستان؟ أو بالأحرى هل كان هؤلاء الشباب القفطيون ينتمون لجماعة إسلامية منشقة غير معروفة انضموا إليها، أثناء دراستهم الثانوية، فى مكان ما فى التلال الجرداء القاحلة بالقرب من وادى الملوك؟

بدأت أضواء مدينة الأقصر تتلألأ متراقصة فى الأفق واستدار حراسى وتركونى. نظرت إلى الخارج من نافذة التاكسي، إلى الصحراء المظلمة الموحشة على جانبى السيارة، وأدركت ساعتها أنه ربما لن يعلم أحد أبدا.

ولكن خطر ببالى أيضا بنفس الثقة، أن هناك آلافًا، فى قرى الصعيد الطينية ومدنها الصغيرة، أماكن صغيرة تحيط بضفاف النيل، ربما يقومون يوما ما بالتنفيس عن غضبهم بنفس الوحشية التى رأيناها فى مذبحة الأقصر.

تساءلت أيضا ما إذا كان عبد الكريم والخمسة رجال الآخرون فى الملابس السوداء، الذين كانوا قد وصلوا لمقبرة حتشبسوت على متن سيارة بيجو زرقاء اللون، يحملون حقائبهم التى تحوى علب الكوكاكولا، كانوا على معرفة وعلاقة بعبد الحارث مدني، ذلك المحامى الشاب القاهرى والذى تم تعذيبه حتى الموت بواسطة رجال مباحث أمن الدولة. أتصور أن هناك احتمالا كبيرا أنهم كانوا يعرفونه، حيث إن قريته المتانة ليست ببعيدة عن

فقط. كان عبد الحارث مدنى من أول من ترك قريته إلى القاهرة، حيث حصل على ليسانس الحقوق. ينظر إليه الكثير من شباب المنطقة على أنه مثال جدير بأن يحتذي. وعندما تمت عملية إعادة جثمانه إلى المتانة عن طريق مباحث أمن الدولة وتم دفنه فى قبر غير معروف، تولّدت لدى الكثير قناعة مفادها أن خياراتهم كانت محددة جدا أكثر حتى مما كانوا يعتقدون.

حقق هؤلاء الذين أخرجوا ونفذوا مذبحة الأقصر أهدافهم القصيرة المدى : فقد تضرر الاقتصاد المصري؛ كما أن حكومة مبارك تضررت أيضا. انتهى الموسم السياحى بلا سياح وربما يستمر هذا الوضع لمواسم أخرى عديدة قادمة. وها هى الأقصر وكذلك وادى الملوك بلا سياح الآن .

وها هى القوارب السياحية التى يبلغ عددها نحو ٢٧٥ قاربا، قد تم ربطها جميعا منذ شهور. وهى تلوث منظر ضفاف النيل على مدى البصر؛ فهياكلها المطلية باللون الأصفر والأزرق والأبيض، قد بدت للعيان وكأنها أصداف بحرية مهملة على شاطئ مهجور. كما أن فنادق المدينة الفاخرة ذات الخمسة نجوم تعمل بنسبة إشغال لا تزيد على خمسة أو عشرة فى المائة. نحو نصف مليون من سكان الأقصر يعملون بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى تجارة السياحة، كما أن التقديرات تقول إن نحو عشرة ملايين من المصريين كانوا من العاملين بأعمال تتصل بصناعة وتجارة السياحة حيث إن السياحة، لم تكن فقط المصدر الأول للعملة الصعبة فى مصر؛ إذ كان من المتوقع أن تدر ثلاثة بلايين دولار عام ١٩٩٨، كانت مصر فى أمس الحاجة إليها. وكان الهبوط العمودى لثرواتها يمكن أن يخفض بصورة كبيرة النسبة المئوية لمعدل النمو الاقتصادى والذى كان من المتوقع أن ينمو بمعدل ٥٪ سنويا. بفضل التدخل واسع النطاق عن طريق صندوق النقد الدولى تمكن الاقتصاد المصرى المحتضر من أن يبدأ فى التحول والتبدل وقد وصل لافضل حال له عبر سنين طويلة. كل هذا بالطبع قبيل مذبحة الأقصر. وكان أيضا قبل الهجوم الذى حدث قبل شهرين من المذبحة حين تم إلقاء قنابل الجازولين وإطلاق النار على حافلة سياحية أمام المتحف المصرى التى قتل فيها تسعة من السائحين الألمان؛ والذى سبقه هجوم آخر حين تم إطلاق النار على ثمانية عشر سائحا يونانيا كان معظمهم من كبار السن، ولقى جميعهم

حتفهم، وكان هذا الحادث أيضا فى القاهرة قبل ثمانية أشهر من حادث المتحف، وبالقرب من الأهرامات.

ولكن مذبحة الأقصر كانت بحق نقطة التحول، ليس فقط من ناحية تدميرها للاقتصاد المصرى، لكن فيما ألحقته من أذى وما تركته من جرح غائر فى نظام حكم مبارك المحاصر بصورة متزايدة، والذى لا يدعمه سوى الجيش. حيث إن المذبحة التى تمت عند مقبرة حتشبسوت أثارت مخاوف جديدة فى واشنطن وأيضا فى عواصم العالم الأخري، عن الوجهة التى تتجه إليها مصر وعن استقرارها مستقبلا وعن هويتها الحقيقية. حيث إن بقاء الجماعة الإسلامية الكامل يقوض جهود مصر من أجل تصوير نفسها على أنها القوة الكبرى المسيطرة فى العالم العربي، وحليف واشنطن الأكثر استقرارا فى منطقة الشرق الأوسط، فى وقت كانت أمريكا تحتاج فيه للدور المصرى من أجل دفع عملية السلام المتحجرة بين إسرائيل والفلسطينيين إلى الأمام. رغم أن تلك االخصائص هى التى جعلت نظام مبارك يبدو بمثل هذه الجاذبية للولايات المتحدة، والتى جعلته عبر السنين مثارا للشك من قبل مواطنيه، الذين ينظرون إلى الدور الأمريكى فى الشرق الأوسط ويرونه كأبعد ما يكون عن أن يكون دورا مرضيا، وهو الدور الذى من خلاله تستمر واشنطن فى إظهار عدم التوازن المدهش فى تعاملاتها مع إسرائيل والعالم العربي. ومن وجهة نظر كثير من المصريين، أن أمريكا سلمت جدلا بأن العرب تحت السيطرة، وافترضت أنه يمكن لحكوماتهم السيطرة عليهم . ولكن مذبحة الأقصر- بالإضافة إلى المظاهرات اليومية المعادية لأمريكا والمؤيدة لصدام حسين، ذلك التأييد المتزامن مع التهديدات الأمريكية بضرب بغداد مرة أخري- أظهرت بما لا يدع مجالا للشك أن مبارك لا يستطيع أن يمثل لأمريكا هذا الدور.

يبدو غالبا لعدد متزايد من المصريين سواء الإسلاميين أو غيرهم أن أمريكا لا تلوِّح بسجل مصر المشين فى مجال حقوق الإنسان إلا عندما تكون غاضبة من فشل مبارك فى الإنعان والقبول بأولويات واشنطن الإستراتيجية فى المنطقة.

كانت مذبحة الأقصر وقفة نهائية ملائمة لرحلتى عبر عالم التطرف الإسلامى فى مصر.وقد كنت قد أتيت لأول مرة إلى القاهرة فى سبعينيات القرن الماضي، عندما

برزت للوجود تلك الحركة أيضا وهى الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد، وذلك عندما بدأت الحركة الإسلامية القديمة، الإخوان المسلمين، فى تحويل نفسها إلى صوت معتدل للسلام السياسى فى مصر. فالأحداث التى وقعت عام ١٩٧٩ –معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، وانتصار الثورة الإسلامية بقيادة الخومينى فى إيران، والاجتياح السوفيتى لأفغانستان– قد غيرت وإلى الأبد، الصورة الشرق أوسطية. ولولا أحداث عام ١٩٧٩ لكان من المستحيل تقريبا أن تحدث مذبحة الأقصر، لأنه، وكما أن تلك الأحداث شكلت كل شيء آخر، فقد شكلت كذلك عالم الإسلام المتطرف فى مصر. فقد وحدت المعارضة لمعاهدة السلام فى كامب دافيد كلا من الإسلاميين والماركسيين ولأول مرة، وقد وسع هذا التوحد القاعدة العلمانية للإسلاميين بصورة واضحة ومهمة. لقد شجع انتصار الخومينى الإسلاميين وأعطاهم جرأة أكثر. كما أن حساباتهم فى البنوك الأجنبية قد أخذت فى التضخم نتيجة مباسرة للتمويل السعودى والخليجى غير المسبوق، والذى بدأ –كما بدأ تدريبهم على أحدث الأسلحة وتأسيسهم لشبكات دعم منتشرة فى أرجاء الكون– أثناء الجهاد فى أفغانستان.

المفارقة أن القوة المفرطة للجماعات الإسلامية فى منتصف التسعينيات. سواء المعتدلة أو المتطرفة، هى التى أجبرتهم بصورة أكبر على العمل تحت الأرض. وعلى ممارسة العمل السرى ومحاولة التخفي، لأن تلك القوة هى التى دفعت الحكومة للتعجيل باتخاذ إجراءات أمنية مشددة وصارمة. لأنه فى نظام سياسى منغلق مثل نظام مبارك فى مصر وفى معظم بلدان الشرق الأوسط، تلك الأنظمة التى تتباهى بطول مدة بقائها فى السلطة، وأنهم أصحاب أطول فترة حكم فى العالم –مما يجعل لهم حصانة من المحاسبة أو العقاب على أفعالهم وجرائمهم التى ارتكبوها فى حق شعوبهم– فليس هناك مكان للمنشقين. وعلى ذلك فكما تصاعدت قوة الإسلاميين واستطاعوا إحكام السيطرة على الاتحادات المهنية والنقابات والاتحادات الطلابية والمدارس عبر انتخابات نزيهة وحرة، وعبر اختراقهم للقضاء والمصالح الحكومية والأعمال الفنية الإبداعية، ازداد فزع نظام حكم مبارك الأوتوقراطى. لذلك حدث القمع والاعتقالات والتعذيب والمحاكمات. وفى مثل هذه الحالات يندفع الرعب والإرهاب ليصلا إلى أقصى مدي.

ولهذا السبب كانت مذبحة الأقصر نقطة تحول مرة أخري: ليس فقط لأنها كانت نذيرا بأجندة عنيفة مهلكة لا سابق لها من قبل، ولأنها بينت بوضوح يدعو للإحراج إلى أي مدى تم تهميش القادة التقليدين بما فيهم مبارك. ولكن ربما يكون من الأهمية بمكان، ما أعقب المذبحة، من كشف الانشقاقات المتصاعدة داخل مؤسسات مبارك الأمنية وبصفة خاصة بين جيشه وعناصر شرطته بصورة لم يسبق لها مثيل. فقد غضب ضباط الجيش لأن المذبحة حدثت لأن قوات الأمن رغم كل المعدات غالية الثمن عالية التكنولوجيا التى زودتهم بها أمريكا، ورغم التدريبات الراقية فقد جلسوا فى خمول وكسل على الضفة الشرقية للنيل لحماية جنرالاتهم الذين يسكنون الفيلات الجديدة ويركبون السيارات الفارهة الجديدة. لقد أتت قوات الأمن الى صعيد مصر لتمثل قوة حماية ليست للناس ولا للسياح، ولكن لجهاز الأمن التى هى جزء منه.فقد تم إغداق الأموال عليهم والسلطة أيضا، وتم منحهم رخصة بقتل الإسلاميين الذين يعملون تحت الأرض أثناء قتالهم معهم. تحول كل واحد منهم إلى فرعون صغير. وجاءت مذبحة الأقصر تمثل فشلا ذريعا وضخما من جانبهم، فشلا يتساوى فى ثقله مع هزيمة ١٩٦٧، المهينة التى لحقت بالقوات المسلحة المصرية على يد إسرائيل فى حرب الأيام الستة. لأن الذى أدى إلى المذبحة ونكسة عام ١٩٦٧- وهى مؤلمة بدرجة شديدة على الكثير من المصريين- لم يكن ثقلها أو فظاعتها، لكن حقيقة أن أحدا لم يتوقعها.

قبل مذبحة الأقصر بسنة تقريبا أخبرنى أحد الإسلاميين بأنه كان هناك سيناريو لارتكاب مثل هذا العمل الوحشى الصارخ لإثارة الجيش، الذى يظل الداعم الحقيقى لحكم مبارك، ليتدخل على أسس حماية الأمن القومى ويقوم بقلب نظام حكمه . لذا ففى عصر يوم قبل الذهاب إلى صعيد مصر، وبينما كنت أجلس مع الدكتور سعد الدين إبراهيم فى مكتبه فى مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية الواقع على تلال جبل المقطم والمطل على ضواحى القاهرة، سألته إن كان هذا التفسير معقولا لتلك المذبحة؟

ابتسم ورد قائلا: «هذا بالضبط هو ما اعتقده مبارك». واستمر قائلا: لأنه وللمرة الثانية فقط منذ أن استولى الضباط الأحرار على السلطة فى مصر فى عام ١٩٥٢، قام

مبارك بإرسال لواء عامل إلى الأقصر، برتبة محافظ عادة. كما قام أيضا بتعيين ثلاثة لواءات آخرين فى مناطق مهمة فى الجنوب. «لذا فقد حصل الإسلاميون على شىء قريب مما أرادوه»، واستمر قائلا: «ولكن ليس بالطريقة التى أرادوها. ولكن مبارك أدخل الجيش ليستولى على السناريو الخاص بهم. فقد رمى بالكرة مرة أخرى فى ملعبهم؛ وهو بذلك، وإلى حد ما، يقتحم قلعتهم».

لا أستطيع أن أفهم أو أجزم ولكنى أتساءل: ما الذى اعتقده الجيش فى حرب العصابات الدائرة الآن فى صعيد مصر بين قوات الأمن والمتطرفين الإسلاميين. ففى وقت قريب فى أكتوبر ١٩٩٦، وفى أثناء معركة استمرت لشهر كامل فى جبل سوهاج، رفض الجيش أن يقدم دعما لقوات الأمن،التى تعرضت لعشرات من الإصابات، كما كان قد أخبرنى أحد الدبلوماسيين الغربيين فى ذلك الوقت. ولم توافق قيادة الجيش على التحرك إلا بعد تدخل الرئيس مبارك شخصيا، إذ أُرسلت طائرات الهليوكبتر لإخلاء رجال الشرطة.

مرتان فقط فى تاريخ مصر الحديث -فى عام ١٩٧٧ أثناء أحداث الشغب التى اطلق عليها انتفاضة الخبز والمرة الثانية فى أحداث الشغب التى قام بها جنود الأمن المركزي- تم استدعاء الجيش المصرى وإنزاله إلى الشوارع من أجل حماية رئاسة الدولة. وكان مبارك دائما حريصا طوال السنوات الماضية على عدم الزج بالجيش فى الصراع الدائر بين قوات أمنه والإرهابيين الإسلاميين. ولكن الآن ومع التعيينات التى قام بها فى الجنوب، فقد تم الزج بالجيش ثانية، لكن فى نطاق ضيق ومختلف، ولكن فى نطاق شديد الأهمية.

بينما كانت مناقشاتنا مستمرة، ابتسم سعد الدين مرة أخرى وأخبرنى قائلا: «هل تعرفين أن، ما يبدو ظاهرا على السطح أن مبارك هو الذى قام بتغيير وزير الداخلية (الذى تم إجباره على الاستقالة بعد مذبحة الأقصر). الحقيقة هو الإسلاميون وليس مبارك. فقد تم تغيير ثلاثة وزراء للداخلية بسبب شىء كان قد فعله الإسلاميون».

«إنه العداء الدامى المستشرى بين الإسلاميين المتطرفين تحت الأرض من جهة، وبين قوات الأمن من جهة أخرى هو الذى أدى إلى مذبحة الأقصر، ولكن الذى أفرخ تلك العداوة الدامية هو الشيء الأكثر أهمية. وعلاقة الإسلام بهذه الجريمة تتضاءل كثيرا بالنسبة

لتأثير المظالم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، التى وفرت للإسلاميين نفوذا ما كانوا ليحصلوا عليه بأى طريق آخر. وأنا مازلت مقتنعة أن هذه الحركة ومنذ ولادتها قبل سنين كثيرة مضت هى فى الأصل ظاهرة اجتماعية اقتصادية – وحتى علمانية إلى حد ما. ويمكن رؤية انفجار نوفمبر الإرهابى فى الأقصر كاتهام للطريقة ذات البعد الواحد التى ردت بها حكومة حسنى مبارك».

تولد لدى عدد متصاعد من المفكرين المصريين بينهم سعد الدين قناعة مفادها: أن الطريق الوحيد لوقف دائرة العنف –والخوف من تكرارهذا العمل– لن يكون إلا عبر الحوار وتقاسم السلطة والذى يبدأ مبارك فيه بالعمل مع الجماعات التى تنبذ العنف. عندها فقط سيكون من الممكن عمليا وسياسيا عزل الجماعات الإسلامية الإرهابية التى تعمل تحت الأرض. من رأى الإخوان المسلمين ورأيى أنا أيضا أنه يجب أن يتم منح الشرعية لجماعة الإخوان المسلمين وإلغاء الحظر المفروض عليها، كما يجب أن يقوم النظام باختبار صدق نية الجماعة فيما يخص وقف إطلاق النار. ربما تكون مذبحة الأقصر قد جعلت الأمر شديد الصعوبة ولكنها جعلته أكثر إلحاحا أيضا.

قال سعد الدين: «الإسلاميون واقفون على الباب يقرعون، يقرعون بشدة وجنون طالبين الاحتواء، الاحتواء فى عملية صنع القرار وعلى الحكومة أن تفتح لهم وتدعهم يدخلون. كان هناك تماثل مع أوربا القرن السادس عشر؛ ونحن، كمسلمين متخلفون أربعة قرون. يجب على الدولة أن تحتوى الجميع ليعملوا معا؛ فهى دولة قوية –لسنا إحدى جمهوريات الموز– وستسود الدولة. ولكن ومنذ عام ١٩٧٤ ومع التمرد الذى حدث فى الكلية العسكرية وبداية ظهور (الطائفة الإسلامية المتطرفة) جماعة التكفير والهجرة، رأينا نفس الأسلوب ونفس الطريقة: إذ تؤخذ الحكومة دائما على حين غرة فتفاجأ بهجوم إرهابى عسكرى فترد الحكومة، وتسيطر. ويسود هدوء نسبى لسنة أو لسنتين ولكنه فقط هدوء مؤقت، وذلك لأن الدولة لم تعالج الأسباب الجذرية للثورة، ولم تتعاط مع الأمر من جذوره بل سطّحت المشكلة. لندع الباب مفتوحا: لنتخيل حدوث تبادل للأدوار، دع الإسلاميين المصريين ليصبحوا المسيحيين الديمقراطيين فى ألمانيا . لقد حدث هذا فى الأردن وتركيا

واليمن ولبنان. فعندما قاد الإخوان المسلمون حركة المعارضة اعتمادا على انتخابات ١٩٨٤ و١٩٨٧ -رغم أنه لم يكن من المسموح لهم التمثيل البرلماني، ولكن تنافست على مقاعد بدلا من ذلك متحالفة مع أحزاب اشتراكية أو وسطية معلنة- تحت قبة البرلمان المصرى كان أداء الجماعة رائعا ومعتدلا جدا. إنه الوقت المناسب ليسمح النظام لها بالمشاركة فى العملية السياسية والعملية الاقتصادية. يجب أن يتم جذبها ووضعها واحتواؤها فى الاتجاه السائد للحياة المصرية. ثم فكر للحظة وأضاف: «لأنه إذا لم يحدث هذا فإن الحرب سوف تستمر وكما حدث وهزم جيشنا عام ١٩٦٧، وعاد وانتصر عام ١٩٧٣، فهناك بعد جديد متضمن فى الجماعات المتطرفة السرية: فهم أقوى وأكثر حنكة وخبرة وتنظيمًا لديهم قدرات عسكرية وتسليحية أكثر مما كانوا يملكون. يجب أن يتم عزلهم وتتم عزلتهم، وذلك لن يتم سوى بفتح الباب على مصراعيه أمام المعتدلين ليدخلوا».

ولكن جزءا كبيرا من المشكلة يكمن فى أن مبارك لا يرى أية فروقات سياسية بين الإسلاميين. لدى مبارك فكرة راسخة ضد تلك الجماعات وهو يجمعهم دون تمييز ولا يفرق بين جماعة وجماعة، مُصرًّا دائما على أنهم جميعا أتوا من نفس الخيمة «هذا ما قاله لى أحد السفراء الغربيين». فهو غير مستعد مطلقا للتمييز بين المتطرفين والمعتدلين. يخبرنا المصريون أنه لو تم إجراء انتخابات حرة، فإن الإسلاميين سوف يفوزون. يقولون لو قامت الحكومة ببيع القطاع العام وألقوا بالعمال فى الشارع ستكون هناك مظاهرات وأحداث شغب وسيربح الإسلاميون دعما أكثر. كما أخبرونا أنه لو تم تخفيض العملة فسوف ينهار اقتصادهم وسيربح الإسلاميون مرة أخري. -توقف لحظة- «وكل هذا صحيح».

علق على ذلك الصحفى اليسارى محمد سيد أحمد ذات مساء، من وجهة نظره: إن خوف مبارك من الإسلاميين المعتدلين أكبر بكثير من خوفه من الإسلاميين المتطرفين. «قال سيد أحمد موضحا»: إنه يراهم كحصان طروادة وتعرف حكومته جيدا أنهم أفضل الأحزاب تنظيما فى مصر، وأنهم مؤهلون ليكونوا حزب الأغلبية لو جرت انتخاباتنا حرة ونزيهة، وإذا لم تتم معاملة الإسلاميين المعتدلين بطريقة مختلفة. فعندما التقيت الرئيس مبارك آخر مرة فى معرض الكتاب، وأراد أن يسمع وجهات نظرى المتعارضة، فأخبرته

أنه وبدلا من الهجوم على الإسلاميين كان يتوجب عليه أن يقيم حوارا بناء معهم. فرد بخشونة، قائلا: «لن أقبل أبدا أحزابا دينية!» وأجبته إننى بصفتى يسارية، كنت ضد تكوين أحزاب دينية من حيث المبدأ، ولكنهم قدموا أصولا ومرونة. لو سمحنا للإخوان المسلمين دع الأقباط يكوِّنون حزبا لهم. وسينجز الطرفان اتفاقا دستوريا، وسوف تري. فكر مبارك للحظة ورد قائلا: «لن أكرر التجربة الجزائرية هنا!» لقد بدا وكأنه لا يستوعب حقيقة أن الأحداث فى الجزائر حدثت لأن الإسلاميين تم طردهم من العملية السياسية، بعد وقفة قصيرة استمر قائلا: «إذا كان ولابد أن يكون هناك تغيير فلابد وأن يأتى عن طريق ضغط،أو حكمة، للجيش المصري. وقد حدث لمرتين فقط عبر النصف قرن الأخير أن تدخل الجيش للوصول لنتائج سياسية: كانت الأولى بواسطة جمال عبد الناصر وكان اشتراكيا، أما الثانية فقد كانت بواسطة الملازم خالد الإسلامبولي، وكان إسلاميا».

كان هناك الكثير من المصريين الذين اعتقدوا أن الوقت قد حان لجيشهم -وهو أرفع المؤسسات المصرية مكانة وهيبة- ليعبر عن نفسه سياسيا، طالما أن مبارك يرفض أن يشاركه أحد فى السلطة. فقد أصبح نظامه خاملا وبليدا بصورة متزايدة .وعلى الرغم من تعييناته العسكرية فى صعيد مصر والتى تلت مذبحة الأقصر ووسعت بصورة طفيفة قاعدة النظام، فكان ذلك غير كاف للكثيرين. ومع ذلك فإن المشكلة الرئيسية لهذا السيناريو هو أنه لم يكن أحد يعرف أين يقف الجيش؟ فقد صارت العسكرية، بما فيها هيئة الضباط، قد أصبحت عبر السنوات الأخيرة، أكثر محافظة فى هيئتها. لكن بدلا من معرفة ذلك، ملنا جميعا لقراءة أوراق الشاي: كم عدد اللواءات الذين أدوا فريضة الحج؟ كم عدد المحجبات من زوجاتهم؟ لأن اللواءات فى مصر يكرهون مناقشة وجهات نظرهم مع الأكاديميين أو المفكرين أو مع الدبلوماسيين الغربيين، وقد كانوا بالتأكيد ينفرون من مناقشتها مع الصحافة أو من يمثلها.

من أجل ذلك قررت رغم إحساسى بقليل من الخوف والقلق، زيارة اللواء سلمى سليم، رئيس المجلس الأعلى لمدينة الأقصر والمعين حديثا، والمحافظ الفعلى.

كانت الأقصر قد أصبحت قبل سنوات قليلة مدينة مستقلة بذاتها، ومن هنا كان اللبس من العنوان الذى تم إطلاقه عليه بعد تبوئه لهذا المنصب. فهو تقنيا واصطلاحيا رئيس مجلس مدينة، ولكن المنصب والوظيفة مثلها كمثل المحافظ ويحمل الرتبة الوزارية. كان يمكن أن يكون من الإساءة بمكان أن تطلق على سابع أكبر رتبة عسكرية فى القوات المسلحة المصرية لقب عمدة أو رئيس مجلس مدينة. لذا فقد كان قد تقرر أن يكون لقب اللواء سليم رئيس المجلس الأعلى لمدينة الأقصر. ومنذ وصوله ونتيجة لهذا اللبس فقد قامت سكرتارية مكتبه بطبع ثلاثة كروت (بطاقات عمل) مختلفة فى غضون شهرين.

واللواء سليم رجل عسكرى مهنى بالفطرة، وقد كان فى أواخر العقد الخامس من عمره، وكان آخر مناصب خدمته قبل الأقصر، قائدا للمنطقة العسكرية المركزية ومقر قيادتها فى القاهرة. كان رجلا نشيطا وملتزما فى أداء الواجب، لذلك حظى باحترام وتبجيل كبيرين فى وظيفته. كان جنديا بمعنى الكلمة، ويعتبر واحدا من أفضل اللواءات فى الجيش المصري. كان رجلا طويلا ومتناسقا بصورة جيدة، يمشى مشية الجنرالات، عندما تحرك من مكتبه ليحييِّنى مسلما باليد. دعانى بعدها للجلوس على أريكة وثيرة بجوار كرسيه الذى جلس عليه.

كانت قوات الشرطة وقبل أسابيع قليلة قد فتحت نيرانها على أهالى قرية الجورنة، نفس القرويين الذين خاطروا بحياتهم عندما طاردوا الإرهابيين المسلحين فى ملابسهم السوداء إلى وادى الملكات، لإجبارهم على تنفيذ أمر حكومى بهدم المنازل غير القانونية القريبة من المواقع الأثرية. وقع القتال يوم السابع عشر من يناير أى بعد شهرين فقط من مذبحة الأقصر. وقد تم التعامل مع القرويين كأنهم إرهابيون وذلك من قبل رجال الشرطة. تم خلال المواجهات قتل أربعة من القرويين وجرح تسعة وعشرين، بينما كانوا يحاولون حماية منازلهم بإلقائهم الحجارة على رجال الأمن. لم يكن للبوليس وجود عند مقبرة حتشبسوت؛ وها هم الآن قد أظهروا رغبة فى رد فعل مبالغ فيه. كان اللواء سليم غاضبا جدا. وقد نقل عنه أنه صرح للصحافة المصرية بأن اليد الثقيلة للشرطة والتى ضربت بقوة لم تحصل على تفويض باستخدام القوة المفرطة، والعنف الشرطى لم تتم إجازته، وأعلن

أن تلك الأحداث كان المقصود منها إحراجه. بدا واضحا للعيان أن الاحتكاكات بين شرطة مبارك وجيشه فى تصاعد مستمر.

لذا سألت اللواء: إلى أى حد ساءت العلاقة بين الجيش والشرطة؟

رد بدون إجابة: «أظن أننى قلت ما يكفى فى هذا الموضوع». وابتسم.

قلت: «ولكنك بالتأكيد يجب أن تعترف أنها مثلت فشلا ذريعا من جانب الشرطة---»

قاطعنى قائلا «أنت قلتها،لا أنا».

واستمر فى الحديث قائلا: «إن تعيينه، بعد أسبوعين من مذبحة الأقصر كان مفاجأة كبيرة له، وقد تم منحه أربعًا وعشرين ساعة فقط للاستقالة من الجيش، المكان الذى خدم فيه لخمسة وثلاثين عاما، والذى من خلاله سافر وتنقل فى كل بلاد الدنيا، حيث حصل على تدريبات فى أرقى المدارس العسكرية فى العالم بما فيها الكلية الحربية كارليسلى فى بنسلفانيا . قال إن ابنه وهو ضابط فى الشرطة كان يعلمه عمل الشرطة».

قلت له: «جرت العادة على أن منصب محافظ الأقصر دائما كان من نصيب المدنيين سواء كانوا من ضباط الشرطة المتقاعدين أم لواءات الجيش المتقاعدين أيضا، وقد كنت أنت لم تزل فى الخدمة. هل يدل تعيينك على أنه سيكون للجيش دور أكثر أهمية فى عملية صنع القرار؟ فى مسألة حفظ القانون والأمن والنظام فى صعيد مصر؟».

فكر للحظة ثم رد قائلا: «اسألى الرئيس».

قلت فى إصرار: «ولكن لو قام الجيش باتخاذ القرارات فما الذى ستفعلونه؟».

رد قائلا: «إن مثل تلك المذبحة، أقصد الجانب الوحشى وغير الإنسانى، يمكن أن تحدث فى أى مكان، وتحت أسماء ومسميات مختلفة، وسواء أكانت تلك الجماعات دينية أم غير دينية فهم خارجون على القانون. لقد حدثت هنا هذه المرة؛ وحدثت من قبل فى الولايات المتحدة . ويجب أن نتحد جميعا ونوحد جهودنا ضد الإرهاب وضد كل من يقدم العون لتلك الجماعات سواء كان هذا الدعم ماديا أم عن طريق توفير الحماية أو أماكن للاختباء والهروب. يجب أن يتوقف القادة فى إنجلترا وبيشاور وأفغانستان والسودان والولايات المتحدة عن توفير أماكن آمنة لهؤلاء القتلة».

سألته: «لذا فأنت ترى المشكلة وتعتبرها مجرد مسألة أمن وقانون ونظام» ؟

قال: «إطلاقا لا. فقد كانت الحكومة قد أهملت الصعيد لسنوات طويلة. والمشكلة الآن ليست مشكلة أمنية فقط. وهى مشكلة معقدة. وهى مشكلة اقتصادية واجتماعية».

تملكتنى الدهشة مما سمعته. فهذا ما اعتقدة الكثير من أصدقائى المصريين وأنا، ولكنه كان معاكسا تماما للتصريحات الرسمية لحكومة مبارك.

أضاف اللواء سليم قائلا: «لا توجد حادثة ولا مشكلة لها سبب واحد. إنما عدة عوامل تجتمع معا، وما يجب أن تتم مخاطبته ومعالجته هو الجذور التى تسبب هذا الاحتقان. وما يثير فضولى دائما هو: لماذا دائما وأبدا كان الجنوب، ليس فى مصر فقط وإنما أيضا فى الولايات المتحدة وإيطاليا وإسبانيا. دائما ما يكون هناك اختلاف بين الشمال والجنوب. فالشمال يعيش فى غنى ورفاهية أما الجنوب ففى فقر مدقع. ولكن فى مصر الفرق والخلاف بين الشمال والجنوب أكثر سوءا بصورة واضحة».

طلب اللواء شايا وقهوة ولكنه لم يشرب شيئا وقال موضحا، إنه صائم حيث إننا كنا فى شهر رمضان.

قبل مغادرتى سألت اللواء سليم: كيف رأى من وجهة نظره كرجل عسكرى دعوة الجماعة لوقف لإطلاق النار، تلك الدعوة التى تجاهلتها الحكومة تماما واحتقرتها. هل كان يجب أن يتم التعامل معها بجدية أكثر ؟ هل كانت هناك حاجة ماسة للتفاوض؟

أجاب قائلا: «مهما كان ما كنت أعتقده وأراه من قبل، فلا أعتقده الآن، ليس بعد مذبحة الأقصر . الأقصر هى الحد الفاصل . العنف يدمر لا يبني. والأقصر كانت شيئا جديدا بصورة كلية. شيئا لم نعهده من قبل. فلم تسبق لنا رؤية مثل هذا العنف منذ (الكاهن الأكبر) لآمون». والذى أدى اغتصابه للعرش إلى تقسيم مصر وفصل شمالها عن جنوبها عام ١٠٨٥ قبل الميلاد. صمت اللواء سليم لبرهة ثم أردف قائلا: «يمكن أن يتم الحوار الآن مع هؤلاء الذين نبذوا العنف وتخلوا عن أفكارهم المتطرفة. أما أى شخص يساند أو يدعم العنف، لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون طرفا فى أية مفاوضات. لذا فإن ما أريد قوله هو، كخطوة أولي: دعيهم ينبذون العنف؛ دعيهم يلقون أسلحتهم. وبعدها ليأتوا إلى مائدة

المفاوضات. فى الديمقراطية هناك خلافات وتباينات فى الآراء، درجات كثيرة من الفكر. والديمقراطية يمكنها استيعاب كل التيارات. والديمقراطية لا تعنى أبدا أن تفرض أفكارك على الآخرين. فأنت تتحدث وتناقش وتتفاوض. والمصريون يكرهون العنف وينبذونه. لذا يجب علينا التفاوض ؟».

كل شخص تقريبا قابلته فى مصر حكى لى قصة محزنة أو كان له طلب أو رجاء: أريدك أن تجدى لى ابنى أو أبي. أو أعيدى أرضى إليّ. سمعت نفس القصص والحكايات مرات ومرات. لأن الناس فى صعيد مصر، أكثر من أى مكان آخر على هذه الأرض الموغلة فى القدم، يتم تمزيقهم كل يوم بين القمع الحكومى الرسمى والتطرف المتأسلم. ومن الصعب بمكان أن تقرر أو تعرف أى الجانبين يخيفهم بصورة أكثر، لكنى استنتجت، بعد سماعى لقصصهم ورواياتهم، أنهم يخافون قوات الأمن أكثر من الإسلامين، تلك القوات القادمة من الشمال: جيش محتل، من وجهة نظرهم، ذلك الجيش الذى لا يتحدث جنوده ولا ضباطه لغتهم ولا يفهمون مخاوفهم ولا يعرفون اهتماماتهم.

ظلت وجوههم محفورة وواضحة فى عقلي، عندما أوشكت رحلتى إلى عالمهم على الانتهاء.أتذكر تلك المرأة العجوز فى الجورنة،التى كانت ترتدى عباءة سوداء،وكان يؤطر وجهها العظمى النحيل حجاب أبيض، تلك المرأة التى سألتنى سؤالا بليغا بينما كنا نجلس فى أحد المقاهى الصغيرة فى عصر يوم من أيام شهر يناير: أى الجانبين أسوأ؟ فقد قتل الإرهابيون المتطرفون السائحين وحرموا ابنى من مصدر رزقه، حيث كان يعمل فى أحد البازارات. وأحرقت قوات الأمن مزرعة زوجي. فقد كنا نملك أقل من فدان، وكان هذا كل ما لدينا. لماذا لم يكتفوا فقط باقتلاع قصب السكر؟ أو إزالته نهائيا؟ لماذا تم حرقه وتدمير الأرض معه؟ وها هى الأرض قاحلة وأصبحت أرضا بورا. ولن ينمو فيها أى شيء لموسمين على الأقل.

أتذكر أيضا وجه ذلك الشاب الصغير ربما فى السادسة عشر من عمره. فقد كان طالبا فى المرحلة الثانوية.الذى ارتدى ذات يوم قميصا أسود وبنطلونا وسافر إلى معبد آخر أو إلى مطار أو إلى موقع أثري. ذكرنى بشاب آخر كنت قد التقيته من قبل فى إحدى

المحاكم العسكرية فى القاهرة، بعد أن بدأت المرحلة الأخيرة من رحلتى مباشرة. كان أيضا فى السادسة عشر من عمره، وكان يرتدى جلبابا أبيض ويمسك القرآن فى يده، وهو واقف خلف القضبان داخل أحد الأقفاص الأمنية الحديدية. كان قد تم اتهامه فى نفس القضية مثل بسطاوى عبد المجيد، الهجوم الذى استهدف حافلة السياح الألمان فى قنا قبل ست سنوات. قال لى حينها «لا تسألينى عما فعلته. ولكن اسألينى لماذا فعلته». تم إعدامه شنقا بعد شهور قليلة.

عندما أستعيد كل هذه الوجوه الآن، وأستعيد القصص والروايات التى كنت قد سمعتها منها، يزداد يقينى بأن الشباب الستة المسلحين أصحاب الملابس السوداء الذين ذهبوا إلى مقبرة حتشبسوت، وارتكبوا مذبحة الأقصر ليسوا إلا الجيل الثالث من الثورة، التى كانت قد بدأت أيام دراستي. كانوا صغارا جدا على الاشتراك والتورط فى اغتيال السادات؛ كانوا أيضا صغارا جدا على المشاركة فى الحرب الأفغانية. وتساءلت متحيرة: إلى متى ستستمر تلك الحرب وما إذا كانت ستطول أبناءهم أم لا؟

ولكن عندما أنظر إلى الخلف إلى أحدث رحلاتي، عبر القرى والمدن الصغيرة فى صعيد مصر، أتذكر مكانا يسمى أبو شوشة، وهو من أكثر الأماكن التى أتذكرها. إنه مكان كئيب وحزين ومنسى يبعد عن حدود قنا نحو خمس عشرة دقيقة تقريبا، يحتضن السلسلة الجبلية فى سوهاج. كنت قد وصلت إلى هناك بمرافقة حراسى من رجال الأمن بعد الغروب بقليل. كان فى موعد تناول الصائمين لإفطارهم. عندما اقتربنا من نقطة تفتيش أبو شوشة أسرعت سيارات الحراسة التى كانت برفقتي. لم يكن الرجال القائمون على الحراسة فى نقطة التفتيش على علم بقدومي؛ كانت أجهزة اللاسلكى معطلة، ولم تكن لديهم أوامر. لذا لم يتم السماح لى بالمغادرة بدون « حماية مناسبة» وعلى ذلك فقد مكثت لساعتين وعشرين دقيقة فى وسط اللامكان واللاشىء، كان مكانا موحشا خاليا من كل شىء وليست فيه سوى قسوة الفضاء المفتوح وما من شىء تراه. حولك سوى كشك للخضر والفاكهة ومسجد ذى طلاء جيرى على الجانب الآخر من الشارع.

كنت قد سمعت الكثير عن مفاسد رجال الأمن الذين لم أكن لأستطيب قضاء المساء معهم. وفى لحظات يأسى ومللى بدأت فى عدهم؛ كان هناك اثنان وثلاثون. أتوا على كل الأشكال وبكل الأحجام، كان بعضهم بالزى المعتاد لرجال الشرطة؛ وبعضهم بعدة وعتاد الحرب (من القوات الخاصة على ما أعتقد)؛ كان لا يزال هناك رجال فى ملابس مدنية معظمهم فى جينز أسود، يرتدى نظارات ريبان بالغة السواد رغم أن الليل فى الصحراء ليل بهيم شديد الإظلام . كانوا يشتركون جميعا فى صفة واحدة هى العجرفة .

كانت أجهزة اللاسلكى التى بحوزتهم أمريكية، كما كانت كذلك سيارات الجيب وسيارات الدورية، تلك الزرقاء الموضوع على جوانبها المدافع. لا أستطيع الجزم إن كان القصد منها مواجهة الطريق السريع أم المسجد؟

قال لى أحد الضباط: إن شرطة قنا رفضت أن تعبر حدود محافظتها وترافقني، وأن الشرطة التى كانت برفقتى تركتنى هنا وذهبت لتناول الإفطار فى منازلهم . أصبحت واحدة من أطول الأمسيات فى حياتي. وقد تم وضعى لحسن الحظ فى «حجرة الحبس الاحتياطي».

بينما كنت أنتظر كان الخفراء والحراس يأتون من الصحراء والحقول القابعة خلفنا تماما ليعيدوا أسلحتهم للرجال أصحاب البنطلونات الجينز. كنت قد سمعت من قبل أن قوات الأمن تقوم بتسليح مثل هذه المجموعات، كما كانت قد سمعت بذلك منظمات حقوق الإنسان فى القاهرة، ولكنهم لم يستطيعوا التأكد من وجود مثل تلك العصابات المسلحة، الذين يتجولون فى الجبال والصحارى ممسكين بالقانون فى أيديهم. ها هم الآن مروا من أمامى واحدا وراء الآخر: رجالا مسنين ببنادقهم وشبابا معهم السياط والهراوات؛ آخرين يحملون المسدسات. بالطبع كانوا سيعودون فى الصباح ليستعيدوا أسلحتهم.

نظرت عبر الطريق إلى الصحراء،صامتة وفارغة الآن. كانت هناك أضواء متلألئة من بعيد ناطقة بوجود قرية خلف المكان. كانت الأصوات الوحيدة التى تتناهى للأذن عبارة عن صوت الرياح وصوت المؤذن داعيا المؤمنين لصلاة العشاء من المسجد الصغير. كان رجال الأمن يتبخترون مختالين للأمام وإلى الخلف، يوقفون العربات، والشاحنات، وسيارات النقل التى كـانت تقوم بنقل الفواكه والخضروات، بما فيها الكميات القليلة

من قصب السكر التى نجت من المحارق، إلى الأسواق البعيدة فى القاهرة. كانوا يقومون بتفكيك المركبات تقريبا، بدون داع وبلا ضرورة، على ما أظن، بما فيها سيارة كان يقودها عجوز وكانت سيارة مكشوفة الظهر. طلب منه أحد رجال الأمن أن يفرغ حمولتها. بدأ الرجل العجوز الأحدب فى إفراغ حمولته من عيدان القصب واحدا بعد الآخر، ويضعه على الطريق. كان يتحرك بجسده الصغير بانتظام وتواتر لأعلى ولأسفل. فرغ المسجد من المصلين ووصل إلى المشهد نحو عشرين رجلا فى ثيابهم البيض وطواقيهم البيضاء، ووقفوا فى الجهة الأخرى من الطريق طاوين أيديهم على صدورهم، وانضم الجميع ليشاهدوا الرجل العجوز المنحنى وهو يفرغ حمولته من قصب السكر.

صرخ فيه رجل أمن فى ملابس من الجينز قائلا: «أسرع، أسرع».

ناضل الرجل محاولا الإسراع ولكنه انزلق وسقط على الأرض.

ركله رجل الأمن: «لقد قلت لك أسرع».

عندها فقدت أعصابى وصرخت فيه: «توقف عن هذا».

التفت إلىّ رجل الأمن بملابسه الجينز ونظارته الريبان وضحك.

كنت قد كرهته من أول لحظة رأيته فيها وتساءلت؛ إن كان كل رجال الأمن الذين أتوا إلى الجنوب من الطراز الفرعونى الاستعمارى مثله.

كان قد ألح علىّ لحظة وصولنا، أن أنضم إليه فى ثكناته لكنى رفضت، قائلة: إننى أفضل البقاء فى التاكسي،أو الوقوف على قارعة الطريق، وهذا ما فعلته بينما كان الليل يمر.

فكرت قائلة: يا له من أمر ساخر. لقد تم الترحيب بى فى الكثير جدا من البيوت المصرية. وشاركت الكثير من الناس قصصهم ورواياتهم وحياتهم. وها أنا أقف الآن وحيدة فى صحراء مخيفة، وعلى طريق صحراوى فى آخر رحلة لى إلى مصر، فى مكان يدعى أبو شوشة، مكان لا أود زيارته مرة أخري.

فكرت فى كل الناس الذين قدموا لى يد المساعدة عبر رحلتى الطويلة. بالطبع كانت السيدة بينيبيكر قد ماتت، ولكن لا أثر لقبرها. كما أن نادين اختفت، ربما فى مكان ما هنا

فى صعيد مصر -أتمنى أن تكون سعيدة فى زواجها وسط أطفالها- محصنة فى وكر مدفع رشاش. اختفى أيضا عبد النبى خليفة ذلك العربى الأفغانى الذى كنت قد تمنيت لقاءه فى مستشفى قصر العيني. وظل فى السجن كل السجناء الذين أخبرنى بهم عبد النبى خليفة ومعهم آلاف آخرون.

نظرت عبر الطريق إلى الناس الذين أتوا من المسجد الذين كانوا واقفين فى صف مستقيم محملقين إليّ وأنا أقف وحيدة. عندئذ عبر أحدهم الطريق وقد كان رجلا عجوزا ذابلا بلحية بيضاء وأعطانى برتقالة.

وقال لي: «مع السلامة».

كانت رياح الصحراء قد أصبحت قاسية البرودة وقارصة أيضا. كان رجال الأمن يجلسون حول سخانات كهربائية تدار بواسطة محوِّل تم إمدادهم به من الولايات المتحدة الأمريكية. أنصت فى صمت إلى الصحراء؛ حتى صمتها له صوت. عندئذ رأيت ولدين صغيرين يغادران كشك الخضر والفاكهة المجاور، حاملين مقعدا خشبيا. قاموا بجره عبر الطريق السريع إلى المكان الذى كنت أقف فيه. نظر إليّ الولد الأكبر بينهم الذى كان يبلغ السادسة من العمر تقريبا وقال لى «اجلسى يا مدام،من فضلك اجلسي».

المؤلفة فى سطور

مارى آن ويفر

كاتبة صحفية وباحثة متخصصة فى شئون جنوب شرق آسيا والشرق الأوسط، انضمت إلى أسرة تحرير مجلة "النيويوركر" كاتبة ومراسلة صحفية ١٩٨٧، وزارت ثلاثين دولة على مدى العشرين عامًا الأخيرة.

– ودارت معظم المقالات التى نشرتها فى النيويوركر حول ظاهرة صعود المد الجهادى الإسلامى فى أماكن مختلفة – غير متوقّعة – مثل سلطنة بروناى وبنجلاديش، وفى أماكن ربما يمكن التنبؤ بها مثل باكستان، ومصر، والضفة الغربية وقطاع غزة. وقد التقت ببعض زعماء الدول الإسلامية العلمانيين مثل بناظير بوتو، رئيسة وزراء باكستان السابقة، وحسنى مبارك، الرئيس المصرى، ثم سلطان بروناى، وياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية، ورسمت لهم بقلمها بروفايلات، كما ناقشتهم فيما يشغلهم بخصوص جماعات الإرهاب الإسلامى.

المترجم فى سطور:

نشأت باخوم

- مدرس لغة إنجليزية، حاصل على شهادة الليسانس فى الأدب الإنجليزى، له محاولات إبداعية فى كتابة الشعر، ترجم ثلاث مسرحيات هى "تتمسكن حتى تتمكن" تأليف أوليفر جولد سميث و "رابطة الدم" تأليف أوتول فيجارد، ثم مسرحية "طرطقة الجليد" لدافيد بنر، بالإضافة إلى مسرحية "الغنيمة" تأليف جوى أورتون تحت الطبع بالمركز القومى للترجمة.

المراجع فى سطور

نسيم مجلى

- كاتب مسرح وناقد ومترجم له مؤلفات عديدة مثل "لويس عوض ومعاركه الأدبية"، "أمل دنقل- أمير شعراء الرفض" وكتاب "حنين ابن إسحق وعصر الترجمة العربية، ومن مسرحياته "القضية" و"المجنونة" .

- ترجم عددًا من الكتب المهمة منها "كافكا" و"محاكمة سقراط" و"العصر الذهبى للإسكندرية" وكتاب "كيف نقرأ ولماذا "بالإضافة إلى ترجمة ست مسرحيات لشاعر نوبل النيجيرى وول وشوينكا. وكلها منشورة فى المشروع القومى للترجمة.

المقدم فى سطور

محمد عفيفى

- أستاذ دكتور ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

- حصل على جائزة الدولة التشجيعية لعام ٢٠٠٤، وكذلك جائزة الدولة للتفوق فى العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠٩ .

- وعضو العديد من اللجان العلمية: لجنة التاريخ للمجلس الأعلى للثقافة ولجنة الترجمة بفرع التاريخ بالمركز القومى للترجمة، واللجنة العلمية للمتحف المصرى الكبير، وكذلك متحف جمال عبد الناصر، وله العديد من المؤلفات العلمية.